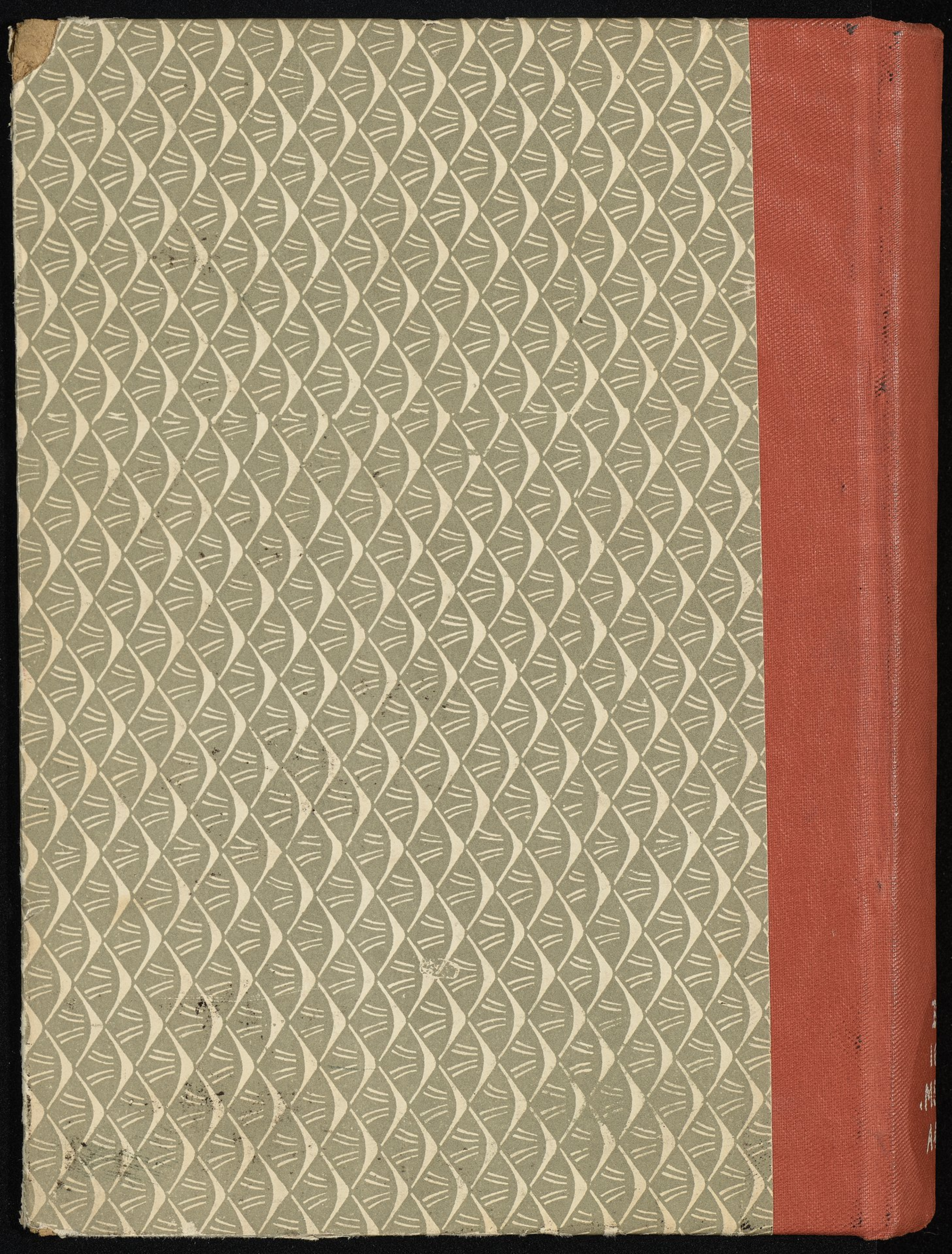
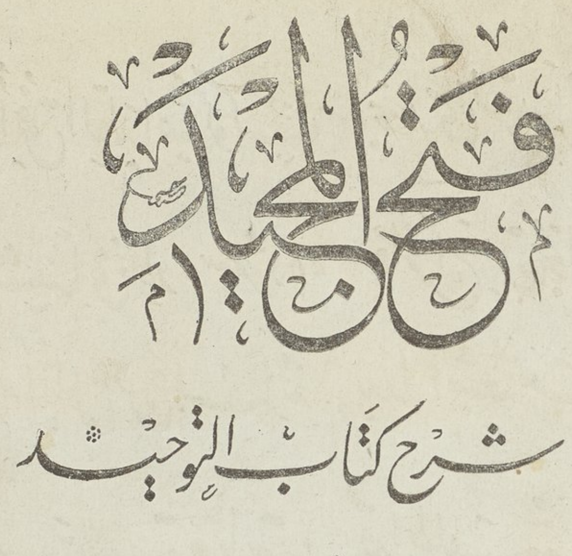




شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

المتوفى سنة ١٢٥٨ هـ

تفضل بالأمر بطبعه على نفقته وتوزيعه احتسابا لوجه الله

صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة السعودية
الأمير الأجل سعود بن عبد العزيز

أطال الله حياته لخير الاسلام فى ظل جلالة والده المعظم

بتحقيق

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية – من علماء الأزهر الشريف

(الطبعة الرابعة بمطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر – سنة ١٣٦٢)

قد لاح في أفق الطباعة كوكب ... يهدي السبيل فيستضيء المذهب

وجرى حثيثاً في مدار «سعوده» ... فانزاح من جو العقائد غيهب

«فتح المجيد» أطل من عليائه ... بدراً أشعة هديه لا تغرب

لبداية همة وثابة ... قد أطلعته، وعزمة لا تغلب

ومن ابن نجدتها وناسج بردها ؟ ... إلا «سعود» وهل كوالده أب

من معشر حفظوا العقيدة غضة ... من أن يدب إلى حماها عقرب

وقفوا أمام عدوها بصدورهم ... مستعذبين مواردا لا تعذب

توحيد رب العالمين رغيبة ... هتف الغلام بها ونادى الأشيب

حتى أتى «عبد العزيز» فأينعت ... منه الجزيرة شرقها والمغرب

فأعاد للبلد الحرام مقامه ... وزكا بحكمته المقام الطيب

محمد صادق عرنوس

طائر السعد والسعود تبدّى … عند ما تم طبع «فتح المجيد»

رافع الصوت شادياً بثناء … مستطاب، ومدحة «لسعود»

الأمير العظيم، ذاك المفدّى … بنفوس وطارف وتليد

ولي العهد عن رجاحة عقل … وصفات تسلسلت عن جدود

يا ابن «عبد العزيز» هذا صنيع … لك، قد صار في سجل الخلود

أنت للناس قد نشرت كتاباً … هو في النفع غاية المقصود

قد حوى أفضل العلوم جميعاً … وهو توحيد ربنا المعبود

مورد للهداة عذب زلال … وشجى في حلوق أهل الجحود

يا سليل الملوك، يا ابن إمام … ملأ الكون من سنا التوحيد

انشر العلم ما حييت، فهذا … شأن آبائك الملوك الصيد

عبد اللطيف بن ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مقدمة الطبع ﴾

الحمد لله (الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

وأنا كذلك أشهد أن لا إله إلا هو ، وأن كل ما يعبد الناس من دونه و يتخذون من أولياء وشفعاء ووسطاء يتقربون اليهم بأنواع القربات ، و يعطونهم من قلوبهم أعظم العبادة وأخلصها : خوفا ورجاء ، و يلجأون اليهم فى شدائدهم ورخائهم ، و يدعون الناس الى عبادتهم ، و ينصرونهم بكل ما أوتوا ، وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبهم واذا ذُكر أولئك الموتى والآلهة إذا هم يستبشرون : أشهد أن كل ذلك شرك وظلم عظيم وعبادة للطواغيت . أبرأ إلى الله منه ، وأقول ماقال إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى و يسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله) فأكمل الله بهذا الرسول الأكرم محمد ﷺ ـ الدين وأتم به النعمة ، وأقام به الملة ، وهدى من الضلالة ، ولم يقبضه اليه حتى ترك شمس الهداية الاسلامية مشرقة ﷺ

وما زال أمر الناس فى تمام ، والأمة الاسلاميـة فى عز واستعلاء ، ودولة الاسـلام نافذة السلطان ما كانوا مستمسكين بحبل الله ومعتصمين بعروته، ومهتدين بهدى إمام المهتدين عليه الصلاة والسلام ، حتى كاد الشيطان وحزبه لهم وعملوا على تقويض بنائهم و إذلال سلطانهم ، فلم يجدوا لذلك معولا أقوى من إرجاعهم إلى الوثنية ، و إعادتهم إلى الجاهلية ، فما كان عزهم واستعلاؤهم إلا من عز القلوب باخلاص عبادتها لله ، وتحررها من أغلال الذل والعبودية لغيره باسم الأولياء والتبرك بآثارهم وقبورهم . فأسرع المعاول هدما لعزة هذه القلوب هو صرفها عن هذا التوحيد الخالص و إعادتها الى عبادة أولئك الموتى والرجوم ، ونزع أيديهم من حبل الله الذى

جمع قلوبهم وجعلهم كلمة واحدة على عدو الله وعدوهم ، فتألفت لتنفيذ ذلك الجماعة الباطنية من فلول اليهود والمجوس الذين هم أشد الناس عداوة لله ولرسوله وللذين آمنوا ، فكان من آثار هذه الجماعة قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أولا ، ثم كانت فتنة عثمان وقتله ، والحرب بين على ومعاوية ، وقتل الحسين بن على

كل ذلك كان بتحريك أصابع هذه الجماعة لنيران الفتنة وإيقادها حتى انتهت بذلك الشر المستطير ، ثم كان لها فروع انبثت فى البلاد الاسلامية تفت فى عضد الاسلام وتنقضه عروة عروة ، فكان من فروعها فرع فى بلاد البربر بالمغرب الأقصى مازالوا يخدعون أولئك البرابرة حتى كانت له دولة باسم الفاطميين . وفاطمة وأبوها عليه الصلاة والسلام وعلى زوجها رضى الله عنه براء من أولاد عبيد الله القداح اليهودى الملعون ، ولقد قرر أبو بكر الباقلانى وغيره من علماء المسلمين أنهم كانوا شراً من اليهود والنصارى وكل الكفار ، وكان لهذه الطغمة بقضاء الله الذى لاراد له دولة بمصر والشام والحجاز ، استعانوا بها على نشر كل كفر وشرك وفساد فى الأرض . فكانوا هم أول من أقام الأوثان والأصنام على القبور ، باقامة قبة على قبر نسبوه إلى الحسين بن على . والحسين بن على منه برىء . وقد حقق المؤرخون حقيقة الرأس الموجودة فى هذا القبر ومن صاحبها، ارجع إلى كتب التاريخ ، خصوصاً الامام المحقق شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله — تعرف . وكان منها فروع تعمل لتفريق كلمة المسلمين باسم التصوف والمتصوفة ففرقوا جماعة المسلمين وعادوا فى دينهم شيعاً وأحزابا ومذاهب ونحلا . كل حزب بما لديهم فرحون . وكلهم عن الحق ناكبون . إلا حزب الله الذين تمسكوا بسنة نبيهم وعضوا عليها بالنواجذ فى كل عصر ومصر ، وأعلنوا العداء والحرب على هؤلاء أجمعين

وما زال أمر المسلمين فى اضمحلال بما يكيد لهم أولئك المجرمون من أخلاف العبيديين وشيعتهم وجماعة الطرق الصوفية وطغمتهم ، حتى صار الباطل حقاً والحق باطلا والسنة بدعة والبدعة سنة . وفى كل فترة يهىء الله من العلماء الصادقين من يعلن كلمة الدين الحقة ، وينكر هذه الأباطيل ، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ « لاتزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتيهم أمر الله . وهم على ذلك » حتى كان شيخ الاسلام احمد بن تيمية رحمه الله فى القرن السابع والثامن ، وجاهد ماجاهد وبارك الله فى دعوته حتى بقى صوتها يرن عالياً إلى الآن ، وكان من أفضل ثمرات دعوته تلميذه العلامة ابن القيم ، فانه ألف الكتب والرسائل

بأبلغ أسلوب وأقوى بيان فى النضال عن التوحيد بجميع أنواعه بما هو الحجة والسيف لكل قائم لله بالحق فى هذه الأزمان و بعدها ، ثم قام من بعد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تلاميذ لهما وأتباع فى كل عصر ومصر استضاءوا بمشكاة الكتاب والسنة وجاهدوا فى الله حق جهاده ، حتى كان شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله — ١١١٥ — ١٢٠٦ — فقام يجدد للناس أمر دينهم ، وما زال يتنقل فى البلاد مجاهداً ، وداعياً صادقاً محتسباً أجره على الله فيما يلقاه من أذى سدنة القبور والمتجرين بها ، وكلما حاولوا إطفاء نور الله رد الله كيدهم فى نحورهم ، حتى كانت النعمة التامة ، فضم الله اليه سيف آل سعود ، وشد بهم أزره ؛ فأعلى الله كلمته بلسان الشيخ محمد وعلى ظُبى سيوف آل سعود الأمجاد ؛ وأيد الله قوة اللسان الصادق ببأس الحديد الشديد، وأعز كلمة العلم بسواعد السعوديين الأشداء . فتمت كلمة الله ونعمته على الجزيرة وأشرقت عليها من جديد شمس الاسلام وعز التوحيد وذل الشرك وجاء الحق وزهق الباطل .

ولقد بارك الله فى آل الشيخ وذريته ؛ وفى آل سعود فلا يزال الجميع إلى اليوم ألسنة صدق وسيوف عز للاسلام والتوحيد ؛ خصوصاً منهم الامام العادل الذى جدد للتوحيد ثوبه القشيب وأعاد للجزيرة أمنها ورخاءها جلالة الملك عبد العزيز بن الامام عبد الرحمن الفيصل أطال الله حياته وأدام رايته مرفوعة ، وأيده بعزيز نصره وتوفيقه . فان هذا الامام المهتدى الهادى لم يقف مجهوده عند حد فى خدمة الاسلام ، فله كل يوم يد بيضاء وسعى مشكور . ولقد اقتفى أثره الطيب ولى عهده الصالح الناشىء فى طاعة الله، الممتزج حب التوحيد بكل ذرة وشعرة من ظاهره و باطنه الذى أحيا بتواضعه وحبه للعلم وأهله سنن السالفين ونهج منهج الخلفاء الراشدين . ذلك هو الأمير الأجل الأفخم « سعود » أطال الله فى حياته المباركة الطيبة وجعله خير خلف لخير سلف .

ولقد خلف شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب رحمة الله — تركة قيمة من المؤلفات العلمية النافعة التى أضاءت للناس طريق الهداية ، وأنقذ الله بها كثيراً من الضلالة وهداهم إلى الدين الخالص . وأجمعها وأنفعها (كتاب التوحيد) فانه جمع فأوعى و بيّن توحيد الألهية والعبادة ؛ وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات أتم بيان وأجلاه ، و بيّن نواقض كل منهما كذلك أعظم بيان ، وقد قام بشرحه شرحا كافياً حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد سماه (فتح المجيد)

وقد امتاز الشيخ عبد الرحمن رحمه الله بسعة علمه وتبحره فى كل فن ، واكتسب من تعلمه فى الأزهر العلوم العربية وغيرها مما أفاده براعة فى دروسه وتأليفه ، فلهذا الشرح مزايا عظيمة استوفى بها الشيخ عبدالرحمن الشرح وأخرجه فى أجمل ثوب يغنى قارئه عن أى كتاب آخر فى نوعى التوحيد . ثم اختصر الشرح فى كتاب سماه (قرة عيون الموحدين) وقد طُبع كل من الشرح والمختصر وراجا رواجاً عظيما ؛ وسعى أهل العلم فى طلبهما من كل قطر بكل ما استطاعوا ثم أُعيد طبع فتح المجيد مراراً ونفدت كلها ، وعم نفعها ؛ وهدى الله بها كثيرا حتى أصبحت دعوة التوحيد منتشرة فى كل بلد ، ولها أنصار ودعاة فى كل قطر بسبب فتح المجيد هذا

ولما حظيت فى حجى العام الماضى بشرف المثول فى مجلس صاحب السمو الملكى الأمير العالم الأجلّ . التقى (سعود) ولى عهد الدولة العربية السعودية المؤيدة المنصورة : جرى الحديث عن دعوة التوحيد وفتح المجيد وما نفع الله به . فسرّ لذلك سموّه أعظم سرور ، وحمد الله . فعرضت على سموه أن الكتاب قد نفدت طبعته الأخيرة التى طبعها معالى وزير مالية حكومة جلالة والدكم المعظم ، وأن الطلب اشتد على الكتاب ، وتطلعت اليه نفوس أهل العلم فى مصر وغيرها . فعندئذ هش سمو الأمير كشأنه حين يُفتح أمامه باب البر وعمل الصالحات ـ وأصدر أمره الكريم بطبعه على نفقته . فقيل حِينئذ ان حالة الحرب قد رفعت أثمان الورق جداً ، فالكتاب يتكلف اليوم كثيراً ؛ فلو أُخر حتى تنتهى الحرب لكان أوفر ؛ فقال سموه من فوره : « كلا لا يؤخر نشر العلم مهما كلف من ثمن ، فاننا وأموالنا فى خدمة العلم ؛ وكل ما ينفق فى نشر التوحيد فهو ربح أعظم ربح » فيالها من أريحية اسلامية ويالها من نفس طيبة سعودية

وأصدر أمره الكريم لصاحب السعادة الشهم المفضال الشيخ حمد السليمان ، الذى ما كاد يسمع الأمر الكريم حتى بادر بتنفيذه وأوصانى بتعجيل الطبع مهما كلف الكتاب.

فلما بلغت الأوراق إلى سعادة الشاب النجيب مدير المالية الشيخ محمد سرور الصبان كان هو كذلك من الموصين بتعجيل الطبع ، والاعتناء به وحسن اختيار الورق بل وحول القيمة بالبرق إلى مصر لتكون حاضرة تحت حساب الطبع

فلله هذه الدولة السعودية الاسلامية المسارعة — من ملكها وأمرائها ووزرائها وموظفيها — إلى فعل الخيرات ، وعمل الصالحات ، و بذل نفيس المال فى سبيل العلم ونشر التوحيد . أدام الله تأييدها وتوفيقها وتسديدها .

وقد كان من أعظم الساعين فى الطبع والحاضين عليه حضرة صاحب الفضل والفضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة ؛ فانه بذل جهداً مشكوراً هو وأخوه المكرم الأخ المفضال النحرير الصالح المهذب الشيخ عمر بن حسن ونجله الشاب الأديب الموفق عبد العزيز بن الشيخ عبد الله فى مراجعة الكتاب وتصحيحه فخرجت النسخة بهذا التصحيح والمراجعة أجود أصل لفتح المجيد . فجزاهم الله أحسن الجزاء وشكر الله للشيخ محمد بن مانع مفتش المعارف سعيه فى تقرير تدريس الكتاب بالمدارس بالحجاز . فان ذلك كان من أهم دواعى هذه الطبعة كذلك

وإنى لأحمد الله الكريم على ماوفق للقيام بطاعة صاحب السمو الملكى الأمير الأجل ولى عهد الدولة السعودية وتنفيذ رغبته على الوجه الذى أرجو أن يكون عنه راضياً

فانى قد بذلت أقصى جهدى فى التصحيح وجودة الورق وحروف الطبع بما لا يمكن أن يكون أحسن ولا أجود منه ان شاء الله

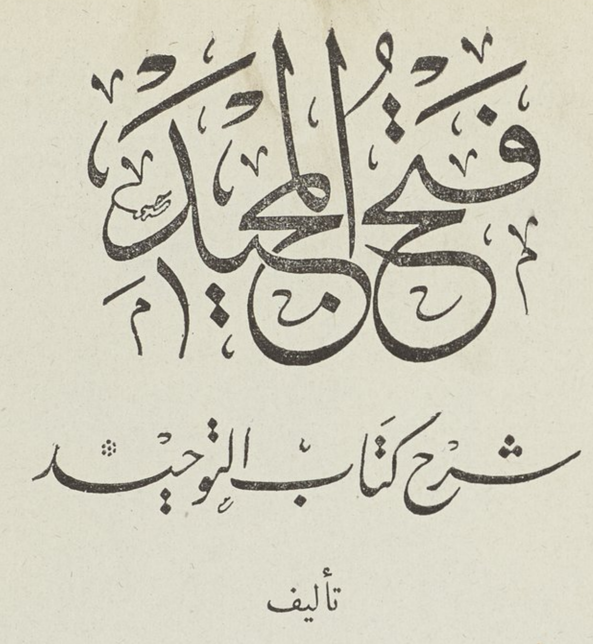
ولما راجعت كتاب قرة العيون للطبع وجدت أكثره موجوداً بالحرف فى فتح المجيد ، فرأيت أن يُجعل الزائد هوامش على فتح المجيد ؛ وبذلك نكون قد جمعنا بين الكتابين على أحسن وجه وأخصره ، والا فيكون طبع كل منهما على حدة تكراراً بدون فائدة ، وتُعرف هوامش قرة العيون بأن فى أولها : « فى قرة العيون » للفرق بينها و بين ما وفق الله من بعض هوامش مختصرة لشرح كلمة أوتخريج حديث أو نحو ذلك .

وقد زدنا كذلك متن كتاب التوحيد ، وجعلناه بخط اكبر مشكولا بأعلى الصفحة تتميما للفائدة لأن الشارح لم يستوف نصوصه كلها ، خصوصاً المسائل التى استنبطها شيخ الاسلام المؤلف رحمه الله ، فانها من أدل شىء على فقه الشيخ وقوة استنباطه ؛ فهى لذلك من أعظم الفوائد

وقد جاء الكتاب بعد هذا مشمولا برعاية صاحب السمو الملكى الأمير المحبوب سعود أدام الله عليه سوابغ نعمه ، وأبقاه ذخراً للاسلام والمسلمين ، فهو بهذا حرىّ بما قال فيه الشاعران : المصرى الأديب السلفى المجاهد فى إحياء السنة المحمدية الاستاذ صادق عرنوس وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية . والنجدى الشيخ عبد اللطيف بن ابراهيم ؟

محمد حامد الفقى
رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

وقع خطأ فى ص ٣٨٠ و ٣٨١ فوضعت كل منهما مكان الاخرى . فلزم التنبيه



شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

المتوفى سنة ١٢٥٨ هـ

طبع على نفقة

صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة السعودية
الأمير الأجل سعود بن عبد العزيز

بتحقيق

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية - من علماء الأزهر الشريف

(الطبعة الرابعة بمطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر - سنة ١٣٦٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبةُ للمتقين ، ولا عُدْوان إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، إلٰه الأولين والآخرين ، وقيُّوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه أجمعين . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومَنْ تبعهم باحسان الى يوم الدين . وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فان كتابَ التوحيدِ الذى ألَّفه الامام شيخُ الاسلام (محمد بن عبد الوهاب)(١) أجزلَ الله له الأجر والثوابَ ، وغفر له ولمن أجابَ دعوته الى يوم يقوم الحساب ـ قد جاء بديعاً فى معناه : من بيان التوحيد ببراهينه، وجمع جُملا من أدلته لإيضاحه وتبيينه . فصار عَلماً للموحدين ، وحُجَّة على الملحدين . فانتفع به الخلق الكثير ، والجمُّ الغفير . فان هذا الامام رحمه الله فى مبدأ مَنْشئه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذى بعث الله به المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين، فأعلى الله همته ، وقوّى عزيمته ،وتصدّى لدعوة أهل نجدٍ إلى التوحيد ، الذى هو أساس الاسلام والايمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، والطواغيت والأوثان ، وعن الايمان بالسَّحرَة والمنجِّمين والكُهّان . فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو اليها كل شيطان، وأقام الله به عَلم الجهاد ، وأدْحضَ به شُبهَ المعارضين من أهل الشرك والعناد ، ودانَ بالاسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد . وانتشرت دعوته ومؤلفاته فى الآفاق ، حتى أقرَّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان ، وكرّه إليه الايمان ، فأصر على العناد والطغيان . وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة « إن المسلمين لما قالوا (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس وجنوده . فأبى الله إلا أن يُمْضيَها ويظهرها ، ويُفلِجها وينصرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج ، ومن قاتل بها نُصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليالٍ قلائل ، ويسيرٍ من الدهر ، فى فِئامٍ من الناس ، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها »

---

(١) ولد فى العيينة سنة ١١١٥ وتوفى بالدرعية سنة ١٢٠٦ رحمه الله

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرّوا واستبشروا بطلعته ، وأثنوا عليه نثراً ونظماً .

فمن ذلك ماقاله عالم صنعاء : محمد بن اسماعيل الأمير (١) فى هذا الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنه — يعيد لنا الشرعَ الشريف بمايبدي
وينشر جهراً ماطوى كل جاهل — ومبتدع منه ، فوافقَ ماعندى
ويعمر أركانَ الشريعة هادماً — مشاهدَ ، ضلّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثله — يغوث وودّ ، بئس ذلك من ودّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها — كما يهتفُ المضطر بالصمدِ الفرد
وكم عقروا فى سوحها من عقيرة — أهلّت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائفٍ حولَ القبور مُقبّل — ومستلم الأركان منهنّ بالأيدى

وقال شيخنا عالم الاحساء أبو بكر حسين بن غنام رحمه الله تعالى فيه (٢)

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى — بوقتٍ به يعلى الضلالُ ويُرفع
سقاه نمير الفهم مولاه ، فارتوى — وعام بتيار المعارف يقطع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه — وأوهى به من مطلع الشرك مهيع (٣)
سما ذِروة المجد التى ما ارتقى لها — سواه، ولاحاذى فناها سميذع (٤)
وشمّر فى منهاج سُنة أحمد — يشيد ويحيي ماتعفى ، ويرفع
يناظر بالآيات والسنة التى — أمرنا إليها فى التنازع نرجع
فأضحت به السمحاءُ يبسمُ ثغرها — وأمسى محياها يُضيء ويلمع

---

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٥٩ وتوفى فى شعبان سنة ١١٨٢ وكان اماماً جليلا ، له المؤلفات الكثيرة النافعة ، منها سبل السلام شرح بلوغ المرام ، ومنحة الغفار على ضوء النهار ، والعدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وشرح التنقيح فى علوم الحديث

(٢) قالها فى رثاء الشيخ رحمه الله ، وهى تسعة وثلاثون بيتا مذكورة بتمامها فى كتاب عنوان المجد فى تاريخ نجد فى حوادث سنة ١٢٠٦ (ج ١ ص ٩٥) توفى ابن غنام سنة ١٢٢٥ وله ترجمة فى عنوان المجد (ج ١ ص ١٤٩)

(٣) فى عنوان المجد «وأقوى به من مظلم الشرك» والمهيع : الطريق الواسع

(٤) فى عنوان المجد « ولا حاذاه فيها » والسميذع : الشجاع القوي

وعاد به نهج الغواية طامساً   وقد كان مسلوكا به الناس ترتع
وجرّت به نجد ذيولَ افتخارها   وحُقّ لها بالألمعيّ ترفّع
فآثاره فيها سوامٍ سوافرٌ   وأنواره فيها تضيء وتلمع

وأما كتابه المذكور فموضوعه فى بيان مابعث الله به رسله : من توحيد العبادة ، و بيانه بالأدلة من الكتاب والسنة ، وذكر ماينافيه من الشرك الأكبر أو ينافى كماله الواجب ، من الشرك الأصغر ونحوه ، وما يقرُب من ذلك أو يوصل اليه .

وقد تصدّى لشرحه حفيد المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى (١) فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان مايجب أن يطلب منه و يراد ، وسماه (تيسير العزيز الحميد ، فى شرح كتاب التوحيد)

وحيث أطلق « شيخ الاسلام » فالمراد به أبو العباس أحمدُ بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية ، و «الحافظ» فالمراد به أحمد بن حجر العسقلانى .

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنبَ فى مواضع ، وفى بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن الكل ، ولم يكمله . فأخذت فى تهذيبه وتقريبه وتكميله ، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميما للفائدة وسميته ﴿ فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد ﴾

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وموصلا مَنْ سعى فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولاقوة إلابالله العلى العظيم

قال المصنف رحمه الله تعالى :

---

(١) كان عالما فاضلا بارعاً فى الحديث والتفسير والفقه ،آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، صادق الاتصال بالله ، قتل رحمه الله فى آخر سنة ١٢٣٣ وشى به بعض المنافقين الى ابراهيم باشا ابن محمد على باشا ، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها ، فأحضره ابراهيم ، وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر اغاظة للشيخ ، ثم أخرجه الى المقبرة وأمر العساكر أن يرموه بالرصاص جميعاً فمزقوا جسمه رحمه الله ورضى عنه . اه (عنوان المجد ج ١ ص ٢١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملا بحديث « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطَعُ » أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن الصلاح : والحديث حسن . ولأبى داود وابن ماجه « كل أمرٍ ذى بالٍ لايبدأ فيه بالحمدُ لله أو بالحمد فهو أقطع » ولأحمد « كل أمرٍ ذى بالٍ لا يُفتتح بذكر الله فهو أبْتَرُ أو أقطع » وللدارقطنى عن أبى هريرة مرفوعا « كل أمر ذى بال لايبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع »

والمصنف قد اقتصر فى بعض نسخه على البسملة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها فى مراسلاته ، كما فى كتابه لِهرَقْلَ عظيم الروم (١) . ووقع لى نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة ، وثنَّى بالحمد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وآله . وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقى ، وبالحمدلة نِسْبىٌّ إضافى ، أى بالنسبة الى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به .

والباء فى « بسم الله » متعلقة بمحذوف ، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلا خاصاً متأخرا .

أما كونه فعلا ، فلأن الأصل فى العمل للأفعال

وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدىء بالبسملة فى أمر يُضْمِرُ ماجَعل البسملة مبدأ له .

وأما كونه متأخراً ، فلدلالته على الاختصاص ، وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود، ولأنّ أهمّ مايُبدأ به ذكرُ الله تعالى .

وذكر العلامة ابن القيِّم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد ، منها : أنه موطن لاينبغى أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة فى كل عمل وقولٍ وحركة . فكان الحذفُ أعمّ . انتهى ملخصاً .

وباء « بسم الله » للمصاحبة . وقيل : للاستعانة . فيكون التقدير : بسم الله أؤلف حالَ

(١) رواه البخارى فى حديث أبى سفيان الطويل الذى رواه عن ابن عباس فى كتاب بدء الوحى

كونى مستعيناً بذكره، متبركاً به. وأما ظهوره فى (اقْرأ باسْمِ ربِّك) وفى (بِسْمِ اللهِ مَجْرٰيها) فلأنّ المقامَ يقتضى ذلك كما لايخفى.

والاسم مشتق من السُّموّ وهو العلو. وقيل: من الوَسْم وهو العلامة، لأن كل ما سُمِّىَ فقد نُوِّه باسمه ووُسِم.

قوله ﴿الله﴾ قال الكِسائى والفَرّاء: أصله الإِلٰه، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام فى اللام، فصارتا لاماً واحدة مشددة مُفخّمة. قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإِلٰه، كما هوقول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذّ. وهو الجامع لمعانى الأسماء الحسنى والصفات العُلى. والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى. وهى الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى؛ كالعليم والقدير، والسميع، والبصير؛ ونحو ذلك. فان هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهى قديمة؛ ونحن لانعنى بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها فى اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تَولُّد الفَرْع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه: أصلا وفرعا. ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر. وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

قال أبو جعفر بن جرير «الله» أصله «الاله» أسقطت الهمزة التى هى فاء الاسم فالتقت اللام التى هى عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت فى الأخرى؛ فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشدّدة. وأما تأويل «الله» فانه على معنى ماروى لنا عن عبد الله بن عباس قال «هو الذى يألهه كل شىء ويعبده كل خلق» وساق بسنده عن الضحاك عن عبدالله بن عباس قال: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» فان قال لنا قائل: وما دلّ على أن الألوهية هى العبادة وأن الإله هو المعبود؛ وأن له أصلا فى فَعِل ويَفْعَل؛ وذكر بيت رؤبة بن العجاج (١)

---

(١) كذا فى الأصل. والعبارة ناقصة. ونصها: فان قال لنا قائل فهل لذلك فى فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الاسم؟ قيل: اما سماعاً من العرب فلا. ولكن استدلالا. فان قال: وما دل على أن الألوهية هى العبادة وأن الأله هو المعبود، وأن له أصلا فى فعل يفعل؟ قيل: لاتمانع العرب فى الحكم لقول القائل يصف رجلا بعبادة ويطلب مما عندالله (تأله فلان) بالصحة ولا خلاف. ومن ذلك قول رؤبة. أ خ

لله دَرّ الغانيـــات المُـدَّهِ * سبَّحنَ واسترجعن من تألُّهى(١)

يعنى من تَعَبُّدى وَطلبى اللهَ بعملى . ولا شك أن التألّه التفعـل ، من أله يأله ، وأن معنى « أله » إذا نطق به : عبدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعَل بغـير زيادة . وذلك ماحدثنا به سفيان بن وكيع ـ وساق السند إلى ابن عباس « أنه قرأ (ويَذرَكَ وإلاهتَكَ) (٢) قال : عبادتك ، ويقول : إنه كان يُعبد ولا يَعبُـد» وساق بسند آخر عن ابن عباس « ويذرك وإلاهتك . قال : إنما كان فرعون يُعبد ولا يعبد» وذكر مثله عن مجاهد ، ثم قال : فقد بيّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا : أن «أله» (عبد) وأن الإلاهة مصدره وساق حديثا عن أبى سعيد مرفوعا « أن عيسى أسلمته أمه الى الكتاب ليعلمه . فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدرى ما الله ؟ الله إلـه الآلهة » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية ؛ وساقها . ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقـد قال أعلم الخلق ﷺ « لا أُحْصِى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وكيف نحصى خصائص إسم لمسماه كل كمال على الاطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال ، وكل عز وكل جمال ، وكل خير وإحسان ، وجود وفضل وبِرّ فله ومنه ؟ فما ذكر هذا الاسم فى قليل إلا كثّره ، ولاعند خوف إلا أزاله ولا عند كرْبٍ إلا كشفه ، ولا عند همّ وغمّ إلا فرّجه ، ولا عند ضيق إلا وسّعه ، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليـل إلا أناله العزّ ، ولا فقـير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آنسه ، ولا مغلوب إلا أيّده ونصره ، ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذى تكشف به الكربات ، وتستنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ، وتستجلب به الحسنات . وهو الاسم الذى قامت به الأرض والسماوات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع . وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة الى السعداء والأشقياء ، وبه

---

(١) قال فى اللسان : مدهه يمدهه مدها ، مثل مدحه ، والجمع : المده ، أى المستحقات المدح لحسنهن وجمالهن . والتأله : التنسك والتعبد . واسترجعن : قلن انا لله وانا اليه راجعون

(٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك)

حَقّت الحاقة . ووقعت الواقعة . و به وُضعت الموازين القِسْط ونصب الصراط ؛ وقام سوق الجنة والنار . و به عبد رب العالمين وحمد ؛ و بحقه بعثت الرسل ؛ وعنه السؤال فى القبر ويوم البعث والنشور ؛ و به الخصام واليه المحاكمة ؛ وفيه الموالاة والمعاداة ، و به سعد من عَرفه وقام بحقه ؛و به شَقِىَ من جهله وترك حقه ؛ فهو سر الخلق والأمر . و به قاما وثبتا ؛ واليه انتهيا ؛ فالخلق به واليه ولأجله . فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئا منه منتهياً اليه. وذلك موجبه ومقتضاه (٣ : ١٩١ رَبّنا ما خَلَقْتَ هـذا باطلاً ، سُبْحانَكَ فَقِنا عذابَ النارِ) إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال ابن جرير : حدثنى السّرِىّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر سمعت العَرْزَمىّ يقول : « الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين » . وساق بسنده عن أبى سعيد — يعنى الخُدرِىّ — قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى بن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا . والرحيم : رحيم الآخرة » .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى(١) : فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً . يألهه الخلائق : محبة وتعظيما وخضوعا ؛ ومفزعا اليه فى الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته ؛ المتضمنين لكمال الملك والحمد ؛ و إلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه : مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى؛ ولا سميع ؛ ولا بصير ؛ ولا قادر ؛ ولا متكلم ؛ ولا فعال لما يريد ؛ ولا حكيم فى أقواله وأفعاله . فصفات الجلال والجمال أخص باسم « الله » وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم (الرب) وصفات الاحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم «الرحمن»

وقال رحمه الله أيضاً : «الرحمن» دال على الصفة القائمة به سبحانه « والرحيم » دال على تعلقها بالمرحوم . واذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنينَ رَحيماً) (٩ : ١١٧ إنّه بهم رَؤوفٌ رَحيمٌ) ولم يجىء قطُّ رحمانٌ بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هى أسماء ونعوت . فانها دالة على صفات كماله . فلا تنافى

---

(١) فى مدارج السالكين (ج ١ ص ١٨)

[الحمدُ للهِ ، وَصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسلم] (١)

كتاب التوحيد

فيها بين العلمية والوصفية . فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع ؛ بل ورد الاسم العلم . كقوله تعالى (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) . انتهى ملخصاً .

قوله ﴿ الحمد لله ﴾ معناه الثناء بالكلام على الجميل الاختيارى على وجه التعظيم . فمورده : اللسان والقلب . والشكر يكون باللسان والجنان والأركان . فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلَّقاً ، وأخص منه سبباً ؛ لأنه يكون فى مقابلة النعمة ؛ والحمد أعم سبباً وأخص مُتعلّقا ؛ لأنه يكون فى مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهى ؛ يجتمعان فى مادة و ينفرد كل واحد عن الآخر فى مادة .

قوله ﴿ وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم ﴾ أصح ماقيل فى معنى صلاة الله على عبده : ماذكره البخارى رحمه الله تعالى عن أبى العالية قال : « صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة » وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره فى كتابيه (جلاء الأفهام) و (بدائع الفوائد)

قلت : وقد يراد بها الدعاء ، كما فى المسند عن على مرفوعا « الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه : اللهم اغفر له اللهم ارحمه »

قوله ﴿ وعلى آله ﴾ أى أتباعه على دينه ؛ نص عليه الامام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين (٢)

﴿ كتاب التوحيد ﴾

كتاب : مصدر كتب يكتب كتابا وكتابة وكتباً ؛ ومدار المادة على الجمع . ومنه :

---

(١) هذه الجملة فى بعض النسخ دون بعض

(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتاب جلاء الأفهام فى الصلاة على خير الأنام ، للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله ، فانه استوفى المذاهب فى ذلك ، وبين الحق فيها ، وأن المراد من الآل أتباعه الذين آمنوا به .

تكتب بنو فلان ، اذا اجتمعوا . والكتيبة لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف . وسمى الكتاب كتاباً : لجمعه ما وُضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد فى المعرفة والاثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . وتوحيد فى الطلب والقصد . وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وأما التوحيد الذى دعت اليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد فى المعرفة والاثبات ، وتوحيد فى الطلب والقصد . فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ، و إثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الافصاح ، كما فى أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول تنزيل السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الاخلاص بكمالها ، وغير ذلك .

النوع الثانى : ماتضمنته سورة (قُلْ ياأيُّها الكافِرون) وقوله تعالى (٣ : ٦٤ قُلْ ياأهلَ الكتابِ تَعالوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْننا وبَيْنكُم أنْ لا نَعْبدَ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شيْئاً ولا يتّخذَ بعْضُنا بعْضاً أرْباباً منْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَولّوْا فَقولوا اشْهدُوا بأنّا مُسْلِمُون) وأول سورة تنزيل الكتاب ، وآخرها . وأول سورة المؤمن ، ووسطها ، وآخرها ، وأول سورة الأعراف ، وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد ، شاهدة به داعية اليه .

فإن القرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى و إما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له وخَلْعُ مايعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادى الطلبى . و إما أمر ونهى ، و إلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقوق التوحيد ومكملاته ، و إما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، و إما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم فى العُقْبَى من العذاب . فهو جزاء منْ خَرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله فى التوحيد ، وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى

قال شيخ الاسلام : التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الالهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لايعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى

إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله . وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات . قال تعالى (٢ : ١٦٣ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو الرَّحْمَٰنُ الرحيم) وقال تعالى (١٦ : ٥١ وقالَ اللهُ لا تتّخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إلٰهٌ واحدٌ فإيّايَ فارهبُون) وقال تعالى (٢٣ : ١١٧ ومنْ يدعُ معَ اللهِ إلٰهاً آخر لا برهانَ له به فإنما حسابُه عند ربّه إنه لا يُفلِحُ الكافرون) وقال تعالى (٤٣ : ٤٥ واسْألْ منْ أرْسلنا مِنْ قبْلِكَ مِنْ رُسُلنا : أَجعلْنا من دُونِ الرّحمٰن آلهةً يُعبدُون ؟) وأخبر عن كل نبى من الأنبياء أنهم دعوا الناس الى عبادة الله وحده لا شريك له . وقال (٦٠ : ٤ قدْ كانتْ لكم أسْوَةٌ حسنةٌ فى إبراهيمَ والذين معهُ ، إذْ قالوا لقوْمهم إنّا بُرآءُ منكم ومما تعبُدُونَ مِنْ دُون اللهِ . كَفرْنا بكم وَبَدَا بيننا و بينكم العَداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمِنوا باللهِ وحده) وقال عن المشركين (٣٧ : ٣٥ إنهم كانوا اذا قيلَ لهم لا إله إلا الله يستكْبرُون ٣٦ ويَقولون أئنّا لتاركُوا آلهتنا لشاعِر مجنون) وهذا فى القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد ، مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . و يظن هؤلاء أنهم اذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم اذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا فى غاية التوحيد فان الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما يُنزّه عنه . وأقرّ بأنه وحده خالق كل شيء . لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إلٰه الا الله وحده . فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة . و يلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . و «الإله» هو المألوه المعبود الذى يستحق العبادة . وليس هو الإلٰه بمعنى القادر على الاختراع . فاذا فسّر المفسر «الإله» بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله . وجعل إثبات هذا هو الغاية فى التوحيد — كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذى يقولونه عن أبى الحسن وأتباعه — لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ . فان مشركى العرب كانوا مقرّين بأن الله وحده خالقُ كل شيء . وكانوا مع هذا مشركين . قال تعالى : (١٢ : ١٠٦ ومَا يُؤْمنُ أكْثرُهمْ باللهِ إلا وهُمْ مُشركون) قال طائفة من السلف « تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا

يعبدون غيره (١) » قال تعالى (٢٣ : ٨٤ قُلْ لمن الأرضُ ومنْ فيها إن كنتم تعلمون ؟ ٨٥ سيقولون لله . قلْ أفلا تذكّرُون ٨٦ قلْ من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم ؟ ٨٧ سيقولون لله . قلْ أفلا تتّقُون ؟ ٨٨ قلْ منْ بيده ملكوت كلِّ شيءٍ وهو يُجير ولا يُجارُ عليه ان كنتم تعلمون ؟ ٨٩ سيقولون لله . قل فأنّى تُسْحَرُون ؟) فليس كل من أقرّ بأن الله تعالى ربُّ كل شيء وخالقه يكون عابداً له . دون ماسواه . داعياً له دون ماسواه . راجياً له خائفاً منه دون ماسواه . يُوالي فيه ويعادي فيه . ويطيع رسله ويأمر بما أمر به . وينهى عما نهى عنه . وعامّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء . وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به . وجعلوا له أنداداً . قال تعالى (٣٩ : ٤٣ أمِ اتخذُوا من دون الله شُفعاء ؟ قل : أوَلَوْ كانوا لايملكون شيئاً ولا يَعْقلون ٤٤ قل لله الشفاعةُ جميعاً له ملك السّمواتِ والأرض) وقال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالا يَضرُّهم ولا ينفعهم . ويقولون هؤلاء شُفعاؤنا عند الله . قل أتُنبّئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٦ : ٩٤ ولقدْ جئتُمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّلَ مرّةٍ وتركْتُمْ ماخوّلناكم وراء ظُهوركم وما نرَى معكمْ شفعاءكم الذين زَعمْتم أنهم فيكم شركاء لقد تَقطَّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون) وقال تعالى (٢ : ١٦٥ وَمنَ النّاسِ مَنْ يتخذُ من دون الله أنداداً يُحبُّونهم كحبِّ الله) . ولهذا كان من أتباع هؤلاء (٢) من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها . ويصوم وينسك لها ويتقرب اليها (٣) . ثم يقول : ان هذا ليس بشرك . انما الشرك اذا اعتقدت أنها المدبرة لى . فاذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركا . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام أن هذا شرك ٠ انتهى كلامه

---

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم

(٢) أى ممن يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى، ككثير ممن ينتسبون الى الاسلام ويشتغل بالسحر الذى هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع العزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر وغير ذلك مما سيأتى تفصيله

(٣) أى يذبح لها الذبائح ، ويصنع الأطعمة ، كما يفعل الحاج لبيت الله من المناسك

وقول الله تعالى ﴿ ٥١ : ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾

قوله ﴿ وقول الله تعالى ٥١ : ٥٦ وما خلقتُ الجنّ والإنس الا لِيعبدون ﴾ بالجر عطف على التوحيد . ويجوز الرفع على الابتداء

قال شيخ الاسلام : العبادة هى طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل

وقال أيضاً : العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال . الظاهرة والباطنة

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . وهنّ لكل واحد من القلب واللسان والجوارح

وقال القرطبى : أصل العبادة التذلل والخضوع . وسُمّيت وظائف الشرع على المكلفين عباداتٍ . لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ماخلق الجن والانس إلا لعبادته . فهذا هو الحكمة فى خلقهم .

قلت : وهى الحكمة الشرعية الدينية

قال العماد ابن كثير : وعبادته هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وذلك هو حقيقة دين الاسلام . لأن معنى الاسلام : الاستسلام لله تعالى . المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى

وقال أيضاً فى تفسير هذه الآية : ومعنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج اليهم . بل هم الفقراء اليه فى جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية « الا لآمرهم أن يعبدونى وأدعوَهم الى عبادتى » وقال مجاهد « الا لآمرهم وأنهاهم » اختاره الزجاج وشيخ الاسلام . قال : ويدل على هذا قوله (٧٥ : ٣٦ أيَحسبُ الانسانُ أن يتركَ سُدًى) قال الشافعى « لايؤمر ولا ينهى » وقال فى القرآن فى غير موضع (اعبدوا رَبكم) (اتقوا رَبكم) فقد أمرهم بما خلقوا له . وأرسل الرسل بذلك . وهذا

وقوله ﴿ ١٦ : ٣٦ وَلَقَدْ بَعَثْنا فى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

المعنى هو الذى قصد بالآية قطعاً ،وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه .

قال وهذه الآية تشبه قوله تعالى (٤ : ٦٤ وما أرْسلنا من رسولٍ إلا لِيطاعَ باذْنِ الله) ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ماخلقهم إلا لعبادته . ثم قد يَعبدون وقد لايعبدون . وهو سبحانه لم يقل : انه فعلَ الأول . وهو خلقهم . ليفعل بهم كلهم . الثانى : وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى . فيكونوا هم الفاعلين له . فيحصل لهم بفعله سعادتهم و يحصل مايحبه و يرضاه منه ولهم . انتهى

و يشهد لهذا المعنى : ماتواترت به الأحاديث

فمنها : ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى لأهون اهل النار عذاباً : لوكانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أ كنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردتُ منك أهونْ من هذا وانت فى صلب آدم . أن لا تشرك — أحسبه قال : ولا ادخلك النار — فأبيت إلا الشرك(١) » فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه : من توحيده وأن لايشرك به شيئاً . فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره . وهذه هى الارادة الشرعية الدينية كما تقدم

فبين الارادة الشرعية الدينية والارادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق . يجتمعان فى حق المخلص المطيع . وتنفرد الارادة الكونية القدرية فى حق العاصى . فافهم ذلك تنجُ من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم

قال ﴿وقوله ١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحدّ . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه

(١) رواه الامام أحمد والبخارى

« الطاغوت الشيطان »(١) . وقال جابر رضى الله عنه « الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » رواهما ابن أبى حاتم . وقال مالك « الطاغوت كل ما عُبد من دون الله »

قلت : وذلك المذكور بعضُ أفراده ، وقد حدّه العلامة ابن القيم حداً جامعاً فقال: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله . أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله او يطيعونه فيما لا يعلمون انه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم . اذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها . رأيت اكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى الى عبادة الطاغوت وعن طاعة رسول الله ﷺ الى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث فى كل طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمة (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ماسواه ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦ فمنْ يكْفرْ بالطاغوت و يؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروْة الوُثقى لا انفصام لها) وهذا معنى « لا إله إلا الله » فانها هى العروة الوثقى .

قال العماد ابن كثير فى هذه الآية : وكلهم — أى الرسل — يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عباة ماسواه ، فلم يزل سبحانه يرسل الى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل اليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى الى أهل الأرض الى أن ختمهم بمحمد ﷺ ، الذى طبقت دعوته الانس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرْسلنا من قبلكَ من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء ؟) فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية — وهى تمكينهم من ذلك قدراً — فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق

---

(١) ذكره ابن كثير عن حسان بن قائد العبيسى عن عمر قال : « ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان ، وان الشجاعة والجبن تكون غرائز فى الرجال الخ » ثم قال الحافظ ومعنى قوله فى الطاغوت « انه الشيطان » قوى جداً ، فانه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية . من عبادة الأوثان ، والتحاكم اليها ، والاستنصار بها . وكذلك رواه ابن جرير

النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لايرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال (١٦ : ٣٦ فمنهم منْ هدَى اللهُ ومنهم من حقتْ عليه الضلالة) انتهى

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التى قبلها . وذلك قوله (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) فتدبر .

ودلت هذه الآية على أن الحكمة فى إرسال الرسل ، دعوتهم أممهم الى عبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة ماسواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، و إن اختلفت شريعتهم . كما قال تعالى (٥ : ٥١ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا) وأنه لابد فى الايمان من عمل القلب والجوارح

قال ﴿ وقوله تعالى ١٧ : ٢٣ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا ﴾ قال مجاهد «قضى» يعنى وصى . وكذا قرأ أبيٌّ بن كعبٍ وابنُ مسعود وغيرهم . ولابن جرير عن ابن عباس « وقضى ربك ، يعنى أمر » .

وقوله تعالى ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ المعنى ، أن تعبدوه وحده دون ماسواه ، وهذا معنى « لا إله إلا الله »

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ، والنفى المحض ليس توحيداً . وكذلك الاثبات بدون النفى . فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفى والاثبات . وهذا هو حقيقة التوحيد .

وقوله ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحسانا ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى فى الآية الأخرى (٣١ : ١٤ أن اشْكرْ لى ولوالديك إلىّ المصير)

وقوله ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما ﴾ أى لاتسمعهما قولا سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أى لايصدر منك اليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح « لاتنفض يديك عليهما »

أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ٢٤ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن فقال ﴿ وقلْ لهما قولا كريما ﴾ أى ليناً طيباً بأدبٍ وتوقير. وقوله ﴿ واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرّحمة ﴾ أى تواضع لهما ﴿ وقلْ ربِّ ارحمهما ﴾ أى فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿ كما ربيانى صغيرا ﴾. وقد ورد فى بِرِّ الوالدين أحاديث كثيرة، منها: الحديث المروى من طُرقٍ عن أنس وغيره « أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: آمين، آمين، آمين. فقالوا يارسول الله، على ماأمّنت؟ قال: أتانى جبريل فقال يامحمد، رَغِمَ أنفُ امرىء ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنفُ امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين، فقلت آمين. ثم قال رغم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت آمين (١) » وروى الامام أحمد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه، أحدهما

---

١) أخرجه عن أنس: ابن أبى شيبة والبزار فى مسنديهما من طريق سلمة بن وردان عنه، وسلمة ضعيف. ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الاسناد. وابن حبان فى ثقاته وصحيحه، والطبرانى فى الكبير، والبخارى فى بر الوالدين، والبيهقى فى شعب الايمان، والضياء المقدسى فى المختارة، كلهم عن كعب بن عجرة، ورجاله ثقات. وأخرجه ابن حبان فى الصحيح والثقات والطبرانى ورجاله ثقات عن مالك بن الحويرث، ورواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى تهذيبه والدارقطنى فى الافراد. وأشار اليه الترمذى وأخرجه النسائى وابن السنى فى اليوم والليلة والضياء المقدسى فى المختارة، كلهم عن جابر بن عبدالله. وأخرجه البزار والطبرانى عن عمار بن ياسر. وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبرانى عن ابن عباس وأبى ذر. وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة وهو عند البيهقى فى الدعوات مختصرا. وعند الترمذى وأحمد وقال الترمذى: حسن غريب. وأخرجه الدارقطنى فى الافراد والبزار فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن جابر بن سمرة، وأخرجه البزار والطبرانى وابن أبى عاصم عن عبد الله بن الحرث ابن جزء الزبيدى

أو كلاهما، لم يدخل الجنة » قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه . وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يارسول الله، قال: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقولُ الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا : ليتهُ سكتَ » رواه البخارى ومسلم . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ « رِضَى الربِّ فى رضى الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين » رواه الترمذى وصححه ابن حبان والحاكم . وعن أبى أسيد الساعدى رضى الله عنه قال « بينا نحن جلوس عند النبى ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال: يارسول الله، هل بقى من برٍّ أبوى شىء أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، و إنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما و إكرام صديقهما» رواه أبوداود وابن ماجه . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً.

وقوله ﴿ ٤: ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ (١) قال العماد ابن كثير رحمه الله فى هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له؛ فانه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . انتهى

وهذه الآية هى التى تسمى آية الحقوق العشرة ، وفى بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتى لآية الأنعام، ليكون

---

(١) قال فى قرة العيون : وهذه الآية تبين العبادة التى خلقوا لها أيضا . فانه تعالى قرن الأمر بالعبادة التى فرضها بالنهى عن الشرك الذى حرمه وهو الشرك فى العباده فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط فى صحة العبادة فلا تصح بدونه أصلا . كما قال تعالى (٦ : ٨٨ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال تعالى (٣٩: ٦٥، ٦٦ ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) فتقديم المعمول يفيد الحصر أى بل الله فاعبده وحده لا غيره كما فى فاتحة الكتاب (اياك نعبدو اياك نستعين) وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله (٣٩: ١١ قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك مانهى عنه، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى

والأمر والنهى الذى هو دينه * وجزاؤه يوم المعاد الثانى

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة فلا تغفل عما تقدم .

ذكره بعدها أنسب .

وقوله تعالى ﴿٦ : ١٥١–١٥٣ قل تعالوْا أتلُ ماحرّم ربُّكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ الآيات (١)

(١) فى قرة العيون : وقد وقع الأكثر من متأخرى هذه الأمة فى هذا الشرك الذى هو أعظم المحرمات ؛ كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن ، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك دينا ؛ ونفروا اذا دعوا الى التوحيد أشد نفرة ؛ واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) وقال تعالى (١٧ : ٤٦ واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) وقال (٣٧ : ٣٥ انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون ٣٦ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) علموا أن لااله الا الله تنفى الشرك الذى وقعوا فيه ، وأنكروا التوحيد الذى دلت عليه . فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة « لااله الا الله » من أكثر متأخري هذه الأمة لاسيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية فى بعض الأحكام وعلم الكلام ؛ فجهلوا توحيد العبادة فوقعوا فى الشرك المنافى له وزينوه ، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ؛ فوقعوا فى نفيه أيضاً . وصنفوا فيه الكتب ، لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل ، وقد اشتدت غربة الاسلام حتى عاد المعروف منكراً ؛ والمنكر معروفا ، فنشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وقد قال صلى الله عليه وسلم « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة . قالوا ؛ ومن هى يارسول الله ؟ قال ؛ من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى » وهذا الحديث قد صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ وهو فى السنن وغيرها . ورواه محمد بن نصر فى كتاب الاعتصام ، وقد وقع ما أخبر به النبى (ص) بعد القرون الثلاثة .

فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذى هو أصل دين الاسلام ؛ فان أصله أن لا يعبد الا الله وأن لا يعبد الا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع ، لكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع اليه على بصيرة ، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التى أنزلها على أنبيائه ورسله ؛ فله الحمد والشكر على ذلك .

إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

قال العماد ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله (تعالوا) أى هلموا وأقبلوا (أتل) أقص عليكم (ما حرم ربكم عليكم) حقاً، لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده (ألا تشركوا به شيئاً) وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال فى آخر الآية (ذلكم وصاكم به) اه

قلت: فيكون المعنى: حرّم عليكم ماوصاكم بتركه من الاشراك به. وفى المغنى لابن هشام فى قوله تعالى (ألا تشركوا به شيئا) سبعة أقوال، أحسنها: هذا الذى ذكره ابن كثير، ويليه: بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا، فحذفت الجملة من أحدهما، وهى (وصاكم) وحرف الجر وما قبله من الأخرى. ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يقول «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. واتركوا ما يقول آباؤكم» كما قال أبو سفيان لهرقل(١) وهذا هو الذى فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»

وقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) قال القرطبى: الاحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما و (إحسانا) نصب على المصدرية، وناصبه فعل من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانا.

وقوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم) الاملاق: الفقر، أى لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر، فانى رازقهم وإياكم، وكان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر، ذكره القرطبى. وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه «قلت: يارسول الله، أىُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أىٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطعَم معك. قلت: ثم أى؟ قال: أن تزانى بحليلة جارك. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٥: ٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما)

(١) رواه البخارى فى بدء الوحي، فى حديث أبى سفيان الطويل

إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

وقوله (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عطية: نهيٌ عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي. و(ظهر) و(بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء. انتهى

وقوله (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «لا يحلُّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيِّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»

وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال ابن عطية: (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات والوصية الأمر المؤكد المقرر. وقوله (لعلكم تعقلون) (لعل) للتعليل أي إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها، وفي تفسير الطبري الحنفي: ذكر أولا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فاذا تذكروا خافوا واتقوا.

وقوله (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) قال ابن عطية: هذا نهيٌ عام عن القرب الذي يعمُّ وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو السعي في نمائه، قال مجاهد: التي هي أحسن، التجارة فيه، وقوله (حتى يبلغ أشده) قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفهَ مع البلوغ، روى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم

وقوله (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) قال ابن كثير: يأمر تعالى باقامة العدل في الأخذ والاعطاء (لا نكلف نفساً إلا وسعها) أي من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فان أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد. قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى والغضب بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل الى الحبيب والقريب (٥:٨ ولا يجرمنكم شنآنُ قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى)

وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

وقوله (و بعهد الله أوفوا) قال ابن جرير : و بوصية الله تعالى التى وصاكم بها فأوفوا • و إيفاء ذلك بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه • وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله. وكذا قال غيره ، وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه

وقوله (وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) قال القرطبى : هذه آية عظيمة عطفها على ماتقدم • فانه نهى وأمر وحذّر عن اتباع غير سبيله على مابينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف • و (أنّ) فى موضع نصب • أى أتلو أنّ هذا صراطى، عن الفراء والكسائى • و يجوز أن يكون خفضا • أى وصاكم به و بأن هذا صراطى • قال : والصراط الطريق الذى هو دين الاسلام • (مستقيما) نصب على الحال ومعناه مستويا قيّما لا اعوجاج فيه • فأمر باتباع طريقه الذى طرّقه على لسان محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة وتشعبت منه طرق ، فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به الى النار . قال الله تعالى (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى تميل . انتهى

وروى الامام أحمد والنسائى والدارمى وابن أبى حاتم والحاكم ـ وصححه ـ عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو اليه، ثم قرأ (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ـ الآية) » وعن مجاهد : ولا تتبعوا السبل ، قال : البدع والشهوات

قال ابن القيم رحمه الله : ولنذكر فى الصراط المستقيم قولا وجيزا ، فان الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شىء واحد ، وهو طريق الله الذى نصبه لعباده موصلا لهم اليه ، ولا طريق اليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذى نصبه على ألسُن رسله ، وجعله موصلا لعباده اليه ، وهو إفراده بالعبادة و إفراد رسله بالطاعة ، فلا يشرك

قال ابن مسعود « من أرادَ أن ينظرَ إلى وَصيَّةِ محمدٍ ﷺ التى عليها خاتَمُهُ فَليقرَأ قوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا) الى قوله (وأن هذا صراطى مستقيما) الآية . »

به أحداً فى عبادته ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً فى طاعته . فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ﷺ ، وهذا كله مضمون « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » فأى شيء فسِّر به الصراط المستقيم فهو داخل فى هذين الأصلين . ونكتة ذلك : أن تحبه بقلبك وتُرضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معمورا بحبه ، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ؛ وهو معرفة مابعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ماشئت من العبارات التى هذا آخِيَّتها(١) وقطب رحاها . قال : وقال سهل بن عبدالله : عليكم بالأثر والسنة ، فانى أخاف ؛ إنه سيأتى عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبى ﷺ والاقتداء به فى جميع أحواله ذمُّوه ونفَّروا عنه وتبرأوا منه وأذلوه وأهانوه . اه

قوله ﴿ قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصيةِ محمد ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ (قل تعالوا أتلُ ماحوم ربكم عليكم – إلى قوله – وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه . الآية ﴾

قوله « ابن مسعود » هو عبد الله بن مسعود بن غافل – بمعجمة وفاء – ابن حبيب الهذلى أبو عبد الرحمن ، صحابى جليل من السابقين الأولين ؛ وأهل بدر وأحد والخندق وبَيعة الرضوان ومن كبار علماء الصحابة ، أمَّره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه

وهذا الأثر رواه الترمذى وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والطبرانى بنحوه . وقال بعضهم : معناه من أراد أن ينظر الى الوصية التى كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغَيَّر ولم تبدَّل فليقرأ (قل تعالوا – الى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذى كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص . فان النبى ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم « وإنى تارك فيكم

---

(١) الآخية – بالمد والتشديد – حبيل ، أو عويد يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير طرفه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمعها : الأواخى

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال «كنتُ رَديفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ، فقال لي: يامعاذُ أتدرى ماحقُّ اللهِ على العبادِ، وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟ قلت:

ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتابَ الله» وقد روى عُبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قوله (قل تعالوا أتلُ ماحرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الثلاث الآيات. ثم قال: من وَفَى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره الى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه» رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ومحمد بن نصر في الاعتصام

قلت: ولأن النبي ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه. وفي كتابه الذي أنزله (١٦: ٨٩ تِبيانا لكلِّ شيء وهُدًى ورحمةً وبُشرَى للمسلمين) وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ

قوله ﴿ وعن معاذ بن جبل قال «كنتُ رَديفَ النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يامعاذ أتدرى ماحق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لايشرك به شيئا — قلت: يارسول الله، أفلا أُبَشِّر الناس؟ قال: لاتبشرهم فيتَّكلوا» أخرجاه في الصحيحين ﴾

هذا الحديث في الصحيحين من طرق. وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف.

و «معاذ بن جبل» رضي الله عنه هو ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن؛ صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان اليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضي الله عنه. وقال النبي ﷺ «معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برَتوة» (١) أي بخطوة، قال في القاموس: والرَّتْوَة الخطوة وشرفٌ من الأرض، وسُوَيعة من الزمان، والدعوة، والفطرة، ورمية بسهم أو نحو مِيل أو مَدَى البصر. والراتي العالم الرباني. انتهى. وقال في النهاية: انه يتقدم العلماء برتوة أي برمية سهم. وقيل: بميل: وقيل، مَدّ البصر.

«١» قال الحافظ ابن حجر في الاصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من مرسل أبي عون الثقفي وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب

اللهُ ورسوله أعلم . قال : حقُّ الله على العبادِ أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً ،

وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث . مات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام فى طاعون عِمْواس . وقد استخلفه النبى ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم

قوله « كنت رديف النبى ﷺ » فيه جواز الارداف على الدابة ، وفضيلة معاذ رضى الله عنه .

قوله « على حمار » فى رواية اسمه عُفير ، قلت : أهداه اليه المقوقس صاحب مصر .

وفيه : تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه ، خلافا لما عليه أهل الكبر .

قوله « أتدرى ماحق الله على العباد » أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع فى النفس وأبلغ فى فهم المتعلم . و « حق الله على العباد » هو مايستحقه عليهم . و « حق العباد على الله » معناه أنه متحقق لا محالة ، لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده (٣٠ : ٦ وَعْدَ الله لا يُخلفُ اللهَ وَعْدَه) .

قال شيخ الاسلام : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق، إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقا زائداً على هذا ، كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى (٣٠ : ٤٧ وكان حَقاً علينا نصرُ المؤمنين) لكن أهل السنة يقولون: هو الذى كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق . والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا فى ذلك، وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرية أتباع جهم ، والقدرية النافية .

قوله « قلت الله ورسوله أعلم » فيه حسن الأدب من المتعلم ، وأنه ينبغى لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك ، بخلاف أكثر المتكلفين .

قوله « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » أى يوحدوه بالعبادة . ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرّف العبادة بتعريف جامع فقال :

وعبادة الرحمن : غاية حبه مع ذل عابده ، هما قطبان

وحقُّ العبادِ على الله أنْ لا يُعذِّبَ من لا يُشْرِكَ به شيئًا . قلت : يارسولَ الله؟ أفلا أُبشِّرُ الناسَ ؟ قال : لا تُبشِّرهُمْ فَيتَّكلُوا » أخرجاه فى الصحيحين .

وعليهما فلك العبادة دائر مادار ، حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر – أمر رسوله – لا بالهوى والنفس والشيطان(١)

قوله ﴿ ولا يشركوا به شيئا ﴾ أى يوحدوه بالعبادة ، فلابد من التجرد من الشرك فى العبادة ، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد جعل لله نداً . وهذا معنى قول المصنف رحمه الله :

﴿ وفيه أن العبادة هى التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، وفى بعض الآثار الإلٰهية : « إنى والجن والانس فى نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيرى ، وأرزق ويُشكر سواى ، خيرى الى العباد نازل ، وشرهم إلىّ صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلىّ بالمعاصى » ﴾

قوله ﴿ وحق العباد على الله ألا يعذّب من لا يشرك به شيئا ﴾ قال الحافظ : اقتصر على نفى الاشراك لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك وهو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط . اه

قوله ﴿ أفلا أبشر الناس ﴾ فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره ، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قاله المصنف رحمه الله

قوله ﴿ لا تبشرهم فيتكلوا ﴾ أى يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس فى الأعمال .

---

(١) فى قرة العيون ؛

حق الاله عبادة بالأمر لا بهوى النفوس فذاك للشيطان
من غير اشراك به شيئاً هما سبب النجاة فحبذا السببان
لم ينج من غضب الاله وناره الا الذى قامت به الاصلان
والناس بعد فمشرك بإلٰهه أو ذو ابتداع أو له الوصفان

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة . لكن هو سبحانه جعل ذلك على نفسه تفضلا واحسانا على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا فى ارادتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم الى أحد سواه ، ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات الا اليه وحده والله أعلم .

فيه مسائلُ ، الأولى : الحِكمةُ فى خلق الجنِّ والإِنس ،

الثانيةُ : أن العبادة هى التوحيدُ لأن الخصومة (١) فيه .

الثالثة : أن مَنْ لم يأتِ به لم يعبدِ الله . ففيه معنى قوله (وَلا أنْتُمْ عابدُون ما أعْبُدُ)

وفى رواية « فأخبر بها معاذ عند موته تَأثماً » أى تحَرُّجاً من الإِثم . قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا فى الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعى زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

وفى الباب من الفوائد غير ماتقدم ، الحث على إخلاص العبادة لله وأنها لاتنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة . والتنبيه على عظمة حق الوالدين . وتحريم عقوقهما . والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات فى سورة الأنعام . وجواز كتمان العلم للمصلحة .

قوله ﴿ أخرجاه ﴾ أى البخارى ومسلم . و «البخارى» رحمه الله هو الامام محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بن بَردِزْبة الجعفى مولاهم ، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن الامام أحمد بن حنبل والحميدى وابن المدينى وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنسائى والترمذى والفِرَبرى راوى الصحيح . ولد سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين

و «مسلم» رحمه الله هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيرى النيسابورى ، صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك . روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبى خيثمة وابن أبى شيبة وطبقتهم . وروى عن البخارى . وروى عنه الترمذى وابراهيم بن محمد بن سفيان راوى الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين . ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله

---

(١) يعنى ان الخصومة انما وقعت بين النبى (ص) وبين المشركين فى تحقيق «لا اله الا الله» المكونة من جملتين احداهما نفى والثانية اثبات . فالأولى تنفى كل الآلهة التى يدعها الناس والثانية تثبت الالهية لله وحده . يعنى ينبغى أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله

الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل .

الخامسة : أن الرسالة عمّت كل أمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

السابعة : المسئلة الكبيرة أن عبادة الله لاتحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى قوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)

الثامنة : أن الطاغوت عامّ في كل ما عُبدَ من دون الله

التاسعة : عِظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل (١) . أولها : النهي عن الشرك .

العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء وفيها ثمانية عشر مسئلة بدأها الله بقوله (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) وختمها بقوله (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة)

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)

الثانية عشرة : التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حقّ العباد عليه إذا أدّوا حقه .

الخامسة عشرة : أنّ هذه المسئلة لايعرفها (٢) أكثر الصحابة .

---

(١) التي هي الوصايا العشر . وأولها وأهمها (أن لاتشركوا بالله شيئا)

(٢) لايعرفها أكثر الصحابة لأن النبي أمر معاذا أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلوا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل فلم يخبر بها الا عند موته تأثما . فلذلك لم يعرفها أكثر الصحابة في حياة معاذ

السادسة عشرة : جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحبابُ بشارةِ المسلم بما يَسرُّه .

الثامنة عشرة : الخوفُ من الاتّكالِ على سعةِ رحمة الله .

التاسعة عشرة : قولُ المسئولِ عما لايعلم « الله ورسوله أعلم » .

العشرون : جوازُ تخصيص بعض الناسِ بالعلم (١) دون بعضٍ .

الحادية والعشرون : تواضُعه صلى الله عليه وسلم لركوبِ الحمار ، مع الإِردافِ عليه .

الثانية والعشرون : جوازُ الإِردافِ على الدّابة .

الثالثة والعشرون : فضيلةُ مُعاذِ بن جبلٍ

الرابعة والعشرون : عِظَمُ شأنِ هذه المسألة .

باب

﴿ فضل التوحيد(٢) وما يُكفر من الذنوب ﴾

قوله ﴿ باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ﴾ «باب» خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا (قلت) ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره هذا . و «ما» يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أى و بيان الذى يكفره من الذنوب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى وتكفيره الذنوب ، وهذا الثانى أظهر

---

١) يعنى العلم الزائد على القدر المحتاج اليه فى اقامة الدين ، والا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم فى قوله (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) وقوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقول النبى صلى الله عليه وسلم « ليبلغ الشاهد منكم الغائب »

٢) فى قرة العيون : والمراد بالتوحيد توحيد العبادة وهو افراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر ونحوه كما قال تعالى (٤٠ : ١٤ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وقال تعالى (٤٠ : ٦٥ فادعوه مخلصين له الدين)

وقول الله تعالى ﴿ ٦: ٨٢ الذينَ آمنوا ولم يَلبسوا إيمانَهُم بِظلم أولئك لهم الأمنُ وَهُم مُهتدون ﴾

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٦ : ٣٢ الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بِظلم أولئك لهم الأمنُ وهم مهتـدون ﴾ قال ابن جرير : حدثنى المثنى ـ وساق بسنده ـ عن الربيع بن أنس قال : « الايمان الاخلاص لله وحده » .

وقال ابن كثير فى الآية : أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة . وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه

وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلكم ، ألم تسمعوا إلى قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم) » وساقه البخارى بسنده (١) فقال حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنى إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضى الله عنه قال « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قلنا : يارسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، بشرك . أوَلم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه (يا بُنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)

ولأحمد بنحوه عن عبدالله قال « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله ، فأيّنا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح (يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك » . وعن عمر أنه فسره بالذنب . فيكون المعنى : الأمن من كل عذاب . وقال الحسن والكلبى « أولئك لهم الأمن ، فى الآخرة . وهم مهتدون فى الدنيا »

قال شيخ الاسلام : والذى شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبيّن لهم النبى صلى الله عليه وسلم مادلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله . فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ، فان من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله :

«١» فى قصة ابراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء

(٣٥ : ٣٢ ثم أورثنا الكتابَ الذى اصْطَفَيْنا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مُقْتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات باذن الله ؛ ذلك هو الفضل الكبير) وهذا لاينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى (٩٩ : ٦ فمن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه ؛ ٧ ومن يعملْ مثقالَ ذرة شراً يَرَه) وقد سأل أبو بكر الصديق رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله ، أيُّنا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : ياأبا بكر ألست تنصَب ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ماتجزون به » فبيّن أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب . فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك . كان له الأمن التام والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق . بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى ؛ وقد هداه الله الى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة . ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب مانقص من إيمانه بظلمه لنفسه ؛ وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام . فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعَرّضون للخوف ؛ لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون بهما مهتدين الى الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم ؛ من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ؛ ومعهم أصل نعمة الله عليهم ؛ ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله « إنما هو الشرك » إن أراد الأكبر . فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . و إن كان مراده جنس الشرك . يقال ظلم العبد نفسه ؛ كبخله لحب المال ببعض الواجب ـ هو شرك أصغر . وحبه مايبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ فى هذا الشرك بهذا الاعتبار . انتهى ملخصا (١)

وقال ابن القيم رحمه الله : قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال الصحابة « وأيُّنا يارسول الله لم يُلبس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك . ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) » لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا

«١» من كتاب الايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه

أن ظلم النفس داخل فيه . وأن من ظلم نفسه أىّ ظلم كان لم يكن آمناً ولا مهتديا . أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الاطلاق هو الشرك . وهذا والله هو الجوابُ الذى يشفى العليل و يروى الغليل . فان الظلم المطلق التام هو الشرك . الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هما الأمن فى الدنيا والآخرة . والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام . ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة . اهـ ملخصا(١)

قوله ﴿ وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ؛ وأن محمداً عبده ورسوله ؛ وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم ورُوحٌ منه . والجنةَ حقٌّ والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل . أخرجاه ﴾

عبادة بن الصامت بن قيس الانصارى الخزرجى ؛ أبو الوليد ؛ أحد النقباء ؛ بَدْرى مشهور مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين ؛ وله اثنتان وسبعون سنة ؛ وقيل : عاش الى خلافة معاوية رضى الله عنه.

---

(١) قال فى قرة العيون : قال تعالى (٣٥ : ٣٢ ثم أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفيْنا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات باذن الله ؛ ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئاً ؛ فهو تحت مشيئة الله : إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنبه ، ونجاه بتوحيده من الخلود فى النار . وأما المقتصد فهو الذى عمل بما أوجب الله عليه وترك ماحرم عليه فقط ، وهذه حال الأبرار . وأما السابق فهو الذى حصل له كمال الايمان باستفراغه وسعه فى طاعة الله علما وعملا . فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام فى الدنيا والآخرة . فالكل للكل ، والحصة للحصة ، لأن كمال الايمان يمنع صاحبه من المعاصى وعقوباتها ، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به كما قال تعالى (٤ : ١٤٧ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وهذا الذى ذكرته فى معنى هذه الآية هو ماقرره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله فى معناها ، وهو الذى دل عليه القرآن ، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافا لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم

قوله ﴿ من شهد أن لا إله إلا الله ﴾ أى من تكلم بها عارفا لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، باطنا وظاهراً ؛ فلا بد فى الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما ؛ كما قال الله تعالى (٤٧ : ١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٤٣: ٨٦ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل : قولِ القلب واللسان ، وعملِ القلب والجوارح - فغير نافع بالاجماع(١)

قال القرطبى فى المفهم على صحيح مسلم : بابٌ لا يكفى مجردُ التلفظ بالشهادتين ؛ بل لا بد من استيقان القلب - هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرْجِئَة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الايمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ؛ والحكم للمنافق

---

١) قال فى قرة العيون : وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتا ، فنفت الالهية عن كل ماسوى الله بقولك «لا إله» وأثبتت الالهية لله وحده بقولك « الا الله» قال تعالى (٣: ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقلبوا حقيقة المعنى فأثبتوا الالهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك ، واتخذوا ذلك دينا وشبهوا وزخرفوا ، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم اليه ؛ فلم يعرفوا منها ماعرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم(*) فانهم عرفوا معناها وأنكروا مادلت عليه من الاخلاص كما قال تعالى (٣٧ : ٣٥ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ٣٦ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها . فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه ؛ وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه ؛ فلهذا تجده يقول : لا إله الا الله، وهو يدعو مع الله غيره .

(*) سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئاً من معنى التوحيد الذى قرره . وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة وانما يدينون بالاصطلاحات التى تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية . واذا كان مثل الفخر الرازى من أكبر أئمة متكلميهم وأصوليهم أخطا فى فهم معنى الأله فى تفسير قوله تعالى : (قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فما الظن بمن دونه من علمائهم . دع عامتهم ودهماءهم ؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتاً أو صالحا حياً فيما لا يدعى فيه إلا الله ، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابداً له ومتخذاً له إلهاً ؟!!

بالايمان الصحيح . وهو باطل قطعاً اه .

وفى هذا الحديث مايدل على هذا . وهو قوله « من شهد » فان الشهادة لاتصح إلا إذا كانت عن علم و يقين و إخلاص وصدق .

قال النووى : هـذا حديث عظيم جليل الموقع ؛ وهو أجمع ـ أو من أجمع ـ الأحاديث المشتملة على العقائد . فانه ﷺ جمع فيه مايخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها . فاقتصر ﷺ فى هذه الأحرف على مايباين جميعهم اه .

ومعنى « لا إله إلا الله » لا معبود بحق إلا الله . وهو فى غير موضع من القرآن ، و يأتيك فى قول البقاعى صريحاً قوله ﴿ وحده ﴾ تأكيد للإثبات ﴿ لا شريك له ﴾ تأكيد للنفى . قاله الحافظ . كما قال تعالى (٢ : ١٦٣ وإلهكم إلهٌ واحد لا إلهَ إلا هو الرحمٰنُ الرحيمُ) وقال (٢١:٢٥ وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ من رسولٍ إلا نُوحى إليه أنه لا إلهَ إلا أنا فاعبدون) وقال (٧:٦٥ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلٰهٍ غيرُه) فأجابوه رداً عليه بقولهم (أجئتنا لِنعْبدَ اللهَ وحده ونَذَرَ ما كان يعبدُ آباؤنا ؟) وقال تعالى (٢٢:٦٢ ذلك بأن الله هو الحق وأنّ مايدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلىُّ الكبير) .

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله ؛ وهى العبادة . و إثباتَها لله وحده لا شريك له ، والقرآنُ من أوله الى آخره يبين هذا و يقرره و يرشد اليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل ؛ رَغَباً ورَهَبا ، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله . فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نِدا ؛ فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .

﴿ ذكر كلام العلماء فى معنى « لا إله إلا الله » ﴾

قد تقدم كلام ابن عباس ؛ وقال الوزير أبو المظفر فى الافصاح : قوله « شهادة أن لا إله إلا الله » يقتضى أن يكون الشاهد عالما بأنه لا إلٰه إلا الله ، كما قال تعالى (فاعلم أنه لا إلٰه إلا الله) قال : واسم (الله) مرتفع بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملة الفائدة فى ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت

والايمان بالله ؛ فانك لما نفيت الإلهية وأثبت الايجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال ابن القيم فى البدائع(١) رداً لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، فلا يكون داخلا فى المستثنى ؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الاسلام بقوله « لا إله إلا الله » لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهـذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفى الإلهية عما سوى الله و إثباتها له بوصف الاختصاص . فدلالتها على إثبات إلهٰيته أعظم من دلالة قولنا : (الله إلٰه) ولا يستريب أحد فى هـذا ألبتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبدالله القرطبى فى تفسيره (لا إلٰه إلا الله) أى لا معبود إلا هو .

وقال الزمخشرى : الإلٰه من أسماء الأجناس . كالرجل والفرس ؛ يقع على كل معبود بحق أو باطل ؛ ثم غلب على المعبود بحق .

وقال شيخ الاسلام : الإلٰه هو المعبود المطاع ، فان الإلٰه هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ، قال : فان الإلٰه هو المحبـوب المعبود الذى تألهه القـلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه . وتنيب اليه فى شـدائدها ، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ اليه وتطمئن بذكره ، وتسكن الى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت (لا إلٰه إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها أهلَ الله وحزبَه ، والمنـكرون لهـا أعداءه وأهل غضـبه ونقمته ، فاذا صحت صح بها كل مسألة وحالٍ وذوق ، واذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله .

وقال ابن القيم : (الإلٰه) هو الذى تألهه القـلوب محبة وإجلالا و إنابة ؛ و إكراما وتعظيما ! وذلا وخضوعا ، وخوفا ووجاء وتوكلا .

وقال ابن رجب : (الإلٰه) هو الذى يطاع فلا يعصى، هيبة له و إجـلالا ، ومحبة وخوفا ورجاء ، وتوكلا عليه ،وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقا فى شىء من هـذه الأمور التى هى من خصائص الإلٰهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى

---

١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم « ج ٣ ص ٥٦ » وهو بحث قيم جدا فى الاستثناء و المستثنى

قول (لا إلٰه إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب مافيه من ذلك .

وقال البقاعى : لا إلٰه إلا الله ، أى انتفاء عظيما أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم ، فان هذا العِلْم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ؛ و إنما يكون علماً اذا كان نافعاً ، وانما يكون نافعاً اذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، و إلا فهو جهل صِرْف .

وقال الطيبى : (الإلٰه) فِعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من أَلِه إلٰهة أى عبد عبادة . قال الشارح : وهذا كثير فى كلام العلماء و إجماع منهم .

فدلت (لا إلٰه الا الله) على نفى الإلٰهية عن كل ماسوى الله تعالى كائناً ما كان ، و إثبات الالٰهية لله وحده دون كل ماسواه ، وهذا هو التوحيد الذى دعت اليه الرسل ودلّ عليه القرآن من أوله الى آخره ، كما قال تعالى عن الجن (٧٢ : ١ ُقلْ أُوحىَ إلىّ أنه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجبا ، يَهْدِى الى الرُّشدِ فآمنّا به ولن نُشركَ بربّنا أحدا) فلا إلٰه إلا الله لاتنفع إلا من عرف مدلولها نفياً و إثباتاً ، واعتقد ذلك وقبله وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم فى كلام العلماء أن هذا جهل صرف ، فهى حجة عليه بلا ريب .

فقوله فى الحديث « وحده لا شريك له » تأكيد و بيان لمضمون معناها . وقد أوضح الله ذلك و بيّنه فى قصص الأنبياء والمرسلين فى كتابه المبين ، فما أجهل عُبّاد القبور بحالهم ! وما أعظم ماوقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الاخلاص لا إله إلا الله ! فان مشركى العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظا ومعنى . وهؤلاء المشركون أقرّوا بها لفظا وجحدوها معنى ، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم ، والخوف والرجاء ، والتوكل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة . بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب ، فان أحدهم اذا وقع فى شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى ، و يعتقدون أنه أسرع فَرَجاً لهم من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ؛ فانهم كانوا يشركون فى الرخاء ، وأما فى الشدائد فانما يخلصون لله وحده ، كما قال تعالى (٢٩ : ٦٥ فاذا ركبوا فى الفُلْك دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّين فلما نجّاهم الى البرّ اذا هم يشركون) الآية . فبهذا يتبين أن مشركى أهل هذه الأزمان أجهل بالله و بتوحيده من مشركى العرب ومن قبلهم (١)

---

(١) فى قرة العيون «قلت» وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الأله وقلبوا حقيقة المعنى

وأنَّ محمداً عبدُه ورسُولُه

وقوله ﴿ وأن محمداً عبده ورسوله ﴾ أى وشهد بذلك ، وهو معطوف على ماقبله على نيـّة تكرار العامل ، ومعنى «العبد» هنا المملوك العابد ، أى انه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه ، كما قال تعالى (٣٩:٢٦ أليسَ الله بكافٍ عبدَه ؟) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة ؛ فالنبى ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين . وأما الربوبية والالٰهية فهما حق الله تعالى، لا يَشْرَكُه فى شىء منهما مَلَك مُقرّب ولا نبىٌّ مرسل . وقوله «عبده ورسوله» أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للافراط والتفريط ، فان كثيراً ممن يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولا وفعلا ، وفرط بترك متابعته ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها فان شهادة أن محمداً رسول الله تقتضى الايمان به وتصديقه فيما أخبر ؛ وطاعته فيما أمر ؛ والانتهاء عما عنه نهى وزجر ؛ وأن يعظِّم أمره ونهيه ، ولا يقدَّم عليه قول أحد كائناً من كان (١) . والواقع اليوم وقبله — ممن ينتسب الى العلم من القضاة والمفتين — خلاف ذلك ، والله المستعان .

= الى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته (لا إله الا الله) من الشرك وأنكروا ما أثبتته من اخلاص العبادة لله جهلا منهم ؛ وقد قال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين) قال محيي الدين النووى ؛ اعلم ان باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة ولم يبق فى هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، واذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح

وقوله فى هذه الأزمان يعنى القرن الخامس والسادس ، واذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربة . ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يسبق الى مثله فليراجع لمسيس الحاجة اليه

(١) فى قرة العيون : وأن لا تعارض بقول أحد لأن غيره (ص) يجوز عليه الخطأ والنبى (ص) قد عصمه الله تعالى، وأمرنا بطاعته والتأسى به وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى (٣٣ : ٣٦ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الآية . وقال (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) قال الامام أحمد رحمه الله تعالى « أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ؛ لعله اذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك» . وقد وقع التفريط فى المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله (ص) لاسيما من العلماء كما لايخفى

وأنَّ عيسىَ عبدُ اللهِ ورسولُه

وروى الدارمى فى مسنده عن عبدالله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول « إنا لنجد صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحِرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يَجْزى بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يُقيم الملّة المتعوجة بأن يشهد أن لا إله إلا الله، يفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صُمّا وقلوباً غُلْفاً » قال عطاء بن يسار : وأخبرنى أبو واقد الليثى أنه سمع كعباً يقول مثل ماقال ابن سلام (١)

قوله ﴿ وأن عيسى عبد الله ورسوله ﴾ أى خلافا لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا (٢٣ : ٩١ ما اتّخَذَ الله من ولَدٍ وما كان معه مِنْ إلـهٍ) فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله (٢) على علم ويقين بأنه مملوك لله؛ خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى (٣ : ٥٩ إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كمَثَلِ آدمَ خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون) فليس ربّا ولا إلـهاً . سبحان الله عما يشركون . قال تعالى (١٩ : ٢٩ـ٣٦ فأشارتْ اليه . قالوا كيف نُكلّم من كان فى المهْدِ صبيًّا، قال إنى عبدُ الله آتانىَ الكتاب وجعلنى نبياً، وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمتُ حياً ؛ وَبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شَقياً؛ والسلامُ علىّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويومَ أُبعثُ حياً ؛ ذلك عيسى بنُ مريمَ قول الحقِّ الذى فيه يمترون ؛ ما كانَ لله أن يتخِذَ من ولدٍ سبحانه، اذا قضَى أمراً فانما يقول له كُنْ فيكون ، وإن الله ربِّى وربُّكم فاعبدوه هذا صراط

١) آخر رواية الدارمى « ج ١ ص ٥ » وفى الرواية عن كعب « نجده مكتوبا فى التوراة »

٢) فى قرة العيون ، فيه بيان الحق الذى يجب اعتقاده كما فى الآيات المحكمات وما فيها من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف: طائفة قالوا ان عيسى هو الله ؛ وطائفة قالوا ابن الله ؛ وطائفة قالوا ثالث ثلاثة . يعنون عيسى وأمه . فبين الله تعالى فى كتابه الحق وأبطل الباطل فقال (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم، انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا) والآيات بعدها . وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) فى مواضع من سورة المائدة وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو فى المهد

مستقيم)[1] وقال (٤ : ١٧٢ لَنْ يَستنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون؛ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا) ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : انه ولد بَغِيٍّ ، لعنهم الله تعالى . فلا يصح اسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً فى عيسى عليه السلام ؛ ويعتقد ماقاله الله تعالى فيه : انه عبد الله ورسوله .

قوله ﴿ وكلمته ﴾ إنما سمى عيسى عليه السلام كلمة لوجوده بقوله تعالى « كن » كما قاله السلف من المفسرين . قال الامام احمد فى الرد على الجهمية [2] « بالكلمة التى ألقاها الى مريم حين قال له « كن » فكان عيسى بكن وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان . فكن من الله تعالى قول ، وليس « كن » مخلوقا ، وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى » انتهى

قوله ﴿ ألقاها الى مريم ﴾ قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل الى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل ؛ فكان عيسى بأذن الله عز وجل ؛ فهو ناشىء عن الكلمة التى قال له « كن فكان » والروح التى أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله ﴿ وروح منه [3] ﴾ قال أُبى بن كعب « عيسى روح من الأرواح التى خلقها الله

«١» فى قرة العيون : فبين تعالى الصراط المستقيم الذى من سلكه نجا ومن خرج عنه هلك وقال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين) فبين تعالى الصراط المستقيم بيانا شافياً ووافياً وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون

«٢» صفحة ٢٠ طبعة عيسى الحلبى وأولاده فى باب : ثم ان الجهمى ادعى أمراً فقال : انا وجدنا آية فى كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق . فقلنا : أى آية ؟ قال قول الله « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم » وعيسى مخلوق .

«٣» الظاهر أن معنى «وروح منه» أنه كغيره من بنى آدم الذى يقول الله فيه (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) كما مثله فى الآية الأخرى بأنه مثل آدم . والله أعلم

وقال فى قرة العيون : أى من الأرواح التى استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم كما قال تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من

تعالى واستنطقها بقوله (٧ : ١٧٢ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) بعثه الله إلى مريم فدخل فيها » رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ، فالمعنى أنه كائن منه ، كما فى قوله تعالى (٤٥ : ١٢ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أى إنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته

قال شيخ الاسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنًى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب . واذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بنى آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ، لأن ماقام بنفسه لايكون صفة لغيره

= ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية . وروح عيسى من تلك الأرواح التى خلقها الله تعالى . وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال « نفخ جبريل فى جيب درع مريم حتى وصلت النفخة الى الرحم فاشتملت عليه » وعن السدى أن النفخة دخلت فى صدرها فحملت ، وقال ابن جريج : يقولون انما نفخ فى جيب درعها وكمها انتهى مختصراً . فجبريل نفخ والله خلق بقول « كن » فكان . كما قال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) فسبحان من لايخلق غيره ولا يعبد سواه .

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى (وروح منه)

فقال فى الجواب : هذا ليس خاصاً بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها . كما قال تعالى (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) أى خلقا وايجاداً وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته . وفى هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله فانهم كانوا هم والنصارى على طرفى نقيض فنسبوه الى أنه ولد بغى ، قاتلهم الله . فأكذبهم الله تعالى فى كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها

فالنصارى غلوا فى عيسى بن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال ، واليهود جفوا فى حقه غاية الجفاء ، وكلاهما قد ضل ضلالا بعيدا ، نبه الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولى العزم الخمسة المذكورين فى سورة الأحزاب (٣٣ : ٧ والشورى ٤٢ : ١٣) وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا فقال (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فهم أفضل الرسل على التحقيق والنبى صلى الله عليه وسلم أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

لكن الأعيان المضافة الى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف اليه لكونه خلقها وأبدعها ؛ فهـذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله ؛ وجميع المال مال الله

الوجه الثانى : أن يضاف اليه لما خصه به من معنى يحبه و يأمر به ويرضاه ؛ كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره . وكما يقال فى مال الخُمْس والفَىء : هو مال الله ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . اه ملخصاً

قوله ﴿ والجنة حق والنار حق ﴾ أى وشهد أن الجنة التى أخبر بها الله تعالى فى كتابه أنه أعدها للمتقين حق ؛ أى ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة ؛ كما قال تعالى (٥٧ : ٢١ سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (٢ : ٢٤ فاتقوا النار التى وقودها الناسُ والحجارة أُعدت للكافرين) وفى الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ؛ خلافا للمبتدعة [١] . وفيهما الايمان بالمعاد .

وقوله ﴿ أدخله الله الجنــة على ما كان من العمــل ﴾ هـذه الجملة جواب الشرط ، وفى رواية « أدخله الله من أى أبواب الجنــة الثمانية شاء » . قال الحافظ : معنى قوله « على ما كان من العمــل » أى من صلاح أو فساد ، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة . ويحتمل أن يكون معنى قوله « على ما كان من العمــل » أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات .

قال القاضى عياض : ما ورد فى حديث عُبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره صلى الله عليه وسلم وقرن

«١» فى قرة العيون : ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل فان الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار المتقين ، وذكر النــار وما فيها من العذاب وانه أعدها لمن كفر به وأشرك

ولهما فى حديث عِتْبان « فانَّ اللهَ حرَّمَ على النار مَنْ قالَ لا إلٰه إلاَّ الله، يَبْتَغِى بذلكَ وَجْهَ الله »

بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه، فيكون له من الأجر مايرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة .

﴿ قال : ولهما فى حديث عِتْبان « فان الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » ﴾

قوله (ولهما) أى للبخارى ومسلم فى صحيحيهما بكماله . وهذا طَرَف من حديث طويل أخرجه الشيخان[1]

«١» فى قرة العيون : اختصره المصنف وذكر منه مايناسب الترجمة وهو قوله « من قال لااله الا الله يبتغى بذلك وجه الله » وهذا هو حقيقة معناها الذى دلت عليه هذه الكلمة من الاخلاص ونفى الشرك ، والصدق والاخلاص متلازمان لايوجد أحدهما بدون الآخر ، فان لم يكن مخلصاً فهو مشرك ومن لم يكن صادقا فهو منافق، والمخلص أن يقولها مخلصاً الالهية لمن لايستحقها غيره وهو الله تعالى، وهذا التوحيد هو أساس الاسلام الذى قاله الخليل عليه السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقالت بلقيس (رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال الخليل عليه السلام (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا المشركين) والحنيف هو الذى ترك الشرك رأساً وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى [ومن يسلم الى الله وجهه وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى] فاسلام الوجه هو اخلاص العبادة المنافى للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها اجماعا . فهذا هو الذى ينفعه قوله (لااله الا الله) ولهذا قال تعالى [فقد استمسك بالعروة الوثقى] وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لاينفع ولا يضر، كما ترى عليه أكثر الخلق ، فهؤلاء وان قالوها فقد تلبسوا بما يناقضها، فلا تنفع قائلها الا بالعلم بمدلولها نفياً واثباتا. والجاهل بمعناها وان قالها لاتنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربى الذى أريد منها من نفى الشرك ، وكذلك اذا عرف معناها بغير تيقن له ، فاذا انتفى اليقين وقع الشك .

ومما قيدت به فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم « غير شاك » فلا تنفع الا من قالها بعلم ويقين لقوله «صدقا من قلبه، خالصاً من قلبه» وكذلك من قالها غير صادق فى قوله. فانها لاتنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم . =

وعتبان بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة ، ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصارى ، من بنى سالم بن عوف ، صحابى مشهور ، مات فى خلافة معاوية

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ ومعاذٌ رديفَه على الرَّحْلِ قال « يامعاذ ، قال : لَبَّيك يارسول الله وسَعْدَيك . قال : يامعاذ ، قال : لبيك يارسول الله وسعديك . قال يامعاذ ، قال . لبيك يارسول الله وسعديك ـ ثلاثا ـ قال ما من أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار . قال : يارسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يَتَّكلُوا ، فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّما » . وساق بسند آخر : حدثنا معتمر قال سمعت أبى ، قال سمعت أنساً قال : ذُكر لى أن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل « مَنْ لقىَ الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أُبشر النـاس ؟ قال : لا ، إنى أخاف أن يتكلوا »

قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين واخلاص .

قال شيخ الاسلام وغيره : فى هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله « خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين » فان حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة ، لأن الاخلاص هو انجذاب

= وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للاخلاص، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة فانها دلت على نفى الشرك والبراءة منه والاخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة . ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله « لا اله الا الله » كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون « لا اله الا الله » وينكرون مادلت عليه من الاخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله وقد قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه (٤٣ : ٢٦ انني براء مما تعبدون ٢٧ الا الذى فطرنى فانه سيهدين ٢٨ وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وهي « لا اله الا الله » وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذى وضعت له ودلت عليه ، وهو البراءة من الشرك واخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل مادلت عليه من الاخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذبا منه بل قد عكس مدلولها فأثبت مانفته من الشرك ونفى ما أثبتته من الأخلاص

فهذا الذى ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة ، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى فيصدفه عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذى شرعه لعباده ورضيه لهم

القلب الى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا ، فاذا مات على تلك الحال نال ذلك، فانه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يَزِن شَعيرة ، وما يزن خَرْدلة، وما يَزن ذَرّة »وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله الا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم ، فهؤلاء كانوا يصلون و يسجدون لله ، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الاخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تخالط حلاوة الايمان بشاشة قلبه . وغالب من يُفتن عند الموت وفى القبور أمثال هؤلاء ، كما فى الحديث « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته »(١) وغالب أعمال هؤلاء إنما هى تقليد واقتداء بأمثالهم ؛ وهم من أقرب الناس من قوله تعالى (٢٣:٤٣ إنا وجدنا آباءنا على أُمّةٍ وإنا على آثارهم مُقْتَدون)

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فانه اذا قالها باخلاص و يقين تام لم يكن فى هذه الحال مصراً على ذنب أصلا، فان كمال إخلاصه و يقينه يوجب أن يكون الله أحب اليه من كل شيء ، فاذاً لا يبقى فى قلبه إرادة لما حرم الله ؛ ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذى يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فان هذا الايمان وهذا الاخلاص ؛ وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا مُحىَ عنه كما يمحو الليل النهار، فاذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مُصِرّ على ذنب أصلا ، فيغفر له ويحرم على النار . وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ؛ فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات، كما فى حديث البطاقة(٢) فيحرم على النار . ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصِراً على ذلك، فانه يستوجب النا . وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر . لكنه لم يمت على ذلك ؛ بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده ، فانه فى حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهَنت ذلك التوحيد والاخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ،

١) فى حديث البراء بن عازب الذى رواه أصحاب السنن وغيرهم فى سؤال القبر
٢) سيأتى فى صحيفة ٥٠

فإن حسناته لاتكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مصراً على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يُخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها باخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ؛ فيضيف الى ذلك سيئات تنضم الى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الايمان واليقين ، فيضعف قول لا إله إلا الله ، فيمتنع الاخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهاذى أو النائم ، أو من يحسّن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك . بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة. فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ؛ وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن الى الباطل ، واستحلى الرّفثَ ، ومخالطة أهل الغفلة ؛ وكره مخالطة أهل الحق ؛ فمثل هذا اذا قالها قال بلسانه ماليس فى قلبه ، وبفيه مالا يصدقه عمله .

قال الحسن: « ليس الايمان بالتّحلّى ولا بالتمنى ، ولكن ما وَقَر فى القلوب وصدقته الأعمال . فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه »

وقال بكر بن عبد الله المزَنىّ : « ماسبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشىء وَقَر فى قلبه » .

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً، وكان صادقا فى قولها موقناً بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف الى ذلك الشرك الأصغر العملى، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلا ، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجّح حسناته. والذين يدخلون النار ممن يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسَى : يا رَبِّ علِّمني شَيئاً أذكُركَ وأدعوكَ به .

الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لايقوى على محو السيئات فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصا

وقد ذكر هذا كثير من العلماء ، كابن القيم وابن رجب وغيرهم

قلت : وبما قرره شيخ الاسلام تجتمع الأحاديث

قال : وفى الحديث دليل على أنه لا يكفى فى الايمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس . وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه أن العمل لاينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى على ماشرعه على لسان رسوله ﷺ

(تنبيه) قال القرطبي فى تذكرته : قوله فى الحديث «من إيمان» أى من أعمال الايمان التى هى من أعمال الجوارح . فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الايمان ، والدليل على أنه أراد بالايمان ما قلناه ، ولم يرد مجرد الايمان الذى هو التوحيد ونفى الشركاء والاخلاص بقول لا إله إلا الله : مافى الحديث نفسه من قوله « أخرجوا ـ ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوما لم يعملوا خيراً قط » يريد بذلك التوحيد المجرد من الأعمال . اه ملخصاً من شرح سنن ابن ماجه

قال المصنف رحمه الله ﴿ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « قال موسى عليه السلام :يارب ، علمنى شيئا أذكرك وأدعوك به . قال : قل ياموسى : لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا . قال : ياموسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ؛ والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله الا الله فى كفة ؛ مالت بهن لا إله الا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه ﴾

أبو سعيد : اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل وأبوه كذلك . استصغر أبوسعيد بأحد ، وشهد مابعدها . مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين . وقيل سنة أربع وسبعين

قوله ﴿ أذكرك ﴾ أى أثنى عليك به ﴿ وأدعوك ﴾ أى أسألك به

قال : قلْ يا موسَى لا إلـه إلاَّ الله . قال : يارِبِّ كلُّ عبادِك يقولون هـذا . قال ياموسى لو أنَّ السَّمٰوات السَّبعَ وعامِرَهنَّ غيرى والأرَضين السَّبعَ فى كِفة

قوله ﴿ قل ياموسى لا إله الا الله [1] ﴾ فيه أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على « هو » كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فان ذلك بدعة وضلال

قوله ﴿ كل عبادك يقولون هذا ﴾ ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذى فى الأصول « يقول » بالإفراد مراعاة للفظة « كل » وهو فى المسند من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى « كل » ومعنى قوله « كل عبادك يقولون هذا » أى إنما أريد شيئا تخصنى به من بين عموم عبادك ؛ وفى رواية ـ بعد قوله « كل عبادك يقولون هذا ـ قل لا إله الا الله ، قال لا إله الا أنت يا رب ، إنما أريد شيئا تخصنى به »

ولما كان بالناس — بل بالعالم كله — من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لانهاية له ؛ كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولا ، وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة

قوله ﴿ وعامرهن غيرى [2] ﴾ هو بالنصب عطف على السموات ، أى لو أن السموات

---

(١) قال فى قرة العيون : فلا نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى وخبرها محذوف تقديره لا إله حق إلا الله . قال تعـالى : (ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) فإلـهيته تعـالى هى الحق وكل ماسواه من الآلهـة فإلـهيته باطلة كما فى هذه الآية ونظائرها . فهذه كلمة عظيمة هى العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الاخلاص ، وهى التى قامت بها السموات والأرض ، وشرعت لتكميلها السنة والفرض ، ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصى من العباد . فمن قالها وعمـل بها صدقا وإخلاصاً وقبولا ، ومحبة وانقياداً أدخله الله الجنة على ما كان من العمل .

(٢) قال فى قرة العيون : أى كل من فى السموات والارض وقوله « غيرى » استثنى ممن فى السموات نفسه لأنه العلى الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى (٢ : ٢٥٥ وهو العلى العظيم) علو القهر وعلو القدرة وعلو الذات . فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) (٢٥ : ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن) الآية . فى سبعة مواضع

= من كتابه (٧:٥٣ و١٠:٣ و١٣: ٢ و٣٢ : ٤و ٤٧:٤) كما قال تعالى (٣٥:١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى (٧٠:٤ تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٣:٥٥ إنى متوفيك ورافعك إلىّ) وأمثال هذه الآيات

فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد فى أسمائه وصفاته ، ومعنى هذه الكلمة : نفى الآلهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى .

لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا فى حق من أتى بقيودها التى قيدت بها فى الكتاب والسنة ، وقد ذكر الله سبحانه فى سورة براءة وغيرها كثيراً ممن يقولها ولم ينفعهم قولها . كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم فى نفاقهم فلم تنفعهم مع ماقام بهم من ترك تلك القيود .

(فمنهم) من يقولها جاهلا بما وضعت له وبما دلت عليه من نفى الشرك والبراءة منه والصدق والاخلاص وغيرها . كعدم القبول ممن دعى اليها علماً وعملا ، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديما وحديثا ، ولكن فى أواخر هذه الأمة أكثر .

(ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ماقام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الاسباب وهى كثيرة منها قوله تعالى (٩:٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين)

وأما أهل الايمان الخالص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة واجتمعت لهم قيودها التى قيدت بها علماً ويقينا وصدقا وإخلاصاً ومحبة وقبولا وانقياداً وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه . وقد ذكرهم الله تعالى فى مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار ؛ كما قال تعالى (٩ : ١٠٠ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) فهؤلاء ومن اتبعهم باحسان هم أهل « لا إله إلا الله » وغير هذه من الآيات فى الثناء عليهم وما أعد لهم فى الدار الآخرة .

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق فى محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار مايحبه تعالى رغبة وعملا . وترك مايكرهه خشية ورجاء ، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وماهم فيه من التفاوت البعيد ؛ تبين له خطأ المغرورين كما فى الحديث الصحيح عن النبي (ص) أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى »

ولا إلٰه إلاَّ الله فى كِفَّةٍ مالت بهن لا إله إلا الله »

السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وُضعوا فى كفة الميزان ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الامام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ « أن نوحا عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله ، فان السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كِفَّة ، ولا إله إلا الله فى كفة رَجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله ؛ ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهمة لَقَصَمَتْهن لا إله إلا الله »

قوله ﴿ فى كِفة ﴾ هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أى كفة الميزان .

قوله ﴿ مالت بهن ﴾ أى رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك ، وتوحيد الله الذى هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فمن قالها باخلاص ويقين ؛ وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها ، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شىء ؛ كما قال الله تعالى (١٣:٤٦ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)

ودل الحديث على أن « لا إله إلا الله » أفضل الذكر . كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعا : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ماقلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » رواه أحمد والترمذى ، وعنه أيضا مرفوعا « يُصاحُ برجل من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدّ البصر ثم يقال : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول لا يارب . فيقال : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول لا ، فيقال بلى إن لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ؛ والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى وحسنه . والنسائى وابن حبان والحاكم . وقال صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبى فى تلخيصه : صحيح .

قال ابن القيم رحمه الله : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وانما تتفاضل بتفاضل مافى القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة و بينهما من التفاضل كما بين السماء والارض . قال : وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة و يقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مدى

رواه ابن حِبان والحاكم وصححه .

وللترمذى وحسنه عن أنس : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى:

البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هـذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

قوله ﴿ رواه ابن حبان والحاكم ﴾ ابن حبان اسمه محمد بن حبان ـ بكسر المهملة وتشديد الموحدة ـ ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمى البُسْتى الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح ، والتاريخ ، والضعفاء ، والثقات وغير ذلك . قال الحاكم : كان من أوعية العلم فى الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلثمائة بمدينة بُسْت ـ بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبدالله بن محمد النيسابورى أبو عبدالله الحافظ ويعرف بابن البَيِّع ولد سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، وصنف التصانيف ، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما ، ومات سنة خمس وأربعمائة .

قال المصنف رحمه ﴿ وللترمذى ؛ وحسنه ، عن أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ؛ إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة » ﴾(١)

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذى بتمامه فقال : عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم ؛ إنك مادعوتنى ورَجَوْتَنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى ؛ يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم، إنك لو أتيتنى ـ الحديث»

الترمذى : اسمه محمد بن عيسى بن سَوْرة ـ بفتح المهملة ـ ابن موسى بن الضحاك السلمى

---

(١) فى قرة العيون : فى هذا الحديث مايبين معنى « لا إله إلا الله » التى رجحت بجميع المخلوقات ، وجميع السيئات ؛ وان ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره ، وذلك يقتضى كمال التوحيد فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الاخلاص من العلم واليقين والصدق والاخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة الغظيمة كما قال تعالى (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم)

يا ابنَ آدَمَ لو أتيتَني بِقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لاتشرك بى شيئاً لأتيتك بِقُرابها مغفرة »

أبو عيسى ، صاحب الجامع وأحد الحفاظ ، كان ضرير البصر ، روى عن قتيبة وهنّاد والبخارى وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

وأنس : هو ابن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى ، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين ، وقال له « اللهم أكثر ماله وولده ، وأدخله الجنة » مات سنة اثنتين وقيل : ثلاث ، وتسعين ، وقد جاوز المائة

والحديث قد رواه الامام أحمد من حديث أبى ذرّ بمعناه ، وهذا لفظه « ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقينى لايشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة » ورواه مسلم ، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ .

قوله ﴿ لو أتيتنى بقراب الأرض ﴾ بضم القاف ، وقيل بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو مايقارب ملئها .

قوله ﴿ ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا ﴾ شرطٌ ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك : كثيره وقليله ، صغيره وكبيره . ولا يسلم من ذلك إلا من سلّمَ الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى (٢٦ : ٨٩ يوم لاينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بِقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة — إلى أن قال — فان كمُل توحيد العبد و إخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ماقد سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية . فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ماسوى الله : محبة وتعظيما ، و إجلالا ومهابة وخشية وتوكلا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ، و إن كانت مثل زَبد البحر . اهـ ملخصاً

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى الحديث : ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك . فلو لقى الموحد الذى لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده . فان التوحيد الخالص الذى لايشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنه يتضمن من محبة الله و إجلاله وتعظيمه ، وخوفه ورجائه

فيه مسائل: الأولى: سَعة فضل الله

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان ومابعده تبين لك معنى قول

وحده مايوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوى. اهـ

وفي هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسَعة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد في النار. والصواب قول أهل السنة: أنه لا يُسلب عنه اسم الايمان، ولا يُعطاه على الاطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال «لما أُسرىَ برسول الله ﷺ انتُهىَ به إلى سدرة المنتهى، فأُعطىَ ثلاثا: أُعطى الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا: المقحِمات» رواه مسلم

قال ابن كثير في تفسيره: وأخرج الامام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس ابن مالك قال «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (٧٤: ٥٦ هو أهلُ التقوى وأهل المغفرة) وقال: قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتّقى فلا يُجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلها كان أهلا أن أغفر له»

قال المصنف رحمه الله ﴿ تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة فانك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله «لا إله الا الله» وتبين لك خطأ المغرورين

وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله الا الله» والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرا ممن يقولها يخف ميزانه. وفيه إثبات الصفات خلافا للمعطلة. وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله في حديث عتبان «إن الله حرم على النار من قال لا إله الا الله يبتغى بذلك وجه الله» تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط ﴾

« لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين [1]

السابعة : التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان [2]

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه

العاشرة : النص على أن الأرضين سبع كالسموات

الحادية عشرة : أن لهن عُماراً

الثانية عشرة : إثبات الصفات خلافا للأشعرية.

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت ان قوله فى حديث عتبان « فان الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » انه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدى الله ورسوليه

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله

«١» كثير من النـاس يخطئون فى فهم أحاديث « من قال لااله الا الله دخل الجنة » فيظنون بأن التلفظ بها يكفى وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك فان من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم « لااله الا الله » لأنه لم يتدبرها . اذ أن حقيقة معناها : البراءة من كل معبود والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده والقيام بها على الوجه الذى يحبه ويرضاه . فمن لم يقم بحقها من العبادة، أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاء الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فانه يكون هادماً لها . فلا تنفعه دعواه ولا تغنى عنه شيئا . ولو كان مجرد قولها كافياً لم يقع من المشركين ماوقع من محاربة الرسول «ص» ومعاداته . قال الله تعالى «فاعلم أنه لااله الا الله - وقال - الا من شهد بالحق وهم يعلمون» فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لاينفعه التلفظ . وكل من جعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهو اما جاهل بمعناها أو كاذب فى ادعائه الايمان . وأولئك هم المغرورون « الأخسرون أعمـالا الذين ضل سعيهم فى الحيـاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

(٢) هو قوله « يبتغى بها وجه الله» ومن قالهـا يبتغى بها وجه الله لابد أن يعمل ويخلص عمله لله .

السادسة عشرة : معرفة كونه روحا منه

السابعة عشرة : معرفة فضل الايمان بالجنة والنار

الثامنة عشرة : معرفة قوله «على ما كان من العمل»

التاسعة عشرة : معرفة ان الميزان له كفتان

العشرون : معرفة ذكر الوجه

باب

﴿ مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ﴾

قوله ﴿باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ﴾ أى ولا عذاب

(قلت) تحقيقه تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصى [1]

(١) فى قرة العيون : وتحقيق التوحيد عزيز فى الأمة لا يوجد إلا فى أهل الايمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى فى يوسف عليه السلام (١٢: ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلَصين) بفتح اللام، وفى قراءة (المخلِصين) بكسرها، وهم فى صدر هذه الأمة كثيرون وفى آخرها هم الغرباء؛ وقد قلوا . وهم الأعظمون قدراً عند الله . وقال تعالى عن خليله عليه السلام (٦: ٧٨ قال ياقوم انى برىء مما تشركون ٧٩ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) أى أخلصت دينى وأفردت عبادتى للذى فطر السموات والأرض أى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفا) أى فى حال كونى حنيفا أى مائلا عن الشرك الى التوحيد . ولهذا قال (وما أنا من المشركين) ونظائر هذه الآية فى القرآن كثير . كقوله (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) وقال تعالى (ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى فى الآية: يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أى أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه ، ولهذا قال (وهو محسن) أى فى عمله واتباع ما أمر به وترك ما عنه زجر . فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الاخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله كما تقدم فى الباب قبل هذا .

قال الله تعالى (١٦ : ١٢٠ إن إبراهيم كان أُمةً قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين) وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التى هى الغاية فى تحقيق التوحيد

الأولى : أنه كان أمة ، أى قدوةً و إماماً معلما للخير . وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الامامة فى الدين

الثانية : قوله «قانتاً» قال شيخ الاسلام : القنوت دوام الطاعة ، والمصلى إذا أطال قيامه أو ركوعه أوسجوده فهو قانت . قال تعالى (٣٩ : ٩ أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائما يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه) اه ملخصاً

الثالثة : أنه كان حنيفاً (قلت) قال العلامة ابن القيم «الحنيف» المقبل على الله ، المعرِض عن كل ما سواه . اه

الرابعة : أنه ما كان من المشركين ، أى لصحة إخلاصه وكمال صدقه ، و بُعده عن الشرك[1]

---

(١) قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى مفتاح دار السعادة فى الوجه ١٤٧ من فضل العلم : إن الله أثنى على ابراهيم خليله بقوله (إن ابراهيم كان أمة ـ الآية) فهذه أربع أنواع من الثناء ، افتتحها بأنه «أمة» وهو القدوة الذى يؤتم به . قال ابن مسعود: « الأمة : المعلم للخير» وهى فعلة ـ بضم الفاء ـ من الائتمام كالقدوة ، وهو الذى يقتدى به . والفرق بين «الأمة» و «الامام» من وجهين .

أحدهما : أن الامام كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمى الطريق إماماً . كقوله تعالى (وان كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) أى بطريق واضح لا يخفى على السالك . ولا يسمى الطريق أمة .

الثانى : أن «الأمة» فيه زيادة معنى . وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل ، وهو الذى بقى فيها فرداً وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه ، وتفرقها أو عدمها فى غيره . ولفظ «الأمة» يشعر بهذا المعنى ، لما فيه من الميم المضعفة الداله على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله . فان الضمة من الواو ، ومخرجها فيضم عند النطق بها . وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة . ومنه الحديث : « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة . ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم ، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد

= الثانى: قوله «قانتا» قال ابن مسعود: «القانت»: المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع الى دوام الطاعة

الثالث: قوله «حنيفا» والحنيف: المقبل على الله. ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف؛ لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله «شاكراً لأنعمه» والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان: الاقرار بالنعمة وإضافتها الى المنعم بها؛ وصرفها فى مرضاته والعمل فيها بما يحب. فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الثلاثة.

والمقصود: أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع الى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره؛ فعاد الكمال كله الى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق اليه. اه

وقال فى قرة العيون: قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله ابراهيم امام الحنفاء: بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية. و «الأمة» هو الامام الذى يقتدى به. و «القانت» هو الخاشع المطيع، والحنيف؛ المنحرف قصداً عن الشرك الى التوحيد، ولهذا قال (ولم يك من المشركين) وقال مجاهد؛ كان ابراهيم أمة أى مؤمناً وحده، والناس كلهم اذ ذاك كفار

قلت: وكلا القولين حق. فقد كان الخليل عليه السلام كذلك. وقول مجاهد - والله أعلم - لما كان الخليل كذلك فى ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين؛ كما قال تعالى (١٩: ٤١ واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا ٤٢ اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) الآيات (٤٣ - ٥٠) وقوله (٣٧: ٨٣ وان من شيعته لابراهيم ٨٤ اذ جاء ربه بقلب سليم - الآيات ٨٥ - ١١٣) فهذا والله أعلم كان فى ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ولم يكن اذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره. وبذلك جاء الحديث

وقوله (ولم يك من المشركين) فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله فى عبادته وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه فى ذات الله. وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه. كما قال تعالى (٢: ١٣١ اذ قال له ربه: أسلم، قال أسلمت لرب العالمين) وأنت تجد أكثر من يقول «لا إله الا الله» ويدعى الاسلام يفعل الشرك بالله فى عبادته. بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم؛ ويحبهم ويواليهم، ويخافهم ويرجوهم، وينكر على من دعا الى عبادة الله وحده وترك عبادة ماسواه، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادى من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يعد التوحيد علماً ولا يلتفت اليه لجهله به وعدم محبته فالله المستعان

المشركين) وقال (٢٣ : ٥٩ والذين هم بربهم لا يُشركون)

قلت : يوضح هذا قوله تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه) أى على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى (إذ قالوا لقومهم إنا بُراءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شىء) وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزر (١٩ : ٤٨ ، ٤٩ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًّا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق و يعقوب وكلاًّ جعلنا نبيًّا) فهذا هو تحقيقُ التوحيد . وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالُهم ، والكفر بهم وعداوتهم و بُغضُهم . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله فى هذه الآية : (إن ابراهيم كان أمة) لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجار المترفين (حنيفا) لا يميل يميناً ولا شمالا ؛ كفعل العلماء المفتونين (ولم يك من المشركين) خلافا لمن كثّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين. اه

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن ابراهيم كان أمة) على الاسلام . ولم يك فى زمانه أحد على الاسلام غيره .

قلت : ولا منافاة بين هذا و بين ماتقدم : من أنه كان إماماً يقتدى به فى الخير .

قال ﴿ وقوله تعالى ٢٣ : ٥٧ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ٥٨ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ٥٩ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ (١)

وصف المؤمنين السابقين الى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التى أعظمها : أنهم بربهم لا يشركون . ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقدحُ فى إسلامه : من شرك جَلىّ أو خفى ،

(١) فى قرة العيون : قال العماد ابن كثير ؛ أى من احسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله وخائفون وجلون من مكره بهم ؛ كما قال الحسن البصرى «المؤمن من جمع احسانا وشفقا ، والمنافق من جمع اساءة وأمنا » (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم (٦٦ : ١٢ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) أى أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله ان كان أمراً فهو مايحبه الله و يرضاه ، وان كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه ، وان كان خبراً فهو حق .

نفى ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذى حَسُنت بهم أعمالهم وكملت ونفعتهم .

قلت : قوله « حسنت وكملت » هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال فى تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت ، لكان أقوم .

قال ابن كثير : (والذين هم بربهم لا يشركون) أى لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدونه و يعلمون أنه لا إلٰه إلا الله أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له[1]

قال المصنف : ﴿ عن حُصين بن عبد الرحمن قال : كنت عن سَعيد بن جُبير ، فقال : « أيُّكم رأى الكوكب الذى انْقضّ البارحة ؟ فقلت : أنا . ثم قلت : أما إنى لم أكن فى صلاة ، ولكنى لُدِغتُ . قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيتُ . قال فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشّعبى . قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بُريدة بن الحُصَيْب أنه قال « لا رُقْيةَ إلا من عينٍ أو حُمةٍ » قال قد أحسن من انتهى الى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال « عُرِضَت علىّ الأمم ، فرأيت النبىّ ومعه الرَّهْطُ ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد . إذ رُفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هذا موسى وقومه . فنظرت فاذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نَهضَ فدخل منزله ، فخاض الناسُ فى أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحِبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله شيئاء وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوُون ولا يَتطيّرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكّاشة بن مُحَصِّن فقال : يارسول الله ، ادْعُ الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادْعُ الله أن يجعلنى منهم ، فقال : سبقك بها عُكّاشة » ﴾

هكذا أورده المصنف غير معزُوّ ، وقد رواه البخارى مختصراً ومطولا ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذى والنسائى .

---

(١) فى قرة العيون ، فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبته وقبوله والدعوة اليه ، كما قال تعالى (قل انى أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب) وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق .

رأى الكوكبَ الذى انقضّ البارحةَ ؟ فقلتُ : أنا ، ثم قلتُ : أمَا إنى لم أكن فى صلاةٍ ، ولكنى لُدِغْتُ ، قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيتُ . قال : فما حمَلك على

قوله ﴿ عن حصين بن عبد الرحمن ﴾ هو السلمى [1] ، أبو الهذيل الكوفى . ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومائة ، وله ثلاث وتسعون سنة .

وسعيد بن جبير : هو الامام الفقيه من جِلّة أصحاب ابن عباس ، روايته عن عائشة وأبى موسى مرسلة . وهو كوفى مولًى لبنى أسَد ، قُتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين ، ولم يكمل الخمسين .

قوله ﴿ انقض ﴾ هو بالقاف والضاد المعجمة أى سقط . «والبارحة» هى أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال : رأيت الليلة ، و بعد الزوال: رأيت البارحة ؛ وكذا قال غيره ، وهى مشتقة من بَرِح إذا زال .

قوله ﴿ أما إنى لم أكن فى صلاة ﴾ قال فى مغنى اللبيب : « أما » بالفتح والتخفيف على وجهين : أحدهما أن تكون حرف استفتاح بمنزلة «ألا» فاذا وقعت « انّ » بعدها كسرت . الثانى أن تكون بمعنى حقاً ، أو أحق . وقال آخرون: هى كلمتان الهمزة للاستفهام و «ما» اسم بمعنى شىء ، أى أذلك الشىء حق، فالمعنى أحق هذا؟ وهو الصواب. و «ما» نصب على الظرفية ، وهذه تفتح « انّ » بعدها . انتهى

والأنسب هنا هو الوجه الأول ، والقائل هو حصين ؛ خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلى ، فنفى عن نفسه إيهام العبادة ، وهذا يدل على فضل السلف وحرصهم على الاخلاص و بعدهم عن الرياء والتزين بما ليس فيهم .

قوله ﴿ ولكنى لدغت ﴾ بضم أوله وكسر ثانيه ، قال أهل اللغة : يقال لدغته العقرب وذوات السموم ، إذا أصابته بسمها ، وذلك بأن تأبِره بشوْكتها .

قوله ﴿ قلت ارتقيت ﴾ لفظ مسلم «استرقيت» أى طلبت من يرقينى

قوله ﴿ فما حملك على ذلك ؟ ﴾ فيه طلب الحجة على صحة المذهب .

---

(١) فى قرة العيون : الحارثى ، من تابعى التابعين . عن الشعبى

ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشَّعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت: حدثنا عن بُرَيدة ابن الحُصَيب أنه قال « لا رُقيةَ إلا مِن عَين أو حُمَة » . قال : قد أحسنَ مَن انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عُرضت عليّ

قوله ﴿حديث حدثناه الشعبي﴾ اسمه : عامر بن شُراحيل الهَمَداني، ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم [١] مات سنة ثلاث ومائة

قوله ﴿ عن بريدة ﴾ بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة . ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمي ، صحابي شهير . مات سنة ثلاث وستين . قاله ابن سعد

قوله ﴿ لا رقية إلا من عين أو حمة ﴾ وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعا . ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعا . قال الهيثمي :رجال أحمد ثقات .

والعين هي إصابة العائن غيره بعينه . والحمة - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وشبهها . قال الخطابي : ومعنى الحديث : لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة . وقد رَقى النبي ﷺ ورُقي .

قوله ﴿ قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ﴾ أي من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم فانه مسيء آثم . وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم [٢]

قوله ﴿ ولكن حدثنا ابن عباس ﴾ هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبي ﷺ . دعا له فقال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل [٣] » فكان كذلك . مات بالطائف سنة ثمان وستين

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه عمق علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع » ولكن كذا وكذا . فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني ﴾

---

(١) روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم . وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق . قال الشعبي : ما كتبت سوداء في بيضاء .يعني أنه كان معتنياً بالحفظ

(٢) في قرة العيون ، فيه حسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتديا أم لا ؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله ، ولهذا ذكر ابن عبد البر الاجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم . فتفطن لهذا .

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه

الأمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد

قوله ﴿ عُرضت عليّ الأمم ﴾ وفى الترمذى والنسائى من رواية عَبثر بن القاسم عن حصين بن عبدالرحمن « أن ذلك كان ليلة الاسراء » قال الحافظ : فان كان ذلك محفوظا كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الاسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضا (قلت) وفى هذا نظر [١]

قوله ﴿ فرأيت النبي ومعه الرهط ﴾ والذى فى صحيح مسلم « الرهيط » بالتصغير لا غير ؛ وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووى

قوله ﴿ والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ﴾ فيه الرد على من احتج بالكثرة [٢]

---

[١] فى قرة العيون : فالله أعلم متى عرضت ، وعرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها اذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم . فمن نجا بالايمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذى شرعه لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ماسواه ، والأخذ بما أمرهم به وترك مانهاهم عنه كما قال تعالى عن قوم نوح (٧١ : ٢ قال ياقوم انى لكم نذير مبين ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به ، وترك مانهاهم عنه ، وطاعة رسوله . هذا هو الدين ، أن لا يعبد الا الله ، وأن لا يعبد الله الا بما شرع ؛ فعلا وتركا ، وأن تقدم طاعة رسوله على مايحبه ويهواه .

[٢] فى قرة العيون ، أى يبعث فى قومه فلا يتبعه منهم أحد كما قال تعالى (١٥ : ١٠ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ١١ وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون) وفيه دليل على أن الناجى من الأمم هم القليل والأكثرون غلبت عليهم الطبائع البشرية فعصوا الرسل فهلكوا ؛ كما قال تعالى (٦ : ١١٦ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال [٧ : ١٠١ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين] وقال [٣٠ : ٤٢ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين] وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير ، والناجون - وان كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم ، فانهم الاعظمون قدراً عند الله . وان قلوا . فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة وقد اغتر بهم كثيرون حتى بعض من يدعى العلم . اعتقدوا فى دينهم مايعتقده الجهال الضلال ولم يلتفتوا الى ماقاله الله ورسوله .

إذ رُفِع لى سوادٌ عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هـذا موسى وقومه ، فنظرتُ فاذا سوادٌ عظيم ، فقيل لى : هـذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب

قوله ﴿ إذ رفع لى سواد عظيم ﴾ المراد هنا الشخص الذى يُرى من بعيد .

قوله ﴿ فظننت أنهم أمتى ﴾ لأن الأشخاص التى ترى فى الأفق لا يدرك منها إلا الصورة وفى صحيح مسلم « ولـكن انظر إلى الأفق » ولم يذكره المصنف، فلعله سقط من الأصل الذى نقل الحديث منه . والله أعلم .

قوله ﴿ فقيل لى : هذا موسى وقومه ﴾ أى موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقومه: أتباعه على دينه من بنى اسرائيل (١) .

قوله ﴿ فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لى هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنـة بغير حساب ولا عذاب ﴾ أى لتحقيقهم التوحيد ، وفى رواية ابن فضيل « و يدخل الجنةَ من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً » وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين « أنهم تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » وروى الامام أحمد والبيهقى فى حديث أبى هريرة « فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفا » قال الحافظ : وسنده جيد (٢)

---

(١) فى قرة العيون: فيه فضيلة أتباع موسى من بنى اسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التى أنزلها الله: التوراة ، والانجيل والزبور والفرقان وغيرها . وكانت بنو اسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء ، ثم بعد ذلك حدث ماحــدث من اليهود ، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جداً ، وقد قال تعالى (٤٥ : ١٦ وفضلناهم على العالمين) أى فى زمانهم . وذلك أن فى زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلق لا يحصون، كحزب جالوت و بختنصر وأمثالهم . ففضل الله بنى اسرائيل بالايمان فصاروا أفضل أهل زمانهم . وحدث فيهم ماذكر الله فى سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم فى دينهم، وقد ذكره الله تعالى محتجاً به على اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم . فتدبر ماذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف .

(٢) فى قرة العيون: فيه فضيلة هذه الأمة وانهم أكثر الأمم تابعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم وقد كثروا فى عهد الصحابة رضى الله عنهم، وفى وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فملأوا القرى والأمصار =

ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناسُ فى أُولئك ، فقال بعضُهم : فلعلهمُ الذين صحِبوا رسولَ الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلِدوا فى الاسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه ، فقال هم الذين لا يَسْتَرْقون

قوله ﴿ ثم نهض ﴾ أى قام . قوله ﴿ فخاض الناس فى أولئك ﴾ خاض بالخاء والضاد المعجمتين . وفى هذا إباحة المناظرة والمباحثة فى نصوص الشرع على وجه الاستفادة و بيان الحق ، وفيه عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . وفيه حرصهم على الخير . ذكره المصنف (١)

قوله *(فقال هم الذين لا يسترقون)* هكذا ثبت فى الصحيحين وهو كذلك فى حديث ابن مسعود فى مسند أحمد . وفى رواية لمسلم « ولا يرقون » قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هذه الزيادة وهمٌ من الراوى ، لم يقل النبى ﷺ « ولا يرقون » وقد قال النبى ﷺ وقد سئل عن الرُّقى « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » (٢) : وقال « لا بأس بالرُّقى مالم تكن شركا » (٣)

= والقفار ، وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون فى العلوم النافعة ، فما زالت هذه الأمة على السنة فى القرون الثلاثة المفضلة ، وقد قلّوا فى آخر الزمان .

قال شيخنا رحمه الله تعالى فى مسائله : وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، فالكمية الكثرة والعدد ، والكيفية فضيلتهم فى صفاتهم

(١) فى قرة العيون : وفيه أيضاً فضل الصحابة رضى الله عنهم فى مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ماحدثهم به نبيهم ﷺ حرصاً على العمل به ، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل ، لأنهم قالوا ماقالوا باجتهادهم ، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم ، لكن المجتهد اذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقول لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضى الله عنهم فى هذا الحديث .

[٢] رواه مسلم والامام أحمد وابن ماجه عن جابر رضى الله عنه .

[٣] رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك .

قال : وأيضاً فقد رقى جبريل النبى ﷺ ورقى النبى ﷺ أصحابه [١] قال : والفرق بين الراقى والمسترقى : أن المسترقى سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقى محسن . قال : وانما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل ؛ فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم . وكذا قال ابن القيم [٢]

قوله (ولا يكتوون) أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم ؛ استسلاما للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء

قلت : والظاهر أن قوله « لا يكتوون » أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم . أما الكى فى نفسه فجائز ، كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله « أن النبى ﷺ بعث إلى أُبى بن كعب طبيباً فقطع له عِرقاً وكواه »

وفى صحيح البخارى عن أنس « أنه كوى من ذات الجنب [٣] والنبى ﷺ حى » وروى الترمذى وغيره عن أنس « أن النبى ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة » [٤]

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعا « الشفاء فى ثلاث : شَربة عسل ، وشرطة مِحجم وكيّة نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » وفى لفظ « وما أحب أن أكتوى »

---

[١] رقى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم من السحر ؛ كما فى البخارى من حديث عائشة. وقد ثبت فى البخارى وغيره رقى كثيرة من قول النبى صلى الله عليه وسلم عن عائشة وأنس وابن مسعود وغيرهم .

(٢) فى قرة العيون : فتركوا الشرك رأساً ، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها ، وتركوا الكى وان كان يراد للشفاء ، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله ؛ وتفويضهم أمورهم اليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشىء سواه فى ضمن مادبره وقضاه . فلا يرغبون إلا إلى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا اليه وحده فى كشف ضرهم . قال تعالى عن يعقوب عليه السلام (١٢ : ٨٦ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله)

[٣] قال فى النهاية . ذات الجنب : الدمل الكبيرة التى تظهر فى باطن الجنب وينفجر الى داخل . وقلما يسلم صاحبها اهـ . ولعلها : السل والله أعلم .

٤ ــ قال فى النهاية ، الشوكة : حمرة تعلو الوجه والجسد .

ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع (أحدها) فعله (والثانى) عدم محبته (والثالث) الثناء على من تركه (والرابع) النهى عنه . ولا تعارُض بينها بحمد الله ، فان فعله له يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة

قوله (ولا يتطيرون) أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها فى بابها

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء اليه ، والاعتماد بالقلب عليه ؛ الذى هو نهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا ؛ فان مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى ، لا انفكاك لأحد عنه ؛ بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه . وانما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم اليها ؛ توكلا على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء ، فتركهم له لكونه سبباً مكروها ، لاسيما والمريض يتشبث - فيما يظنه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت

وأما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه ؛ فغير قادح فى التوكل ، فلا يكون تركه مشروعا ، لما فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علمه مَن علمه ، وجهله من جهله » وعن أسامة بن شريك قال « كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب ؛ فقالوا : يا رسول الله أنتداوى ؟ قال : نعم . ياعباد الله تداووا ؛ فان الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا وما هو ؟ قال : الهرم » رواه أحمد

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ؛ وإبطال قول من أنكرها ؛ والأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد : بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل ؛ كما يقدح

فقام عُكّاشة بن مِحْصن فقال ادعُ الله أن يجعلنى منهم . قال أنت منهم

في الأمر والحكمة . ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى فى التوكل ، فان تركها عجز ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى فى حصول ماينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع مايضره فى دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا .

وقد اختلف العلماء فى التداوى هل هو مباح ، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب ؟

فالمشهور عن أحمد : الأول لهذا الحديث وما فى معناه ، والمشهور عند الشافعية الثانى ، حتى ذكر النووى فى شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر . قال : ومذهب أبى حنيفة أنه مؤكد حتى يدانى به الوجوب . قال : ومذهب مالك أنه يستوى فعله وتركه ، فانه قال : لا بأس بالتداوى ولا بأس بتركه .

وقال شيخ الاسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة ، وانما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعى وأحمد .

قوله (فقام عكاشه بن مِحْصن) هو بضم العين وتشديد الكاف ، ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ، ابن حُرثان - بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة - الأسدى : من بنى أسد بن خزيمة . كان من السابقين الى الاسلام ومن أجمل الرجال . هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها ، واستشهد فى قتال الرِّدَّة مع خالد بن الوليد بيد طُليحة الأسدى سنة اثنتى عشرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفَرس يوم القادسية مع سعد بن أبى وقاص . واستشهد فى وقعة الجسر المشهورة .

قوله (فقال يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم، قال : أنت منهم) وللبخارى فى رواية : « فقال اللهم اجعله منهم » وفيه : طلب الدعاء من الفاضل [١]

---

(١) فى قرة العيون : فيه ان شفاعة الحى لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه ، وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لاتخفى على من له بصيرة ، فمن سأل ميتاً أو غائباً فقد سأله مالا يقدر عليه الاالله ، وكل من سأل أحداً مالا يقدر عليه إلا الله فقد جعله نداً لله كما كان المشركون كذلك وقال تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) إنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم ، =

ثم قام رجلٌ آخرُ فقال : أُدعُ الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عُكّاشة»

فيه مسائل

الأولى : معرفةُ مراتبِ الناسِ في التوحيد .

الثانية : مامعنى تحقيقه .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

الخامسة : كون ترك الرُّقيةِ والْكيِّ من تحقيق التوحيد .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

السابعة : عُمْقُ عِلم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

الثامنة : حرصهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمِّية والكيْفيَّة .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

الحادية عشرة : عرضُ الأمم عليه عليه السلام .

قوله ﴿ ثم قام رجل آخر ﴾ ذكره مبهماً ولا حاجة بنا الى البحث عن اسمه (١)

قوله ﴿ فقال سبقك بها عكاشة ﴾ قال القرطبي : لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر ، فسدّ الباب بقوله ذلك .اه

= وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا ترغبوا عنه إلى غيره ، بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير .

وقوله « أنت منهم » لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده كما في الحديث «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم »

(١) في قرة العيون : والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سد الذريعة لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلا له . وذلك منه ﷺ تعريض كما لايخفى .

الثانية عشرة : أن كل أمةٍ تُحْشر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قِلّة من استجابَ للانبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبْه أحدٌ يأتى وحده .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدمُ الاغترار بالكثرةِ ، وعدم الزُّهد فى القلّة .

السادسة عشرة : الرخْصةِ فى الرُّقْيةِ من العين والُحمَة .

السابعة عشرة : عمقُ علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ماسمع . ولكن كذا وكذا » . فعلم أن الحديث الأول لايخالفُ الثانى .

الثامنةعشرة : بُعد السلفِ عن مَدْح الانسان بما ليس فيه

التاسعة عشرة : «قوله أنت منهم» عَلَمٌ من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكاشة .

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض .

الثانية والعشرون : حسن خُلقهِ ﷺ .

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل (٤ : ٤٨ و ١١٦ إنَّ الله لايغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ مادون ذلك لمن يشاء)

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ ﴾

قوله ﴿ باب الخوف من الشرك ﴾

وقول الله تعالى (٤ : ٤٨ و ١١٦ إن الله لا يغفرُ أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه (لايغفر أن يشرك به) اى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك (و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) أى من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، و إن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذى هذا شأنه عند الله ، لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقُّص لرب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدلُ غيره به ، كما قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر ، مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والذل له ، والانقياد لأوامره الذى لا صلاح للعالم إلا بذلك ، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال ﷺ « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذى يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبّهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، شبيهاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، واليه يرجع الأمر كله ، و بيده الخير كله ، فأزمّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها اليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، الذى إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات : بالقادر الغنى بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والاجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والانابة ، والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لله وحده ، و يمتنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله

وفى الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب . وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله (و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب ، فان التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى (٣٩ : ٥٣ قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عمم وأطلق ، لأن المراد به التـائب ، وهناك خص وعلّق ، لأن المراد به من لم يتب . هذا ملخص قول شيخ الاسلام (١)

قوله ﴿ وقال الخليل عليه السلام (١٤ : ٣٥ واجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ الصنم ما كان منحوتاً على صورة ، والوثن ما كان موضوعاً على غير ذلك . ذكره الطبرى عن مجاهد

قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل (٢) عليه السلام (٢٩ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا — الآية) و يقال : إن الوثن أعم ، وهو قوى ، فالأصنام أوثان ، كما أن القبور أوثان

قوله ﴿ واجنبني و بني أن نعبـد الأصنام ﴾ أى اجعلنى و بنيّ فى جانب عن عبادة الأصنام ، و باعد بيننا و بينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء ، وجنّبهم عبادة الأصنام . وقد بين مايوجب الخوف من ذلك بقوله (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) فانه هو الواقع فى كل زمان . فاذا عرف الانسان أن كثيرا وقعوا فى الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام : أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذى لا يغفره الله

---

(١) فى قرة العيون : قال النووى رحمه الله تعالى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ، ولافرق بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصراً عليها ومات على ذلك ، فهو تحت المشيئة فان عفى عنه دخل الجنة أوّلا والا عذب فى النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة . اه

قلت : هذا قول أهل السنة والجماعة ؛ لا اختلاف بينهم فى ذلك . وهذه الآية من أعظم مايوجب الخوف من الشرك ، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود فى النار وأطلق ولم يقيد ، ثم قال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فخصص وقيد فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذى هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة ، إن لم يتب منه قبل الوفاة

(٢) الخلة : أخص من المحبة ، ولذلك اختص الله بها الخليلان : ابراهيم ومحمداً عليهما من الله أفضل الصلاة والسلام . ويقول النبى (ص) «لو كنت متخذاً أحداً خليلا لاتخذت أبابكر ولكن الله اتخذنى خليلا» رواه البخارى

قال إبراهيم التيمي : ومن يأمن البلاء بعد ابراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

فلا يأمن الوقوع فى الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منـه : من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده ، والنهى عن الشرك به (١)

---

(١) فى قرة العيون : فاذا كان الخليل إمام الحنفاء الذى جعله الله أمة وحده ، وابتلاه بكلمات فأتمهن ، وقال (وإبراهيم الذى وفى) وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه ، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك ، ومع ذلك يخاف أن يقع فى الشرك الذى هو عبادة الأصنام ، لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه ، لا بحوله هو وقوته

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه ؛ وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت ، فالذى خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة ، فبنيت المساجد والمشـاهد على القبور ؛ وصرفت لها العبادات بأنواعها ، واتخذ ذلك دينا ، وهى أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم . فما أشبه ماوقع فى آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركى العرب وغيرهم ، بل وقع ماهو أعظم من الشرك فى الربوبية مما يطول عده (*) فذكر عليه السلام السبب الذى أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام فى زمن الخليل وقبله وبعده . فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذى بعث الله أنبياءه ورسله بالنهى عنه والوعيد على فعله ، والثواب على تركه . وقد هلك من هلك باعراضه عن القرآن ، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه . نسأل الله الثبات على الاسلام والاستقامة على ذلك الى أن نلقى الله على التوحيد انه ولى ذلك والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ؛ وقال تعالى عن عيسى (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) رد أمرهم الى الله كما رده محمد عليه السلام ، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد «ص» حكمه فى أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة ؛ وقد بين حكمه فيهم فى هذا الكتاب العزيز الذى (٤١ : ٤٢ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

«*» فان أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون فى الكون بالإحياء والاماتة والرزق والضر والنفع ؛ وان مجالس أوليائهم تعرض عليه شئون العالم . اقرأ كتب الشعرانى ، و «الابريز» للدباغ ، وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين ؛ تجد الشرك الذى ما كان يخطر على بال أبى جهل واخوانه ، لانهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم

وفى الحديث « أُخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ ، فسُئل عنه فقال : الرياء »

قال المصنف ﴿ وفى الحديث « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه فقال : الرياء » ﴾ أورد المصنف هـذا الحديث مختصراً غير معزو . وقد رواه الامام أحمد والطبرانى والبيهقى ، وهذا لفظ أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعنى ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة ، إذا جازى النـاس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ »

قال المنذرى : ومحمود بن لبيد رأى النبى ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبى حاتم أن البخارى قال : له صحبة ، ورجحه ابن عبد البر والحافظ . وقد رواه الطبرانى بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل سنة سبع وتسعين وله تسع وتسعون سنـة

قوله ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ﴾ هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به ؛ ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه ؛ كما قال ﷺ فيما صح عنه « ما بعث الله من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم - الحديث » فاذا كان الشرك الأصغر مخوفا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم ، فـكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم فى العلم والايمان بمراتب ؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون ، وما عرفوا معنى الالهية التى نفتها كلمة الاخلاص عن كل ما سوى الله (١)

« ١ » فى قرة العيون : فاذا كان يخافه « ص » على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورغبوا اليه والى ما أمرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به ؛ وعرفوا ما دعاهم اليه نبيهم ، وما أنزله الله فى كتابه من الاخلاص والبراءة من الشرك ؛ فـكيف لا يخاف من لا نسبة له اليهم فى علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك ؟ وقد أخبر « ص » عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله فى حديث ثوبان الآتى ذكره « حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » وقد جرى ما أخبر به « ص » وعمت به البلوى فى أكثر الاقطار حتى اتخذوه

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « مَن مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار » رواه البخارى

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبى بكر عن النبى ﷺ قال « الشرك أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يارسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو مادعى مع الله ؟ قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » الحديث . وفيه « أن تقول أعطانى الله وفلان ، والند أن يقول الانسان : لولا فلان قتلنى فلان » اه من الدر

قال المصنف ﴿ وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار » رواه البخارى ﴾ (١)

قال ابن القيم رحمه الله : الند الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، ونديده ، أى مثله وشبيهه اه قال تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

قوله ﴿ من مات وهو يدعو لله نداً ﴾ أى يجعل لله نداً فى العبادة ، يدعوه و يسأله و يستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره ، فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران

= دينا مع ظهور الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة فى النهى عنه والتخويف منه كما قال تعالى (٥ : ٧٢ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) وقال (٢٢ : ٣٠ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ٣١ حنفاء لله غير مشركين به) وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم فى الباب قبله . ثم قال تعالى محذراً عباده من الشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك فى العبادة اذا تدبرها فلا حيلة فيه .

(١) فى قرة العيون : وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً والتخويف منه - والند : المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة اليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله فهذا هو الشرك الذى لايغفره الله ، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الانكار لكونه ينافى الاخلاص الذى هو إقبال القلب والوجه على الله فى كل مايخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به . ومن المعلوم أنه اذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى وذلك ينافى الاخلاص . ويأتى بيان ذلك فى باب الشفاعة ان شاء الله تعالى

وهو اتخاذ الند للرحمن أيــاً كان ، من حجر ومن إنسان
يدعوه ، أو يرجوه ، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكا فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر

والثانى : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء ، فقد ثبت أن النبى ﷺ لما قال له رجل « ماشاء الله وشئت ، قال : أجعلتنى لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه . وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلى ، كطلب الشفاعة من الأموات ، فإنها ملك لله تعالى و بيده ، ليس بيد غيره منها شىء ، وهو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالاخلاص والتوحيد من أهل الكبائر ، كما يأتى تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال « من لقى الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » ﴾

جابر : هو ابن عبدالله بن عمرو بن حَرام ـ بمهملتين ـ الأنصارى ثم السلمى ـ بفتحتين ـ صحابى جليل هو وأبوه ، ولأبيه مناقب مشهورة رضى الله عنهما[1] مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره ، وله أربع وتسعون سنة .

قوله ﴿ من لقى الله لا يشرك به شيئا ﴾ قال القرطبى : أى لم يتخذ معه شريكا فى الالهية ، ولا فى الخلق ، ولا فى العبادة ، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة ، و إن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب

---

(١) كان عبدالله والد جابر من الذين بايعوا رسول الله «ص» بيعة العقبة وجعله النبى «ص» نقيب بنى سلمة . ثم حضر بدرا . وقتل يوم أحد ، فأخذ يبكى عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبكيه أو لاتبكيه ، لا زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه »

به شيئاً دخل الجنة . ومَنْ لَقِيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار »

فيه مسائل :

الأولى : الخوفُ من الشرك

الثانية : أن الرياءَ من الشرك

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر

الرابعة : أنه أخوفُ مايُخاف منه على الصالحين

الخامسة : قُرب الجنة والنار

السادسة : الجمع بين قربهما فى حديث واحد

السابعة : أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئا دخل الجنة . ومن لَقيَهُ يُشرك به شيئاً دخل النار ، ولو كان من أعبدِ الناسِ

الثامنة : المسألةالعظيمة سؤالُ الخليل له وَلِبَنِيهِ وقايَةَ عبادةِ الأصنام

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر لقوله (رَبِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناسِ)

والمحنة . وأن من مات على الشرك لايدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد فى النار أبد الآباد ؛ من غير انقطاع عذاب ولا تصرُّم آماد .

وقال النووى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك (١) . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها دخل الجنة أولا ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة . فان عفا الله عنه دخل الجنة أولا ، وإلا عُذِّب فى النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

---

(١) يعنى أنهم مستوون فى الخلود فى النار ، ولكنهم متفاوتون فى دركاتها . ولا يظلم ربك أحداً مثقال ذرة .

العاشرة: فيه تفسير «لا إله إلا الله»، كما ذكره البخارى

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك

باب

﴿ الدعاء إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ﴾

وقال غيره: اقتصر على نفى الشرك لاستدعائه التوحيـد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم. إذ من كذّب رسل الله فقـد كذّب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته. أى مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع مايجب الايمان به: إجمالا فى الاجمالى وتفصيلا فى التفصيلى[1]. انتهى

قوله: ﴿ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ﴾

لما ذكر المصنف رحمـه الله التوحيد وفضله، وما يوجب الخوف من ضده. نَبّه بهذه الترجمة على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة. كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم كما قال الحسن البصرى لما تلا قوله تعالى (٤١:٣٣ وَمَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) فقال «هـذا حبيب الله، هذا ولىّ الله، هـذا صفوة الله، هذا خِيرة الله، هذا أحب أهل الأرض الى الله، أجاب الله فى دعوته. ودعا الناس الى ماأجاب الله فيـه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته. وقال: إننى من المسلمين. هذا خليفة الله[2]»

---

(١) يعنى خالطت حلاوة هـذا الايمان بشاشة قلبه فأثمرت الأعمـال الصالحة والأخلاق الفاضلة. وإلا فكم من مدع لهذا الايمان الاجمـالى والتفصيلى وهو عرى عنه إجمالا وتفصيلا.

(٢) ذكره العماد ابن كثير فى تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصرى رحمه الله. ويعنى الحسن بذلك: أن الصدق فى حب الله وعبادته وطاعته يستلزم ولا بد الدعوة الى ذلك والجهاد فيه. لأن من أحب الله أحب كل ما أحبه الله وكل من أحب الله وكره كل ما كره ومن كره. وأحب أن يكون الناس كلهم معه فى حب الله.

وقول الله تعالى ﴿ ١٢ : ١٠٨ قل هـٰذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله . وما أنا من المشركين ﴾

قال رحمه الله ﴿ وقوله ١٢ : ١٠٨ قل هـٰذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾

قال أبو جعفر ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ (قل) يامحمد (هذه) الدعوة التي أدعو اليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، و إخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان . والانتهاء الى طاعته وترك معصيته (سبيلي) وطريقتي ، ودعوتي (أدعو إلى الله) تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك و يقين علم مني به (أنا) و يدعو اليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وآمن بي (وسبحان الله) يقول له تعالى ذكره : وقل . تنزيهاً لله تعالى وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول : وأنا بريء من أهل الشرك به . لست منهم ولا هم مني . انتهى

قال في شرح المنازل : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر ، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ، وهي أعلى درجات العلماء . قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أي أنا وأتباعي على بصيرة . وقيل (من اتبعني) عطف على المرفوع في (أدعو) أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، و إن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى

قال المصنف رحمه الله ﴿ فيه مسائل : منها التنبيه على الاخلاص ، لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . ومنها : أن البصيرة من الفرائض . ومنها : أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة . ومنها : أن من قبح الشرك كونه مسبة لله تعالى . ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك ﴾ اهـ

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى (١٦ : ١٢٥ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الآية) ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب

عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله ﷺ لمَّا بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له: إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب . فليكن أوَّل ماتدعوهم إليه شهادةِ أنْ لا إله إلا الله

حال المدعو ؛ فانه إما أن يكون طالباً للحق محباً له . مؤثراً له غيره إذا عرفه . فهذا يُدعَى بالحكمة . ولا يحتاج إلى موعظة وجدال . و إما أن يكون مشتغلا بضد الحق . لكن لو عرفه آثره واتبعه . فهذا يحتاج الى الموعظة بالترغيب والترهيب . و إما أن يكون معانداً معارضاً ، فهذا يُجادَل بالتى هى أحسن . فان رجع و إلا انتُقلَ معه الى الجلاد إن أمكن . انتهى

قال ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله ﷺ لما بعثَ معاذاً الى اليمن قال : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ماتدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله ـ وفى رواية : إلى أن يوحِّدوا الله ـ فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات فى كل يوم وليلة . فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم . فان هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم . واتَّقِ دعوة المظلوم . فانه ليس بينها و بين الله حجاب » أخرجاه ﴾

قال الحافظ : كان بعثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر . قبل حج النبى ﷺ كما ذكره المصنف ـ يعنى البخارىّ فى أواخر المغازى ـ وقيل : كان ذلك فى آخر سنة تسع عند منصرَفه ﷺ من تَبوك . رواه الواقدى باسناده الى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد فى الطبقات عنه واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن الى أن قدم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ثم توجه الى الشام فمات بها

قال شيخ الاسلام : ومن فضائل معاذ رضى الله عنه أنه ﷺ بعثه الى اليمن مُبلِّغاً عنه . ومُفقهاً ومعلماً وحاكما

قوله ﴿ إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب ﴾ قال القرطبى : يعنى به اليهودَ والنصارى ؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب ، وانما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم

وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها

قوله ﴿ فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله ﴾ [1] «شهادة» رفع على أنه

---

(١) فى قرة العيون : وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذى دلت عليه من اخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ماسواه ، فكان قولهم « لا اله الا الله » لا ينفعهم لجهلهم بمعنى

وفى رواية ، إلى أن يُوحِّدوا الله -

اسم « يكن » مؤخر . و « أول » خبرها مقدم . ويجوز العكس

قوله ﴿ وفى رواية إلى أن يوحدوا الله ﴾ هذه الرواية ثابتة فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » فان معناها توحيد الله بالعبادة ونفى عبادة ماسواه . وفى رواية « فليكن أول ماتدعوهم اليه عبادة الله » وذلك هو الكفر بالطاغوت ، والايمان بالله ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعُروة الوثقى لا انفصام لها) والعروة الوثقى هى (لا إله إلا الله) وفى رواية للبخارى فقال « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله »

= هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة ، فانهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد ؛ فيأتون بما ينافيها فيثبتون مانفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم ، وينفون ماأثبتته من الاخلاص كذلك، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون ؛ فلم يدخلهم فى الاسلام كما قال تعالى (٢٣ : ٨٤ - ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ - الى قوله - فأنى تسحرون) وقوله (١٠ : ٣١ قل من يرزقكم من السماء والارض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون؟) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير . وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم ؛ وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد (ص) فلم يدخلهم فى الاسلام ، لأنهم قد جحدوا مادلت عليه هذه الكلمة من توحيد الالهية ، وهو اخلاص العبادة ونفى الشرك والبراءة منه ، كما قال تعالى (٣ : ٦٤ قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فهذا التوحيد هو أصل الاسلام . وقال تعالى (١٢ : ٤٠ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال (٣٠ : ٤٣ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) وقال تعالى (٤٠ : ١٢ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين ٣ ألا لله الدين الخالص) وأمثال هذه الآيات فى بيان التوحيد الذى دعت اليه الرسل ونزلت به الكتب فى القرآن كثير . وسنذكر بعض ذلك ان شاء الله فى هذا التعليق

قلت : لابد فى شهادة أن لاإله الا الله من سبعـة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ؛ أحدها : العلم المنافى للجهـل . الثانى : اليقين المنافى للشك . الثالث : القبول المنافى للرد . الرابع : الانقياد المنافى للترك . الخامس : الاخلاص المنافى للشرك . السادس : الصدق المنافى للـكذب . السابع: المحبة المنافية لضدها

وفيه دليل على أن التوحيد — الذى هو اخلاص العبادة لله وحده لاشريك له وترك عبادة ماسواه — هو أول واجب . ولهذا كان أول مادعت اليه الرسل عليهم السلام (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال نوح(أن لاتعبدوا الا الله) وفيه معنى (لااله الاالله) مطابقة(١)

قال شيخ الاسلام : وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الاسـلام وأول ما يؤمر به الخلق : شهـادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الـكافر مسلما ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله : معصوم الدم والمال . ثم إن كان ذلك

(١)فى قرة العيون : وأما قول المتكلمين ومن تبعهم :إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده ، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم الى توحيد العبادة (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى لاتعبدوا الا الله . قال تعالى (٢١: ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لاإله إلا أنا فاعبـدون) وقال تعالى (١٤: ١٠ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض؟)

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : هذا يحتمل شيئين « أحدهما » أفى وجوده شك ؟ فان الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به ، فان الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة

« والمعنى الثانى » أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة الا هو وحده لا شريك له . فان غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولـكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى اه

قلت: وهذا الاحتمال الثانى يتضمن الأول

وروى أبو جعفر ابن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا :ليس أحد الا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا ايمانهم . وعن عكرمة أيضا تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره .

وتقدم أن «لااله الا الله» قد قيدت بالـكتاب والسنة بقيود ثقال . منها: العلم واليقين والاخلاص والصـدق والمحبة والقبول والانقياد ، والـكفر بما يعبـد من دون الله . فاذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ؛ وان لم تجتمع هذه لم تنفعه، والناس متفاوتون فى العلم بها والعمل، فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه كما لايخفى

فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

من قلبه فقد دخل فى الايمان ، وان قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الاسلام دون باطن الايمان .
قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً ؛ عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء اه

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وفيه أن الانسان قد يكون عالما [1] وهو لا يعرف معنى (لا اله الا الله) أو يعرفه ولا يعمل به ﴾

قلت : فما أكثر هؤلاء — لا كثرهم الله تعالى

قوله ﴿ فان هم أطاعوك لذلك ﴾ أى شهدوا وانقادوا لذلك ﴿ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ﴾ فيه : أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين . قال النووى مامعناه : انه يدل على أن المطالبة بالفرائض فى الدنيا لا تكون الا بعد الاسلام . ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد فى عذابهم بسببها فى الآخرة . والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهى عنه . وهذا قول الأكثرين . اه

قوله ﴿ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم [2] ﴾

---

(١) يعنى عالما بعلوم الدنيا ، أو عالما حافظا لعلوم الدين ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته لأنه تعلمها للدنيا وليقال عالم . فهو محترف العلم ، وقد يكون بارعا حاذقا فى هذه الحرفة ولكنه لا ينتفع فى نفسه بعلمه ، لأن علمه فى ناحية وعقيدته ودينه مع تقليد العوام والجمهور فى ناحية أخرى . وهذا حال أكثر العلماء الرسميين اليوم أصلحهم الله

(٢) فى قرة العيون : فيه أن الزكاة لا تنفع الا من وحد الله وصلى الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها . والزكاة قرينة الصلوات فى كتاب الله تعالى ؛ ويدل على هذه الجملة قوله تعالى (٩٨ : ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الاركان لقوة الداعى الى ذلك ، لأن ذلك يقتضى الاتيان بها لزوما . قال تعالى (٩ : ٥ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال أنس فى الآية «توبتهم : خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وايتاء الزكاة» وعن ابن مسعود مرفوعا « أمرت باقام الصلاة وايتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له»

فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّـاك وكرائمَ أموالهم ، واتَّقِ دَعوةَ المظلوم ، فانه

فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء ،وانما خص النبى ﷺ الفقراء لأن حقهم فى الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية

وفيه : أن الامام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع من أدائها اليه أُخذت منه قهراً

وفى الحديث دليل على أنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد ، كما هو مذهب مالك وأحمد

وفيه : أنه لايجوز دفعها إلى غنى ولا إلى كافر غير المؤلَّف ، وأن الزكاة واجبة فى مال الصبى والمجنون ، كما هو قول الجمهور ، لعموم الحديث

قلت : والفقير إذا أُفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس ، كنظائره . كما قرره شيخ الاسلام

قوله ﴿ واياك وكرائم أموالهم ﴾ بنصب « كرائم » على التحذير ، جمع كريمة . قال صاحب المطالع : هى الجامعة للكمال الممكن فى حقها : من غزارة لبن ، وجمال صورة ، وكثرة لحم وصوف . ذكره النووى (قلت) وهى خيار المال وأنفسه وأكثره ثمنا

وفيه : أنه يحرم على العامل فى الزكاة أخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال . بل يخرج الوسط ، فان طابت نفسه بالكريمة جاز .(١)

قوله ﴿ واتق دعوة المظلوم ﴾ (٢) أى اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ، وهذان الأمران يقيان من رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى

وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم

(١) فى قرة العيون : تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله فى الزكاة ، وهو أخذها من أوساط المال ، لأن ذلك سبب لاخراجها بطيب نفس ونية صحيحة . وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه . وهذا أصل ينبغى التفطن له

(٢) فى قرة العيون : يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالما لمن أخذ ذلك منه ، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه ، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ، ولا يحابى بترك شىء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين والله أعلم

ليس بينـها وبين اللهِ حجاب » أخرجاه

قوله ﴿ فانه ﴾ أى الشأن ﴿ ليس بينها وبين الله حجاب ﴾ هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن . أى فانها لا تحجب عن الله فيقبلها

وفى الحديث أيضا قبول خبر الواحد العدل ، ووجوب العمـل به . و بعْث الامام العمال لجباية الزكاة . وأنه يعظ عماله وولاته ، ويأمرهم بتقوى الله تعالى ؛ ويعلمهم ؛ و ينهاهم عن الظلم و يعرفهم سوء عاقبته . والتنبيه على التعليم بالتدريج . قاله المصنف

قلت : و يبدأ بالأهم فالأهم

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء

قال شيخ الاسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواة اختصر الحديث وليس كذلك . فان هذا طعن فى الرواة . لأن ذلك إنما يقع فى الحديث الواحد ؛ مثل حديث وَفْد عبد القيس (١) حيث ذكر بعضهم الصيام و بعضهم لم يذكره ، فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك ؛ ولـكن عن هذا جوابان :

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ؛ وأول مافرض الله الشهادتين ثم الصـلاة . فانه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحى ؛ ولهذا لم يذكر وجوب الحج ؛ كعامة الأحاديث ، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثانى : أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه . فيذكر تارة الفرائض التى يقـاتل عليها : كالصلاة والزكاة . ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم . فإما أن يكون قبل فرض الحج ؛ و إما أن يكون المخاطب بذلك لا حج

---

(١) روى البخارى ومسلم عن ابن عباس « أن عبد القيس وفدوا على النبى (ص) فقال : ممن القوم؟ فقالوا ، من ربيعة . قال: مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا: يارسول الله إن بيننا وبينك هـذا الحى من كفار مضر؛ وإنا لا نصل اليك الا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة . فقال : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع آمركم بالايمان بالله وحده . أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم ـ الحديث » وكان وفد عبد القيس فى سنة تسع

عليه ، وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما ، لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم فانه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ؛ فان الانسان يمكنه أن لا ينوى الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته ، وهو ﷺ يذاكر فى الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما فى آيتى براءة [1] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذاً الى اليمن لم يذكر فى حديثه الصوم ، لأنه تبعٌ وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب فى العمر إلا مرة . انتهى بمعناه [2]

قوله ﴿ أخرجاه ﴾ أى البخارى ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

قال ﴿ ولهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خَيْبَر : « لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يَفتحُ الله على يديه . فباتَ الناس يَدُوكون ليلتهم، أيُّهم يُعطاها. فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ ؛ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال : أين علىّ بن أبى طالب ؟ فقيل : هو يشتكى عينيه ؟ فأرسلوا اليه ، فأُتىَ به ، فبَصق فى عينيه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وَجع ، فأعطاه الراية ، وقال : انفُذ على رِسلك حتى تنزلَ بساحتهم ؛ ثم ادعُهم الى الاسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يَهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَم » ﴾

---

(١) هما قوله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) الآية الخامسة . ومثلها الآية الحادية عشرة ؛ وخاتمتها (فاخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون)

(٢) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العلماء من اختصار الراوى للحديث . وليس فى ذلك طعن فى الرواة ، لانهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والمناسبات . فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض . وذلك كثير جداً ؛ كما تراه فى البخارى وغيره ؛ والله أعلم .

« يَدُوكون » أى يخوضون .

قوله ﴿ عن سهل بن سعد ﴾ أى ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى ، أبى العباس صحابى شهير ، وأبوه صحابى أيضاً ، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة

قوله ﴿ قال يوم خيبر ﴾ وفى الصحيحين عن سَلَمة بن الأكوع قال « كان على رضى الله عنه قد تخلّف عن النبى ﷺ فى خيبر ، وكان أرمد ، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج على رضى الله عنه فلحق بالنبى ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عز وجل فى صباحها قال ﷺ : لأعطين الراية ـ أو ليأخذن الراية ـ غداً رجل يحبه الله ورسوله ، أو قال: يحب الله ورسوله ؛ يفتح الله على يديه . فاذا نحن بعلىّ وما نرجوه ؛ فقالوا : هذا على ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه »

قوله ﴿ لأعطين الراية ﴾ قال الحافظ : فى رواية بُريدة « إنى دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله » وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما ، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس « كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ، ولواؤه أبيض » ومثله عند الطبرانى عن بريدة . وعند ابن عدى عن أبى هريرة وزاد « مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله »

قوله ﴿ يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ﴾ فيه فضيلة عظيمة لعلى رضى الله عنه

قال شيخ الاسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلى ولا بالأئمة ، فان الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى ، يحب الله ورسوله ؛ لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يكفّرونه أو يفسقونه ، كالخوارج . لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فان الخوارج تقول فى على مثل ذلك ، لكن هذا باطل ، فان الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً

وفيه إثبات صفة المحبة خلافا للجهمية ومن أخذ عنهم (١)

---

(١) فى قرة العيون : وفيه فضيلة أخرى لعلى رضى الله عنه بما خصه من اعطاء الراية ، ودعوته أهل خيبر الى الاسلام ؛ وقتالهم اذا لم يقبلوا . وفيه مشروعية الدعوة الى الاسلام

على يديه . فبات الناس يَدُوكون ليلتهم : أيُّهُم يُعطاها . فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها . فقال : أين عليّ بن أبي طالب؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ،

قوله ﴿ يفتح الله على يديه ﴾ صريح فى البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .

قوله ﴿ فبات الناس يدوكون ليلتهم ﴾ بنصب (ليلتهم) و« يدوكون » قال المصنف: يخوضون. أى فيمن يدفعها اليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم فى العلم والايمان.

قوله ﴿ أيهم ﴾ هو برفع « أى » على البناء لاضافتها وحذف صدر صلتها

قوله ﴿ فلما أصبحوا غدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ﴾ وفى رواية أبى هريرة عند مسلم أن عمر قال « ما أحببت الامارة إلا يومئذ »

قال شيخ الاسلام : إن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعلى بايمانه باطنا وظاهراً ، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له ، وإذا شهد النبى ﷺ لمعيَّن بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبى يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو لخلق كثير، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس (1) وعبد الله بن سلام (2) ، وإن كان شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذى ضُرب فى الخمر (3)

قوله ﴿ فقال أين على بن أبى طالب ﴾ فيه سؤال الامام عن رعيته ، وتفقد أحوالهم .

---

(١) قال له النبى صلى الله عليه وسلم « هو من أهل الجنة » فى حديث طويل حين جلس فى بيته حزيناً عند نزول (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وكان ثابت رفيع الصوت، فقال أنا الذى كنت أرفع صوتى — الحديث رواه الامام أحمد (ج ٣ ص ١٣٧) ورواه مسلم فى كتاب الايمان حديث ١٨٧

(٢) عن سعد بن أبى وقاص قال « ماسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام » رواه البخارى فى مناقب الأنصار ورواه مسلم والترمذى وابن ماجه

(٣) روى البخارى عن عمر قال « كان رجل يسمى عبد الله ويلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد ، فلعنه بعض الصحابة ، فقال صلى الله عليه وسلم لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله — الحديث

فأرسلوا إليه ، فأُتِىَ به . فَبَصق فى عينيه ، ودعا له . فبرَأ كأن لم يكن به وَجَع فأعطاه الراية فقال : انْفُذْ على رِسْلِكَ حتى تَنْزِلَ بساحتهم

قوله ﴿ فقيل هو يشتكى عينيه ﴾ أى من الرمد ، كما فى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص فقال « ادعوا لى علياً فأتى به أرمد » الحديث ، وفى نسخة صحيحة بخط المصنف « فقيل هو يشتكى عينيه ، فأرسل اليه » مبنى للفاعل ، وهو ضمير مستتر فى الفعل راجع الى النبى ﷺ ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال « فأرسلنى إلى علىّ فجئت به أقوده أرمد »

قوله ﴿ فبصق ﴾ بفتح الصاد ، أى تفل .

قوله (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة ، أى عوفى الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر [1]

وعند الطبرانى من حديث على « فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبى ﷺ إلىّ الراية » وفيه دليل على الشهادتين .

قوله (فأعطاه الراية) قال المصنف : فيه الايمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها عمن سعى وفيه : ان فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافى التوكل .

قوله (وقال انفذ على رسلك) بضم الفاء . أى امض ، و « رسلك » بكسر الراء وسكون السين ، أى على رفقك من غير عجلة . و « ساحتهم » فِناء أرضهم وهو ماحولها .

وفيه : الأدب عند القتال وترك العجلة والطيش ، والأصوات التى لا حاجة إليها .

وفيه : أمر الامام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة ، كما يشير اليه قوله « ثم ادعهم الى الاسلام » [2] أى الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،

---

[١] فى قرة العيون : وذلك بدعوة النبى «ص» كما فى الحديث فدعا فاستجيب له عليه السلام ، وفيه علم من أعلام النبوة أيضاً ، وذلك كله بالله ومن الله وحده وهو الذى يملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، لا إله غيره ولا رب سواه .

[٢] فى قرة العيون : هذا هو شاهد الترجمة ، وهكذا ينبغى لأهل الاسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق الى الاسلام والدخول فيه ، وينبغى لولاة الامر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم

ثم ادْعُهُمْ إلى الاسلام

وان شئت قلت : الاسلام شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، واخلاص الطاعة لرسوله ﷺ . ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله (٣: ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؛ فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : والاسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له والعبودية له . كذا قال أهل اللغة

وقال رحمه الله تعالى : ودين الاسلام الذى ارتضاه الله و بعث به رسله : هو الاستسلام له وحده ، فأصله فى القلب . والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ماسواه . فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ؛ وفى الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح . وأما الايمان فأصله تصديق القلب و إقراره ومعرفته ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى

فتبين أن أصل الاسلام هو التوحيد ونفى الشرك فى العبادة وهو دعوة جميع المرسلين ، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله ؛ كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله (٧١ : ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون)

وفيه : مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء لأن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارّون[1] وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم

---

(١) الغار : الغافل . وقال البخارى : غزوة المصطلق من خزاعة . وهى المريسيع . قال ابن اسحاق : وذلك سنة ست . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وقال النعمان بن راشد عن الزهرى ، كان حديث الافك فى غزوة المريسيع . وروى البخارى فى أبواب العتق عن عبدالله بن عمر « أن النبى «ص» أغار على بنى المصطلق وهم غارون ، وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم . وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث » وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة . وسبب غزوهم : أن النبى «ص» بلغه أن الحارث بن ضرار سيدهم أبا جويرية يجمع الناس ويستعد لقتاله . ففاجأهم رسول الله وهم غافلون ، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار .

وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله تعالى فيه ،فوالله لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً

قوله ﴿ وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه(١) ﴾ أى فى الاسلام اذا أجابوك اليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التى لابد لهم من فعلها ؛ كالصلاة والزكاة ، كما فى حديث

(١) فى قرة العيون : فيه مما أمر به وشرعه من حقوق «لااله الا الله» وهذا يدل على أن الأعمال من الايمان خلافا للأشاعرة والمرجئة فى قولهم : انه القول . وزعموا أن الايمان هو مجرد التصديق ، وتركوا مادل عليه الكتاب والسنة . لأن الدين ما أمر الله به فعلا وما نهى عنه تركا .

وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم . وأمير المؤمنين على رضى الله عنه وقع له من الكرامات مالم يقع لغيره . وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم . فصار من أشد الصحابة رضى الله عنه بعداً عن الشرك ، وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار (*)

وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع ما أعطى من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه . وهؤلاء أفضل أهل الكرامات فما زادهم ذلك الا قوة فى التوحيد ؛ وشدة على أهل الشرك والتنديد ، كما جرى لعمر رضى الله عنه فى الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة فى بيت مال الهرمزان ، كما أن المعجزات انما زادت الرسل قوة فى الدعوة الى التوحيد وشدة على أهل الشرك والانكار عليهم وجهادهم ، لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ماقد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ؛ ويظنون أن ذلك كرامات ، وهى من مكر الشيطان ؛ واغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد «ص» (٤٣:٤٣ فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم) فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره فانه الصراط المستقيم ولا يلتفت الى مازخرفته الشياطين كما اغتر به من اغتر فى هذه الأمة من قبلهم .

وفيه : من أداء الفرائض على الوجه الشرعى والنهى عن تعدي الحدود التى حدها الله بين الحلال والحرام ؛ وذلك من الايمان . فالحلال ما أحله الله ، والحرام ماحرمه الله ؛ والدين ماشرعه الله ، فاذا أخذ بالاسلام الذى هو التوحيد والاخلاص وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ماحرمه الله تعالى وأمر بذلك وجاهد عليه عليه ، فقد قام بما وجب . وبالله التوفيق

(*) هو عبد الله بن سبأ اليهودى وشيعته . والقصة فى البخارى

واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم » « يَدُوكون » أى يخوضون .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله ﷺ

الثانية : التنبيه على الاخلاص ، لأن كثيراً لو دعا الى الحق فهو يدعو إلى نفسه

الثالثة : أن البصيرةَ من الفرائض

الرابعة : من دلائل حُسْن التوحيد : أنه تنزيه الله تعالى عن المسبَّة

الخامسة : أنَّ مِن قُبح الشرك كونَه مَسبَّة لله

السادسة : - وهى من أهمها - إبعادُ المسلم عن المشركين لايصير منهم ، ولو لم يشرك

السابعة : كون التوحيد أول واجب

الثامنة : أن يُبدأ به قبل كل شىء ، حتى الصلاة

أبى هريرة « فاذا فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها[1] » ولما قال عمر لأبى بكر فى قتاله مانعى الزكاة : « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ قال أبو بكر : فان الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عَنَاقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها[2] »

وفيه : بعثُ الامام الدعاةَ الى الله تعالى ، كما كان النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون ، كما فى المسند عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال فى خطبته « ألا إنى والله ما أرسل عُمَّالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسننكم »

قوله ﴿ فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم ﴾ « أن » مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم . وأنْ والفعل بعدها فى تأويل مصدر ، رفع على الابتداء

(١ و ٢) رواهما البخارى ومسلم وغيرهما

التاسعة : أن معنى «أن يُوحِّدوا الله» معنى : شهادة أن لا إلٰه إلا الله

العاشرة : أن الانسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها .

الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدريج

الثانية عشرة : البُداءة بالأهم فالأهم

الثالثة عشرة : مصرِف الزكاة

الرابعة عشرة : كشفُ العالِم الشبهةَ عن المتعلم

الخامسة عشرة : النَّهى عن كرائم الأموال

السادسة عسرة : اتقاء دعوة المظلوم

السابعة عشرة : الإِخبار بأنها لا تُحجَب

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ماجرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء

التاسعة عشرة : قوله « لأعطين الراية ألخ » علَم من أعلام النبوة

العشرون : تَفْلُه فى عيْنَيه علَم من أعلامها أيضا .

الحادية والعشرون : فضيلة علىّ رضى الله عنه

الثانية والعشرون: فضل الصحابة فى دَوْكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتْح

الثالثة والعشرون: الايمانُ بالقدَر لحصولها لمن لم يَسْعَ لها و مَنْعِها عمن سعى

الرابعة والعشرون : الأدب فى قوله « على رِسْلكَ »

الخامسة والعشرون : الدعوة الى الاسلام قبل القتال

والخبر « خير » و «حمر» بضم المهملة وسكون الميم، جمع أحمر . و « النعم » بفتح النون والعين المهملة ، أى خير لك من الإبل الحمرْ . وهى أنفسُ أموال العرب .

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله « اخبرهم بما يجب »

الثامنة والعشرون : المعرفة بحقّ الله فى الاسلام

التاسعة والعشرون : ثوابُ من اهتدى على يديه رجلٌ واحد

الثلاثون : الحلِفُ على الفُتْيا

باب

﴿ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله ﴾

قال النووى : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب الى الأفهام ؛ وإلا فذرّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها .

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولولم يُستحلف .

قوله : ﴿ باب ـ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله ﴾

قلت : هذا من عطف الدال على المدلول (١)

فان قيل: قد تقدم فى أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى « لا إلٰه إلا الله » وماتضمنته من التوحيد : كقوله تعالى (١٧ : ٢٣ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وسابقها ولاحقها . وكذلك ما ذكره فى الأبواب بعدها . فما فائدة هذه الترجمة ؟

قيل : هذه الآيات المذكورات فى هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الاخلاص وما دلت عليه : من توحيد العبادة . وفيها: الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم . لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كالآية الأولى (١٧ : ٥٦ قل ادعوا

---

(١) فى قرة العيون : لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة ، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث، لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك، وإقامة الحجة على من غلط فى معنى « لا إله إلا الله » من أهل الجهل والالحاد

وقول الله تعالى ﴿ ١٧ : ٥٧ أُولَـٰئِكَ الذين يدعون يَبْتغونَ إلى رَبِّهم الوسيلةَ أيهم أقربُ ويرْجون رحمتهُ ويخافون عذابه . إنَّ عذابَ ربك كان محْذوراً ﴾

الذين زعمتم من دونه) أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه ، والعُزيرَ والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى ، كما فى هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ، ينافى التوحيد ، وينافى شهادة أن لا إله إلا الله ، فان التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الاخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و « الدعاء مخ العبادة » (*)

وفى هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان ، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعو نبياً أو ملكا . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ، لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان اليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره . وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى لا إله إلا الله

وقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة)(١) يبين أن هذا سبيل

(*) رواه الترمذى عن انس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) فى قرة العيون : أى أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير . فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله (يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) فيطلبون القرب من الله بالاخلاص له وطاعته فيما أمر ، وترك مانهاهم عنه . وأعظم القرب التوحيد الذى بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة اليه ؛ وهذا الذى يقربهم الى الله أى الى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فلا يرجون أحداً سواه ولا يخافون غيره ، وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك ، ويوجب لهم الطمع فى رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعى لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر ، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله فى دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله . ففيه معنى قوله (٣٥ : ١٤ ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقوله (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)

وفيه : الرد على من ادعى أن شرك المشركين انما هو بعبادة الأصنام وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم ، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، =

الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . قال قتادة « تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه»

= وان ذلك ينافى مادلت عليه كلمة الاخلاص .

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد ، وما ينافيه من الشرك والتنديد ؛ فانها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا) ثم بين تعالى ان هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه فى دينه فقال [أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر ، يعنى يبتغون الى ربهم الوسيلة لا الى غيره . وأعظم الوسائل الى الله تعالى التوحيد الذى بعث الله به أنبياءه ورسله ؛ وخلق الخلق لأجله ومن التوسل اليه : التوسل بأسمائه وصفاته ، كما قال تعالى [٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وكما ورد فى الأذكار المأثورة من التوسل بها فى الدعوات كقوله (ص) « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام» وقوله « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا اله الا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التى لم يشبها شرك .

فالتوسل الى الله هو بما يحبه ويرضاه ، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذى نزه نفسه عنه بقوله (سبحان الله عما يشركون) وقوله (سبحان الله وما أنا من المشركين) وقوله فى الانكار على من اتخذ الشفعاء (١٠ :١٨ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير يأمر عباده باخلاص العبادة له ؛ وينهاهم عن عبادة ماسواه ، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاؤهم به من التوحيد والنهى عن الشرك . فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم ، فانهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح (١١ :٢٧ ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) وقالوا لهود (١١ :٥٣ ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) الآيات. وقالوا لصالح (١١ :٦٢ « قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) وقالوا لشعيب « ١١ :٨٧ « أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ؟ »

فتدبر ماقص الله تعالى فى كتابه مما دعت اليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم . فان الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك الى يوم القيامة . وأما ماورد فى معنى الآية عن ابن مسعود قال « كان ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم »

قلت : وهذا لا يخالف ماتقدم لان هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الاولين والآخرين ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى هذه الآية : وهذه الاقوال كلها حق فان الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر .

وقوله ﴿ ٢٦:٤٣ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه إننى بَراءٌ مماتعبدون ٢٧ إلا الذى فطرَنى فإنه سَيهدين ٢٨ وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبهِ لعلهم يرجعون ﴾

وقرأ ابن زيد (أولئك الذين تدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب [1]) قال العماد ابن كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين. وذكره عن عدة من أئمة التفسير

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء القرب اليه. والتوسل اليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الاسلام كما فى المسند عن بَهْز بن حَكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى ﷺ « والله يارسول الله ماأتيتك إلا بعد ماحلفتُ عدد أصابعى هذه: أن لا آتيك. فبالذى بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: الاسلام. قال: وما الاسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك وأن تُوجّه وجهك إلى الله، وأن تصلى الصلوات المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة » وأخرج محمد بن نصر المروزى من حديث خالد بن مَعدان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن للاسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق [2]. من ذلك: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وهذا معنى قوله تعالى (٣١: ٢٢ ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور)

وقوله تعالى ﴿ ٤٣ : ٢٦ — ٢٨ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون؛ إلا الذى فطرنى فانه سيهدين، وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ أى « لا إله إلا الله »

فتدبّر كيف عبّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه

---

(١) يعنى أن جميع الصالحين الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلا الى الله ليقضى حوائجهم، واما استقلالا بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين بأن الله وهبهم التكوين والتصرف؛ أولئك الصالحون مشتغلون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون اليه بعبادته مخلصين له الدين خائفين عذابه راجين رحمته، واذا لم يملكوا لانفسهم نفعاً ولا دفع ضر، فكيف يملكون لغيرهم ضراً أو نفعا؟

(٢) الصوى الأعلام المنصوبة من الحجارة فى المفازة المجهولة يستدل بها على الطريق، واحدتها صوة — كقوة — أراد ان للاسلام طرائق وأعلاما يهتدى بها

وقوله ﴿ ٩ : ٣١ اتَّخَذُوا أَحْبارهم ورُهْبانهم أَرْباباً من دُون الله ﴾ الآية .

ووضعت له[1] : من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج : كالكواكب والهيا كل والأصنام التى صورها قوم نوح على صور الصالحين : ودّ وسُواع ويَغُوثَ ويَعُوق ونَسْر ، وغيرها من الأوثان والأنداد التى كان يعبدها المشركون بأعيانها. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذى فطره ، وهو الله وحده لاشريك له ؛ فهذا هو الذى دلت عليه كلمة الاخلاص مطابقة . كما قال تعالى (٢٢:٦٢ ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعونه من دونه هو الباطل) فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهى باطلة ، وهى الشرك الذى لايغفره الله ، قال تعالى (٤٠ : ٧٣ ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون ٧٤ من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبلُ شيئاً . كذلك يُضِلُّ الله الكافرين)

وقوله تعالى ﴿ ٩:٣١ اتخذوا أحبارهم[2] ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾[3]

---

(١) فى قرة العيون : فعبر عن المنفى بها بقوله (اننى براء مما تعبدون) وعبر عما أثبتته بقوله (إلا الذى فطرنى) فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ماسواه ببراءته من ذلك .فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه

قال العماد ابن كثير فى قوله تعالى (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ماسواه من الأوثان وهى لاإله الا الله ؛ جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية ابراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أى اليها . قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) يعنى «لاإله الاالله» لايزال فى ذريته من يقولها

(٢) الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد . قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى فى الآية (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لاإله الا هو سبحانه عما يشركون) فصار ذلك عبادة لهم . وجعلوا أحبارهم ورهبانهم مشرعين فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله ؛ فاتخذوهم بذلك أرباباً . لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية . وقال تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) .

(٣) فى قرة العيون : أى اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله وقال تعالى (٥ : ١١٦ اذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هـذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال: « يارسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلّون لكم ماحرم الله فتحلونه ، ويحرمون ماأحل الله فتحرمونه ؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم [(١)] »

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أرباباً ، كما هو الواقع في هـذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله .

فتبين بهذه الآية أن كلمة الاخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة . فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد .

وقوله تعالى (٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب اليه ويرجوه لما يؤمله منه: من قضاء حاجاته وتفريج كرباته — كحال عبّاد القبور والطواغيت والأصنام — فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فانهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى [(٢)] . ويقولون «لا إله إلا الله» ويصلون

= مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق . ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ١١٧ ماقلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى «لااله الا الله» وتبين له التوحيد الذي جحده أكثر من يدعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هـذه الأمة ، وقد عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لهم المشاهد ؛ فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة . فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر ، عاد المعروف منكراً والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة . نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير ؛ وقد قال «ص» « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس» وفي رواية « يصلحون ما أفسد الناس »

(١) رواه الامام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير مطولا

(٢) هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة . لأن حب الله لا يكون الا عن معرفة بالله ؛ بأسمائه وصفاته . ومن أحب الله على الحقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه نداً . وليس معنى [كحب الله] أي كحبهم لله . ولكن معناها والله أعلم : يحبونهم حبـاً من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله . وهو حب العبادة : غاية الحب في غاية الذل والتعظيم . فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء والالتجاء والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها . مما يجرده المؤمنون لله وحده

ويصومون ، فقد أشركوا بالله فى المحبـة بمحبة غيره وعبادة غـيره . فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه . لأن المشرك لا يقبل منه عمل ، ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بمدلولها . لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكا فى المحبـة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافى للعلم بما دلت عليه من الاخلاص ؛ ولم يكن صادقا فى قولها .

= وهم أشد حباً لله . والمشركون يجردونه لأوليائهم أو يشركونهم مع الله ؛ ولا يرجون لله وقارا

وقال فى قرة العيون : الأنداد ؛ الأمثال والنظراء كما قال العماد بن كثير وغيره من المفسرين فكل من صرف من العبـادة شيئاً لغير الله رغبة اليه أو رهبة منه ، فقد اتخذه نداً لله . لانه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره

قال العـلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدى محبوبه أى مع الله بعبادته له ، وتوحيد الحب أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب وان سمى عشقا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ؛ وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن لا تكون محبته لغير الله ، فلا يحب الا الله ؛ كما فى الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الـكفر كما يكره أن يلقى فى النار» ومحبة رسوله هى من محبته . ومحبة المرء ان كانت لله فهى من محبته ، وان كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها . ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهتـه لأبغض الأشياء الى محبوبه ؛ وهو الـكفر ـ بمنزلة كراهته لالقائه فى النار أو أشد . ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة . فان الانسان لا يقدم على محبة نفسه شيئا ، فاذا قدم محبة الايمان بالله على نفسه بحيث لو خـير بين الـكفر وإلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب اليه من نفسه . وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة ؛ كما لا مثيل لمن تعلقت به ، وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والاجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطنا ، وهذا لا نظير له فى محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان ، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى المحبة الخاصة كان شركا لا يغفره الله كما قال تعالى [ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله] والصحيح أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشـد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ؛ كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلا ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته ، وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته . انتهى

لأنه لم ينف مانفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص ، وترك اليقين أيضاً . لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أوشكّ فيه ، ولم يقبله وهو الحق . ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما فى الحديث . بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه النِّدّ ومحبته له وعبادته إياه من دون الله ، كما قال تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) لأنهم أخلصوا له الحبّ فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويكفرون بما عبد من دون الله . فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لاإله إلا الله . وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا اليه جميع المرسلين ، فتدبر .

قال ﴿ وقول الله تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ـ الآية ﴾ يتبين معنى هذه الآية بذكر ماقبلها ، وهوقوله تعالى (قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا)

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى (قل) يامحمد(*) للمشركين الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد ، وارغبوا اليهم ، فانهم لايملكون كشف الضر عنكم ، أى بالكلية (ولا تحويلا) أى ولا أن يحولوه الى غيركم .

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذى له الخلق والأمر .

قال العوفى عن ابن عباس فى الآية : «كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يدعون . يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً »

وروى البخارى فى الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا » وفى رواية : «كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هى الاسلام ، وهو كذلك على كلا القولين

وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال «عيسى وأمه وعزيرا» وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول فى هذه الآية «هم عيسى وعزير والشمس والقمر » وقال مجاهد « عيسى وعزير والملائكة »

---

[*] يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيراً ؛ تفسيراً لخطاب الله . ولكن يلاحظ أن الله لم يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب «يامحمد» بل كل خطاب الله « ياأيها النبى، ياأيها الرسول » فينبغى أن يكون ذلك كذلك ؛ والله أعلم .

وقوله ﴿ يرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لابد له من ذلك : فإما أن يكون خائفاً وإما أن يكون راجياً ، وإما أن يجتمع فيه الوصفان

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى ،فى هذه الآية ؛ لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فان الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر . والسلف فى تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : مامعنى الخبز ؟ فيريه رغيفا . فيقول :هذا . فالاشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية . فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أوغيرها فقد تناولته هذه الآية ، كما تتناول من دعا الملائكة والجن ؛ فقد نهى الله تعالى عن دعائهم ؛ وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالكلية ولا يُحوّلونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال (ولا تحويلا) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل . فكل من دعا ميتاً أوغائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله اه

وفى هذه الآية رد على من يدعو صالحا و يقول: أنا لا أشرك بالله شيئا ،الشرك عبادة الأصنام

قال ﴿ وقوله (واذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى بَراء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ـ الآية ﴾

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ؛ الذى تنتسب اليه قريش فى نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لاشريك له ، وخلع ماسواه من الأوثان ، وهى «لا إله الا الله» [1] جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أى اليها

---

[١] فان « لا إله الا الله » مطابقة لقوله « اننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى » لأن كلتاهما مركبة من جملتين : نفى ؛ وهى «لا إله » و « اننى براء مما تعبدون» واثبات ؛ وهى « إلا الله » و « الا الذى فطرنى » فينبغى ان يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك ويحققه علماً وعملا

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) يعنى « لا إله الا الله » لا يزال فى ذريته من يقولها

وروى ابن جرير عن قتادة (اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى) قال : كانوا يقولون : الله ربنا (٤٣ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد .

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) قال « الاخلاص والتوحيد لا يزال فى ذريته من يعبد الله و يوحده »

قلت : فتبين أن معنى « لا إله إلا الله » توحيد الله باخلاص العبادة له والبراءة من كل ماسواه .

قال المصنف رحمه الله ﴿ وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة ؛ هى شهادة أن لا إله إلا الله ﴾

وفى هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله فى الكافية الشافية :

واذا تولاه امرؤ دون الورى طرًّا تولاه العظيم الشأن

قال ﴿ وقوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ الآية ﴾

الأحبار : هم العلماء ، والرهبان هم العباد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدى بن حاتم ، وذلك « أنه لما جاء مسلما دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم . فقال : بلى ؛ انهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم ؛ فذلك عبادتهم اياهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى من طرق

قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فان الحلال ما أحله الله ، والحرام ماحرمه الله ؛ والدين ماشرعه الله

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ماحرم الله ، أو تحريم ماأحله الله ، وأطاعه فى معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكا ، وذلك ينافى التوحيد الذى هو دين الله الذى دلت عليه كلمة الاخلاص (لا إله الا الله) فان الإله هو المعبود ، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم ، وسماهم أربابا ، كما قال تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين

أرباباً) أى شركاء لله تعالى فى العبادة (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وهذا هو الشرك. فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ماشرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً ؛ كما قال تعالى فى آية الأنعام (٦ : ١٢١ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ، و يشبه هذه الآية فى المعنى قوله تعالى (٤٢:٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) والله أعلم

قال شيخ الاسلام فى معنى قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله وتحريم ماأحل الله يكونون على وجهين (أحدهما) أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ماأحل الله ، اتباعا لرؤسائهم ؛ مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل . فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركا ، وان لم يكونوا يصلون لهم و يسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ماقاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله ، مشركا مثل هؤلاء

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ؛ كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « انما الطاعة فى المعروف »

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه . ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما إن اتبع فى ذلك هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسول . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه اذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد فى خلافه ، و إنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال . و إن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل مايقدر عليه من الحق لايؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشى وغيره . وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى (٣:١٩٩ وإن من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل

وقوله (٢: ١٦٦ ومن الناس من يتخذُ من دون الله أنداداً يُحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشــدُّ حباً لله)

إليهم) وقوله (٥: ٨٣ و إذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . الآية) وقوله (٧: ١٥٩ ومن قوم موسى أُمّـة يهدون بالحق و به يعدلون) . وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل مايقدر عليه مثُله : من الاجتهاد فى التقليد . فهذا لا يؤاخـذ إن أخطأ كما فى القِبْلة . وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غـير علم أن معه الحق ؛ فهذا من أهل الجاهلية ، و إن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحا ، و إن كان متبوعه مخطئاً كان آثما . كمن قال فى القرآن برأيه ، فان أصاب فقد أخطأ ، و إن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فان ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفى الحديث « إن يسير الرياء شرك » وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها إطلاق الـكفر والشرك على كثير من الذنوب . انتهى

وقال أبو جعفر بن جرير فى معنى قول الله تعالى (وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم فى معاصى الله . انتهى

قلت : كما هو الواقع من كثير من عباد القبور .

قال ﴿ وقوله (٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ــ الآية ﴾

قال العماد بن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة ، حيث جعلوا لله أنداداً ؛ أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه و يحبونهم كحبه ، وهو الله لا إلـٰه إلا هو ، ولا ضد له ولا ند له ؛ ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قلت «يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقَكَ »

وقوله ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً ، بل يعبـدونه وحده و يتوكلون عليه ، و يلجأون فى جميـع أمورهم اليه . ثم توعّـد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك . فقال تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرَوْن

العذاب أنّ القُوّة لله جميعاً) قال بعضهم : تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوّة لله جميعاً ، أى إن الحكم له وحده لا شريك له ، فان جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وأن الله شديد العذاب) كما قال تعالى (٨٩ : ٢٥، ٢٦ فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد ؛ ولا يوثِق وَثاقه أحد) يقول : لو علموا ما يعاينون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرّؤ المتبوعين من التابعين . فقال تعالى (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا ، فتقول الملائكة [1] (٢٨ : ٦٣ تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (٣٤ : ٤١ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضاً يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . انتهى كلامه

روى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد (والذين آمنوا أشد حباً لله) من الكفار لأوثانهم .

---

(١) قال العماد ابن كثير فى تفسير سورة القصص : وقوله تعالى (وقال الذين حق عليهم القول) يعنى الشياطين والمردة والدعاة الى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ؛ ثم تبرأوا من عبادتهم اهـ . والدعاة الى الكفر : هم من بنى آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخا لأولئك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية . فانهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيهم الشرك والكفر بالله ورسوله . فان أساس طريقهم الشيطانية : أن يعبد المريد شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمريد لا يشعر . وانه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ فى قلبه . ويعظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتا — كما هو مدون فى كتبهم — من شروط المريد وما يسمونه العهد الوثيق . وتجد أكثر هذا الكفر والضلال فى كتب الشعرانى . وأما آيات سورة الأحقاف فانها صريحة فى أن الذين يكفرون بشرك المشركين : هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم ، واتخذوا قبورهم أوثانا ؛ وما كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به ؛ من أمثال الحسين واخوته وأبيه وأبنائهم والامام الشافعى فى مصر وأبى حنيفة وعبد القادر فى بغداد ونحوهم ، فانهم يتبرأون يوم القيامة من أولئك المشركين .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : آية البقرة فى الكفار الذين قال الله تعالى فيهم (وما هم بخارجين من النار) ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله . فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيما ، فلم يدخلهم فى الاسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟ ﴾ اه

ففى الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره فى المحبة فقد جعله شريكا لله فى العبادة واتخذه نداً من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذى لا يغفره الله ، كما قال تعالى فى أولئك (وماهم بخارجين من النار) وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) المراد بالظلم هنا الشرك . كقوله (٨٢:٧ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) كما تقدم . فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك ؛ كما قال تعالى (٢ : ٢١ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ٢٢ الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله مامعناه : فمن رغب إلى غير الله فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ؛ لزم أن يكون محباً له ؛ ومحبته هى الأصل فى ذلك . انتهى

فكلمة الاخلاص « لا إله إلا الله » تنفى كل شرك فى أى نوع كان من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى . وقد تقدم بيان أن « الإله » هو المألوه الذى تألهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة . فلا إله إلا الله ، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده . فهذا هو مادلت عليه كلمة الاخلاص مطابقة ، فلا بد من معرفة معناها واعتقاده ، وقبوله ، والعمل به باطناً وظاهراً والله أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ؛ أى مع الله تعالى بعبادته له ، وتوحيد الحب : أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له ؛ فهذا الحب — وإن سمى عشقا — فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب اليه من كل ماسواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى ، فلا يحب إلا الله ، ولا يحب إلا لله ، كما فى الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه » الحديث [1]

---

(١) رواه البخارى عن أنس بلفظ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه الا لله . وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »

ومحبة رسول الله ﷺ هى من محبة الله ؛ ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته ، و إن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها ؛ ويُصَدِّق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه ـ وهو الكفر ـ بمنزلة كراهيته لإلقائه فى النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فان الانسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فاذا قدم محبة الايمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر و بين إلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب اليه من نفسه ، وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة . كما لا مثل لمن تعلقت به ، وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد . وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والاجلال والطاعة والانقياد ظاهراً و باطناً . وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق ، ولو كان المخلوق من كان . ولهذا من أشرك بين الله و بين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركا شركا لا يغفره الله . كما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) والصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلا ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته . وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته . ومن ضرب لمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق : كالوصل، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيرا ، فهو مخطىء أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالابعاد والمقت . انتهى

﴿ وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله ﴾ قوله فى الصحيح : أي صحيح مسلم عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره .

وأبو مالك اسمه سعد بن طارق ؛ كوفى ثقة مات فى حدود الأربعين ومائة . وأبوه طارق بن أشيَم ـ بالمعجمة والمثناة التحتية ، وزن أحمر ـ ابن مسعود الأشجعى ، صحابى له أحاديث . قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفى مسند الامام أحمد عن أبى مالك قال : وسمعته يقول للقوم « من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » ورواه

الامام أحمد من طريق يزيد بن هارون قال أخبرنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه. ورواه أحمد عن عبد الله بن ادريس قال : سمعت أبا مالك قال : قلت لأبى ــ الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر « لا إله إلا الله »

قوله ﴿ من قال لا إلٰه إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ﴾ اعلم أن النبى ﷺ علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين . الأول : قول « لا إلٰه إلا الله » عن علم ويقين ، كما هو قيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم . والثانى : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها[1] .

قلت : وفيه معنى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها)

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ وهذا من أعظم مايبين معنى لا إله إلا الله ، فانه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الاقرار بذلك ، بل ولا كونه لايدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لايحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فان شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيالها من مسألة ما أجلها وياله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع ﴾ انتهى

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله « لا إله إلا الله » فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلا . قال تعالى (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ؛ ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فان أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعا « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ،

---

[١] فى قرة العيون : فيه دليل أنه لايحرم ماله ودمه الا اذا قال لا إله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، فان قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به ، ولم ينفعه كما نفته لا اله الا الله . فتأمل هذا الموضع فانه عظيم النفع

وحسابه على الله عز وجل»

و يؤمنوا بى و بما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة . فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال « لا إله إلا الله » ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها . أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والاثبات .

قال أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان ، دون أهل الكتاب ، لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله» ثم يُقاتلون ولا يرفَع عنهم السيف .

وقال القاضى عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال «لا إله إلا الله» تعبير عن الاجابة الى الايمان ، وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان ، فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد ، فلا يُكتفىَ فى عصمته بقول «لا إله إلا الله» إذ كان يقولها فى كفره . انتهى ملخصاً

وقال النووى : لابد مع هذا من الايمان بجميع ماجاء به الرسول ﷺ كما جاء فى الرواية « و يؤمنوا بى و بما جئت به»

وقال شيخ الاسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الاسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فانه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام ، أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال ، أو الخمر ، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التى لا عذر لأحد فى جحودها أو تركها ، التى يكفر الواحد بجحودها . فان الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الاسلام . انتهى

قوله ﴿ وحسابه على الله ﴾ أى الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى حساب الذى يشهد بلسانه

وشرحُ هذه الترجمةِ : مابعدها من الأبواب .

فيه أكبر المسائل وأهمها : وهى تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة . وبيَّنها بأمورٍ واضحةٍ .

منها : آيةُ الإسراء بَيَّن فيها الردَّ على المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها : بيانُ أنَّ هذا هو الشركُ الأكبر

ومنها آية براءة ، بَيَّن فيها أنَّ أهل الكتابِ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دُون الله ، وبَيَّن أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يَعبدُوا إلهاً واحداً ، مع أن تفسيرها الذى لا إشكال فيه : طاعةُ العلماء والعبّادِ فى المعصيةِ ، لا دُعاؤهم إياهم

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار (إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فاستثنى من المعبودين رَبَّهُ ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة : هى تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال (وَجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبهِ لَعلَّهم يرجعون)

بهذه الشهادة ، فان كان صادقا جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقا عذبه العذاب الأليم . وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الاسلام وجب الكفّ عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الانسان قد يقول «لا إله إلا الله» ولا يكفر بما يعبد من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث

قوله ﴿ وشرحُ هذه الترجمة مابعدها من الأبواب (١) ﴾ قلت : وذلك أن مابعدها من

---

(١) فى قرة العيون : فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى مابين التوحيد وما ينافيه، ومايقرب منه، وما يوصل اليه من الوسائل، وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك فى العبادة وشدة انكارهم له وجهادهم على ذلك ؛ وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد مالا يعذر أحد عن معرفته وطلبه باقبال وتدبر . وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره فى الرد على كل مبتدع ، فتدبره تجد ذلك بيناً . وسيأتى التنبيه على ذلك ان شاء الله تعالى .

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال فيهم ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ذكر أنهم يُحبُّون أندادهم كحبِّ الله،(١) فدلَّ على أنهم يحبون الله حباً عظيما ولم يُدْخلهم في الاسلام. فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكبر(٢) من حُبِّ الله؟ فكيف بمن لم يُحبَّ إلا النِّدَّ وحده؟ ولم يُحبَّ الله؟

ومنها: قوله ﷺ « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله » وهذا من أعظم مايبين معنى « لا إله إلا الله » فانه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصِماً للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها، بل ولا الاقرارُ بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يَحرُمُ

الأبواب فيه مايبين التوحيد ويوضح معنى « لا إله إلا الله » وفيه أيضاً: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون « لا إله إلا الله » فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى « لا إله إلا الله » وما دلت عليه من الاخلاص ونفي الشرك،

---

(١) الظاهر أن المعنى: أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذى هو حب التعظيم والذل والخضوع. لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع. ولذلك قال « كحب الله » ولم يقل: كحبهم لله. فهم في الوقت الذي يحبونهم أعظم الحب، يخافونهم أشد الخوف؛ معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيراً مما ينذرونه لهم ويذبحونه من طيب مالهم ويرجون منهم المساعدة والمعونة على كشف الضر ودفع البأساء، ويحذرون انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم، ويروون عن سدنتهم روايات مكذوبة في تأييد دعاويهم تهويلا عليهم وتمكينا للضلال والشرك من أنفسهم. فهم لا يرجون لله وقاراً كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم. فتجود أنفسهم بسخاء في سبيل التقرب الى أولئك الموتى من أوليائهم بما لا تجود بعشره في سبيل الله؛ براً للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعاما لجار بائس، أو مسكين من أهل قريته. هذا شأن عباد القبور والموتى اليوم. دقق في أحوالهم وطبقها على آيات المشركين في القرآن تجدهم زادوا على مشركي الجاهلية الأولى. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) ان من تحقق محبة مشركي زماننا لآلهتهم التى يسمونها بالأولياء يعلم يقيناً أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدرون أن يتصدقوا بعشره لوجه الله

ماله ودُمه حتى يُضيفَ الى ذلك الكُفرَ بما يعْبدُ من دون الله . فإن شكَّ أو توقَّفَ لم يَحرُمْ ماله ودمُه .

فيالها من مسألةٍ ما أعظمها وأجلّها ، ويالَهُ من بيانٍ ما أوْضحَهُ وحجّةٍ ما أقطعَها للمنازِع .

باب

﴿ من الشركِ لبسُ الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه ﴾

وقول الله تعالى ﴿ ٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله بضرٍّ هل هنَّ كاشفات ضرِّه ، أو أرادنيَ برحمةٍ هل هنَّ ممسكاتِ رحمته ؟ قلْ حسبيَ الله عليه يَتوكَّل المتوكِّلون ﴾

و بضدها تتبين الأشياء ، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ماهو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد ، وأما الأصغر فانما ينافى كماله ، فمن اجتنبه فهو الموحِّد حقاً ، و بمعرفة وسائل الشرك والنهى عنها لتجتنب تعرف الغايات التى نهى عن الوسائل لأجلها ، فان اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والاخلاص بل يقتضيه . وفيه أيضاً من أدلة التوحيد إثبات الصفات وتنزيه الرب تعالى عما لايليق بجلاله ؛ وكل مايعرِّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده ؛ وأن العبادة لاتصلح إلا له ، وهذا هو التوحيد ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله : ﴿ باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه ﴾

رفْعه : إزالته بعد نزوله . ودفعه : منعه قبل نزوله

قال ﴿ وقول الله تعالى ٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ ﴾

قال ابن كثير : أى لاتستطيع شيئاً من الأمر (قل حسبى الله) أى الله كافى من توكل عليه (عليه يتوكل المتوكلون) كما قال هود عليه السلام حين قال قومه (١١ : ٥٤ إن نقول الا

اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال : إنى أُشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون ٥٥ من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظِرون ٥٦ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) قال مقاتل فى معنى الآية : فسألهم النبى ﷺ فسكتوا . أى لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها (١)

وانما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لا على أنهم يكشفون الضر ، و يجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده . كما قال تعالى (١٦ :٥٣ ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون ٥٤ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون)

---

(١) فى قرة العيون : فاذا كان آلهتهم التى يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضر أراده الله بعبده ؛ أو إمساك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزوما لا محيد لهم عنه . وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله ابراهيم لمن حاجه فى الله فقال(٢:٢٥٨ أنا أحيي وأميت ؛ قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به فى العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك ، وهذا فى القرآن كثير كقوله تعالى(٢٢:٧٣ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ؛ ضعف الطالب والمطلوب) وقال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * ان الله يعلم مايدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وقال (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون)

ذكر العماد بن كثير رحمه الله تعالى فى هذه الآية مارواه ابن أبى حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعانى عن ابن عباس مرفوعا « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ؛ واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ؛ ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ؛ واعمل لله بالشكر فى اليقين ؛ واعلم أن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا »

عن عِمران بن حُصَين رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا فى يده حَلقة من صُفر ، فقال : ماهذا ؟ قال من الواهنة

قلت : فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر ، وأن ذلك شرك بالله . وفى الآية بيان أن الله تعالى وَسَم أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة اليه من دون الله . والتوحيد ضد ذلك . وهو أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا اليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شىء لغير الله . كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها كما تقدم

قال ﴿ وعن عمران بن حصين « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا فى يده حلْقة من صُفر فقال ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وَهناً ؛ فانك لو مِتّ وهى عليك ما أفلحت أبداً » رواه أحمد بسند لا بأس به ﴾

قال الامام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن الحسن قال أخبرنى عمران ابن حصين « أن النبى صلى الله عليه وسلم أبصر على عَضُد رجل حلقة — قال أراها من صفر — فقال ويحك ماهذه ؟ قال : من الواهنة . قال : أمَا إنها لا تزيدك إلا وهناً . انبذها عنك فانك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » رواه ابن حبان فى صحيحه فقال « فانك إن مت وُكِلت اليها » والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد . وأقره الذهبى . وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران . وقوله فى الاسناد «أخبرنى عمران» يدل على ذلك

قوله ﴿ عن عمران بن حصين ﴾ أى ابن عبيد بن خلف الخزاعى ؛ أبو نجيد — بنون وجيم — مصغر . صحابى ابن صحابى . أسلم عام خيبر . ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة

قوله ﴿ رأى رجلا ﴾ فى رواية الحاكم « دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عضدى حلقة صفر ، فقال ماهذه ؟» الحديث . فالمبهم فى رواية أحمد هو عمران راوى الحديث

قوله ﴿ ماهذه ؟ ﴾ يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها ، ويحتمل أن يكون للإنكار ، وهو أظهر

قوله ﴿ من الواهنة ﴾ قال أبو السعادات (١) : الواهنة عرق يأخذ فى المنكب وفى اليد

١] هو ابن الأثير ، ولد سنة ٥٤٤ وتوفى سنة ٦٠٦ له عدة تآليف . منها النهاية فى غريب الحديث

فقال انزِعها، فانها لا تزيدُكَ إلا وَهناً ، فانك لو مِت وهى عليك ما أفلحت أبداً »
رواه أحمد بسند لا بأس به

كلها ، فيُرقى منها . وقيل هو مرض يأخذ فى العضد ، وهى تأخذ الرجال دون النساء [1] وانما نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد [2]

قوله ﴿ انزعها فانها لا تزيدك إلا وهناً ﴾ النزع هو الجذب بقوة ، أخبر أنها لا تنفعه بل تضره وتزيده ضعفاً . وكذلك كل أمر نهى عنه فانه لا ينفع غالباً وان نفع بعضه فضره أكبر من نفعه

قوله ﴿ فانك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً ﴾ لأنه شرك . والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف رحمه الله تعالى ﴿ فيه شاهد لكلام الصحابة : ان الشرك الأصغر أكبر الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة . وفيه الانكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك ﴾

قوله ﴿ رواه أحمد بسند لا بأس به ﴾ هو الامام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ابن إدريس بن عبدالله بن حسان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دُعمى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان — الامام العالم أبو عبدالله الذهلى ثم الشيبانى المروزى ، ثم البغدادى ، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث ، وأشدهم ورعا ومتابعة للسنة ، وهو الذى يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ؛ وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته الدنيا فأباها ، والشّبه فنفاها ؛ خُرج به من مرو وهو حمل فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة فى شهر ربيع الأول . وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهى سنة تسع

(١) ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره يعتقدون أن ذلك يحفظهم من الموت الذى أخذ اخوتهم الذين ماتوا قبلهم . ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير ، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن . وغيرها

(٢) فى قرة العيون : وانما نهاه عنها لكونه يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره (ص) بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده إلا وهناً ؛ فان المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فاذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم ؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل

وسبعين ، فسمع من هشيم وجرير بن عبدالحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن ادريس الشافعي ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدى وخلق لايحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابناه صالح وعبد الله ، والبخارى ومسلم وأبو داود وابراهيم الحربى وأبو زرعة الرازى وأبو زرعة الدمشقى وعبد الله بن أبى الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمى وأبو القاسم البغوى ، وهو آخر من حدث عنه ؛ وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدى والأسود بن عامر ؛ ومن أقرانه على بن المدينى ويحيى بن معين . قال البخارى : مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت منه ، وقال حنبل : مات يوم الجمعة فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة . وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد : مات فى ثانى عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى .

قوله ﴿وله عن عقبة بن عامر مرفوعا « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ؛ ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفى رواية « من تعلق تميمة فقد أشرك » (١)﴾ الحديث الأول رواه الامام أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضا أبو يعلى والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد وأقره الذهبى

قوله ﴿ وفى رواية ﴾ أى من حديث آخر رواه احمد فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى منصور عن دجين الحجرى عن عقبة ابن عامر الجهنى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل اليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا :

(١) فى قرة العيون : وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من علقها لدفع مايضره أوجلب ماينفعه ؛ وهذا أيضاً ينافى كمال الاخلاص الذى هو معنى لاإله إلا الله لأن المخلص لايلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله كما تقدم فى قوله (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فكمال التوحيد لايحصل إلا بترك ذلك وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم ، فاذا كان هذا قد خفى على بعض الصحابة رضى الله عنهم فى عهد النبوة فكيف لايخفى على من هو دونهم فى العلم والايمان بمراتب بعد ماحدث من البدع والشرك ؟ كما فى الأحاديث الصحيحة وتقدمت الاشارة الى ذلك . وهذا مما يبين معنى لاإله إلا الله أيضاً فانها نفت كل الشرك قليله وكثيره كما قال تعالى (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم)

« مَن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له ، ومَن تعلق ودَعة فلا ودَع الله له » وفى رواية « مَن تعلق تميمة فقد أشرك »

ولابن أبى حاتم عن حذيفة « أنه رأى رجلا فى يده خَيط من الحُمّى فقطعه ،

يارسول الله ، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ فقال : إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال : من تعلق تميمة فقد أشرك » ورواه الحاكم بنحوه . ورواته ثقات .

قوله ﴿ عن عقبة بن عامر ﴾ صحابى مشهور فقيه فاضل ، ولى امارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريبا من الستين

قوله ﴿ من تعلق تميمة ﴾ أى علقها متعلقا بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر ، قال المنذرى : خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ، إذ لامانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال أبو السعادات : التمائم جمع تميمة وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين ، فى زعمهم ، فأبطلها الاسلام .

قوله ﴿ فلا أتمّ الله له ﴾ دعاء عليه

قوله ﴿ ومن تعلق وَدَعة ﴾ بفتح الواو وسكون المهملة . قال فى مسند الفردوس : شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين

قوله ﴿ فلا ودع الله له ﴾ بتخفيف الدال . أى لاجعله فى دعة وسكون . قال أبو السعادات وهذا دعاء عليه .

قوله ﴿ وفى رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك ﴾ قال أبو السعادات : إنما جعلها شركا لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه

قال المصنف رحمه الله ﴿ ولابن أبى حاتم عن حذيفة « أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى ، فقطعه ، وتلا قوله تعالى ١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال « دخل حذيفة على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه أو انتزعه . ثم قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) »

وتلا قوله (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

فيه مسائل

الأولى : التغليظ فى لُبس الحلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك

الثانية : أن الصحابى لو مات وهى عليه ما أفلح . فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر

الثالثة : أنه لم يَعذر بالجهالة

الرابعة : أنها لاتنفع فى العاجلة ، بل تضر لقوله «لاتزيدك إلا وَهناً»

وابن أبى حاتم هو الامام أبو محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم محمد بن ادريس الرازى التميمى الحنظلى الحافظ ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما . مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

وحذيفة هو ابن اليمان . واسم اليمان : حُسيل بمهملتين مصغرا ، ويقال حِسل — بكسر ثم سكون — العبسى بالموحدة ، حليف الأنصار ، صحابى جليل من السابقين ، ويقال له صاحب السر[1] وأبوه أيضا صحابى ، مات حذيفة فى أول خلافة على رضى الله عنه سنة ست وثلاثين

قوله ﴿ رأى رجل فى يده خيط من الحمى ﴾ أى عن الحمى . وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى (*) وروى وكيع عن حذيفة « أنه دخل على مريض يعوده فلمس

---

(١) لأن النبى «ص» استصحبه فى عودته من غزوة تبوك حين أخذ فى طريق العقبة التى كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله «ص» ليقع عنها فيموت . فأطلعه الله على مابيتوا وأعلمه بأسمائهم . فأعلم رسول الله «ص» حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم . ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة . ولم يكن عند حذيفة سر فى الدين، كما يدعى الضالون . من الصوفية . لأن الاسلام علانية لا سر فيه ؛ وانما الأسرار فى النصرانية وكنائسها وقسسها ورهبانيتها

(*) ولا يزال هذا معتقداً عند أهل الجاهلية الثانية . يتخذون خيوطا يعقدونها بأيدى من اسمه محمد ، و بعض ذلك يعملونه يوم الجمعة ، و بعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة ممن أسماؤهم محمد ، ويقرأون عند كل عقدة قل هو الله أحد . ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم ؛ فلا تلبسه عقيم فى زعمهم إلا وتحمل . وهذا من أعظم الانحطاط الى أحط دركات البكم والصم والعمى ، بل الى البهيمية أن يعتقد فى خيوط .

الخامسة: الانكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك

السادسة: التصريح بأن من تعلَّق (١) شيئاً وُكِل اليه

عضده، فاذا فيه خيط، فقال ماهذا؟ قال شيء رُقى لى فيه، فقطعه وقال: لو مت وهو عليك ماصليت عليك» وفيه انكار مثل هذا، وان كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لايجوز منها إلا ماأباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب انكاره وازالته بالقول والفعل؛ وان لم يأذن فيه صاحبه

قوله ﴿ وتلا قوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ﴾ استدل حذيفة رضى الله عنه بالآية على أن هذا شرك [٢]. ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله

= ومثله اتخاذ سبع من أنواع الحبوب تعلق فى كيس مع سرة الطفل وأشباه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء اسلامية. وهم من أجهل المشركين الشرك الأكبر. ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) انما وكله الله اليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله وتمسك بالسبب الأضعف بل تمسك بلا شيء، فوكله الله الى ماتمسك به فلم ينفعه شيئاً

(٢) فى قرة العيون: فاذا كان يقع مثل هذا فى تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع ماهو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركى العرب وغيرهم فى الجاهلية مما قد تقدم التنبيه عليه، حتى ان كثيراً من العلماء فى هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر فصاروا هم والصحابة رضى الله عنهم على طرفى نقيض، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك؛ وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ويجعلون النهى عن هذا الشرك بدعة وضلالة؛ وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى واخلاص العبادة له وحده، والنهى عن الشرك به؛ وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمداً (ص) بذلك كما بعث به من قبله، فعكس هؤلاء المتأخرون مادعا اليه رسول الله «ص» مشركى العرب وغيرهم، فنصر هؤلاء مانهى عنه من الشرك غاية النصرة؛ وأنكروا التوحيد الذى بعث به غاية الانكار، فانه «ص» لما قال لقريش «قولوا لااله الا الله تفلحوا» عرفوا معناها الذى وضعت له وأريد منها فقالوا (٣٨: ٥و٦و٧ أجعل الآلهة الهاً واحداً؟ ان هذا لشيء عجاب) الآيات. وقال تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون) وفى صحيح البخارى وغيره فى سؤال هرقل لأبى سفيان عن النبى [ص] قال له «فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة»

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك

الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك

التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة

العاشرة : أن تعليق الودع عن العين من ذلك

الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يُتم له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع (١) الله له . أى ترك الله له

باب

﴿ ماجاء فى الرُّقى والتمائم ﴾

فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى رضى الله عنه

فى الشرك الأكبر ، لشمول الآية له ودخوله فى مسمى الشرك ؛ وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره فى كلام شيخ الاسلام وغيره . والله أعلم . وفى هذه الآثار عن الصحابة : مايبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافى كماله .

قوله ﴿ باب ماجاء فى الرقى والتمائم ﴾

أى من النهى وماورد عن السلف فى ذلك

قوله ﴿ فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى « أنه كان مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولا : أن لايبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » ﴾ هذا الحديث فى الصحيحين .

قوله ﴿ عن أبى بشير ﴾ بفتح أوله وكسر المعجمة ، قيل اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد.

---

(١) ودع : فسره المصنف بترك أى فلا ترك الله له مايحب وفسره غيره بأنه دعاء عليه ألا يجعله الله فى دعة ولاسكون

أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فأرسل رسولا أن لا يَبقين فى رقبة بعير قِلادة من وَتر أو قِلادة إلا قُطِعت »

وقال ابن عبد البر : لايوقف له على اسم صحيح ؛ وهو صحابى شهد الخندق ومات بعد الستين. ويقال : انه جاوز المائة

قوله ﴿ فى بعض أسفاره ﴾ قال الحافظ : لم أقف على تعيينه .

قوله ﴿ فأرسل رسولا ﴾ هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارث بن أبى أسامة فى مسنده قاله الحافظ .

قوله (أن لا يبقين) بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين ، و « قلادة » مرفوع على أنه فاعل . و « الوتر » بفتحتين ، واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب ، اعتقادا منهم أنه يدفع عن الدابة العين (١)

قوله (أو قلادة إلا قطعت) معناه : أن الراوى شك هل قال شيخه : قلادة من وتر أو قال: قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ . ويؤيد الأول ماروى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ؟ فقال «ماسمعت بكراهتها إلا فى الوتر » ولأبى داود « ولا قلادة » بغير شك.

قال البغوى فى شرح السنة : تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين . وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات . فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئا.

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الابل الأوتار ؛ لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بازالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئا . وكذا قال ابن الجوزى وغيره .

قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر ، رفعه « من تعلق تميمة فلا أتم الله له » رواه أبو داود . وهى ماعلق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى

---

(١) وأصل معنى القلادة : مايوضع فى العنق من الحلى والزينة للنساء ؛ والحبل يوضع فى عنق الدابة لتقاد به . ومثل ذلك مايعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حدوة حمار أو حصان ، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهى عنه أشد النهى وقد يصل الى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يعتقد فيه أنه هو الذى يدفع حقيقة الضر والسوء

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الرُّقَى والتمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ » رواه احمد وأبو داود

قال المصنف (وعن ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود)

وفيه قصة ، ولفظ أبى داود : عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت « إن عبدالله رأى فى عنقى خيطا ، فقال : ماهذا ؟ قلت : خيط رقى لى فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك (١) سمعت رسول الله ﷺ يقول« إن الرقى والتمائم والتولة شرك» فقلت : لقد كانت عينى تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودى ، فاذا رقى سكنت . فقال عبد الله : انما ذاك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فاذا رقى كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله ﷺ يقول «أذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لاشفاء الا شفاؤك شفاء لايغادر سقما »ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبى

قوله (إن الرقى) قال المصنف (هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ماخلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركا هى التى يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته ، والمأثور عن النبى ﷺ ، فهذا حسن جائز أو مستحب .

قوله (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم ذلك فى باب من حقق التوحيد . وكذا رخص فى الرقى من غيرها ، كما فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك« كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا يارسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : اعرضوا علىّ رقاكم . لابأس بالرقى مالم تكن شركا » وفى الباب أحاديث كثيرة .

---

(١) من أول الحديث الى هنا ليس فى سنن أبى داود فى باب تعليق التمائم . وهو عند ابن ماجه بلفظ « كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة ، وكان لنا سرير طويل القوائم وكان عبد الله اذا دخل تنحنح وصوت ، فدخل يوما ، فلما سمعت صوته احتجبت منه ، فجاء فجلس الى جانبى فمسنى فوجد مس خيط ، فقال ماهذا ؟ فقلت رقى لى فيه من الحمى ، فجذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أخ »

التمائم شيء يُعلق على الأولاد عن العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرَخّص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه

قال الخطابي : وكان عليه السلام قد رَقى ورُقى ، وأمر بها وأجازها ؛ فاذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فانه ربما كان كفراً أو قولا يدخله شرك

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ؛ وأنها تدفع عنهم الآفات و يعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم . وبنحو هذا ذكر الخطابي

وقال شيخ الاسلام : كل اسم مجهولٌ فليس لأحد أن يرقى به فضلا عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وانما يرخص لمن لايحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الاسلام (١)

وقال السيوطي : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لاتؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله (والتمائم) قال المصنف (شيء يعلق على الأولاد من العين) وقال الخلخالي : التمائم جمع تميمة وهي مايعلق بأعناق الصبيان من خرازات وعظام لدفع العين ، وهذا منهى عنه . لأنه لادافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته

قال المصنف ﴿ لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف . وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه . منهم ابن مسعود ﴾

---

(١) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية في أورادهم « كركدن كرددن دهده ، أصباءوت اهيا شراهيا جلجلوت ، وأمثالها مما يقولون عنه انه ذكر الله ، فهذا كله ليس من دين الاسلام في شيء ، لأن الاسلام عربي مبين ، وهذا وغيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية . كادوا بها للمسلمين ففرقوهم شيعا وأحزابا وملاوا قلوبهم من الشرك في الالهية والشرك في الربوبية . فوصلوا من ذلك إلى ما يريدون من تقويض الدولة الاسلامية

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا فى جواز تعليق التمائم التى من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص (١) وهو ظاهر ماروى عن عائشة . وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث على التمائم التى فيها شرك .

وقالت طائفة لا يجوز ذلك . وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث ومافى معناه (٢)

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل : الأول عموم النهى ولا مخصص للعموم ، الثانى سد الذريعة ، فانه يفضى إلى تعليق ماليس كذلك ؛ الثالث أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك (٣)

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضى الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة

---

(١) الرواية بذلك ضعيفة . ولا تدل على هذا . لأن فيها أن ابن عمرو كان يحفظه أولاده الكبار . ويكتبه فى ألواح ويعلقه فى عنق الصغار فالظاهر انه كان يعلقه فى اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة والتميمة تكتب فى ورقة لا فى لوح . وبدليل تحفيظه الكبار . وكيفما كان فهو عمل فردى من عبد الله بن عمرو لا يترك به حديث رسول الله وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم .

(٢) فى قرة العيون : والمقصود بيان ان هذه الأمور الشركية وان خفيت فقد نهى عنها رسول الله [ص] وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا اله الا الله من نفى الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله فى دفع ضر أو جلب نفع ؛ وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة فى هذين البابين عرف ماوقع مما هو اعظم من ذلك كما تقدم بيانه ، وفيه ما كان عليه رسول الله [ص] من التحذير من الشرك والتغليظ فى انكاره وان كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر

(٣) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به ومحادة لله ولرسوله ، فان الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وشفاء لما فى الصدور ولا يزيد الظالمين الا خساراً . وانه لتذكرة للمتقين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . ولم ينزل القرآن ليتخذ حجبا وتمائم . ولا ليتلاعب به المتأكلون به الذين يشترون به ثمنا قليلا . والذين يقرءونه على المقابر وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به

و«الرقى» هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ماخلا من الشرك ، رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة

و«التولة» شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته

الاسلام ، خصوصا إن عرفت عظيم ماوقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والاقبال اليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التى هى حق الله تعالى اليها من دونه ، كما قال تعالى (١٠ : ١٠٦ ، ١٠٧ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذاً من الظالمين . وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) ونظائرها فى القرآن إكثر من أن تحصر

قوله ﴿ التولة ﴾ قال المصنف (هى شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته) وبهذا فسرها ابن مسعود راوى الحديث ، كما فى صحيح ابن حبان والحاكم « قالوا : ياأبا عبد الرحمن ، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها . فما التولة ؟ قال : شيء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن »

قال الحافظ : التولة — بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففا — شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر (*) . والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى .

(*) وإن زعم الذين يصنعونها للنساء أنهم مسلمون ومتدينون ، وأن مايكتبونه من القرآن وأسماء الله ، فانهم يفعلون ذلك تضليلا بالقرآن وإلحاداً فيه . لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفا مقطعة وبمداد خاص ، ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذى كان فيه سر ملكه — كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان ، وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من الله . وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات ، ويزعمون أن للحروف والأسماء خداما يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية . ويتخذون أنواعا من البخور والأدوات المخصوصة التى يوحى بها شياطينهم . وكل ذلك من الكفر العظيم.

وعن عبد الله بن عُكَيم مرفوعا « من تعلق شيئاً وُكِل اليه » رواه أحمد والترمذى

قال المصنف ﴿ وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا « من تعلق شيئا وكل اليه » رواه أحمد والترمذى ﴾ ورواه أبو داود والحاكم . وعبد الله بن عكيم هو بضم المهملة مصغراً ؛ ويكنى أبا معبد ؛ الجهنى الكوفى . قال البخارى : أدرك زمن النبى ﷺ ولا يعرف له سماع صحيح وكذا قال أبوحاتم . قال الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن فى حياة حذيفة وكان ثقة ، وذكر ابن سعد عن غيره انه مات فى ولاية الحجاج

قوله ﴿ من تعلق شيئا وكل اليه ﴾ التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ، ويكون بهما (١) « وكل اليه » أى وكله الله إلى ذلك الشىء الذى تعلقه ، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ اليه ، وفوض أمره اليه ، كفاه وقرب اليه كل بعيد ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك ؛ وكله الله الى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب . قال تعالى (٦٥: ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه)

وقال الامام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخرسانى قال « لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت : حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز . قال : نعم ؛ أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : ياداود ، أمَا وعزتى وعظمتى لايعتصم بى عبد من عبادى دون خلقى ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن الا جعلت له من بينهن مخرجا . أما وعزتى وعظمتى لايعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه ثم لا أبالى بأىّ أوديتها هلك »

---

(١) فى قرة العيون : التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل وهو التفاف القلب عن الله الى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه فى الأحاديث فى هذا الباب والذى قبله وهو ينافى قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فان كان من الشرك الأصغر فهو ينافى كمال التوحيد ؛ وان كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله ، وخروج عن دين الاسلام ؛ ولا يصح معه قول ولا عمل .

وروى أحمد عن رُويفع قال : قال لى رسول الله ﷺ « يا رُويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبرِ الناس

قال المصنف ﴿ وروى الامام أحمد عن رويفع قال : قال رسـول الله ﷺ « يارويفع ؛ لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أوعظم ، فان محمداً برىء منه ﴾

الحديث رواه الامام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ الحسن: حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شُييم بن بيتان قال حدثنا رويفع بن ثابت قال « كان أحدنا فى زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف ، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش وللآخر القدح . ثم قال لى رسول الله ﷺ - الحديث » ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثنى الفضل حدثنا عياش بن عباس أن شُييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتبانى - الحديث [1] . ابن لهيعة فيه مقال . وفى الاسناد الثانى شيبان القتبانى ، قيل فيه مجهول . وبقية رجالهما ثقات .

قوله (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس ، وليس هذا مختصاً برويفع ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج اليه الناس وجب إعلامهم به ، فان اشترك هو وغيره فى علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية . قاله أبو زرعة فى شرح سنن أبى داود .

قوله (لعل الحياة ستطول بك) فيه عَلَم من أعلام النبوة ، فان رويفعا طالت حيـاته الى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميرا عليها ، وهو من الأنصار . وقيل مات سـنة ثلاث وخمسين .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى باب ماينهى عنه أن يستنجى به : حـدثنا يزيد بن خالد ابن عبد الله بن موهب الهمدانى أخبرنا المفضل يعنى ابن فضالة المصرى عن عياش بن عباس القتبانى - بكسر القاف - أن شييم بن بيتان أخبره عن شيبان القتبانى أن مسلمة بن مخلد استعمل رويفع بن ثابت على أسفل الأرض قال شيبان فسرنا معه - الخ ثم ساق له سـندا آخر : حدثنا يزيد بن خالد حدثنا مفضل عن عياش أن شييم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضا عن أبى سالم الجيشانى عن عبد الله ابن عمرو . اهـ ولبس فى أحـدهما ابن لهيعة وقال المنذرى : ورواه النسائى

أن "مَن عقد لحيته أو تقلد وَتراً أو استنجى برَجيع دابة أو عظم فان محمداً برىء منه»

وعن سعيد بن جُبير قال

قوله (أن من عقد لحيته) بكسر اللام لاغير ، والجمع لحَى بالكسر والضم. قاله الجوهرى. قال الخطابى : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين . أحدهما ما كانوا يفعلونه فى الحرب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك من زى بعض الأعاجم يفتلونها و يعقدونها . قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً ، ثانيهما أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد ، وذلك من فعل أهل التأنيث . قال أبو زرعة بن العراقى : والأولى حمله على عقد اللحية فى الصلاة ، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع . وفيه « أن من عقد لحيته فى الصلاة » (١)

قوله (أو تقلد وتراً) أى جعله قلادة فى عنقه أو عنق دابته . وفى رواية محمد بن الربيع « أو تقلد وتراً - يريد تميمة »

فاذا كان هذا فيمن تقلد وتراً فكيف بمن تعلق بالأموات وسألهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، الذى جاء النهى عنه وتغليظه فى الآيات المحكمات ؟

قوله (أو استنجى برجيع دابة أو عظم فان محمداً برىء منه) قال النورى : أى برىء من فعله ، وهذا خلاف الظاهر. والنووى كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله تعالى له .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « لا تستنجوا بالروث ولا العظام فانه زادُ اخوانكم من الجن » وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، لما روى ابن خزيمة والدار قطنى عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يستنجى بعظم أو روث ، وقال : انهما لا يطهران »

قوله ﴿ وعن سعيد بن جبير قال «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه وكيع ﴾

---

(١) فى قرة العيون : قلت ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهى بعضه ، وفى حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله (ص) « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » رواه أحمد والنسائى والترمذى وقال صحيح . وفى الصحيح «خالفوا المشركين احفوا الشوارب واعفوا اللحى » وذلك يدل على الوجوب ، وذكر ابن حزم الاجماع على أنه فرض فيتعين النهى عن ذلك

« مَن قطع تميمة من إنسان كان كعِدل رقبة » رواه وكيع

وله عن إبراهيم : قال « كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن »

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقى والتمائم

الثانية : تفسير التولة

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك

الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هى من ذلك أم لا ؟

هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأى ، ويكون هذا مرسلا لأن سعيداً تابعى (١) . وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك . ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفى ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره . روى عنه الامام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قوله *(وله عن ابراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن)* وابراهيم هو الامام ابراهيم بن يزيد النخعى الكوفى ، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء . قال المزى : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سماع منها . مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها .

قوله (كانوا يكرهون التمائم) الى آخره ، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلقمة ، والأسود وأبى وائل والحارث بن سويد ، وعبيدة السلمانى ومسروق والربيع بن خُثيم ، وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها ابراهيم فى حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ كالعراقى وغيره

---

(١) فى قرة العيون : فعلى هذا يجب النهى عن تعليق التمائم والترغيب فى قطعها وأن ذلك مما يجب ، وفيه مع ماتقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رضى الله عنهم من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهى عنه ، فلما اشتدت غربة الاسلام فى أواخر هذه الامة صار انكار هذا وماهو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب الى العلم كما لا يخفى

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك

السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وتراً

الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان

التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبد الله

باب

﴿من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما﴾

وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩ أفرأيتم اللات والعُزّى ٢٠ ومَناة الثالثة الأخرى)

قوله *(باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)* كبقعة وقبر ونحو ذلك ، أى فهو مشرك

قوله *(وقول الله تعالى (٥٣:١٩-٢٣ أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى) الآيات)* وكانت اللات لثقيف ، والعُزَّى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما (اللات) فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء .

فعلى الأولى قال الأعمش : سموا اللات من الاله ، والعزى من العزيز . قال ابن جرير . وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا قال : وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ؛ قال ابن هشام : فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية قال ابن عباس «كان رجلا يلُتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على

قبره » ذكره البخارى قال ابن عباس « كان يبيع السويق والسمن عند صخرة و يسلؤه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق [(١)] » وعن مجاهد نحوه وقال « فلما مات عبدوه » رواه سعيد بن منصور . وكذا روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس « انهم عبدوه » وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لامنافاة بين القولين . فانهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيما .

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

وأما « العزى » فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - بين مكة والطائف - كانت قريش يعظمونها . كما قال أبو سيفان يوم أحد « لنا العزى ولا عزى لكم » فقال رسول الله ﷺ « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى النسائى وابن مردويه عن أبى الطفيل قال « لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد الى نخلة - وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث سمرات - فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها . ثم أتى النبى ﷺ فأخبره . فقال : ارجع فانك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة أمعنوا فى الجبل وهم يقولون : ياعزى ياعزى ، فأتاها خالد فاذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها . ثم رجع الى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : تلك العزى » قلت : وكل هذا وماهو أعظم منه يقع فى هذه الازمنة عند ضرائح الأموات وفى المشاهد .

وأما « مَناة » فكانت بالمشلّل عند قُديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج ، وأصل اشتقاقها : من اسم الله المنان ، وقيل : لكثرة مايُمنَى - أى يُراق - عندها من الدماء للتبرك بها .

---

(١) وفى النهاية : السلاء السمن . وفى فتح البارى (ج٨ ص٤٣٣) : وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس - ولفظه فيه زيادة - « كان يلت السويق على الحجر ، فلا يشرب منه أحد إلا سمن ، فعبدوه » واختلف فى اسم هذا الرجل : فعن مجاهد « كان رجلا فى الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رسلها . ويأخذ من زبيب الطائف والاقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر به من الناس . فلما مات عبدوه . وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب . اهـ مختصراً

قال البخارى رحمه الله ، فى حديث عروة عن عائشة رضى الله عنها « إنها صنم بين مكة والمدينة » قال ابن هشام « فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح » فمعنى الآية كما قال القرطبى : أن فيها حذفا تقديره : أفرأيتم هذه الآلهة ؛ أنفعت أوضرت ، حتى تكون شركاء لله تعالى ؟ .

وقوله (ألكم الذكر وله الأنثى ؟) قال ابن كثير : أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور ؟ قوله (تلك إذاً قسمة ضِيزَى) أى جور وباطلة . فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً فتنزهون أنفسكم عن الاناث وتجعلونهن لله تعالى . وقوله (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) أى من حجة (إن يتبعون الا الظن) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم (١) (وماتهوى الأنفس) وإلا حظ أنفسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قال ابن كثير : ولقد أرسل الله تعالى اليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له اهـ .

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها فى حصول مايرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغيرذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات ؛ وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة (٢)

---

(١) الظن هنا: ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجيب ، فانهم ليس لهم علم بذلك لا من طريق حواسهم ، ولا من خبر صادق ؛ وانما هو مما يشيعه السدنة ترويجاً لتجارتهم الخاسرة . ويزيد الجاهلين تعلقاً بأوليائهم من دون الله : ماتهوى أنفسهم من قضاء حاجاتهم بغير الأسباب الكونية ؛ فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطرهم لا حباً فى الايمان والمؤمنين . ولذلك تراهم يتنقلون من ميت إلى آخر إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول . وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولى الذى كان فى نظرهم كبيراً أصبح الولى الذى انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات . والله يقول : إن هؤلاء جميعاً لايتبعون إلا هوى أنفسهم . وهم كاذبون أعظم الكذب فى دعواهم حب الأولياء والصالحين

(٢) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجردة ، وانما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التى كانت امرأة يزعمون انها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات . وكذلك

عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حُدَثاءُ عهد بكفر ، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها

من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ، فمن فعل مثل ذلك واعتقد فى قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك ؛ على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك . فالله المستعان .

قوله ﴿ عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حُنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدْرة يعكفون عندها و ينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة ، فقلنا يارسولَ الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) لتركبُنّ سَنن من كان قبلكم » رواه الترمذى وصححه ﴾

أبو واقد اسمه الحارث بن عوف ، وفى الباب عن أبى سعيد وأبى هريرة قاله الترمذى وقد رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبى شيبة والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى بنحوه .

قوله ﴿ عن أبى واقد ﴾ قد تقدم ذكر اسمه فى قول الترمذى وهو صحابى مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة .

قوله ﴿ خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ﴾ وفى حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى قال « غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ، ونحن ألف ونيف حتى اذا كنا بين حنين والطائف ـ الحديث »

قوله ﴿ (ونحن حدثاء عهد بكفر) ﴾ أى قريبٌ عهدنا بالكفر ، ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم اسلامه من الصحابة لايجهل هذا وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لايأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة . ذكره المصنف رحمه الله .

قوله ﴿ (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) ﴾ العكوف هو الاقامة على الشىء فى المكان ، ومنه قول الخليل عليه السلام (٢١ : ٥٢ ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) وكان عكوف

= مناة . ولذلك سموا الأشجار العزى والحجر مناة ؛ كما يسمى الناس اليوم النحاس الذى يقام على القبر حسينا وزينب وغيرهما من الصالحين ، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية

وَينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذاتُ أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات ألواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن . قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى (١٣٨:٧ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

المشركين عند تلك السدرة تبركا بها وتعظيما لها (١) وفى حديث عمرو « كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله »

قوله ﴿ وينوطون بها أسلحتهم ﴾ أى يعلقونها عليها للبركة .

قلت : ففى هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قوله ﴿ فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط ﴾ قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك . وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمى به المنوط . ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به ، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبى ﷺ .

قوله ﴿ فقال رسول الله ﷺ الله أكبر ﴾ وفى رواية (سبحان الله) والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان ، مما لايجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله ، وكان النبى ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح فى حال التعجب تعظيما لله وتنزيهاً له اذا سمع من أحد مالايليق بالله مما فيه هَضْم للربوبية او الالهية

قوله ﴿ انها السنن ﴾ بضم السين أى الطرق .

قوله ﴿ قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ شبه مقالتهم هذه بقول بنى اسرائيل ، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله ، وإن اختلف اللفظان . فالمعنى واحد ، فتغيير الاسم لايغير الحقيقة .

ففيه الخوف من الشرك ، وان الانسان قد يستحسن شيئاً يظن انه يقربه الى الله ، وهو

---

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور عندها ، ويجاورون ، معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى . ويعتقد الجاهلون لهم ذلك فيعاونونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات قربة لأولئك الموتى . وكل ذلك من الشرك الأكبر

أبعد مايبعده من رحمته ويقرب به من سخطه ؛ ولا يعرف هذا على الحقيقة الا من عرف ماوقع فى هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شيء وهو الذنب الذى لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعى المعروف بابن أبى شامة فى كتاب البدع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ماقد عمّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمُد وإسراج مواضع مخصوصة فى كل بلد ؛ يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ؛ ثم يتجاوزون هذا الى أن يعظم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهى من عيون وشجر وحائط وحجر . وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط الواردة فى الحديث[1] . انتهى

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ماذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أسرع أهل الشرك الى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر ؛ أى تقبل العبادة من دون الله ؛ فان النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر الى المنذور له ، وسيأتى مايتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد »

وفى هذه الجملة من الفوائد : أن مايفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطغام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع فى هذه الأمة ، فاذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنا وطلبوه من النبى ﷺ

---

(١) وفى مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب رضى الله عنهما ؛ وكثير مما يسمى بالأربعين ؛ بناء على عقيدة أخبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى ، وهى عقيدة أن الولى يتشكل فى أربعين جسما . وزعم الدباغ مبالغة فى الوقاحة والضلال انه يكون للولى ثلاثمائة وستون جسما . وكم فى غير مصر من هذه المواضع الشركية من قبور وأشجار وأحجار . عجل الله بتطهير البلاد منها كما طهر الحجاز بيد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، مد الله فى حياته ، ووفق أبناءه للقيام بمثل عمله الصالح وأعلا بهم منار الاسلام

قل إنكم قوم تجهلون) لَتركبُنّ سَنن مَن قبلكم » رواه الترمذي وصححه

حتى بيّن لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل (٧ :١٣٨ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فكيف لايخفى على من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة ؟! بل خفى عليهم عظائم الشرك فى الالهية والربوبية ، فأكثروا فعله واتخذوه قربة .

وفيها : أن الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبى ﷺ طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل ، ولم يلتفت الى كونهم سموها ذات أنواط . فالمشرك مشرك وان سمى شركه ماسماه . كمن يسمى دعاء الاموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيما ومحبة ، فان ذلك هو الشرك ؛ وان سماه ماسماه . وقس على ذلك .

قوله ﴿ لتركبن سَنن من كان قبلكم ﴾ (١) بضم الموحدة وضم السين أى طرقهم ومناهجهم وقد يجوز فتح السين على الافراد أى طريقهم . وهذا خبر صحيح . والواقع من كثير من هذه الامة يشهد له .

وفيه عَلم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ

وفى الحديث : النهى عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه ؛ إلا مادلّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه التنبيه على مسائل القبر ، أما : مَن ربُّك ؟ فواضح . وأما : من نبيك ؟ فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما : ما دينك ؟ فمن قولهم اجعل لنا إلٰها الخ. وفيه : أن الشرك لا بد أن يقع فى هذه الامة خلافا لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه الغضب عند التعليم ،وان ماذم الله به اليهود والنصارى فانه قاله لنا لنحذره ﴾ قاله المصنف رحمه الله

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من انه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه :

منها : أن السابقين الاولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبى

---

(١) أى اليهود والنصارى ، وقد وقع كما أخبر به (ص) فى هذه الامة فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا كما هو فى الاحاديث الصحيحة كحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله :اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وهو فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ؛ وفى رواية « ومن الناس إلا أولئك ؟ »

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النجم

الثانية : معرفة صورة الأمر الذى طلبوا (١)

الثالثة : كونهم لم يفعلوا

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ماليس لغيرهم

السابعة : أن النبى ﷺ لم يعذرهم الأمر بل رد عليهم بقوله « الله أكبر ، إنها السنن لتتبعن سَنَن مَن كان قبلكم » فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث

الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طَلِبتهم كطَلِبة بنى إسرائيل لما قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً)

التاسعة : أن نفْىَ هذا من معنى « لا إله إلا الله » مع دِقته وخفائه على أُولئك

العاشرة : أنه حلف على الفُتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة

الحادية عشرة : ان الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدّوا بهذا (٢)

ﷺ ، لا فى حياته ولا بعد موته • ولو كان خيراً لسبقونا اليه ، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم • وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة ، ومافعله

---

(١) يعنى انهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله ، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك ، وانما طلبوا شجرة يأذن لهم النبى فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها ؛ فبين لهم أن ماطلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صياما ولا صدقة هو الشرك بعينه . وفيه إبطال لشبهة مشركى هذا الزمان وزعمهم أن مايفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به

(٢) ليس ماطلبوه من الشرك الاصغر ؛ ولو كان منه لما جعله النبى «ص» نظير قول بنى إسرائيل (اجعل لنا إلهاً) وأقسم على ذلك ، بل هو من الشرك الاكبر كما أن ما طلبه بنو اسرائيل من الاكبر . وانما لم يكفروا بطلبهم لانهم حدثاء عهد بالاسلام ؛ ولانهم لم يفعلوا ماطلبوه ولم يقدموا عليه بل سألوا النبى «ص» فتأمل

الثانية عشرة: قولهم «ونحن حُدَثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافا لمن كرهه

الرابعة عشرة: سد الذرائع

الخامسة عشرة: النهى عن التشبه بأهل الجاهلية

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله «انها السنن»

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوّة، لكونه وقع كما أخبر

التاسعة عشرة: أن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى فى القرآن أنه لنا

العشرون: أنه متقرِّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما «مَن ربك؟» فواضح، وأما «مَن نبيك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما «ما دينك؟» فمن قولهم (اجعل لنا) الى آخره

الحادية والعشرون: أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنَّة المشركين

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر

باب

﴿ ماجاء فى الذبح لغير الله ﴾

أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم فى العلم والدين وهم الاسوة. فلا يجوز ان يقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الامة، وللنبى ﷺ فى حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح ان يشاركه فيها غيره

ومنها: أن فى المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى.

قوله ﴿باب ماجاء فى الذبح لغير الله﴾ أى من الوعيد وأنه شرك بالله

وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتى ونُسكى ومَحياىَ ومماتِى لله ربّ العالَمين ١٦٣ لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين)

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٦ : ١٦٣ قل إن صلاتى [1] ونُسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له) الآية ﴾

قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له : بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته . لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والاقبال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسك الذبح فى الحج والعمرة . وقال الثّورى عن السدى عن سعيد بن جبير : ونسكى ذبحى . وكذا قال الضحاك . وقال غيره (ومحياى ومماتى) أى وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الايمان والعمل والصالح (لله رب العالمين) خالصاً لوجهه (لاشريك له وبذلك الاخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) أى من هذه الأمة لأن اسلام كل نبى متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فان جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم الى الاسلام ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له . كما قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون) وذكر آيات فى هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبّد عباده بأن يتقربوا اليه بالنسك ، كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات ، فان الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع

---

(١) فى قرة العيون : يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة وقد اشتملت على نوعى الدعاء دعاء المسألة ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الاركان والواجبات فهو دعاء عبادة وهذا هو التحقيق فى تسميتها صلاة لانها اشتملت على نوعى الدعاء الذى هو صلاة لغة وشرعا (*) قرره شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى

(*) وهى مأخوذة من «الصلة» لانها الصلة والمنحة التى وصل الله بها حبيبه محمدا (ص) ومنحه اياها فى ليلة الوصل الاعظم : ليلة المعراج . وهى أقوى صلة بين العبد وبين ربه ، لانه فيها يناجى ربه كما فى الأحاديث ، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله (ص) وكانت مفزعه عند كل أمر يهمه . وكانت الفارق بين المسلم والكافر . فمن تركها فلاحظ له فى الايمان بالله وحبه . ولاصلة بينه وبين ربه مهما حاول .

وقـولـه (فصـّل لربـك وانحر)

عن على رضى الله عنه قال « حـدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات :

العبادة له دون كل ماسواه ، فاذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أوغيره من أنواع العبادة فقدجعلوا لله شريكا فى عبـادته ، وهو ظاهر فى قوله (لاشريك له) نفى أن يكون لله تعالى شريك فى هذه العبادات ؛ وهو بحمد الله واضح (١)

قوله ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب الى الله والى عِـدَته ، عكسَ حال أهل الـكِبْر والنُّـفرة ، وأهل الغِـنىَ عن الله الذين لاحاجة لهم فى صلاتهم الى ربهم ، والذين لاينحرون له خوفا من الفقر ، ولهذا جمع بينهما فى قوله (قل إن صلاتى ونسكى ـ الآية) والنسُـك الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فانهما أجلّ ما يُـتقرّب به الى الله ، فانه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ؛ لأن فعـل ذلك سبب للقيام بشكر ماأعطاه الله تعالى من الـكوثر . وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة، وأجل العبادات الماليـة : النحرُ . ومايجتمع للعبد فى الصلاة لايجتمع له فى غيرها ، كما عرفه أربابُ القلوب الحية ؛ ومايجتمع له فى النحر إذا قارنه الايمان والاخـلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبى ﷺ كثير الصلاة كثير النحر . اه

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبـادات كثيرا ، فمن ذلك الدعاء والتـكبير ، والتسبيح والقراءة ، والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ؛ واقامة الوجه لله تعالى ، والاقبال عليه بالقلب ؛ وغير ذلك مما هو مشروع فى الصلاة ؛ وكل هـذه الأمور من أنواع العبادة التى لايجوز أن يُـصرف منها شىء لغير الله ؛ وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم فى كلام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

قوله ﴿ وعن على بن أبى طالب قال « حدثنى رسـول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله

---

(١) فى قرة العيون : والمقصود ان هذه الآية دلت على ان اقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لايجوز أن يصرف منها شىء لغير الله كائنا من كان فمن صرف منها شيئا لغير الله فقـد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله (وما أنا من المشركين) والقرآن كله فى تقرير هذا التوحيد فى عبادته وبيانه ونفى الشرك والبراءة منه

من ذبح لغير الله ؛ ولعن الله من لعن والديه ؛ ولعن الله من آوى محدثاً ؛ ولعن الله من غير منار الأرض » رواه مسلم من طرق ﴾ وفيه قصة

ورواه الامام أحمد كذلك عن أبي الطفيل قال « قلنا لعلى : أخبرنا بشىء أسره اليك رسول الله ﷺ فقال : ما أسر إلى شيئا كتمه الناس ؛ ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ؛ ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غير تخوم الارض يعنى المنار »

وعلى بن أبي طالب : هو الامام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمى ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء ؛ كان من أسبق السابقين الأولين ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضى الله عنه ، قتله ابن ملجم الخارجى فى رمضان سنة أربعين .

قوله ﴿ لعن الله ﴾ اللعن : البعد عن مظانّ الرحمة ومواطنها . قيل واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة ؛ أودعى عليه بها . قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والابعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء .

قال شيخ الاسلام رحمه الله مامعناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلّى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى (٣٣: ٤٣ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما ٤٤ تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقال (٣٣ : ٦٤ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) وقال (٣٣: ٦١ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلّغه رسوله محمداً ﷺ ، وجبريل سمعه منه كما سيأتى فى الصلاة إن شاء الله تعالى، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم . فالله تعالى هو المصلّى وهو المثيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمه . قال الامام أحمد رحمه الله : « لم يزل الله متكلما اذا شاء »

قوله ﴿ من ذبح لغير الله ﴾ قال شيخ الاسلام رحمه الله فى قوله تعالى (٢: ١٧٣ وما أهل به لغير الله) [1] ظاهره : أنه ماذبح لغير الله، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا . واذا كان هذا

(١) وفى سورة المائدة الآية الثالثة . وسورة الأنعام الآية (١٤٥) وسورة النحل الآية

هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هـذا أظهر من تحريم ماذبحه للّحم، وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه . كما أن ماذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله. فاذا حرم ماقيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ماقيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ، فان العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله . وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً اليه يحرم [1] ؛ وإن قال فيه باسم الله ؛ كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك [2] وإن كان هؤلاء مرتدين لاتباح ذبيحتهم بحال . لكن يجتمع فى الذبيحة مانعان ، الأول : أنه مما أُهلّ به لغير الله . والثانى : أنها ذبيحة مرتد . ومن هـذا الباب : مايفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن [3] ، ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن . اه

قال الزمخشرى : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفا أن تصيبهم الجن؛ فأضيفت اليهم الذبائح لذلك .

وذكر ابراهيم المروزى : أن ماذبح عند استقبال السلطان تقرباً اليه، أفتى أهل بُخارَى

= (١١٥) [وما أهل لغير الله به] وأصل الاهلال : رفع الصوت والاعلام . فالمقصود بما أهل به لغير الله : ما أعلن عنه أنه منذور به لغير الله . سواء كان هذا الاهلال والاعلام قبل الذبح كأن يقال: هذه شاة السيدة فلان والسيد فلان ؛ فيعرف الناس ذلك، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمى الذابح باسم الله . فان هـذه التسمية اللفظية لاغية . والعبرة بالاهلال الحقيقى بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله . وكذلك أيضاً ماسمى من الطعام أو الشراب أو غيره نذراً وقربة لغير الله . فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هـذه القبور والطواغيت باسمها وعلى بركتها هو مما أهل به لغير الله .

(١) بل يكون هـذا الذبح شركا أكبر . (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)

[٢] وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ ونحوها ، فانهم يتحرون بها يوم السبت فى ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات . ويذبحون ويبخرون عند نزول الكوكب الفلانى فى منزلة كذا ونحو هذا ، وهم فى البلاد الاسلامية كثير — لا كثرهم الله ، ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التمائم والحجب ومتخذون آيات الله هزواً ، ومتقربون بهذه المناسك لغير الله . فيالله ما أشد غربة الاسلام . وإنا لله وإنا اليه راجعون

[٣] وغير مكة . باسم الزار وإخراج الجن المتلبس بالانس . ويدقون لذلك الطبول

لعن الله مَن لعن والدَيه . لعن الله من آوى مُحدِثاً . لعن الله مَن غيّر مَنار الأرض

رواه مسلم

بتحريمه ؛ لأنه مما أهل به لغير الله

قوله ﴿ لعن الله من لعن والديه ﴾ يعنى أباه وأمه وإن عليا . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال « من الكبائر شَتْم الرجلِ والديه ، قالوا : يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه ، ويَسُبُّ أمَّه فيسب أمَّه »

قوله ﴿ لعن الله من آوى محدثا ﴾ أى منعه من أن يؤخذ منه الحق الذى وجب عليه . و « آوى » بفتح الهمزة ممدودة أى ضمه اليه وحماه

قال أبو السعادات : أويت الى المنزل ، وأويت غيرى ، وآويته . وأنكر بعضهم المقصور المتعدى

وأما « محدثا » فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : مَنْ نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يُقْتَصّ منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدَع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ؛ فانه اذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث فى نفسه فكلما كان الحدث فى نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم

قوله ﴿ ولعن الله من غيّر منار الأرض ﴾ بفتح الميم علامات حدودها . قال أبو السعادات فى النهاية ـ فى مادة « تخم » ـ ملعون من غيّر تخوم الأرض أى معالمها وحدودها ، واحدها تخم قيل : أراد حدود الحرم خاصة : وقيل هو عام فى جميع الأرض ، وأراد المعالم التى يهتدى بها فى الطريق . وقيل هو أن يَدخل الرجل فى ملك غيره فيقتطعه ظلما . قال ويروى « تخوم » بفتح التاء على الأفراد وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء . اه

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذى قال فيه النبى ﷺ « من ظَلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين [1] » ففيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين .

[1] رواه الامام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة ، وعن سعيد بن زيد رضى الله عنهما

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: دخل الجنةَ رَجل فى ذُباب.
ودخل النارَ رجل فى ذباب. قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟

وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان: أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزى وغيره، والثانى: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام

قوله ﴿ وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال « دخل الجنة رجل فى ذباب، ودخل النار رجل فى ذباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئا. قالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندى شيء أقرب. قالوا قرب ولو ذبابا. فقرب ذباباً. فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة » رواه أحمد ﴾

قال ابن القيم رحمه الله: قال الامام احمد رحمه الله (١) حدثنا أبو معاوية، حدثنا الاعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال « دخل رجل الجنة فى ذباب ـ الحديث »

وطارق بن شهاب: هو البَجَلى الاحمس، أبو عبد الله. رأى النبى ﷺ وهو رجل. قال البغوى: نزل الكوفة. وقال ابو داود: رأى النبى ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقى النبى ﷺ فهو صحابى. وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابى وهو مقبول على الراجح؛ وكانت وفاته — على ماجزم به ابن حبان — سنة ثلاث وثمانين

قوله ﴿ دخل الجنة رجل فى ذباب ﴾ أى من أجله

قوله ﴿ قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ ﴾ كأنهم تقالّوا ذلك، وتعجبوا منه. فبين لهم النبى ﷺ ما صيّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيما يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار

---

[١] الحديث فى كتاب الزهد ص ١٥ س ١٨ وفى الحلية ج ١ ص ٢٠٣ موقوفا فيهما كليهما على سليمان فى الزهد وعلى سلمان فى الحلية. وهو خطا فى الحلية لأن الحافظ ابن حجر قال فى تعجيل المنفعة سليمان بن ميسرة الأحمسى عن طارق بن شهاب وعنه الأعمش وحبيب بن أبى ثابت، وثقه ابن معين. وقال ابن حبان فى ثقات التابعين: روي عن طارق بن شهاب وله صحبة؛ وقال ابن خلفون فى الثقات: وثقه العجلى ويحيى والنسائى. اهـ

قال : مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يَجوزُه أحد حتى يُقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب . قال ليس عندى شىء أُقرِّب . قالوا له : قرِّب ولو ذُباباً . فقرَّب ذباباً ، فخلّوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب . فقال ما كنت لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه أحمد

قوله ﴿ فقال : مر رجلان على قوم لهم صنم ﴾ الصنم ما كان منحوتاً على صورة ، ويطلق عليه الوثن كما مر (١)

قوله ﴿ لا يجاوزه ﴾ أى لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب اليه شيئاً وإن قلّ

قوله ﴿ قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار ﴾ فى هذا بيان عظمة الشرك ، ولو فى شىء قليل ، وأنه يوجب النار (٢) . كما قال تعالى (٥ : ٧٢ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)

وفى هذا الحديث : التحذير من الوقوع فى الشرك ، وأن الانسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذى يوجب النار

وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم .

وفيه أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار فى ذباب

وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه

قوله ﴿ وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ﴾

---

(١) قال فى النهاية : كل ماعبد من دون الله بل كل مايشغل عن الله يقال له : صنم

(٢) فى قرة العيون : لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار ، ففيه معنى حديث مسلم الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعا « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار » فاذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابا فكيف بمن يستسمن الابل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله ، من ميت أو غائب ، أو طاغوت أو مشهد أو شجر ، أو حجر أو غير ذلك ؟ وكان هؤلاء المشركون فى أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية فى وقتها الذى شرعت فيه ، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحى لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله ؛ وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه .

فيه مسائل : الأولى : تفسير (إن صلاتى ونسكى)

الثانية : تفسير (فصلِّ لربك وانحر)

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغـير الله

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدَى الرجل فيلعن والديك

الخامسة : لعن من آوى محدثا ، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق لله ، فيلتجىء إلى من يجيره مِن ذلك

السادسة : لعن من غيـّر منار الأرض ، وهى المراسيم التى تفرِّق بين حقك وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير

السابعة : الفرق بين لعن المعيـّن ولعن أهل المعاصى على سبيل العموم

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهى قصة الذباب

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم (١)

العاشرة : معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طَلِبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر

ففيه بيان فضيلة التوحيد والاخلاص (٢)

---

(١) الظاهر أنه لم يكن متخلصاً وإلا لم يدخل النار ؛ لآية (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان)

(٢) فى قرة العيون : ففيه معرفة قدر الشرك فى قلوب أهل الايمان ونفرتهم عنه وصلابتهم فى الاخلاص ، كما فى حديث أنس الذى فى البخارى وغيره الآتى ان شاء الله تعالى « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان » وفيه « وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »

وفيه : تفاوت الناس فى الايمان لأن هذا الرجل الذى قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل مافعله مع هذا الصنم ، كما هو ظاهر الحديث والله أعلم .

الحادية عشرة : ان الذى دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل « دخل النار فى ذباب »

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك »

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان

باب

﴿ لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله ﴾

وقول الله تعالى (٩ : ١٠٨ لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين)

قال المصنف رحمه الله : (وفيه معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر ﴾

قوله ﴿ باب : لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى ﴾ (١)

« لا » نافية ويحتمل أنها للنهى وهو أظهر . قوله ﴿ وقول الله تعالى « ٩:١٠٨ لا تقم فيه أبداً » الآية ﴾ قال المفسرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة فى مسجد الضرار ، والامة تبع له فى ذلك ، ثم إنه تعالى حثه على الصلاة فى مسجد قُباء الذى أُسِّس من أول يوم بنى على التقوى ، وهى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلا ومنزلا للاسلام وأهله ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » وفى الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور قباء راكباً وماشياً » وقد صرح أن المسجد المذكور فى الآية

---

[١] فى قرة العيون : أشار رحمه الله تعالى الى ما كان الناس يفعلونه فى نجد وغيرها قبل دعوتهم الى التوحيد من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ويتخذون للذبح لهم مكانا مخصوصاً فى دورهم . فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الاسلامية . فلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعى الى توحيد رب العالمين .

هومسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة ، وعطية ، والشعبى، والحسن وغيرهم

قلت : ويؤيده قوله فى الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبى سعيد قال « تمارى رجلان فى لمسجد الذى أُسِّس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قُباء . وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : هو مسجدى هذا » رواه مسلم ، وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية والحديث . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى ، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذى أسس على معصية الله كما قال تعالى (٩ : ١٠٧ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين و إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، ولَيحلفُنّ إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون) فلهذه الامور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة . وكان الذين بنوه جاءوا الى النبى ﷺ قبل خروجه الى غزوة تبوك فسألوه أن يصلى فيه ،وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فقال « إنا على سفَر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً الى المدينة ، ولم يبق بينه و بينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحى بخبر المسجد ، فبعث اليه فهدمه قبل قدومه الى المدينة (١)

وجه مناسبة الآية للترجمة : أن المواضع المعدة للذبح لغيرالله يجب اجتناب الذبح فيها لله ، كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلاتجوز الصلاة فيه لله . وهذا قياس صحيح يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتى

قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) روى الامام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الانصارى « أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور فى قصة مسجدكم ،فماهذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا : والله يارسول الله مانعلم شيئا

---

[١] كان أبو عامر الفاسق الخزرجى قد ذهب الى هرقل بعد غزوة أحد ، يستعديه على رسول الله «ص» فوعده هرقل ومناه ، فأرسل الى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله «ص» ويغلبه و يرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له اذا قدم عليهم ، فبنوا هذا المسجد ، والذى هدمه بأمر النبى «ص» وحرقه مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى أو أخوه عامر بن عدى

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال « نذر رجل أن ينحر إبلا بِبُوانة ، فسأل النبي ﷺ ، فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ قالوا : لا .

إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا » وفى رواية عن جابر وأنس « هو ذاك فعليكموه » رواه ابن ماجه وابن أبى حاتم والدارقطنى والحاكم .

قوله ﴿ والله يحب المطَّهرين ﴾ قال أبو العالية : إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب . وفيه إثبات صفة المحبة، خلافا للأشاعرة ونحوهم

قوله ﴿ وعن ثابت بن الضحاك قال « نذر رجل (١) أن ينحر إبلاً ببُوانة ، فسأل النبى ﷺ فقال : هل كان فيها وَثَن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا. فقال رسول الله ﷺ : أوْفِ بنذرك ، فانه لا وفاء لنذرٍ فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود ، واسناده على شرطهما ﴾

قوله ﴿عن ثابت بن الضحاك﴾ أى ابن خليفة الأشهَلى، صحابى مشهور ، روى عنه أبو قِلابة وغيره . مات سنة اربع وستين .

قوله ﴿ ببوانة ﴾ بضم الباء وقيل بفتحها . قال البغوى : موضع فى أسفل مكة دون يَلَملَم قال أبو السعادات : هضبة من وراء يَنبُع

قوله ﴿ فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ﴾ فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان فى المكان وثن ، ولو بعد زواله . قاله المصنف رحمه الله

---

(١) روى أبو داود بعد هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفى أنها قالت : سمعت ميمونة بنت كردم قالت « خرجت مع أبى فى حجه فرأيت رسول الله «ص» وسمعت الناس يقولون رسول الله «ص» فجعلت أبده بصرى، فدنا اليه أبى وهو على ناقة ، معه درة كدرة الكتاب ؛ فسمعت الاعراب والناس يقولون الطبطبية الطبطبية . فدنا اليه أبى فأخذ بقدمه، قالت فأقر له ووقف فاستمع منه ؛ فقال يارسول الله ، إنى نذرت إن ولد لى ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة فى عقبة من الثنايا عدة من الغنم ــ قال : لا أعلم إلا أنها قالت خمسين ــ فقال رسول الله هل بها من الأوثان شيء ؟ قال: لا . قال : فأوف بما نذرت لله ــ الحديث »

قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

قوله ﴿ فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ ﴾ قال شيخ الاسلام رحمه الله (١) : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد ، إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك (٢) والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقا ، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً . فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة « إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس « شهدت العيد مع رسول الله ﷺ » والمكان كقول النبي ﷺ « لاتتخذوا قبري عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب ، كقول النبي ﷺ « دعهما يا أبا بكر فان لكل قوم عيداً » انتهى . (٣)

---

(١) في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

(٢) وهي التي يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء ؛ وهي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم. ولذلك لايذكر الناس ويعرفون إلا من أقيمت له هذه الذكرانات ولو كان أجهل خلق الله وأفسقهم . فكلما كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قام السدنة بهذا العيد لتحيي في نفوس العامة عبادته وتكثر الهدايا والقرابين باسمه. وقد امتلأت البلاد الاسلامية بهذه الذكرانات ، وعمت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية الى بلاد الاسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولم ينج منها الا نجد والحجاز فيما نعلم بفضل الله ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب

(٣) في قرة العيون : وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيداً كمولد البدوي بمصر وغيره بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة . قال المصنف رحمه الله تعالى وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

قلت : وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلا للعبادة لكونها صارت محلا لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وان كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلا لما يسخط الله تعالى، فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التخصيص بالذبح وانما ذكر الذبح كالمثال .

وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجدا .

فقال رسول الله ﷺ : أوْفِ بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم »

قال المصنف ﴿ وفيه استفصال المفتى والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله ﴾

قلت : وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة الى ذلك

قوله ﴿ فأوف بنذرك ﴾ هذا يدل على أن الذبح لله فى المكان الذى يذبح فيه المشركون لغير الله . أى فى محل أعيادهم ، معصية ، لأن قوله « فأوف بنذرك » تعقيب للوصف بالحكم بالفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم . فيكون سبب الامر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين . فلما قالوا « لا » قال « أوف بنذرك » وهذا يقتضى أن كون البقعة مكانا لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذره . قاله شيخ الاسلام

وقوله ﴿ فانه لا وفاء لنذر فى معصية الله ﴾ دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد فى المكان بعض الموانع . وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به باجماع العلماء . واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد . أحدهما : تجب وهوالمذهب. وروى عن ابن مسعود وابن عباس . و به قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ لحديث عائشة رضى الله عنها مرفوعا « لا نذر فى معصية ، وكفارته كفارة يمين » رواه أحمد وأهل السنن (١) واحتج به احمد واسحق ، والثانى : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبي والشافعى . لحديث الباب . ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة فى الحديث المتقدم .والمطلق يحمل على المقيد

قوله ﴿ ولا فيما لا يملك ابن آدم ﴾ قال فى شرح المصابيح : يعنى إذا أضاف النذر إلى

= والجواب والله أعلم : أنه لو ترك هذا المحل فى هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع الى جهله وثناً . كما كان يفعل فيه أولا فجعله مسجداً والحالة هذه ينسى ما كان يفعل فيه ويذهب به أثر الشرك بالكلية فاختص هذا المحل لهذه العلة وهى قوة المعارض والله أعلم .

(١) قال الترمذى : هذا حديث لا يصح . لأن الزهرى لم يسمع هذا الحديث من أبى سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهرى من أبى سلمة وانما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك . وقال مثل هذا أبو داود بعد اخراجه إياه .

رواه أبو داود وإسناده على شرطهما

فيه مسائل

الأولى : تفسير قوله (لاتقم فيه أبداً)

الثانية : أن المعصية قد تؤثر فى الأرض . وكذلك الطاعة

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال

الرابعة : استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة ، لأنه نذر معصية

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ولو لم يقصده

العاشرة : لا نذر فى معصية

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك

معين لا يملكه بان قال : إن شفى الله مريضى فلله علىّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فأما إذا التزم فى الذمة شيئاً ؛ بأن قال : ان شفى الله مريضى . فلله على أن أعتق رقبة ، وهو فى تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فاذا شُفى مريضه ثبت ذلك فى ذمته

قوله ﴿ رواه أبو داود واسناده على شرطهما ﴾ أى البخارى ومسلم .

وأبو داود : اسمه سليمان بن الاشعث بن اسحٰق بن بشير بن شداد الأزدى السجستانى صاحب الامام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما ، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء مات سنة خمس وسبعين ومائتين . رحمه الله تعالى

باب

﴿ من الشرك النذر لغير الله ﴾

وقول الله تعالى (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً)
وقوله (٢: ٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه)

قوله ﴿باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى﴾

أى لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله . فيكون النذر لغير الله تعالى شركا فى العبادة

وقوله تعالى ﴿ ٧:٧٦ يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شَرُّه مُستطيرا ﴾ فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ومدح من فعل ذلك طاعة لله ووفاء بما تقرب به اليه

وقوله تعالى ﴿ ٢:٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ﴾

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع مايعمله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . اه

اذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عباد القبور ، تقربا بها اليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك فى العبادة بلا ريب . كما قال تعالى (٦:١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرْث والانعام نصيباً . فقالوا : هذا لله — بزعمهم— وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله . وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم، ساء مايحكمون)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وأما مانذر لغير الله كالنذر للاصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لاوفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات . فان كلاهما شرك . والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا و يقول ماقال النبي ﷺ « من حلف وقال فى حلفه : واللات والعزى فليقل لا إله الاالله[1] »

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْناً لتُنَوّر به و يقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الضالين — : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لايجوز الوفاء به وكذلك إذا نذر مالا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة . فان فيهم شبها من السدنة التى كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه ، قال تعالى (٧:١٣٨ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين فى هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد فى الهند[١] والمجاورين عندها[٢]

وقال الرافعى فى شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التى على قبر ولى أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء ، أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء والصالحين فان قصد الناذر بذلك — وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة — تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت اليه ، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد ، فان معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجاب بها الدعاء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند اليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلانى أو المكان الفلانى يقبل النذر ،

---

(١) فى القاموس : البد — بضم الباء — الصنم ، معرب ، بت والجمع بددة — كقردة — وأبداد . كخرج وأخراج

(٢) فى قرة العيون : وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع : فتوحيد القصد هو توحيد العبادة ، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة اذا صرفت لغير الله صار ذلك شركا بالله لالتفاته الى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكا لله فى العبادة فيكون قد أثبت مانفته (لااله الا الله) من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص ، وكل هذه الأبواب التى ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف مانفته «لااله الا الله» فعكس مدلولها فأثبت مانفته ونفى ما أثبتته من التوحيد ؛ وهذا معنى قول شيخنا . وشرح هذه الترجمة مابعدها من الأبواب . فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافى كلمة الاخلاص وما تضمنته من التوحيد .

يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا . ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فان الناذر لايقصد بذلك الايقاد على القبر إلاتبركا وتعظيما ، ظاناً أن ذلك قربة ، فهذا مما لاريب فى بطلانه ، والايقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفى فى شرح درر البحار : النذر الذى ينذره أكثر العوام على ماهو مشاهد ، كأن يكون للانسان غائب أو مريض أوله حاجة ، فيأتى الى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : ياسيدى فلان إن رد الله غائبى أوعوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا . فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه ، منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لايجوز ، لأنه عبادة والعبادة لاتكون لمخلوق ، ومنها أن المنذور له ميت ، والميت لايملك ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر — الى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل الى ضرائح الأولياء تقرباً اليها فحرام باجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم فى البحر الرائق ، ونقله المرشدى فى تذكرته وغيرهما عنه ، وزاد : قد ابتلى الناس بهذا لاسيما فى مولد البدوى (١)

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا

---

(١) أحمد البدوى بطنطا لايعرف له تاريخ صحيح ، واضطربت الأقوال فيه ، والمشهور نه كان جاسوساً لدولة الملثمين . وكان داهية فى المكر والخديعة . وقبره أكبر الأصنام فى الديار المصرية ، مثل هبل الأكبر أو اللات فى الجاهلية . يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر ، وتقدم له من النذور ويجعل له الفلاحون النصف والربع فى أنعامهم وزروعهم ، بل وأولادهم فيأتى الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه فى الصندوق قائلا : هذا نصيبك يابدوى ويقام له كل عام ثلاثة موالد يشد الرحال اليها الناس من أقصى القطر المصرى ، ويجتمع فى المولد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج الى هذا الصنم الأكبر . عجل الله بهدمه وحرقه هو وغيره من كل صنم فى مصر وغيرها .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « مَن نذر أن يُطيعَ الله فلْيُطعْه

الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ؛ فيكون باطلا . وفى التنزيل (٦: ١٢١ ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) (٦: ١٦٢ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ؛ لاشريك له) والنذر لغير الله إشراك مع الله ، كالذبح لغيره

قوله ﴿ وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « مَن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ أى صحيح البخارى

قوله ﴿ عن عائشة ﴾ هى أم المؤمنين ؛ زوج النبى ﷺ ، وابنة الصديق رضى الله عنهما تزوجها النبى ﷺ وهى ابنة سبع سنين ؛ ودخل بها وهى ابنة تسع [١] . وهى أفقه النساء مطلقا ؛ وهى أفضل أزواج النبى ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف [٢] . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضى الله عنها

قوله ﴿ من نذر أن يطيع الله فليطعه ﴾ أى فليفعل ما نذره من طاعة الله . وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه ، كإن شفى الله مريضى فعلىّ أن أتصدق بكذا ونحو ذلك وجب عليه ، إن حصل له ماعلق نذره على حصوله . وحكى عن أبى حنيفة : انه لايلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم ، وأما ماليس كذلك كالاعتكاف فلايجب عليه الوفاء به

---

(١) عقد عليها قبل الهجرة بسنة . وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريباً

(٢) فى قرة العيون . بل لايقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل . والتحقيق أن لخديجة من الفضائل فى بدء الوحى ماليس لعائشة من سبقها الى الايمان بالنبى «ص» وتأييده فى تلك الحال التى بدىء بالوحى فيها كما فى صحيح البخارى وغيره ، فما زالت كذلك حتى توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم والأحاديث والأحكام ماليس لخديجة لعلمها بأحوال النبى «ص» ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام ، وكان الصحابة رضى الله عنهم بعد وفاته [ص] يرجعون اليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي [ص] وحديثه صلوات الله وسلامه عليه ورضى عن أصحابه وأزواجه .

وَمَن نذر أن يَعصىَ الله فلا يَعصه »

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله فصرْفه إلى غيره شرك

الثالثة : أن نذر المعصية لايجوز الوفاء به

باب

﴿ من الشرك الاستعاذة بغير الله ﴾

قوله ﴿ ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ﴾ زاد الطحاوى « وليكفر عن يمينه » وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر فى المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا ؟ وتقدم . وقد يستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح ؛ كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيده مارواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذى عن بريدة « أن امرأة قالت : يارسول الله إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف ، فقال أوفى بنذرك » وأما نذر اللّجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران ابن حصين مرفوعا « لانذر فى غضب ، وكفارته كفارة يمين » رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائى ، فان نذر مكروها كالطلاق استحب أن يكفِّر ولا يفعله

قوله : باب ﴿ من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى ﴾

« الاستعاذة » الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ ؛ فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، الى ربه ومالكه ؛ واعتصم واستجار به والتجأ اليه ؛ وهذا تمثيل ، والا فما يقوم بالقلب من الالتجاء الى الله ؛ والاعتصام به ، والانطراح بين يدى الرب ، والافتقار اليه ؛ والتذلل له ، أمر لاتحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمه الله .

وقول الله تعـالى (٧٢: ٦ وأنه كان رجال من الإنس يَعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهقاً)

وقال ابن كثير : الاستعاذة هى الالتجاء الى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر. والعياذ يكون لدفع الشر . والليا‌ذ لطلب الخير . انتهى .

قلت : وهى من العبادات التى أمر الله تعالى بها عبـاده ، كما قال تعالى (٤١: ٣٦ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وأمثال ذلك فى القرآن كثير كقوله (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) فما كان عبادة لله فصرْفُه لغير الله شرك فى العبادة ، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكا لله فى عبادته ونازع الرب فى إلـٰهيته كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق ، كما سيأتى تقريره قريباً ان شاء الله تعالى .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٧٢: ٦ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً [1]) ﴾

قال ابن كثير : أى كنا نرى أن لنا فضلا على الآنس لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى اذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشىء يسوءهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أى خوفا وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم — الى أن قال — قال أبو العاليـة والربيع وزيد بن أسلم « رهقا » أى خوفا . وقال العوفى عن ابن عباس « فزادوهم رهقا » أى إثماً ، وكذا قال قتادة . اه

---

(١) فى قرة العيون : قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى فى تفسيره هـذه الآية عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رجال من الانس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول أعوذ بعزيز هذا الوادى فزادهم ذلك إثما ، وقال بعضهم فزاد الانس الجن باستعاذتهم بالجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم وازدادوا هم بذلك إثمـاً ، وقال مجاهد : فازداد الكفار طغيانا ، وقال ابن زيد : وزادهم الجن خوفا .

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات

وذلك أن الرجل من العرب كان اذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ؛ يريد كبير الجن، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال مُلا على قارى الحنفى : لا يجوز الاستعاذة بالجن . فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال : قال تعالى (٦ : ١٢٨ ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم) فاستمتاع الانسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشىء من المغيبات ، واستمتاع الجنى بالانسى تعظيمه إياه ، واستعاذته به وخضوعه له انتهى ملخصا .

قال المصنف ﴿وفيه أن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك﴾

قوله ﴿ وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » رواه مسلم ﴾

هى خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها أم شريك ، ويقال انها هى الواهبة (١) وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظْعون .

قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة

قوله ﴿ أعوذ بكلمات الله التامات ﴾ شرع الله لأهل الاسلام أن يستعيذوا به بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته

قال القرطبى : قيل : معناه الكاملات التى لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر . وقيل: معناه الشافية الكافية . وقيل: الكلمات هنا هى القرآن . فان الله أخبر عنه بأنه (١٠ : ٥٧ و ١٧ : ٨٢ و ٤١ : ٤٤ هُدًى وشفاء) وهذا الأمر على جهة الارشاد الى مايدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب اليه المرغب فيه ،

---

(١) التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم

من شر ماخلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » رواه مسلم

وعلى هـذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته أن يصدق الله فى التجائه اليه ، ويتوكل فى ذلك عليه ، ويحضر ذلك فى قلبه ، فمتى فعل ذلك وصل الى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لايجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبى ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التى لايعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به وتقرب اليه بما يحب فقد عبده ، وإن لم يسمّ ذلك عبادة ويسميه استخداما ، وصَدَقَ ، هواستخدام من الشيطان له ، فيصير من خَدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فان الشيطان لايخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به اه

قوله ﴿ من شر ماخلق ﴾ قال ابن القيم رحمه الله : أى من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر من حيوان أوغيره ، إنسياً كان أو جنياً ، أو هامة [1] أو دابة ، أو ريحا أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء فى الدنيا والآخرة .

و«ما» ههنا موصولة وليس المراد بها العموم الاطلاقى ، بل المراد التقييدى الوصفى ، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر ، لامن شر كل ماخلقه الله ، فان الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى مايفضى اليه .

قوله ﴿ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك ﴾ قال القرطبى : هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلا وتجربة ، فإنى منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرنى شيء الى أن تركته ، فلدغتنى عقرب بالمهدبة ليلا ، فتفكرت فى نفسى فاذا بى قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات

---

(١) الهامة : ماكان أهل الجاهلية يتوهمونه طائراً أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لا تزال تنادي على قبره بالأخذ بثأره . وهى خرافة من خرافاتهم أبطلها الاسلام ، وفى الصحيح أن النبى (ص) قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر »

فيه مسائل :

(الأولى) تفسير آية الجن (الثانية) كونه من الشرك (الثالثة) الاستدلال على ذلك بالحديث ، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة . قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك (الرابعة) فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره (الخامسة) أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك

باب

﴿من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره﴾

قوله : ﴿باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره﴾

قال شيخ الاسلام رحمه الله : الاستغاثة هى طلب الغَوْث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصر . والاستعانة طلب العون .

وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم من الاستغاثة ، لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة وينفرد الدعاء عنها فى مادة ؛ فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ؛ ودعاء مسألة ؛ ويراد به فى القرآن هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما . فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعى من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ؛ كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وقوله (٦ : ٧١ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا

بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا . قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقال(١٠ :١٠٦ ولاتدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فإنك إذاً من الظالمين)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، قال الله تعالى (٧:٥٥أُدعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لايحب المعتدين) وقال تعالى (٦:٤٠ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين ٤١ بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه إن شاء وتنسون ماتشركون) وقال تعالى (٧٢:١٨ وأن المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (١٣:١٥ له دعوة الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ومادعاء الكافرين الا فى ضلال) وأمثال هذا فى القرآن فى دعاء المسألة أكثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ، لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذاكر لله والتالى لكتابه ونحوه ، طالب من الله فى المعنى ، فيكون داعياً عابداً .

فتبين بهذا من قول شيخ الاسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال تعالى عن خليله (١٩، ٤٨ وأعتزلكم وماتدعون من دون الله . وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً ٤٩ فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق و يعقوب وكلا جعلنا نبياً) فصار الدعاء من أنواع العبادة ، فان قوله (وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً) كقول زكريا (١٩ : ٤ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقياً) . وقد أمر الله تعالى به فى مواضع من كتابه كقوله (٧: ٥٥ أُدعوا ربكم تضرعاً وخفية ، انه لايحب المعتدين ٥٦ ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة ؛ فان الداعى يرغب الى المدعو ويخضع له و يتذلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة ، فاذا صرف من تلك العبادة شيئا لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله (٣٩: ١٤ قل الله أعبد مخلصاً له دينى) وسيأتى لهذا مزيد بيان ان شاء الله تعالى

قال شيخ الاسلام رحمه الله فى الرسالة السنية : فاذا كان على عهد النبى ﷺ ممن انتسب

الى الاسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الاسلام لأسباب منها الغلو فى بعض المشايخ ؛ بل الغلو فى على بن أبى طالب ، بل الغلو فى المسيح ، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول : ياسيدى فلان انصرنى أو أغثنى ؛ أو ارزقنى ، أو أنا فى حسبك ؛ ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فان تاب و إلا قتل . فان الله سبحانه وتعالى انما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعى معه إله آخر . والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات ، وانما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ؛ يقولون (٣٩ : ٣ مانعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى) (١٠ : ١٠١ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يُدْعى أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . اه

وقال أيضاً : من جعل بينه و بين الله وسائط يتوكل عليهم و يدعوهم و يسألهم كفرَ إجماعا . نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الانصاف وصاحب الاقناع وغيرهم . وذكره شيخ الاسلام ونقلته عنه فى الرد على ابن جرجيس فى مسألة الوسائط .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواعه — يعنى الشرك — طلبُ الحوائج من الموتى ؛ والاستغاثة بهم والتوجه اليهم . وهذا أصل شرك العالم . فان الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له الى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتى تتمة كلامه فى باب الشفاعة ان شاء الله تعالى

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى رحمه الله فى رده على السبكى فى قوله « إن المبالغة فى تعظيمه — أى الرسول ﷺ — واجبة » :

إن أريد به المبالغة بحسب مايراه كل أحد تعظيما ، حتى الحج الى قبره والسجود له ، والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطى و يمنع ، و يملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضى حوائج السائلين و يفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، و يدخل الجنة من يشاء — : فدعوى المبالغة فى هذا التعظيم مبالغة فى الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين .

وفى الفتاوى البَزّازية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال أرواح المشائخ حاضرة تعلم : يكفر

وقال الشيخ صنع الله الحنفى رحمه الله فى كتابه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات فى الحياة و بعد الممات على سبيل الكرامة : هذا وانه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يَدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم و بعد مماتهم ، و يستغاث بهم فى الشدائد والبليات و بهممهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم و ينادونهم فى قضاء الحاجات ؛ مستدلين أن ذلك منهم كرامات، وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجور ، قال : وهذا كلام فيه تفريط و إفراط ، بل فيه الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة . وفى التنزيل (٤ : ١١٤ ومن يشاقق الرسولَ من بعد ما تبيّنَ له الهدَى ويَتّبعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولّى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرا)

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات فى حياتهم و بعد الممات ؛ فيرده قوله تعالى (٢٧ : ٦١–٦٤ أإلٰهٌ مع الله) (٧ : ٥٤ ألا له الخلقُ والأمر) (٣ : ١٨٩ و ٥ : ١٩ و ٢٠ : ١٢٣ و ٤٢ : ٢٤ و ٤٢ : ٤٩ و ٤٥ : ٢٧ و ٤٨ : ١٤ لله ملك السموات والأرض) ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره فى شيء مّا بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفا وملكا، و إحياء و إماتة وخلقا . وتمدّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه فى آيات من كتابه كقوله (٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله؟) (٣٥ : ٤٠ والذين تدعون من دونه مايملكون من قِطْمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم . و يوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبؤك مثل خبير) وذكر آيات فى هذا المعنى

ثم قال : فقوله فى الآيات كلها « من دونه » أى من غيره . فانه عام يدخل فيه من اعتقدته ، من وَلىّ وشيطان تستمده ، فان من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمِدُّ غيره ؟ الى أن قال : ان هذا لقولٌ وخيم ، وشرك عظيم ، إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف فى الحياة . قال جل ذكره (٣٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون) (٣٩ : ٤٢ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التي

قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) (٣:١٨٥و٢١:٣٥و٢٩:٥٧ كل نفس ذائقة الموت) (٧٤:٣٨ كل نفس بما كسبت رهينة) وفى الحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث » الحديث [١] فجميع ذلك وماهو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف فى ذاته فضلا عن غيره . فاذا عجز عن حركة نفسه . فكيف يتصرف فى غيره ؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفة (٢:١٤٠ قل أأنتم أعلم أم الله ؟)

قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه ، لاقصد لهم فيه ولاتحدى ، ولاقدرة ولاعلم ، كما فى قصة مريم بنت عمران ، وأسيد بن حضير ، وأبى مسلم الخولانى .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم فى الشدائد ، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره (٢٧:٦٢ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟) (٦:٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفيه لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ٦٤ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) وذكر آيات فى هذا المعنى ، ثم قال : فانه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لاغيره ، وأنه المتفرد باجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير . فهو المنفرد بذلك ، فاذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبى وولى .

قال : والاستغاثة تجوز فى الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية فى قتال ، أو إدراك عدو أوسبع أونحوه ، كقولهم : يالزيد ، يالمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو فى الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله لايطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم فى قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم . فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبى أو ولى أو روح أو غير ذلك فى كشف كربة أو قضاء حاجة — تأثيرا فقد وقع فى وادى جهل

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة

وقول الله تعالى (١٠:١٠٦ ولا تَدْعُ من دون الله ما لا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين

خطير ، فهو على شفا حفرة من السعير . وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاش لله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة ؛ فهذا ظن أهل الأوثان . كذا أخبر الرحمن (١٠:١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) (٣٩:٣ ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) (٣٦:٢٣ أأتخذ من دونه آلهة إن يُردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟) فان ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبى وولى وغيره على وجه الامداد منه : إشراك مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره .

قال : وأما ما قالوا إن منهم أبدالا ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس . فهذا الن موضوعات إفكهم . كما ذكره القاضى المحدث فى سراج المريدين ، وابن الجوزى وابن تيمية . انتهى باختصار

والمقصود : أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التى عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء . فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب . والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل ، ومن قال قولا بلا برهان فقوله ظاهر البطلان ؛ مخالف ما عليه أهل الحق والايمان المتمسكون بمحكم القرآن ؛ المستجيبون لداعى الحق والايمان . والله المستعان وعليه التكلان .

قال ﴿ وقوله تعالى (١٠:١٠٦ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً من الظالمين) ﴾

قال ابن عطية : معناه قيل لى « ولا تدع » فهو عطف على « أقم » وهذا الأمر والمخاطبة للنبى ﷺ . اذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره . والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة .

قال أبو جعفر ابن جرير فى هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ، يعنى بذلك الآلهة والأصنام ، يقول لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها فانها لا تنفع ولا تضر . فان فعلت ذلك

١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يُرِدْك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم)

فدعوتها من دون الله (فانك إذاً من الظالمين) يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه[1]

قلت : وهـذه الآية لها نظائر كقوله (٢٦: ٢١٣ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقوله (٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) ففى هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره . ولهذا قال (لا إله إلا هو) كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلى الكبير) وهـذا هو التوحيد الذى بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعـالى (٩٨: ٥ وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين) والدين : كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة . وفسره ابن جرير فى تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبـادة ، على عادة السلف فى التفسير ، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكا لله فى الإلهية التى لا يستحقها إلا هو ، كما قال تعالى (٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسـابه عنـد ربه ، إنه لا يفلح الـكافرون) فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال

وقوله ﴿ ١٠: ١٠٧ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله ﴾[2] فانه المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ،والضر والنفع، دون كل ما سواه . فيلزم

---

(١) فالظلم فى هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (٣١ : ١٣ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) بل هو أظلم الظلم كما فى الحديث عن ابن مسعود « أظلم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك » لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه ،وصرفه للعبد الذى لا يستحقه

(٢) فى قرة العيون: هذا فى حق المستغيث أخبر الله تعالى أنه هو الذى يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئا من فضل الله عليه. فهو المعطى والمانع ،لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع. وفى هذا المعنى ما فى حديث ابن عباس، وفيه « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبـه الله لك »فمن تدبر هذه الآية وما فى معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم ، و الشرك الذى لا يغفر ، وانهم قد

وقوله(٢٩ : ١٧ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون)

من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، المعبود وحده ؛ فان العبادة لاتصلح إلا لمالك الضر والنفع . ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله بضرٍّ هل هنَّ كاشفات ضُره ؟ أو أرادنيَ برحمة ؛ هل هنّ ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله . عليه يتوكل المتوكلون) وقال (٣٥ : ٢ ما يَفتحِ الله للناس من رحمةٍ فلا مُمْسكَ لها ، وما يمسك فلا مُرْسِل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فهذا ما أخبرَ به الله تعالى فى كتابه من تفرده بالالُهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك . فاعتقد عُبّاد القبور والمشاهد نقيضَ ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله فى استجلاب المنافع ودفع المكاره ، بسؤالهم والالتجاء اليهم بالرغبة والرهبة والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التى لايستحقها إلا الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله فى ربوبيته وإلُهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين (مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فان أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم الى الله . وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك ؛ لا شريك لك * إلا شريكا هو لك * تملكه وما ملك

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا فى أهل القبور والمشاهد ماهو أعظم من ذلك . فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً فى الرغبات والرهبات (سبحان الله عما يشركون)

وقوله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أى لمن تاب اليه

قال ﴿ وقوله تعالى (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) ﴾ يأمر

= أثبتوا مانفته «لا إله الا الله» من الشرك فى الالهية ؛ ونفوا ما أثبتته من الاخلاص كما قال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه ، ونهى عنه وحرمه . وأعظم ما أمر به التوحيد والاخلاص ؛ وأن لا يقصد العبد بشىء من عمله سوى الله تعالى الذى خلقه لعبادته ، وأرسل بذلك رسله ، وأنزل به كتبه (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأعظم ما نهى عنه : الشرك به فى ربوبيته وإلهيته

وقوله (٤٦ : ٥ وَمَنْ أضلُّ ممن يدعو مِن دون الله مَنْ لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون)

تعالى عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون ماسواه ممن لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص . وقوله (واعبدوه) من عطف العام على الخاص ؛ فان ابتغاء الرزق عنده من العبادة التى أمر الله بها

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى(فابتغوا) أى فاطلبوا (عند الله الرزق) أى لا عند غيره. لأنه المالك له؛ وغيره لا يملك شيئا من ذلك (واعبدوه) أى أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له (واشكروا له) أى على ما أنعم عليكم (اليه ترجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله

قال ﴿ وقوله (٤٦ : ٥ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) ﴾

نفى سبحانه أن يكون أحد أضلّ ممن يدعو غيره . وأخبر أنه لا يستجيب له ما طَلب منه الى يوم القيامة. والآية تعم كل من يُدْعَى من دون الله، كما قال تعالى (١٧ : ٥٦ قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) وفى هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه (وإذا حشر النـاس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله(١)

---

(١) فى قرة العيون: وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقا من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله الا الخيبة والخسران . ثم قال تعـالى (وهم عن دعائهم غافلون) كما قال فى آية يونس (١٠ : ٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ؛ فزيلنا بينهـم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ٢٩ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين) ثم قال (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ،فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الانكار ؛ وقد صار المدعو للداعى عدواً ؛ ثم أخـبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله (وكانوا بعبادتهم كافرين) فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعى له فى غاية الضلال.

وقد وقع من هذا الشرك فى هـذه الأمة ما عم وطم ، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان

٦ وإذا حُشرَ الناسُ كانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين)

قال أبو جعفر بن جرير فى قوله (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يقول تعالى ذكره : واذا جُمع الناس ليوم القيامة فى موقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يدعونها فى الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرأون منهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا . تبرأنا اليك منهم يار بنا، كما قال تعالى (٢٥: ١٧، ١٨ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؛ أم هم ضلوا السبيل؟ قالوا: سبحانك، ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا)

قال ابن جرير (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) من الملائكة والانس والجن [١] وساق بسنده عن مجاهد قال: عيسى وعزير والملائكة

ثم قال: يقول تعالى ذكره [٢] قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهاً لك يار بنا وتبرئة مما أضاف اليك هؤلاء المشركون (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) نواليهم (أنت ولينا من دونهم) انتهى .

قلت : وأكثر مايستعمل الدعاء فى الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة و مَن بعدهم

= مجهولا عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى ؛ وهو فى الكتاب والسنة فى غاية البيان، لكن القلوب انصرفت الى مازين لها الشيطان، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم الى توحيد الله : جرى لهم من شدة العداوة ماذكره الله تعالى، كما قال تعالى (٥١: ٥٢ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ٥٣ أتواصوا به بل هم قوم طاغون) ويشبه هذه الآية فى المعنى (٣٥: ١٣ ذلكم الله ربكم له الملك، والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ١٤ ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولاينبئك مثل خبير) أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لايغفره لمن لقيه به ؛ فتدبر هذه الآيات وما فى معناها كقوله (٧٢: ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا) (٧٢: ٢٠ قل انما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا) وهو فى القرآن أكثر من أن يستقصى

[١] سياق بن جرير هكذا ؛ يقول تعالى ذكره : ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والانس والجن

[٢] أى عند تفسير قوله تعالى (قالوا سبحانك ـ إلى قوله ـ وكانوا قوما بورا)

من العلماء :فى السؤال والطلب ، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغة الدعاء ،وقد قال تعالى (٣٥ :١٣، ١٤ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ـ الآيتين) وقال (٦ : ٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفية) وقال (١٠ :١٢ وإذا مَسَّ الانسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أوقائما) وقال (٤١ :٥١ واذا مسّه الشرّ فذو دعاء عريض) وقال (٤١ :٤٩ لايسأم الانسان من دعاء الخير) الآية . وقال (٨ :٩ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية .

وفى حديث أنس مرفوعا «الدعاء مُخُّ العبادة» وفى الحديث الصحيح « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة» وفى آخر «من لم يسأل الله يغضب عليه » وحديث «ليس شىء أكرم على الله من الدعاء» رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه . وقوله «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض» رواه الحاكم وصححه . وقوله «سلوا الله كل شىء حتى الشِّسعْ اذا انقطع» الحديث . وقال ابن عباس رضى الله عنهما «أفضل العبادة الدعاء» وقرأ (٤٠ :٦٠ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) الآية . رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وحديث « اللهم انى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان . الحديث» وحديث «اللهم انى اسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وأمثال هذا فى الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر، فى الدعاء الذى هو السؤال والطلب، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفا وخلفا .

وأما ماتقدم من كلام شيخ الاسلام ، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان : دعاء مسئلة ، ودعاء عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر . فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك وغيره طالباً فى المعنى. فيدخل فى مسمى الدعاء بهذا الاعتبار، وقد شرع الله تعالى فى الصلاة الشرعية من دعاء المسألة مالا تصح الصلاة إلا به، كما فى الفاتحة و بين السجدتين وفى التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود . فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد .

ومما يبين هذا المقام و يزيده إيضاحا . قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (١٧ :١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة. قالوا : كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو ربه و يقول مرة «يا الله» ومرة «يارحمن»

وقوله (٢٧ : ٦٢ أمّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟)

فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية . ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أيّ اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى، إما «الله» وإما «الرحمن» فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازم المعنى فى الآية . وليس هو عين المراد . بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن . وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء

ثم قال: اذا عرف هذا فقوله (أُدْعُو ربكم تضرعاً وخُفية) يتناول نوعى الدعاء لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر باخفائه . قال الحسن «بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفا. ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم» . وقوله تعالى (٢ : ١٨٦ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) يتناول نوعى الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه اذا سألنى، وقيل: أثيبه اذا عبدنى ؛ وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً . وهذا يأتى فى مسألة الصلاة وانها نقلت عن مسماها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية ، واستعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى وهى باقية على الوضع اللغوى، وضم اليها أركان وشرائط . فعلى ما قررناه لا حاجة الى شىء من ذلك، فان المصلى من أول صلاته الى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما دعاء عبادة وثناء ؛ أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . اهـ ملخصاً من البدائع

قال ✻ وقوله (٢٧ : ٦٢ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ماتذكرون) بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده[1] فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم فى اتخاذهم

---

(١) فى قرة العيون : وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم فى جاهليتهم كما قال تعالى (٣٠ : ٦٥ فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين؛ فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له اذا وقعوا فى شدة .

الشفعاء من دونه ، ولهذا قال (أإلـٰه مع الله ؟) يعنى يفعل ذلك . فاذا كانت آلهتهم لاتجيبهم فى حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذى يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء وحده . وهذا أصح مافسرت به الآية كسابقتها من قوله (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإلـٰه مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإلـٰه مع الله ؟ بل أكثرهم لايعلمون) ولاحقتها الى قوله (أمّنْ يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته ؟ أإلـٰه مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإلـٰه مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ماجحدوه : من قَصْر العبادة جميعها عليه، كما فى فاتحة الكتاب (إياك نعبد و إياك نستعين)

قال أبو جعفر بن جرير : قوله (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء — إلى قوله — قليلا ماتذكرون) يقول تعالى ذكره : أم ما تشركون بالله خير ، أم الذى يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء النازل به عنه ؟ وقوله (و يجعلكم خلفاء الأرض) يقول: يستخلف بعد أمواتكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم، وقوله (أإلـٰه مع الله) أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم و ينعم عليكم هذه النعم ؟ وقوله (قليلا ماتذكرون) يقول تذكراً قليلا من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً . فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته .اه

قوله ﴿ وروى الطبرانى « أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين . فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : انه لايستغاث بى ، وانما يستغاث بالله » ﴾

الطبرانى : هو الامام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الطبرانى، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائى و إسحاق بن ابراهيم الديرى وخلق كثير . مات سنة ستين وثلثمائة . روى هذا الحديث عن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه .

قوله ﴿ أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ﴾ لم أقف على اسم هذا المنافق .

فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : إنه لا يُستغاث بي ، وإنما يُستغاث بالله »

فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العامّ على الخاص

الثانية : تفسير قوله (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك)

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفراً

قلت : هو عبد الله بن أُبيّ كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته .

قوله ﴿ فقال بعضهم ﴾ أي الصحابة رضي الله عنهم ؛ هو أبو بكر رضي الله عنه

قوله ﴿ قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ﴾ لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه(١) .

قوله ﴿ إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله ﴾ فيه النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه ، كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وإن كان مما يقدر عليه في حياته ، حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك وأدباً وتواضعاً لربه ، وتحذيراً للأمة من وسائل

---

(١) في قرة العيون : فلعله أراد أن النبي «ص» كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق ، وفي السنة ما يدل على ذلك ، كما فعل مع ابن أبي وغيره . وقيل : ان النبي «ص» كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه «ص» عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعا مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين ، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك . وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه ؛ كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته ؛ والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها والله أعلم .

السابعة : تفسير الآية الثالثة (١)

الثامنة : أن طلبَ الرزق لاينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه

التاسعة : تفسير الآية الرابعة

العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غير الله

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعى ، لايدرى عنه(٢)

الشرك فى الأقوال والأفعال . فاذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ فى حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته و يطلب منه أمور لايقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيرى(٣) والبرعى وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا

---

[١] يعنى (فابتغوا عندالله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون)

[٢] يعنى أن المدعو غافل عن دعاء الداعى بما هو مشغول به فى قبره من نعيم ؛ ان كان من المؤمنين الصالحين، كالحسين وأبيه رضى الله عنهما ، أو من عذاب أليم ، كالتجانى المشرك الخبيث وابن عربى الحاتمى أكبر الدعاة الى وحدة الوجود ؛ وابن الفارض وأشباههما ممن اتخذه الناس ولياً معبودا لعظم ما بنى عليه من القبة؛ أو بالظنون واتباع الأهواء ؛ وهم كثير جداً ، بل أكثر أولئك الطواغيت منهم ؛ ومن أرباب الطرق الدجالين .

[٣] مثل قوله فى البردة :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيرى أعظم من مدح النبى «ص» ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنهم فى زعمهم لم يبلغوا من الغلو والإطراء مابلغ البوصيرى . وهذا هو الغلو الذى جر إلى الشرك والكفر برسول الله «ص» كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق هذا الغلو . وقد حذرنا الله منه فى كتابه الكريم بقوله (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) وحذرنا النبى [ص] فيما رواه البخارى ومسلم «لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فأنا عبد الله ورسوله» (ص) . وانما تعظيمه «ص» وحبه باتباع سنته واقامة ملته . ودفع كل مايلصقه الجاهلون بها من الخرافات . فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والاطراء الذى أوقعهم فى هذا الشرك العظيم .

ونحمد الله أن عافانا بفضله وجعلنا مؤمنين برسول الله «ص» معظمين له ومحبين بما يحبه الله ورسوله لنا على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان . وقد عظمت

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعى وعداوته له

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة

الخامسة عشرة : هى سبب كونه أضل الناس

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة (١)

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه فى الشدائد مخلصين له الدين

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله

نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شىء الذى له الخلق والأمر وحده ، وله الملك وحده ، لا إلٰه غيره ولا رب سواه . قال تعالى (١٨٧:٧ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله) فى مواضع من القرآن[٢] (٢١:٧٢ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا) فأعرض هؤلاء عن القرآن واعتقدوا نقيض مادلت عليه هذه الآيات المحكمات ، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله ديناً ، والهدى ضلالا ، فإنا لله وإنا اليه راجعون . فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى ، فعاندوا أهل التوحيد وبدعوا أهل التجريد ؛ فالله المستعان .

= المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول - الزاعمون جهلا وكذبا حبه - هذه البردة ورداً كالقرآن وأعظم من القرآن ، وكتبوها مجودة بماء الذهب كما كتبوا القرآن ، وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن . فلا حول ولا قوة الا بالله

(١) يعنى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من المدعوين أن يجيب الداعى الا الله

(٢) فى سورة (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً الا ماشاء الله)

باب

قول الله تعالى (٧ : ١١٩ أيُشركون ما لا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون ١٢٠ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)

قوله : باب قول الله تعالى

(٧ : ١١٩ أيشركون ما لا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون؟ ١٢٠ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)[(١)]

قوله ﴿ أيشركون ﴾ أى فى العبادة . قال المفسرون : فى هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين فى عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكا للخالق فى العبادة التى خلقهم لها ، و بيّن أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله ، وهذا وصف كل مخلوق ، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين . وأشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول « اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أحُول و بك أصول ، و بك أُقاتل » وهذا كقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) وقوله (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من

---

(١) فى قرة العيون : وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء فى العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده ، وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً ، أى لمن سألهم النصرة (ولا أنفسهم ينصرون) فاذا كان المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى .

فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين ، وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبودا .

الدليل الثانى : أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم . فتدبر هذه الآية وأمثالها فى القرآن العظيم .

الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) وقوله (٧٢ : ٢١ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رَشدا ٢٢ قل إنى لن يُجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه مُلتحَدا ٢٣ إلا بلاغا من الله ورسالاته)

فكفى بهذه الآيات برهانا على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان . فان كان نبياً أو صالحا فقد شرفه الله تعالى باخلاص العبادة له ، والرضاء به رباً ومعبوداً ، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب اليه بالنهى عن هذا الشرك كما قال تعالى (٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالكٌ إلا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون) وقال (١٢ : ٤٠ إنِ الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم باخلاص العبادة له وحده ، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره ، وهذا هو دينه الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، ورضيه لعباده ، وهو دين الاسلام ، كما روى البخارى عن أبى هريرة فى سؤال جبريل عليه السلام ، قال « يارسول الله ، ما الاسلام ؟ قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » الحديث

﴿ وقول الله تعالى (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه مايملكون من قِطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير[١] ﴾ يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام

(١) فى قرة العيون : يخبر الخبير ان الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) فان من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب فى طلب نفع أو دفع ضر الى أحد سواه تعالى وتقدس بل يجب اخلاص الدعاء له الذى هو من أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن مايدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم . ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وانهم يوم القيامة يكفرون بشركهم ، أى ينكرونه ويتبرأون ممن فعله معهم ، فهذا الذى أخبر به الخبير الذى (لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به ، وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ماصدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا ان الميت يسمع ، ومع سماعه ينفع ، فتركوا الاسلام والايمان رأساً كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة .

إن تَدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سَمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون بِشرْكِكم ولا يُنبِّئكَ مثلُ خبير

وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم ؛ وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التى تكون فى المدعو ؛ وهى الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف اذا عُدمت بالكلية ؟ فنفى عنهم الملك بقوله (مايملكون من قطمير) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وعطاء والحسن وقتادة «القطمير : اللفافة التى تكون على نواة التمر» كما قال تعالى(١٦ : ٧٣ و يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) وقال (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ٢٣ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله (إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم) لأنهم مابين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملائكة ، ثم قال (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) لأن ذلك ليس لهم ؛ فان الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده فى دعاء أحد منهم ، لا استقلالا ولا واسطة ، كما تقدم بعض أدلة ذلك . وقوله (و يوم القيامة يكفرون بشرككم) فتبين بهذا أن دعوة غيرالله شرك[1] . وقال تعالى(١٩: ٨١ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزاً ٨٢ كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضِداً) وقوله تعالى (و يوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرأون منكم ، كما قال تعالى(٤٦ : ٥ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)

قال وقوله ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وماتصير اليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى . فانه أخبر بالواقع لا محالة

قلت : والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم؛ فقالوا : تملك وتسمع

(١) وتبين أنهم كانوا يدعون عباداً صالحين يتبرأون من الشرك الذى هو دعاء غير الله ويتبرأون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين وأنهم محسوبون عليهم

وتستجيب وتشفع لمن دعاها[١] ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة و يتبرأ منه، كما قال تعالى (١٠: ٢٨ و يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانَكم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلْنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيَّانا تعبدون ٢٩ فكفى بالله شهيداً بيننا و بينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين ٣٠ هنالك تَبلُو كلُّ نفس ما أسلفت ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ وضل عنهم ما كانوا يفترون) أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) قال يقول ذلك كل شىء كان يعبد من دون الله .

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان بالايمان والقبول والعمل، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ماسواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعا ، فضلا عن غيره

قوله ﴿ وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال « شُجَّ النبى ﷺ يوم أُحُدٍ وكُسرت رَباعيته . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنزلت (٣: ١٢٨ ليس لك من الأمر شىء) ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ أى الصحيحين . علقه البخارى . قال وقال حميد وثابت عن أنس. ووصله أحمد والترمذى والنسائى عن حميد عن أنس . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس . وقال ابن إسحاق فى المغازى: حدثنا حميد الطويل عن أنس قال « كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أُحد وشج وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ؛ وجعل يمسح الدم وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله الآية » .

قوله ﴿ شج النبى ﷺ ﴾ قال أبو السعادات : الشج فى الرأس خاصة فى الأصل ؛ وهو أن يضرب بشىء فيجرحه فيه و يشقه ، ثم استعمل فى غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى أن عُتْبة بن أبى وَقَّاص هو الذى كسر رباعية النبى ﷺ

---

(٢) يعنى قالوا ذلك بلسان حالهم ، لأنهم أصروا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن وبخهم الله بأن الذى يستغاث به ويدعى ينبغى ان يكون سميعاً بصيرا بيده الخير . والذى يدل على أنهم لم يكونوا يقولوا ذلك بصريح القول: ماحكى الله من جواب قوم ابراهيم وأبيه لما سألهم (هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟) فانهم أعرضوا عن الجواب الصريح عن السؤال . وقالوا (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فجوابهم هذا حيدة عن الجواب المطابق للسؤال .

يوم أُحد وكُسرت رَباعيته، فقال : كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨ ليس لك من الأمر شيء)

السفلى وجرح شفته العليا[١] وأن عبد الله بن شهاب الزهرى هو الذى شَجّه فى وجهه ، وأن عبدالله بن قَمِئَة جرحه فى وَجْنته، فدخلت حلقتان من حِلَق المِغْفَر فى وجنته[٢] وأن مالك ابن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده . فقال له « لن تمسك النار »

قال القرطبى : والرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء ـ وهى كل سن بعد ثنية .

قال النووى رحمه الله : وللانسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها .

قال النووى : وفى هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالانبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب . ولتعرف الأمم ما أصابهم و يأتسوا بهم .

قال القاضى: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، و يطرأ على أجسامهم مايطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون . ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات و يلبس الشيطان من أمرهم مالبسه على النصارى وغيرهم . انتهى

قلت : يعنى من الغلو والعبادة

قوله ﴿ يوم أُحد ﴾ هو شرقى المدينة . قال ﷺ « أُحد جبل يحبنا ونحبه[٣] » وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة . فأضيفت اليه

قوله ﴿ كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم ﴾ زاد مسلم « كسروا رباعيته وأدموا وجهه »

قوله ﴿ فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء)[٤] ﴾ قال ابن عطية : كأن النبى ﷺ لحقه

---

(١) روى ابن اسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال « فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة لما صنع برسول الله «ص» يوم أحد »

(٢) فى الطبرانى من حديث أبى أمامة قال « رمى عبد الله بن قمئة رسول الله «ص» يوم أحد فشج وجهه وكسرت رباعيته فقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله «ص» وهو يمسح الدم عن وجهه : مالك أقمأك الله . فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة »

(٣) رواه البخارى فى الصحيح عن أنس

(٤) فى قرة العيون: وقد قال تعالى (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر

وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر « اللهم العنْ فلاناً وفلاناً »

فى تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ، فقيل له بسبب ذلك (ليس لك من الأمر شىء) أى عواقب الأمور بيد الله ، فامض أنت لشأنك ، ودُم على الدعاء لربك

وقال ابن إسحاق (ليس لك من الأمر شىء) فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم

قوله ﴿ وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع وسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر :ـ « اللهم العن فلاناً وفلانا » بعد مايقول: سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد . فأنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) وفى رواية « يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام » فنزلت (ليس لك من الأمر شىء) ﴾

قوله ﴿ وفيه ﴾ أى فى صحيح البخارى . ورواه النسائى

قوله ﴿ عن ابن عمر ﴾ هو عبدالله بن عمر بن الخطاب ، صحابى جليل ، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح ، مات سنة ثلاث وسبعين فى آخرها أو فى أول التى تليها.

قوله ﴿ انه سمع رسول الله ﴾ هذا القنوت على هؤلاء بعد ماشج وكسرت رباعيته يوم أُحد.

قوله ﴿ اللهم العن فلانا وفلانا ﴾ قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله. ومن الخلق السب والدعاء . وتقدم كلام شيخ الاسلام رحمه الله

قوله ﴿ فلانا وفلانا ﴾ يعنى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بيّنه فى الرواية الآتية .

وفيه : جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم فى الصلاة ، وأن ذلك لا يضر فى الصلاة

= تبارك الله رب العالمين) والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، والمقصود ان الذى له الأمر كله والملك كله لايستحق غيره شيئا من العبادة ، ولهذا المعنى قال لنبيه «ص» (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) فالذى ليس له من الأمر شىء وهو خيرة الله من خلقه مازال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له بالأمر كله وهو الله تعالى، فهذا دينه «ص» الذى بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم اليه كما تقدم فى باب الدعاء الى شهادة أن لا إله الا الله ، فاياك أن تتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين الذى شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به .

بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية .

وفي رواية « يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام »

قوله ﴿ بعد مايقول : سمع الله لمن حمده ﴾ قال أبو السعادات : أي أجاب حمده وتقبله . وقال السهيلي : مفعول «سمع» محذوف ، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها . فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع في الكلمة الايجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم رحمه الله مامعناه : عدى « سمع الله لمن حمده » باللام المتضمنة معنى استجاب له . ولا حذف هناك وانما هو مضمن

قوله ﴿ ربنا ولك الحمد) في بعض روايات البخاري باسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ؛ لأنه يكون التقدير : ربنا استجب ولك الحمد . فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر

قال شيخ الاسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له . كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وكذا قال ابن القيم : وفرق بينه و بين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون باخباراً مجرداً عن حب و إرادة ، أو يكون مقرونا بحبه و إرادته . فان كان الأول فهو المدح ؛ و إن كان الثاني فهو الحمد . فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه و إجلاله وتعظيمه . ولهذا كان خبراً يتضمن الانشاء بخلاف المدح ، فانه خبر مجرد . فالقائل إذا قال «الحمد لله» أو قال « ربنا ولك الحمد» تضمن كلامه الخبر عن كل مايحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لاتصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد

وفيه: التصريح بأن الامام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالا : يقتصر على « سمع الله لمن حمده »

قوله ﴿ وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ﴾

فنزلت (ليس لك من الأمر شىء)

وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ، فما استجيب له ﷺ فيهم بل أنزل الله (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم. وفى هذا كله معنى شهادة أن لا إله إلا الله الذى له الأمر كله ، يهدى من يشاء بفضله ورحمته، و يضل من يشاء بعدله وحكمته .

وفى هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عبّاد القبور فى الأولياء والصالحين . بل فى الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم ، و يمنعون من لاذ بحماهم . فسبحان من حال بينهم و بين فهم الكتاب . وذلك عدله سبحانه ، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، و به الحول والقوة .

قوله ﴿ وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه (٢٦:٢١٤ وأنذر عشيرتك الأقربين) قال « يامعشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . ياعباس بنَ عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . ياصفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئا . يافاطمة بنت محمد ، سلينى من مالى ماشئت ، لا أغنى عنك من الله شيئا »

قوله ﴿ وفيه ﴾ أى وفى صحيح البخارى

قوله ﴿ عن أبى هريرة ﴾ اختلف فى اسمه . وصحح النووى أن اسمه عبد الرحمن بن صخر، كما رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة قال « كان اسمى فى الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسميت فى الاسلام عبد الرحمن » وروى الدُّولابى باسناده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ سمّاه عبد الله» وهو دَوْسِىٌّ من فضلاء الصحابة وحفاظهم، حفظ عن النبى ﷺ أكثر مما حفظه غيره [1]

(١) روى البخارى فى أول البيوع عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال «إنكم تقولون: ان أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله «ص» ويقولون: مابال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله «ص» بمثل حديث أبى هريرة ؟ وان اخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وكنت ألزم رسول الله على ملء بطنى ؛ فأشهد اذا غابوا ، وأحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتى من الأنصار عمل أموالهم . وكنت امرءاً مسكينا من مساكين الصفة أعى حين ينسون . وقد قال رسول الله «ص» فى حديث يحدثه :

« قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه (وأنذِرْ عَشيرتك الأقربين) فقال: يامعشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لاأُغني عنكم من الله شيئا

مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله ﴿ قام رسول الله ﷺ ﴾ فى الصحيح من رواية ابن عباس « صعد رسول الله ﷺ على للصفا »

قوله ﴿حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) ﴾ عشيرة الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته. لأنهم أحق الناس ببرِّك و إحسانك الدينى والدنيوى؛ كما قال تعالى (٦٦:٥ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) وقد أمره الله تعالى أيضا بالنذارة العامة، كما قال تعالى (٣٦:٦ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) (١٤:٤٤ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب)

قوله ﴿ يامعشر قريش ﴾ المعشر الجماعة.

قوله ﴿ أو كلمة نحوها ﴾ هو بنصب « كلمة » عطف على ماقبله

قوله ﴿ اشتروا أنفسكم ﴾ أى بتوحيد الله و إخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه. فان ذلك هو الذى ينجى من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب، فان ذلك غير نافع عند رب الأرباب

قوله ﴿ لا أغنى عنكم من الله شيئا[1] ﴾ فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين،

= انه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمع اليه ثوبه إلا وعى ما أقول. فبسطت نمرة على حتى اذا قضى رسول الله مقالته جمعتها الى صدرى. فما نسيت من مقالة رسول الله (ص) تلك من شىء »

(١) فى قرة العيون: هذا هو معنى ماتقدم من أنه تعالى هو المتصرف فى خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته فى خلقه وعلمه بهم، والعبد لا يعلم إلا ماعلمه الله، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا باخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ماسواه. كما قال تعالى (٥:٧٢ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) والنبى «ص» فى هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا، وبلغهم وأعذر اليهم. فأنذر قريشاً ببطونها وقبائل العرب فى مواسمها؛ وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس اليه، وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ماجاء به من التوحيد وترك الشرك به. وسائر شرائع الاسلام وعباداته.

يا عباس بنَ عبد المطلب ، لا أُغنى عنك من الله شيئا . يا صفيةَ عمةَ رسول الله ﷺ لا أُغنى عنكِ من الله شيئا . ويا فاطمة بنتَ محمد سلينى من مالى ماشئتِ : لا أُغنى عنكِ من الله شيئا »

ورغب اليهم ليشفعوا له وينفعوه ، أو يدفعوا عنه ، فان ذلك هو الشرك الذى حرمه الله تعالى ، وأقام نبيه ﷺ بالانذار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين فى قوله (٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) (١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فأبطل الله ذلك ونزّه نفسه عن هذا الشرك ، وسيأتى تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفى صحيح البخارى « يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا »

قوله ﴿ يا عباس بن عبد المطلب ﴾ بنصب « ابن » ويجوز فى « عباس » الرفع والنصب . وكذا فى قوله « ياصفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت محمد »

قوله ﴿ سلينى من مالى ماشئت ﴾[1] . بيّن رسول الله ﷺ أنه لا ينجى من عذاب الله إلا الايمان والعمل الصالح

وفيه : أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا مايقدر عليه من أمور الدنيا . وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ،

---

(١) فى قرة العيون : لأن هذا هو الذى يقدر عليه «ص» وما كان أمره الى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما فى هذا الحديث ، ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله [ص] ويحميه ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله وقال [ص] «لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فأنزل الله تعالى (٩ : ١١٣ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله الا الله ، فلم ينفعه حمايته النبى «ص» من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبى «ص» على الحق بدون البراءة من الشرك ، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالا فى الدنيا والآخرة ، والشفاعة لاتكون الا لأهل الاخلاص خاصة ، كما قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) والآيات فى هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم . وسيأتى فى باب الشفاعة ان شاء الله تعالى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين (١)

الثانية : قصة أُحد

الثالثة : قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون فى الصلاة

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء مافعلها غالب الكفار ، منها شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله . ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم

السادسة : أنزل الله عليه فى ذلك (ليس لك من الأمر شىء)

السابعة : قوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فآمنوا

فان ماعند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد ، والاخلاص له بماشرعه ورضيه لعباده ان يتقربوا اليه به ، فاذا كان لاينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى . وفى قصة عمه أبى طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه اليهم بالرغبات والرهبات ، وهم عاجزون لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فضلا عن غيرهم ـ يتبين لك أنهم ليسوا على شىء (٧: ٣٠ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله و يحسبون أنهم مهتدون) أظهر لهم الشيطان الشرك فى قالب محبة الصالحين ، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم فى الدين ، ومتابعتهم فى طاعة رب العالمين ، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكا بالله ، وعبادة لغير الله ، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده ، كما قال تعالى (٥: ١١٦ و إذ قال الله ياعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ، مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك

---

[١] يعنى قوله تعالى (لايستطيعون لهم نصرا) وقوله (مايملكون من قطمير) لأنه اذا كان النبى [ص] وهو سيد ولد آدم لايغنى عن قرابته شيئا . فغيره أولى أن يعجز عن ضر أو نفع لنفسه أو لغيره

الثامنة : القنوت فى النوازل

التاسعة : تسمية المدعو عليهم فى الصلاة بأسمأهم وأسماء آبأهم

العاشرة : لعن المعيّن فى القنوت

الحادية عشرة : قصته ﷺ لما أُنزل عليه (وأنذِر عشيرتك الأقربين)

الثانية عشرة : جِده ﷺ بحيث فعل ما نُسبَ بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب « لا أُغنى عنك من الله شيئا » حتى قال « يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنكِ من الله شيئا » فاذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لايغنى شيئا عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الانسان أنه ﷺ لايقول إلا الحق ، ثم

أنت علام الغيوب ١١٧ ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به أنِ اعبدوا الله ربى وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً مادمت فيهم ؛ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد)

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال (ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مُقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم ؛ وأن الله عز وجل المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم اهـ

قلت : ففى هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله من توحيده الذى هو دينهم الذى اتفقوا عليه ودعوا الناس اليه ؛ وفارقوهم فيه إلا من آمن ؛ فكيف يقال لمن دان بدينهم ، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقّصهم بهذا التوحيد الذى أطاع به ربه ، واتبع فيه رسله عليهم السلام ، ونزه به ربه عن الشرك الذى هو هضم للربوبية ، وتنقّص للإلهية وسوء ظن برب العالمين ؟.

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم فى الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن

نظر فيما وقع فى قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين

باب

قول الله تعالى (٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الحقَّ . وهو العلىُّ الكبيرُ)

يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به ، ويبغضوه ويعادوه فى ربهم ومعبودهم (٦ : ١٠٩ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهدا كم أجمعين)

قوله : باب ﴿ قول الله تعالى (٣٤:٢٣ حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربُّكم ؟ قالوا الحق وهو العلىُّ الكبير) (١) ﴾

---

(١) فى قرة العيون : وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة

(الأول) أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله والذى لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض لا ينفع ولا يضر، فالله تعالى هو الذى يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده

(الثانى) قوله (وما لهم فيهما من شرك) أى فى السموات والأرض، أى وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض

(الثالث) قوله (وما له منهم من ظهير) والظهير المعين؛ فليس لله معين من خلقه، بل هو الذى يعينهم على ماينفعهم لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم الى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم .

(الرابع) قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا يشفع عنده أحد الا باذنه . وأخبر تعالى ان من اتخذ شفيعاً من دونه حرم شفاعة الشفعاء ، قال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى فى حقهم « سبحانه وتعالى عما يشركون» والمشرك منفية الشفاعة فى حقه كما قال تعالى (٧٤:٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال (٦ : ٩٤ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وذلك ان متخذ الشفيع لابد أن يرغب اليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه وهذه من أنواع العبادة التى لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذى ينافى الاخلاص

قوله ﴿ حتى اذا فزِّع عن قلوبهم ﴾ أى زال الفزع عنها . قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذى فُزِّع عن قلوبهم : الملائكةُ . قالوا : وإنما فزّع عن قلوبهم من غَشْية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحى [١] .

وقال ابن عطية : فى الكلام حذف يدل عليه الظاهر . كأنه قال : ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم ، بل هم عَبَدةٌ مسلمون لله أبداً ؛ يعنى منقادون ، حتى اذا فزع عن قلوبهم . والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذى لا مِرْية فيه ؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار

وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله (حتى اذا فزع عن قلوبهم) انما هى فى الملائكة اذا سمعت الوحى الى جبريل يأمره الله به سمعت كَجرِّ سلسلة الحديد على الصَّفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة . قال : وبهذا المعنى ـ مِنْ ذِكْر الملائكة فى صدر الآية ـ تَتَّسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار اليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها [٢]

قوله ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ ﴾ ولم يقولوا ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقا لقالوا : ماذا خلق ؟ . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

ومثله الحديث « ماذا قال ربنا ياجبريل » وأمثال هذا فى الكتاب والسنة كثير

قوله ﴿ قالوا الحق ﴾ أى قال الله الحق . وذلك لأنهم اذا سمعوا كلام الله صعقوا ثم اذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

---

(١) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق ، وساق بسنده حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى الآتى بعد صفحة

وقد قال البخارى فى تفسير سورة الحجر عن على بن عبد الله . قلت لسفيان : ان انسانا روى عنك عن عمرو عن عكرمة عن أبى هريرة أنه قرأ « فرغ » بضم الفاء وبالراء المثقلة المهملة وبالغين المعجمة . فقال سفيان : هكذا قرأ عمرو يعنى ابن دينار . فلا أدرى سمعه هكذا أم لا ؟ قال الحافظ ؛ وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد . والقراءة المشهورة بالزين والعين المهملة . وقرأها ابن عامر مبنياً للفاعل . ومعناه بالزاى والعين المهملة : أدهش الفزع عنهم . ومعنى التى بالراء والغين المعجمة : ذهب عن قلوبهم ماحل فيها

[٢] قال أبو حيان : ولهذا اضطرب المفسرون فى تفسيرها .

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « إذا قضى الله الأمرَ في السماء

قوله ﴿وهو العلى الكبير﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، كما قال عبد الله بن المبارك - لمّا قيل له: بما نعرف ربنا؟ قال « بأنه على عرشه بائن من خلقه» تمسكا منه بالقرآن لقوله تعالى(٢٠:٥ الرحمن على العرش استوى) (٢٥:٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن) في سبعة مواضع من القرآن (٧:٥٣ و ١٠:٣ و١٤:٢ و٣٢:٤ و ٥٧:٤)

قوله ﴿ الكبير ﴾ أى الذى لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى

قوله ﴿ في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « اذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صَفوان، يَنْفذهم ذلك، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقّ وهو العلى الكبير، فيسمعها مُسترِق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض. وصفه سفيان بكفه فحَرَفها وبَدّدَ بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » ﴾

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أى صحيح البخارى [1]

قوله ﴿اذا قضى الله الأمر في السماء﴾ أى اذا تكلم الله بالأمر الذى يوحيه الى جبريل بما أراده، كما صرح به في الحديث الآتى، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود «اذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات صَلْصَلة كجرِّ السلسلة على الصّفوان»

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: « لما أوحى الجبار الى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى. فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله. فقالوا: الحق. وعلموا أن الله لايقول إلا حقا »

[١] رواه في تفسير قوله « إلا من استرق السمع » من سورة الحجر، وفي تفسير سورة سبأ وغير هذين الموضعين. حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة. ورواه مسلم وأبو داود نحو هذا

ضَربت الملائكة بأجنحتها خَضَعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان يَنفُذُهم ذلك، حتى إذا فُزِّع عَن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحقَّ، وهو العلىُّ الكبير، فيسمعها مُسترق السمع ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووَصفه سفيان بكفه، فحَرَفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته

قوله ﴿ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ﴾ أى لقول الله تعالى. قال الحافظ: خضعاناً بفتحتين من الخضوع. وفى رواية بضم أوله وسكون ثانيه. وهو مصدر بمعنى خاضعين

قوله ﴿ كأنه سلسلة على صفوان ﴾ أى كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان وهو الحجر الأملس.

قوله ﴿ ينفذهم ذلك ﴾ هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة «ذلك» أى القول، والضمير فى «ينفذهم» للملائكة، أى ينفذ ذلك القولُ الملائكة أى يخلص ذلك القول ويمضى فيهم حتى يفزعوا منه. وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس «فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا» وعند أبى داود وغيره مرفوعا «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل» الحديث

قوله (حتى اذا فزع عن قلوبهم) تقدم معناه

قوله ﴿ قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق ﴾ أى قالوا: قال الله الحقّ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق

قوله ﴿ فيسمعها مسترق السمع ﴾ أى يسمع الكلمة التى قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضا. وفى صحيح البخارى عن عائشة مرفوعا «إن الملائكة تنزل فى العنان — وهو السحاب — فتذكر الأمر قُضِىَ فى السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه الى الكُهّان»

قوله ﴿ ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه ﴾ أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض. وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ثم المكى، ثقة حافظ، فقيه، إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة

قوله ﴿ فحرّفها ﴾ بحاء مهملة وراء مشددة وفاء. قوله ﴿ وبَدّدَ ﴾ أى فرق بين أصابعه.

قوله ﴿ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ﴾ أى يسمع الفوقانى الكلمة فيلقيها إلى آخر

ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال:

تحته، ثم يلقيها إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله ﴿ فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ﴾ الشهاب هو النجم الذى يرمى به؛ أى ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ، وهذا يدل على أن الرمى بالشهب قبل المبعث. لما روى أحمد وغيره - والسياق له فى المسند من طريق معمر - : أنبأنا الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس قال «كان رسول الله ﷺ جالساً فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق: من الأنصار - قال: فرُمى بنجم عظيم، فاستنار، قال: ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية؟ قال: كنا نقول: لعله يولد عظيم أو يموت عظيم؛ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية؟ قال: نعم؛ ولكن غلظت حين بعث النبى ﷺ قال: فانها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش؛ ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا. ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء، وتخْطِفُ الجنُّ السمعَ فيرمون؛ فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون»(١). قال عبد الله: قال أبى: قال عبد الرزاق «ويخطف الجن ويرمون» وفى رواية له «لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون»

قوله ﴿ فيكذب معها مائة كذبة ﴾ أى الكاهن أو الساحر.

و «كذبة» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة

«١» قال الحافظ ابن كثير: وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعقل بن عبد الله، أربعتهم عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار.

أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء »(١)

وعن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى

قوله (فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟) هكذا فى نسخة بخط المصنف ، كالذى فى صحيح البخارى سواء

قال المصنف ﴿ وفيه قبول النفوس للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟ ﴾

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله ، فكثيراً مايلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى (٢:٤٢ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون)

وفى هذه الأحاديث وما بعدها وما فى معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على مايليق بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة ، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً ، خلافا للأشاعرة والجهمية ، ونُفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى مازخرفه أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله ﴿ وعن النوّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رَجْفةٌ — أو قال رعدة — شديدة خوفا من الله عز وجل . فاذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرّوا لله سجّداً فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريلُ ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا ياجبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلى الكبير . فيقولون

---

(١) يعنى أن قول الكاهن والساحر والعراف قد يصادف بعض الواقع ؛ فيغتر الجاهلون المخرفون بذلك ؛ ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كذبه الذى لا يعد وهو مبنى على افتراء الكذب على الله ودعوى معرفة الغيب الذى لا يعلمه إلا الله . وسيأتى بيانه فى باب الكهان .

كلهم مثل ماقال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل »[١]

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره .

النواس بن سمعان ، بكسر السين ، بن خالد الكلابي ، ويقال: الأنصاري صحابي . ويقال: إن أباه صحابي أيضاً

قوله (إذا أراد الله أن يوحى بالأمر) إلى آخره . فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة على النفاة . لقولهم : لم يزل الله متكلما إذا شاء

قوله (أخذت السموات منه رجفة) السموات مفعول مقدم ، والفاعل « رجفة » أي أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أي ارتجفت . وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى ، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة . قال « إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال ، وخرت الملائكة كلهم سجداً »

---

[١] في قرة العيون: قوله «أن يوحى بالأمر» فيه بيان معنى ماتقدم في الحديث قبله من قوله «اذا قضى الله الأمر» قوله «تكلم بالوحي» فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوحيه الى جبريل عليه السلام ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم ان القرآن عبارة عن كلام الله .

قوله « أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله عز وجل » في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو . قوله « فاذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً » هيبة وتعظيما لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس . قوله « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل » لأنه ملك الوحي عليه السلام . قوله « فيكلمه الله من وحيه بما أراد » فيه التصريح بأنه تعالى يوحي الى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث ، قوله « ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها » وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى وتقدس . قوله «ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول [قال الحق وهو العلى الكبير] فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل ؛ فينتهي جبريل بالوحي الى حيث أمره الله عز وجل » وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول ، وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتابه وأثبته رسوله (ص) في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على مايليق بجلال الله وعظمته ـ تشبيهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان .

- أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله عز وجل . فاذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخرّوا لله سُجداً ، فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العليُّ الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل

قوله (أو قال رعدة شديدة) شك من الراوى . هل قال النبي ﷺ رجفة ، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما

قوله (خوفا من الله عز وجل) وهذا ظاهر فى أن السموات تخاف الله ، بما يجعل تعالى فيها من الاحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى (١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنه كان حليما غفورا) وقال تعالى (١٩ : ٩٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا) وقال تعالى (٢ : ٧٤ وإن منها لما يهبط من خشية الله) وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلا بهذه الآيات وما فى معناها .

وفى البخارى عن ابن مسعود قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » وفى حديث أبى ذر « أن النبي ﷺ أخذ فى يده حصيات ؛ فسُمع لهن تسبيح - الحديث » وفى الصحيح قصة حنين الجذع الذى كان يخطب عليه النبى ﷺ قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير

قوله ﴿ صُعقوا وخروا لله سجداً ﴾ الصعوق هو الغشى ؛ ومعه السجود

قوله ﴿ فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل ﴾ بنصب « أول » خبر يكون مقدم على اسمها . ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبدالله ؛ كما روى ابن جرير وغيره عن على بن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل عُبيد الله ؛ وإسرافيل عبد الرحمن . وكل شيء رجع إلى « ايل » فهو مُعبّد لله عز وجل . وفيه فضيلة جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى (٨١ : ١٩ إنه لقول رسول كريم ٢٠ ذى قوة عند ذى العرش مكين ٢١ مطاع ثم أمين)

فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل »

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية

الثانية : مافيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلَّق على الصالحين،

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إن هذا القرآن لَتبليغ رسول كريم . وقال أبو صالح فى الآية[1] « جبريل يدخل فى سبعين حجابا من نور بغير إذن »

ولأحمد باسناد صحيح عن ابن مسعود قال « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ؛ كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » فاذا كان هذا عِظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجل وأكبر . فكيف يسوّى به غيره فى العبادة : دعاء وخوفا ورجاء وتوكلا وغير ذلك من العبادات التى لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى ، وقد قال تعالى (٢٢ : ٢٦ بل عباد مكرمون ٢٧ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٢٨ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ٢٩ ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين)

قوله (ثم ينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض) وهذا تمام الحديث والآيات المذكورة فى هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ، فان الملك العظيم الذى تُصعق الأملاك من كلامه خوفا منه ومهابة، وترجف منه المخلوقات؛ الكامل فى ذاته وصفاته ؛ وعلمه وقدرته وملكه وعزه ، وغناه عن جميع خلقه ؛ وافتقارهم جميعاً اليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته ، لا يجوز شرعا ولا عقلا أن يجعل له شريك من خلقه فى عبادته التى هى حقه عليهم ، فكيف يجعل المربوب ربا ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبت عقول المشركين ؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى (١٩ : ٩٣ إنْ كلُّ مَنْ فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ٩٤

(١) أى فى قوله تعالى (ذى قوة عند ذى العرش مكين) كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة

وهى الآية التى قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب

الثالثة : تفسير قوله (قالوا الحق وهو العلى الكبير)

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك

الخامسة : أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله « قال كذا وكذا »

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم، لأنهم يسألونه

الثامنة : أن الغَشْى يعم أهل السموات كلهم

التاسعة : ارتجاف السموات بكلام الله

العاشرة : أن جبرائيل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره الله

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضا

الثالثة عشرة : إرسال الشهاب

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها فى أُذن وليِّه من الإنس قبل أن يدركه

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة ؟

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها.

لقد أحصاهم وعَدَّهم عداً ٩٥ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) فاذا كان الجميع عبيداً فلمَ يعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسله

العشرون : إثبات الصفات ، خلافا للأشعرية المعطلة

الحادية والعشرون : أن تلك الرجفة والغشى خوفا من الله عز وجل

الثانية والعشرون ، أنهم يخرّون لله سُجدا

باب الشفاعة (١)

من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك وتنهاهم عن عبادة ماسوى الله . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

قوله ﴿ باب الشفاعة ﴾ أى بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

---

(١) فى قرة العيون : الشفاعة نوعان . شفاعة منفية فى القرآن ؛ وهى الشفاعة للكافر والمشرك ، قال تعالى (٢:٢٥٤ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (٧٤:٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال (٢:٤٨ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون) ونحو هذه الآيات كقوله (١٠:١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله . قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض) يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله انه لايعلم انهم يشفعون له بذلك ومالا يعلمه لا وجود له فنفى وقوع هذه الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٣٩:٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقربه الى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته . لأنه جعل لله شريكا يرغب اليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم .

« النوع الثانى » الشفاعة التى أثبتها القرآن وهى خالصة لأهل الاخلاص ؛ وقيدها تعالى بأمرين .

الاول : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه) وإذنه تعالى لايصدر الا اذا رحم عبده الموحد المذنب ؛ فاذا رحمه الله تعالى أذن للشافع أن يشفع له

الأمر الثانى : رضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه . كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » فالاذن بالشفاعة له بعد الرضاء ؛ كما فى هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد .

وقول الله عز وجل (٦ : ٥١ وأنذِر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) وقوله (٣٩ : ٤٤ قل لله الشفاعةُ جميعاً)

قوله ﴿ وقول الله عز وجل (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) ﴾ الإنذار : هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها

قوله ﴿ به ﴾ قال ابن عباس « بالقرآن (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون »

وعن الفُضَيل بن عِياض « ليس كلُّ خلقه عاتَب ، إنما عاتب الذين يعقلون ؛ فقال : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية »

قوله (ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع) قال الزجاج : موضع «ليس» نصب على الحال ، كأنه قال : متخلِّين من كل ولىّ وشفيع . والعامل فيه « يخافون »

قوله (لعلهم يتقون) أى فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة(١)

وقوله (٣٩ : ٤٤ قل لله الشفاعة جميعا(٢)) وقبلها (أمِ اتَّخذوا من دونِ الله شفعاء ؛ قل أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟) وهذه كقوله تعالى (١٠ : ١٨ و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؛ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) فبين تعالى فى هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع ، وأن اتخاذهم شفعاء شركٌ ؛ يتنزه الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى (٤٦ : ٢٨ فلولا نَصَرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم، وذلك إفْكُهم وما كانوا يفترون) فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألههم . أن ذلك منهم إفك وافتراء .

---

١) فى قرة العيون : وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم لأنه ينافى الاخلاص الذى لا يقبل الله من أحد عملا بدونه .

٢) فى قرة العيون : دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه لانها لاتقع الا لأهل التوحيد باذنه سبحانه وتعالى كما قال تعالى فى الآية السابقة ، وقال تعالى (١٠ : ٣ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم) فلا شفاعة الا لمن هى له سبحانه ، ولا تقع إلا ممن أذن له فيها . فتدبر هذه الآيات العظيمة فى اتخاذ الشفعاء

وقوله (٢ : ٢٥٥ مَن ذا الذى يشفعُ عنده إلا بإذنه)

وقوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) أى هو مالكها ؛ فليس لمن تُطلب منه شيء منها ، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل مَن سواه ، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله

قال البيضاوى : لعله ردّ لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون

وقوله تعالى (له ملك السموات والأرض) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ، لأنه مالك الملك ، فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة ، فاذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها[1] (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

قال ابن جرير : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثاننا[2] هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . قال الله تعالى (له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون)

قال ﴿ وقوله ٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التى نفاها القرآن هى التى تُطلب من غير الله . وفى هذه الآية بيان أن الشفاعة إنما تقع فى الدار الآخرة باذنه ، كما قال تعالى (٢٠ : ١٠٩ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له الرحمن ورضى له قولا) فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع ؛ ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أُريد به وجهه ، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك فى ذلك ، كما دل على ذلك الحديث الصحيح . وسيأتى ذلك مقرراً أيضاً فى كلام شيخ الاسلام رحمه الله.

---

(١) فى قرة العيون : فليس لأحد فى ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده ، والاسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالاخلاص كما فى المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله (ص) « فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال : وما الاسلام؟ قال : أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك الى الله ؛ وأن تصلى الصلاة المكتوبة ؛ وأن تؤدى الزكاة المفروضة » والآيات فى بيان الاخلاص كثيرة ، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه فى جميع الأعمال كلها إلا لله وحده . كما قال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) فأمره تعالى باخلاص الدعاء له وحده وأخبر أنه الدين الذى تصح معه الأعمال وتقبل . قال شيخ الاسلام : الاخلاص محبة الله وارادة وجهه

«٢» الأولى «ما نعبد أولياءنا» ولم أجد هذه الجملة كلها فى تفسير ابن جرير

وقوله (٥٣ :٥٦ وكم مِن مَلَك فى السموات لا تُغنى شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأذن اللهُ لمن يشاء ويرضى)

وقوله (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شِرك وما له منهم من ظهير ٢٣ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له)

وقوله ﴿ (٢٦:٥٣ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ﴾ قال ابن كثير رحمه الله (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه) (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فاذا كان هـذا فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ؛ وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ؛ وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

قال ﴿ وقوله تعالى (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من[1] شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ﴾

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام على هـذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك انما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هـذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فان لم يكن مالكا كان

«١» فى قرة العيون: فاذا كان هذا فى حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله (٢١: ٢٦ ـ ٢٩ بل عباد مكرمون) الآيات . فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة فى القرآن التى هى ملك لله لا يملكها غيره . وقيد حصولها بقيدين كما فى هـذه الآية وغيرها كما تقدم قريبا : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) والثانى : رضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين . فاختصت الشفاعة بأهل الاخلاص خاصة، وأن اتخاذ الشفعاء بلا إذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات

شريكا للمالك ، فان لم يكن شريكا له كان معيناً له وظهيرا ، فان لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً ، متنقلا من الأعلى الى الأدنى ؛ فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهى الشفاعة باذنه . فكفى بهذه الآية نوراً و برهانا وتجريداً للتوحيد ؛ وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لايشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ، و يظنونها فى نوع وقوم قد خلوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثاً ، فهذا هو الذى يحول بين القلب و بين فهم القرآن . ولعمر الله ؛ إن كان أُولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك .

ثم قال : ومن أنواعه - أى الشرك - طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم . فان الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده . فانه لايقدر أن يشفع له عند الله إلا باذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ؛ وانما السبب كمال التوحيد ، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان فى حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله الى التنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمروهم به ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم ؛ وما نجى من شَرَك هذا الشرك الاكبر إلا من جَرّد توحيده لله ، وعادى المشركين فى الله ، وتقرب بمقتهم الى الله ، واتخذ الله وحده وليّه و إلهه ومعبوده . فجرد حبه لله وخوفه لله ، ورجائه لله ؛ وذُلّه لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجائه إلى الله ، واستغاثته بالله ، وقصده لله ، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته ، إذا سأل سأل الله ، واذا ستعان استعان بالله ، واذا عمل عمل لله . فهو لله و بالله ومع الله . انتهى كلامه رحمه الله تعالى

وهذا الذى ذكره هذا الامام فى معنى هذه الآية هو حقيقة دين الاسلام ؛ كما قال تعالى (٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا) .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون غيره مِلْك أو قِسطٌ منه ، أو يكون عوناً لله . ولم يبقَ إلا الشفاعة . فبيَّن أنها لاتنفعُ إلا لمن أذِنَ له الربُّ ، كما قال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التى يَظنُّها المشركون هى مُنْتَفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآنُ وأخبر النبىُّ ﷺ «أنه يأتى فيسْجُد لربِّه ويَحْمَدُه» لايبدأ بالشفاعة أولا . ثم يقال له «ارفع رأسك وقُلْ يُسمعْ وسَلْ تُعْطَ ، واشفع تشفع»

وقال أبو هريرة «من أسعدُ الناس بشفاعتك ؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعةُ لأهل الاخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله

وحقيقته : أنَّ الله سبحانه هو الذى يتفضَّل على أهل الاخلاص فيغفر لهم بواسطةِ دعاء مَنْ أذِنَ له أن يشفع ليُكرِمَه وينالَ المقامَ المحمود

فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذْنه فى مواضع . وقد بين النبى ﷺ أنها لاتكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص. اهـ كلامه

قوله ﴿ قال أبو العباس ﴾ هذه كنية شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى إمام المسلمين رحمه الله

﴿ نفى الله عما سواه كل مايتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ؛ أو يكون عوناً لله . فلم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لاتنفع إلا لمن أذن له الرب ؛ كما قال تعالى (٢٨:٢١ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبى ﷺ «أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده ؛ لا يبدأ بالشفاعة أولا . ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تُعطَه، واشفع تشفع» . وقال له أبو هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال: من قال لا إلٰه إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعة لأهل الاخلاص باذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقتها : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتفضل على أهل الاخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات

الثانية : صفة الشفاعة المنفية

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة

التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة باذنه فى مواضع ، وقد بين النبى ﷺ أنها لاتكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص » انتهى ﴾

قوله ﴿ وقال أبو هريرة ﴾ إلى آخره . هذا الحديث رواه البخارى والنسائى عن أبى هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه « وشفاعتى لمن قال لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق قلبُه لسانَه ، ولسانه قلبه » وشاهده فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وانى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله من مات لايشرك بالله شيئا »

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الاسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما فى هذا الباب من الآيات ، وهو كاف واف بتحقيق مع الايجاز . والله أعلم

وقد عرّف الاخلاص بتعريف حسن فقال : الاخلاص محبة الله وحده و إرادة وجهه . اه

وقال ابن القيم رحمه الله فى معنى حديث أبى هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبى ﷺ مافى زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له و ينفعه عند الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ، ولم يعلموا أنه لايشفع عنده أحد إلا بإذنه فى الشفاعة ، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله ، كما قال فى الفصل الأول (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) وفى الفصل الثانى (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقى فصل ثالث ، وهو أنه لايرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقَلها ووعاها . اه

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع :

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهى المقام المحمود

الخامسة : صفة مايفعله ﷺ أنه لايبدأ بالشفاعة، بل يسجد فاذا أُذن له شَفع

السادسة : مَنْ أسعدُ الناس بها

السابعة : أنها لاتكون لمن أشركَ بالله

الثامنة : بيان حقيقتها

باب

قول الله تعالى (٢٨ : ٢٦ إنك لاتَهدِى مَن أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

(الأول) الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام ، حتى تنتهى اليه ﷺ فيقول « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموقف . وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد

(الثانى) شفاعته لأهل الجنة فى دخولها . وقد ذكرها أبوهريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه

(الثالث) شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها

(الرابع) شفاعته فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم . والأحاديث بها متواترة عن النبى ﷺ . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، و بدّعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال

(الخامس) شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، وهذه مما لم ينازع فيها أحد . وكلها مختصة بأهل الاخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعا، كما قال تعالى (٦:٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع)

(السادس) شفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه . وهذه خاصة بأبى طالب وحده .

قوله : باب ﴿ قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦ إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) ﴾

سبب نزول هـذه الآية ، موت أبى طالب على ملة عبـد المطلب ، كما سيأتى بيان ذلك فى حديث الباب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لرسوله: إنك يامحمد لاتهدى من أحببت، أى ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغُ والله يهدى من يشاء . وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى (٢:٢٧٢ ليس عليك هُداهم ولٰكنّ الله يهدى من يشاء) وقال تعالى (١٢:١٠٣ وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين)

قلت : والمنفىُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول ، فان أمر ذلك الى الله ، وهو القـادر عليه . وأما الهداية المذكورة فى قول الله تعالى (٤٢:٥٢ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فانها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبيّن عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه .

وقوله ﴿ فى الصحيح عن ابن المسيِّب عن أبيه قال «لما حضرَت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبى أُمية وأبو جهل، فقال له : ياعم قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عنـد الله. فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبى ﷺ ، فأعادا . فكان آخرَ ماقال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إلٰه إلا الله . فقال النبى ﷺ لأستغفرن لك مالم أُنهَ عنك . فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وأنزل الله فى أبى طالب (إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء) ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ أى فى الصحيحين . وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حَزْن ابن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين . اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل . وقال ابن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .

وأبوه المسيب صحابى ، بقى الى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وكذلك جده حَزْن ، صحابى استُشْهِدَ باليمامة .

قوله ﴿ لما حضرَت أبا طالب الوفاة ﴾ أى علاماتها ومقدماتها

جاءه رسولُ الله ﷺ، وعنده عبدُ الله بن أبى أُميَّة وأبو جهل. فقال له: ياعمِّ قُلْ لا إلـه إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عندالله. فقالا له: أترغبُ عن مِـلّةِ عبدالمطلب؟

قوله ﴿ جاءه رسول الله ﷺ ﴾ يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين. فانهما من بنى مخزوم، وهو أيضاً مخزومى، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارا؛ فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران.

قوله ﴿ ياعمّ ﴾ منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها؛ حذفت الياء هنا، و بقيت الكسرة دليلا عليها.

قوله ﴿ قل لاإله إلا الله ﴾ أمره أن يقولها لعلم أبى طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله و إخلاص العبادة له وحده، فان من قالها عن علم و يقين فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل فى الاسلام. لأنهم يعلمون مادلت عليه، وفى ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك و برىء منه. ولما هاجر النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها، لكن لايعتقدونها، لما فى قلوبهم من العداوة والشك والريب؛ فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن؛ وفيها اليهود؛ وقد أقرّهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور فى كتب الحديث والسير

قوله ﴿ كلمة ﴾ قال القرطبى: بالنصب على أنه بدل من «لا إله إلا الله» و يجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله ﴿ أحاجّ لك بها عند الله ﴾ هو بتشديد الجيم من المحاجة، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها فى تلك الحال. وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم. لأنه لو قالها فى تلك الحال معتقداً مادلت عليه مطابقة من النفى والاثبات لنفعته.

قوله ﴿ فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ ﴾ ذكّراه الحجة الملعونة التى يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى (٢٠:٥١ فما بالُ القرون الأُولى؟) وكقوله تعالى (٤٣: ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقْتدون)

فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا . فكان آخر ماقال : هو على مِلّةِ عبد المطلب .

قوله ﴿ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا ﴾(١) فيه معرفتهما لمعنى « لا إلٰه إلا الله » لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرىء من ملة عبد المطلب . فان ملة عبد المطلب هى الشرك بالله فى إلٰهيته . وأما الربوبية فند أقروا بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبْرَهَة « أنا ربُّ الابل ، والبيت له رب يمنعه منك » وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه « قل لا إله إلا الله » استكباراً عن العمل بمدلولها . كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أُولئك المشركين (٣٧: ٣٥ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ٣٦ و يقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فرد عليهم بقوله (٣٧: ٣٧ بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فبين تعالى أن استكبارهم عن قول « لا إله إلا الله » لدلالتها على نفى عبادتهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله . فان دلالة هذه الكلمة على نفى ذلك دلالة تضمن ، ودلالتها عليه وعلى الاخلاص دلالة مطابقة

ومن حكمة الرب تعالى فى عدم هداية أبى طالب إلى الاسلام ليبين لعباده أن ذلك اليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي ﷺ - الذى هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ، ونحو ذلك شىء : لكان أحقَّ الناس بذلك وأولاهم به عمه الذى كان يحوطه و يحميه و ينصره و يؤويه ، فسبحان من بَهَرتْ حكمتُه العقول ، وأرشد العباد إلى مايدلُّهم على معرفته وتوحيده ، و إخلاص العمل له وتجريده .

قوله ﴿ فكان آخر ماقال ﴾ الأحسن فيه الرفع على أنه اسم « كان » وجملة « هو » وما بعدها الخبر .

قوله ﴿ هو على ملة عبد المطلب ﴾ الظاهر أن أبا طالب قال « أنا » فغيره الراوى استقباحا للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ

---

(١) فى قرة العيون : فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم . ففيه معنى قول الناظم :

اذا ماصحبت القوم فاصحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وأبى أن يقول لا إلـٰه إلا الله . فقال النبي ﷺ « لأستغفرنّ لك مالم أُنْهَ عنك »
فأنزل الله عز وجل (٩: ١١٣ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يَستغفِروا للمشركين)
وأنزلَ الله فى أبى طالب (إنك لاتهدِي من أحببتَ ولكنّ الله يهدى من يشاء) » (١)

قوله ﴿ وأبى أن يقول لا إله إلا الله ﴾ قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ، ومضرة أصحاب السوء على الانسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف ﴾

أى إذا زاد على المشروع ، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع اليها عند التنازع

قوله ﴿ فقال النبى ﷺ لأستغفرنّ لك مالم أُنْهَ عنك ﴾ قال النووى: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف . وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبى طالب وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوما .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب بثمانية أيام

قوله ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولى قربى ـ الآية ﴾ أى ماينبغى لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهى ، والظاهر أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب . فان الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب فى قوله « فأنزل الله » بعد قوله « لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك » يفيد ذلك .

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى فى القلب وتحويله من الضلال والكفر والفسوق الى الهدى والايمان والطاعة ، وتسديده على صراط الله المستقيم وتثبيته عليه ، وهذه مختصة بالله تعالى ، لأنه هو الذى يقلب القلوب ويصرفها ، ويهدى من يشاء ويضل من يشاء . ومن يهدى الله فما له من مضل . ومن يضلل فما له من هاد . وهى المنفية فى الآية عن النبى (ص) وعن غيره من باب أولى . فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم ، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم مافيها ويصرفها على مايريد ـ فهو كاذب ضال مضل . ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله ؛ وتطلق على العلم والدلالة والارشاد بالقرآن =

فيه مسائل :

الأولى: تفسير (إنكَ لاتهْدِي مَنْ أحبَبْتَ ولكنَّ الله يهدِي من يشاء)

الثانية : تفسير قوله (ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولَوْ كانوا أُولى قُرْبَى من بعد ماتبيَّنَ لهم أنهم أصحاب الجحيم)

الثالثة : وهي المسألة الكبيرة ، تفسير قوله « قل لاإلٰه إلا الله » بخلاف ماعليه مَنْ يَدَّعى العلم (١)

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسبابا أخر . فلا منافاة . لأن أسباب النزول قد تتعدد

قال الحافظ : أما نزول الآية الثانية فواضح فى قصة أبى طالب . وأما نزول الآية التى قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبى طالب بمدة ،

= ونحوه على طريق النجاة والسعادة ، وهذه يقدر عليها المخلوق وهى المثبتة للنبى (ص) فى قوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)

وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى صراط الله المستقيم . وأكثر الناس لايميز الفرق بين الهدايتين . فبعضهم يعتدى على الحدود وبعضهم يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . محتجاً بالآية (انك لا تهدى من أحببت . الخ) وهذا وذاك جهل وضلال .

(١) كثير من أدعياء العلم يجهلون «لاإله الاالله» فيحكمون على كل من تلفظ بها بالاسلام ولو كان مجاهراً بالكفر الصراح ، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى « لاإله الاالله » البراءة من عبادة غير الله ؛ واعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله فى العبادة ، يدل على ذلك قول الله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) وقد شهد النبى (ص) للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا اله الا الله . ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال «لوأدركتهم لقتلتهم قتل عاد » كما فى الصحيحين. ولو كان مجرد التلفظ بلااله الاالله كافياً ؛ ماوقعت الحرب والعداء بين الرسول (ص) وبين المشركين الذين كانوا يفهمون [لاإله الا الله] أكثر مما يفهمها أدعياء العلم فى هذا الزمن . ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون .

الرابعة : أن أبا جَهْل ومَنْ معه يعرفون مراد النبىّ ﷺ إذ قال للرجل « قل لاإلٰه إلا الله » فقبّح الله مَنْ أبو جهل أعلمُ منه بأصل الاسلام

الخامسة : جِدّه ﷺ ومُبالغته فى إسلام عمه

السادسة : الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه

السابعة : كونه ﷺ استغفر له فلم يُغْفَر له ، بل نُهِىَ عن ذلك

الثامنة : مَضَرَّة أصحاب السوء على الانسان

التاسعة : مَضرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر

العاشرة : استدلال الجاهلية بذلك

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم لأنه لو قالها لنفعته

الثانية عشرة : التأملُ فى كِبَر هذه الشبهة فى قلوب الضالين لأنّ فى القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته ﷺ وتكريره . فلأجلِ عَظمتها ووُضوحها عندهم اقتصروا عليها .

وهى عامة فى حقه وحق غيره ؛ يوضح ذلك مايأتى فى التفسير [1] ، فأنزل الله بعد ذلك (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ـ الآية) . ونزل فى أبى طالب (إنك لاتهدى من أحببت) كله ظاهر فى أنه مات على غير الاسلام . ويُضَعِّف ماذكره السُّهَيلى أنه روى فى بعض كتب المسعودى أنه أسلم ، لأن مثل ذلك لايعارض مافى الصحيح . انتهى

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى .

---

(١) ساق البخارى قصة موت أبى طالب فى كتاب الجنائز فى الباب الحادى والثمانين . ولم يتكلم عليه الحافظ فى الفتح ، بل حوله الى التفسير . وساقه فى تفسير سورة براءة ؛ فحول الحافظ تفصيل القول فيه على سورة القصص

باب

﴿ ماجاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين ﴾

وقول الله عز وجل ﴿ ٤ : ١٧١ ياأهلَ الكتاب لا تَغْلوا فى دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق ﴾

قوله ﴿ باب ماجاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين ﴾

قوله ﴿ تركهم ﴾ بالجر عطفاً على المضاف اليه . وأراد المصنف رحمه الله تعالى بيان مايؤُول اليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظم ذنب عُصى الله به ؛ وهو ينافى التوحيد الذى دلت عليه كلمة الاخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله

قوله ﴿ وقول الله عز وجل (٤: ١٧١ ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ الغلو هو الافراط فى التعظيم بالقول والاعتقاد ، أى لاترفعوا المخلوق عن منزلته التى أنزله الله فتنزلوه المنزلة التى لاتنبغى إلا لله . والخطاب ـ وإن كان لأهل الكتاب ـ فانه عام يتناول جميع الأمة ، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى فى عيسى ، واليهود فى العزير[1] كما قال تعالى (٥٧ : ١٦ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) ولهذا قال النبى ﷺ « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » ويأتى

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً ، وضاهأ النصارى فى شركهم ، وضاهأ اليهود فى تفريطهم . فان النصارى غلوْا فى عيسى عليه السلام ، واليهود عادوه وسبّوه وتنقصوه .

«١» فى قرة العيون : وقد وقع ذلك الشرك فى العبادة فى هذه الأمة نظما ونثراً كما فى كلام البوصيرى والبرعى وغيرهما ؛ وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادّة لله ولكتابه ولرسوله [ص] ؛ فأين ماوقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبى (ص) «أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا » فكره ذلك (ص) أشد الكراهة ؟ كما سيأتى فى الكلام على هذا الحديث ان شاء الله تعالى ، وقول القائل « ماشاء الله وشئت » ؛ فقال « أجعلتنى لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده »

في الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (٧١: ٢٣ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تذرُنَّ ودًّا ولا سُواعا ، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْراً) قال « هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قَوْم نُوحٍ .

فالنصارى أفرطوا ؛ واليهود فرطوا . وقال تعالى (٥: ٧٥ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام) ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى

قال شيخ الاسلام رحمه الله : ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى ، وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم . قال : وعلى رضى الله عنه حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة[1] فقذفهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم . لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق . وهو قول أكثر العلماء

قوله ﴿ فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (٧١ : ٢٣ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ؛ ولا تذرُنّ وَدّاً ولا سُواعا ولا يَغوث ويَعوق ونَسْرا) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أنِ انصِبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ؛ ولم تُعبد ؛ حتى إذا هلك أولئك ونُسى العلم عُبدت ﴾ قوله (فى الصحيح) أى صحيح البخارى

وهذا الأثر اختصره المصنف . ولفظ ما فى البخارى: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعدُ . أما « وَدٌّ » فكانت لكلب بدَومة الجندل. وأما « سُواع » فكانت لهذيل . وأما « يغوث » فكانت لمراد ثم لبنى غُطيف بالجُرف عند سبأ . وأما « يعوق » فكانت لهمدان . وأما « نسر » فكانت لحِمْيَر لآل ذى الكلاع : أسماء رجال صالحين فى قوم نوح — إلى آخره »

---

(١) باب من أبواب الكوفة . الغلاة المحرقون : وهم عبدالله بن سبأ اليهودى وأتباعه. قالوا ان علياً إلههم ، فنهاهم فلم ينتهوا فحرقهم . وانما أراد بن سبأ بذلك احداث فتنة ، وخلق شيع ؛ وفتح ثغرة فى صفوف المسلمين . وقد حدث ما أراد هذا اليهودى الملعون. ووجد فى الناس كثير من أطاعه وألَّه علياً وأبناءه وكفر بالله ورسوله وعادى علياً والمؤمنين . ولا حول ولا قوة الا بالله .

فلمَّـا هلـكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم : أنْ أنصبـوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسونَ فيها أنْصاباً

وروى عكرمة والضحاك وابن اسحاق نحو هذا

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس « أن يغوث و يعوق ونسراً كانوا قوما صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ؛ فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر . فعبدوهم »

قوله ﴿ أن انصبوا ﴾ هو بكسر الصاد المهملة

قوله ﴿ أنصابا ﴾ جمع نُصب ، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التى نصبوها فى مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفى سياق حديث ابن عباس مايدل على أن الأصنام تسمى أوثانا . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهدا ؛ أو صورة أو غير ذلك (١)

---

(١) فى قرة العيون : فصارت هـذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلماً الى عبادتها . وكل ماعبد من دون الله ، من قبر أو مشهد ، أو صنم ، أو طاغوت فالأصل فى عبادته هو الغلو . كما لا يخفى على ذوى البصائر . كما جرى لأهل مصر وغيرهم ، فان أعظم آلهتهم أحمد البدوى وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة . ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف الا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل . ذكره السخاوى عن أبى حيان . فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف فى الكون ؛ ويطفىء الحريق وينجى الغريق ، وصرفوا له الالهية والربوبية وعلم الغيب ، وكانوا يعتقدون انه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة . وفيهم من يسجد على عتبة حضرته . وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون فى عبد القادر الجيلانى ؛ كما يعتقد أهل مصر فى البدوى . وعبد القادر من متأخرى الحنابلة وله كتاب الغنية ، وغيره ممن قبله و بعده من الحنابلة أفضل منه فى العلم والزهد ، لـكن فيه زهد وعبادة ، وفتنوا به أعظم فتنة . كما جرى من الرافضة مع أهل البيت

وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت الـكرامات لمن هو خـير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به .

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربى وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل

وسمّـوها بأسمائهم . ففعلوا ، ولم تُعبد . حتى إذا هلك أُولئك و نسِيَ العلم عُبدَت »

قوله (حتى اذا هلك أولئك) أى الذين صوروا تلك الأصنام

قوله (ونُـسى العلم) ورواية البخارى « وينسخ » وللكشميهنى « وتنسخ العلم » أى دُرست آثاره بذهاب العلماء ،وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ، فوقعوا فى الشرك ظنا منهم أنه ينفعهم عند الله

قوله (عبدت) لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر ، هو الذى زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم فى الحقيقة . كما قال تعالى (٣٦: ٦٠ ألم أعهد اليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ٦١ وأن اعبدونى هـذا صراط مستقيم ٦٢ ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون ؟) وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً . فان الشيطان أدخل أولئك فى الشرك من باب الغلو فى الصالحين والافراط فى محبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك فى هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع فى قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك ؛ من عبادتهم لهم من دون الله[1] وفى رواية « أنهم قالوا : ماعظّمنا أوّلنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله »

= الأرض ، وأكثر من أن يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره ، وجرى فى نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا ؛ وفى الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ماعمت به البلوى ، كعبادتهم للجن وطلبهم الشفاعة منهم . والأصل فى ذلك الغلو تزيين الشيطان .

وذكر أهل السير ان التلبية من عهد ابراهيم عليه السلام « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » حتى كان عمرو بن لحى الخزاعى فبينما هو يلبى تمثل له الشيطان فى صورة شيخ يلبى معه فقال « لبيك لاشريك لك » فقال الشيخ : « إلا شريكا هو لك » . فأنكر ذلك عمرو وقال ماهـذا ؟ فقال الشيخ : « تملكه وما ملك » . فانه لا بأس بهذا . فقالها عمرو . فدانت بها العرب .

(١) وماجر الى هذا الغـلو الذى أدى الى عبادتهم من دون الله الا تعظيم قبورهم ؛ وبناء القباب عليها ، وسترها بالأستار ، وايقاد السرج ، وقيام السدنة وشياطين الانس عندها لدعوة الناس الى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال . والا فكم من عباد صالحين من الصحابة وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صـدق فى الاسلام =

وقال ابن القيم ، قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفـوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم »

أى يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم . ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم : شرك بالله ، كما تقدم بيانه فى الآيات المحكمات

قوله ﴿ وقال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ﴾

قوله ﴿ وقال ابن القيم رحمه الله ﴾ هو الامام العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوى : العلامة الحجـة المتقدم فى سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان ، المجمع عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة

قوله (وقال غير واحد من السلف) هو بمعنى ما ذكره البخارى وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك بل هو الشرك ، لأن العكوف لله فى المساجد عبادة . فاذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيما ومحبة : عبادة لها

قوله (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أى طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل اليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم ، ونصب صورهم فى مجالسهم ؛

= مدفونون فى مقابر مصر والشام وغيرهما ؛ هم أفضل آلاف المرات من أمثال البدوى والدسوقى ؛ بل نعالهم أشرف وأكرم من هـذا البدوى وأضرابه — لايعرفهم أولئك المشركون . لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان. ولذلك كان الذى يزعم أنه يزور للموعظة وتذكر الدار الآخرة ، تلك القبور التى نصبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدى الاسلام الذى لايعرف تلك القباب وانما يعرف القبور التى لايبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بالأستار الحرير وغيرها فانه من أمحل المحال الاتعاظ بهذه الأوثان والأنصاب ، ومن أعظم الجهل أن تسمى هذه قبوراً تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التى وصفها رسول الله [ص] وأمر بها . فنسألك اللهم أن تعجل بهدم هذه الأوثان وتطهير الأرض منها كلها تحقيقا لما أمر به نبيك [ص] وبعث به على بن أبى طالب إلى اليمن صيانة للتوحيد من قذر الشرك الذى أعظم أسبابه هذه القبور .

فصارت بذلك أوثانا تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى . فانهم تركوا بذلك دين الاسلام الذى كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هـذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث فى الأرض .

قال القرطبي : وإنما صوّر أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عنـد قبورهم . ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . اه

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحى الى عُبّاد القبور ويلقى اليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة الى الدعاء بها، والإقسام على الله بها ، فان شأن الله أعظم من أن يُقْسَم عليه أو يسأل بأحد من خلقه .

فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته؛ وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القنـاديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبّـل؛ ويحج اليه ويذبح عنـده ، فاذا تقرر ذلك عنـدهم نقلهم منه الى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه الى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية وحطهم عن منزلتهم؛ وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم، كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك فى نفوس كثير من الجهال والطغام ؛ وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ، ونفّروا الناس عنهم ؛ ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك (٨ : ٣٤ وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون) . اه كلام ابن القيم رحمه الله .

وفى القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله[1]

---

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة . فاكتفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لا تُطْرُونى (١) كما أطرت النصارى

ومنها : رد الشبه التى يسميها أهل الكلام عقليات ، ويدفعون بها ماجاء به الكتاب والسنة من توحيد الصفات ، وإثباتها على مايليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .

ومنها : مضرة التقليد

ومنها : ضرورة الأمة الى ماجاء به الرسول ﷺ علماً وعملا بما يدل عليه الكتاب والسنة فان ضرورة العبد الى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله ﴿ وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لاتطرونى كما أطرت النصارى

(١) حيث إن النبى [ص] أخبر - وهو الصادق - أن بعض هذه الأمة يتبع سنن أهل الكتاب فى اتباع الهوى والقول على الله بلا علم وابتداع دين لم يشرعه الله . فقد وقع مانهى عنه النبى [ص] فان كثيراً ممن ينتسب الى الاسلام يطرى النبى غاية الاطراء فيعتقد فيه أنه يعلم الغيب وانه لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وقد نفى الله عنه ذلك فى القرآن فقال (قل لاأملك لنفسى ضراً ولا نفعا إلا ماشاء الله ؛ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) (قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) (قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم . فكفروا به واعتقدوا ما أوحته اليهم الشياطين . وكثير منهم يعتقدون أنه يتصرف فى الدنيا بعد موته ويزور من شاء فى المشارق والمغارب . وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التجانى أن زعم أن النبى [ص] يحضر مجلس مكائه وتصديته ومجالس كل من اتبعه فى طريقه الضال ، فصار هؤلاء الزائغون اذا جلسوا للغط واللغو الذى يسمونه صلاة الفاتح ، ويزعمون بوقاحتهم وفجورهم أن المرة الواحدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة . وينشرون ثوبا أبيض فى وسط حلقتهم ليجلس عليه النبى والخلفاء ، وانما زعم الدجال التجانى هذا تمويهاً على أشباه الأنعام العامة ليتبعوه على دجله وباطله ويريهم أنه أتى بما لم يسبق اليه . وصدق فانه لم يسبق الى هذه الوقاحة فى الكفر . فنعوذ بالله من عمى القلوب ، وشرع مالم يأذن به الله . بل تكاد السموات يتفطرن منه . وبعضهم يعتقد أن النبى [ص] يزوره ويشرع له من الدين مايخالف شرعه الذى أتمه الله وأكمله وارتضاه ديناً قبل موته (ص) ادعى ذلك الشعرانى فى كتاب العهود المحمدية . وزعم أن شيخه الخواص كان لايفارق النبى «ص» طرفة عين وهذا كله كذب وبهتان . فكم وقع بين الصحابة من الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها النبى «ص» ليرجعهم فيها الى الصواب الذى يطفىء الفتنة . لو أمكن ظهوره . ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . وبعضهم يعتقد أن السموات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبى =

ابن مريم ، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبدالله ورسوله » أخرجاه

ابن مريم . إنما أنا عبد ؛ فقولوا عبد الله ورسوله » أخرجاه ﴾

قوله ﴿ عن عمر ﴾ هو ابن الخطاب بن نفيل — بنون وفاء مصغراً — العدوى ، أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم . ولى الخلافة عشر سنين ونصفا ، فامتلأت الدنيا عدلا ، وفتحت فى أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستُشهد فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين رضى الله عنه

قوله ﴿ لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ﴾[1] الإطراء مجاوزة الحد فى المدح ، والكذب فيه . قاله أبو السعادات . وقال غيره : أى لا تمدحونى بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد فى مدحى

قوله (إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) أى لا تمدحونى فتغلوا فى مدحى كما غلت النصارى فى عيسى عليه السلام فادعوا فيه الإلهية . وإنما أنا عبد الله ورسوله ، فصِفونى بذلك كما وصفنى ربى ، فقولوا عبد الله ورسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه ، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة ، وضاهؤا النصارى فى غلوهم وشركهم ، ووقعوا فى المحذور ، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده ؛ وصنفوا فيه مصنفات

= ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيانا ؛ فاذا سمع أهل الغرور هذه الخرافة أفنوا أعمارهم فى الخلوات يهمهمون ويزمزمون ، وأنفقوا أموالهم كلها على الدجالين المشعوذين الذين أغووهم كل ذلك طمعاً فى المحال أن يروا النبى عيانا مالئاً السماء والأرض وما بينهما ؛ وقد انجر بنا الكلام الى ذكر شىء من باطلهم تحذيراً لمن يقع فى حبائلهم وإنذاراً لمن وقع ؛ وهذا نزر يسير مما نعرفه عنهم وهو مسطور فى كتبهم وأساطيرهم المطبوعة المنشورة ، وليعلم الناظر فى هذا انى كنت على عقيدتهم الخبيثة سنين فأنقذنى الله منها على يد بعض المصلحين فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة فلاحت لى أنوار شمس السنة ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(١) فى قرة العيون : كما قال تعالى (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) قوله « انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » أمرهم [ص] أن لا يتجاوزوا هذا القول . وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه ، لأن أشرف مقامات الأنبياء ؛ العبودية الخاصة والرسالة .

قال قال رسول الله ﷺ « إياكم والغُلو ، فانما أهلك مَن كان قبلكم الغلو »

وقد ذكر شيخ الاسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه (١) أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ فى كل ما يستغاث فيه بالله ؛ وصنف فى ذلك مصنفاً رده شيخ الاسلام ، وردّه موجود بحمد الله . ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا الله . وذكر عنهم أشياء من هذا النمط . نعوذ بالله من عمى البصيرة

وقد اشتهر فى نظم البوصيرى قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التى مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد فى أضيق الحالات ، وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم فى قالب محبة النبى ﷺ وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والاخلاص الذى بعثه الله به فى قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون ، أفرطوا فى تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهى ، وفرطوا فى متابعته ، فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له ، وانما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذى دعا اليه ونُصرته ؛ وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه . فعكَس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا ، وارتكبوا مانهى الله عنه ورسوله . فالله المستعان

قوله (وقال رسول الله ﷺ « إياكم والغلو . فانما أهلك من كان قبلكم الغلو)

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه . وقد رواه الامام أحمد والترمذى وابن ماجه

---

(١) هو على بن يعقوب بن جبريل البكرى المتوفى يوم الاثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤ هـ والرد عليه اسمه تلخيص كتاب الاستغاثة طبع بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ على نفقة جلالة امام الموحدين ناصر السنة وقامع البدعة ، الملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود . أيده الله بنصره وأطال حياته المباركة فى خدمة الاسلام ؛ ووفق ولى عهده المعظم صاحب السمو الملكى الامير الأجل سعود الى مثل مايقوم به والده العظيم من نشر راية الاسلام واعلاء كلمته ، بطبع الكتب النافعة ، واقامة حدود الله

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً .

فيه مسائل :

الأولى : أن مَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الاسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب

الثانية : معرفة أول شرك حدث فى الأرض أنه بشبهة الصالحين

الثالثة : أول شىء غُيِّر به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم

الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفِطَر تردها

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول محبة الصالحين . والثانى فِعل أُناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره

السادسة : تفسير الآية التى فى سورة نوح

من حديث ابن عباس .

وهذا لفظ رواية أحمد : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ غداة جَمْعٍ : « هَلُمَّ الْقُطْ لى . فلقطتُ له حَصيات هُنَّ حَصَى الخَذْف . فلما وضعهن فى يده قال : نعم بأمثال هؤلاء فارموا . وإياكم والغلو فى الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين »

قال شيخ الاسلام : هذا عام فى جميع أنواع الغلو فى الاعتقادات والأعمال . وسبب هذا اللفظ العلم رمى الجمار ، وهو داخل فيه ؛ مثل الرمى بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار . ثم علله بما يقتضى مجانبة هَدْى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ؛ فان المشارك لهم فى بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك

قوله (ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا)

قال الخطابى : المتنطع المتعمق فى الشىء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يغنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم

---

(١) ورواه أيضاً الامام أحمد وأبو داود ، وانما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى

السابعة : جِبِلّة الآدمى (١) فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول اليه البدعة ، ولو حسن قصد الفاعل

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهى النهى عن الغلو ومعرفة مايؤول اليه

الحادية عشرة : مضرّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح

الثانية عشرة : معرفة النهى عن التماثيل والحكمة فى إزالتها

الثالثة عشرة : معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة اليها مع الغفلة عنها

الرابعة عشرة : وهى أعجب وأعجب قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فِعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن مانهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك

ومن التنطع : الامتناع من المباح مطلقا ، كالذى يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن لبْس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أن هذا من الزهد المستحب . قال الشيخ تقى الدين : فهذا جاهل ضال . انتهى

وقال ابن القيم رحمه الله : قال الغزالى : والمتنطعون فى البحث والاستقصاء

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون فى الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوقهم . مأخوذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل فى كل متعمق قولا وفعلا

وقال النووى : فيه كراهة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشى

«١» الجبلة بكسرتين فلام مشددة وكخشبة أيضاً الخلقة والطبيعة ؛ والمعنى أن الانسان مجبول على نقصان الحق فى قلبه وزيادة الباطل إلا من رحم الله وأنزل فى قلوبهم السكينة فان ايمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص

السابعة عشرة: البيان العظيم فى قوله «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسى العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء

باب

﴿ ماجاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟ ﴾

فى الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها

اللغة ودقائق الاعراب فى مخاطبة العوام ونحوهم

قوله (قالها ثلاثا) أى قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة فى التعليم والابلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

قوله : باب ﴿ ماجاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف اذا عبده؟ ﴾ أى الرجل الصالح؛ فان عبادته هى الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة الى عبادته، ووسائل الشرك محرمة. لأنها تؤدى الى الشرك الأكبر وهو أعظم الذنوب.

قوله ﴿ فى الصحيح « عن عائشة رضى الله عنها أن أمّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة(١) وما فيها من الصور. فقال: أولئكِ اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح؛ بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور. أولئكِ شرار الخلق عند الله » فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح ﴾ أى الصحيحين

---

(١) لأن دين الحبشة : النصرانية . وقد أسلم النجاشى وجماعة من أهلها لما هاجر اليها جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين : الهجرة الاولى

بأرض الحبشة وما فيها من الصوَر ، فقال : أُولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مَسجداً وصوّروا فيه تلك الصور ، أُولئكِ شرار الخلق عند الله » (١)

قوله « أن أم سلمة » هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبى سلمة سنة أربع . وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبى سلمة الى الحبشة (٢) ماتت سنة اثنتين وستين

قوله (ذكرت لرسول الله ﷺ) وفى الصحيحين « أن أُم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ » و« الكنيسة » بفتح الكاف وكسر النون : مَعبَد النصارى

قوله (أولئك) بكسر الكاف ، خطاب للمرأة

قوله (اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) هذا ـ والله أعلم ـ شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبى ﷺ هذا أو هذا ؟ ففيه التحرى فى الرواية . وجواز الرواية بالمعنى

قوله (وصوروا فيه تلك الصور) الاشارة الى ماذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التى فى الكنيسة

قوله (أولئك شرار الخلق عند الله) وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتى .

---

(١) انما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا وسنّوا لمن بعدهم الغلو فى القبور وأهلها المفضى بالغالين الى عبادتها وكل من فعل فعلهم من هـذه الأمة التى سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مثلهم، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث الذى فى الصحيح «ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة» وقال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية.

(٢) ثم عادت مع زوجهـا أبى سلمة الى مكة ، وهاجر أبو سلمة الى المدينة ، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة ؛ ثم لحقت بزوجها فى المدينة ؛ وتوفى أبو سلمة رضى الله عنه سنة أربع من الهجرة

قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبى ﷺ

قال القرطبي : وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أعمالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك ، سداً للذريعة المؤدية الى ذلك (١)

قوله (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل) هذا من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ماوقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل فان الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وهذه العلة التى لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هى التى أوقعت كثيراً من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فان النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك . فان الشرك بقبر الرجل الذى يُعتقد صلاحه أقرب الى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لايفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه فى المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبى ﷺ مادتها . حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقا ، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ماقصده المشركون ،

(١) فى قرة العيون : ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة الى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته فبذلك صاروا شرار الخلق . فانظر الى ماوقع فى هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا ، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها ومع ذلك يعتقدونه ديناً وهو الشرك الذى حرمه الله ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، بالنهى عنه

ولهما عنها قالت : لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ لعنة الله على اليهود والنصارى

سداً للذريعة . وأما اذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة فى تلك البقعة فهذا عين المحادّة لله ولرسوله ؛ والمخالفة لدينه؛ وابتداع دين لم يأذن به الله، فان المسلمين قد أجمعوا على ماعلموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ : أن الصلاة عند القبور منهى عنها ، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها واتخاذها مساجد ، و بناء المساجد عليها . وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه . وقدصرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك. وطائفة أطلقت الكراهة والذى ينبغى أن تحمل على كراهة التحريم ؛ إحسانا للظن بالعلماء ، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ماتواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهى عنه . اهـ كلامه رحمه الله تعالى

قوله ﴿ ولهما عنها ـ أى عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت : « لما نُزل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه، فاذا اغتم بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ماصنعوا . ولولا ذلك أُبرز قبره ، غير أنه خَشى أن يتخذ مسجداً » [1] أخرجاه﴾

قوله (ولهما) أى البخارى ومسلم . وهو يغنى عن قوله فى آخره «أخرجاه»

قوله (لما نزل) هو بضم النون وكسر الزاى . أى نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام

قوله (طفق) بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح . و به جاء القرآن ، ومعناه جعل

قوله (خميصة) بفتح المعجمة والصاد المهملة . كساء له أعلام

قوله (فاذا اغتم بها كشفها) أى عن وجهه

«١» نزل : بضم النون وكسر الزاى أى نزل به علامات الوفاة وخاف على أمته أن يتخذوا قبره مسجداً ويغلون فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك ، جزاه الله خير الجزاء

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يُحَذِّر ما صنعوا ، ولولا ذلك أُبرز قبره ،

قوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١] يبين أن من فعل مثل ذلك حلّ عليه من اللعنة ماحل على اليهود والنصارى .

قوله (يحذر ماصنعوا) الظاهر أن هـذا من كلام عائشة رضى الله عنها لأنها فهمت من قول النبى صلى الله عليه وسلم ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذى كانت تفعله اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم ؛ فانه من الغلو فى الأنبياء ؛ ومن أعظم الوسائل الى الشرك . ومن غربة الاسلام أن هذا الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعليه ـ تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه صلى الله عليه وسلم ومع الصالحين من أمته ـ قد فعله الخلق الكثير من متأخرى هذه الأمة ، واعتقدوه قربة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله ،

قال القرطبى فى معنى هذا الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية الى عبادة من فيها كما كان السبب فى عبادة الأصنام . انتهى

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال (١٢ : ٢٨ واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق و يعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) نكرةً فى سياق النفى تعم كل شرك .

قوله (ولولا ذلك) أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبى صلى الله عليه وسلم مسجداً لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم فى البقيع .

«١» هذا هو الشاهد للترجمة . لأن النبى «ص» لعنهم على تحرى الصلاة عندها وإن كان المصلى انما يصلى لله . فمن كان يصلى عند القبور و يتخذها مساجد فهو ملعون ، لأنه ذريعة الى عبادتها ؛ فكيف اذا عبد المقبور فيها بأنواع العبادة ؛ وسأله مالا قدرة له عليه . وهذا هو الغاية التى يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة اليها . وليست اللعنة خاصة باليهود والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم ، وانما هى لأعمالهم ، وكذا هى لكل من فعل فعلهم فمن فعل ماهو أعظم من فعلهم أولى باللعن ، وانما أراد «ص» تحذير أمته أن يتعرضوا لما تعرض له اليهود والنصارى من اللعنة ، ولذلك قالت عائشة « يحذر ماصنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره »

غير أنه خَشى أن يُتخذ مسجداً » أخرجاه .

ولمسلم عن جُنْدُب بَن عبدالله قال : سمعتُ النبي ﷺ قَبْل أن يَموتَ بخمسٍ

قوله (غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا) روى بفتح الخاء وضمها ، فعلى الفتح يكون هو الذى خشى ذلك ﷺ ، وأمرهم أن يدفنوه فى المكان الذى قبض فيه . وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة ، فلم يبرزوا قبره ، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيما بما أبدى وأعاد من النهى والتحذير منه ولعن فاعله .

قال القرطبى : ولهذا بالغ المسلمون فى سد الذريعة فى قبر النبى ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدوا المداخل اليها ، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ ؛ ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة اذا كان مستقبل المصلين ، فتُصور الصلاة اليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره (١) . انتهى (٢)

قوله ﴿ ولمسلم عن جُندب بن عبدالله قال : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول « إنى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليل . فان الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا ولو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا و إنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك » ﴾

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لاصقا بالجدار الذى فيه باب الرحمة ؛ ولكن قد أزيل هذا الوضع وأخلى حول القبر من جهاته الأربع ، وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون فى الموضع الخاص بالأغوات ، وفى المكان الخاص بالنساء ، وأصبح عرضة لأن يطاف به . وقد رأيت كثيراً من العامة يطوفون به ؛ ويحاولون التمسح به لولا منع الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع . ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم ؛ فلن يمكنهم ولا أى قوة أن تمنع هذا منعاً باتاً ، اللهم إلا العلم الذى ينير قلوب الجمهور الاسلامى ويعرفهم حقيقة محبة النبى (ص) ، وانها انما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه رضى الله عنهم يفعلون ، وهم أشد الناس حباً لله ولرسوله . وأن يعود الناس الى الأمر الأول الذى كان عليه السلف الصالح فى كل شئونهم ، فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة . والله يهدى الناس الى مافيه صلاح دينهم ودنياهم .

(٢) وقد ذكر الشارح بعد هذا بعض ماذكر المصنف من المسائل المستنبطة من حديث الباب حذفناها لعدم التكرار

وهو يقول « إنى أبْرأ إلى الله أن يكونَ لى منكم خليل فان الله قد اتَّخذنى خليلاً . كما اتخذَ ابراهيم خليلاً . ولو كنت مُتَّخِذاً من أُمتى خليلا لاتَّخذتَ أبا بكر خليلا،

قوله ﴿ عن جندب بن عبدالله ﴾ أى ابن سفيان البَجَلى ؛ وينسب الى جده ، صحابى مشهور . مات بعد الستين

قوله ﴿ إنى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليل ﴾ أى أمتنع عما لايجوز لى أن أفعله . والخلَّة فوق المحبة . والخليل هو المحبوب غاية الحب ؛ مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهى تخلل المودة فى القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى   وبذا سمى الخليل خليلا

هذا هو الصحيح فى معناها . كما ذكره شيخ الاسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قال القرطبى : وانما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خُلّة غيره .

قوله ﴿ فان الله قد اتخذنى خليلا ﴾ فيه بيان أن الخلة فوق المحبة

قال ابن القيم رحمه الله : وأما مايظنه بعض الغالطين من ان المحبة أكمل من الخلة ، وأن ابراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم ، فان المحبة عامة ، والخلة خاصة وهى نهاية المحبة . وقد أخبر النبى ﷺ ان الله قد اتخذه خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه ؛ مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضى الله عنهم . وأيضاً فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ؛ وخلته خاصة بالخليلين

قوله ﴿ ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ﴾ فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . قاله المصنف رحمه الله ، وهو كما قال بلا ريب [1]

---

(١) فان أول من فعل ذلك العبيديون الذين زعموا كذبا أنهم فاطميون . شيدوا للحسين رضى الله عنه وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم - قبراً بالقاهرة ؛ ورفعوا عليه قبة عظيمة

ألاَ وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيأهم مساجد ، ألاَ فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك »

فقد نهى عنه فى آخر حياته .

وفيه إشارة الى خلافة أبى بكر، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره . وقد استخلفه على الصلاة بالناس ، وغضب صلى الله عليه وسلم لماقيل يصلى بهم عمر [1] وذلك فى مرضه الذى توفى فيه صلى الله عليه وسلم .

واسم أبى بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل الصحابة باجماع من يعتد بقوله من أهل العلم . مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وله ثلاث وستون سنة رضى الله عنه

قوله ﴿ ألا ﴾ حرف استفتاح ﴿ ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبياءهم مساجد — الحديث ﴾ قال الخلخالى : وانكار النبى صلى الله عليه وسلم صنيعهم هذا مخرج على وجهين : احدهما انهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما .

الثانى : انهم يجوزون الصلاة فى مدافن الانبياء والتوجه اليها حالة الصلاة ، نظراً منهم بذلك الى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء . والأول هو الشرك الجلى . والثانى الخفى ، فلذلك استحقوا اللعن

قوله ﴿ فقد نهى عنه فى آخر حياته ﴾ اى كما فى حديث جندب . وهذا من كلام شيخ الاسلام . وكذا مابعده

= وبنوا له المسجد المشهور الذى بالقاهرة، يقام فيه من الاعمال الشركية مايغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من فى قلبه حب لله ورسوله والايمان الصحيح . وقد صنف كثير من العلماء السالفين فى بيان كذب أولئك العبيديين وبيان نحلتهم الكافرة الفاجرة ، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويبطنون الكفر . وممن كتب فى ذلك الامام أبو بكر الباقلانى فى كتاب نفيس سماه كشف الاسرار وهتك الاستار ؛ والامام ابن الجوزى وغيرهم . انظر فى ذلك البداية والنهاية للعماد بن كثير فى حوادث سنة ٤٠٢ (ج ١١ ص ٢٤٩)

«١» الذى قال ذلك وعرضه : عائشة رضى الله عنها كما فى صحيح البخارى : قالت « ان أبا بكر رجل أسيف ، لايملك نفسه اذا صلى . فمر عمر يصلى بالناس. فقال النبى (ص) « أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس »

ثم إنه لعن وهو فى السياق مَن فعله . والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد

قوله (ثم إنه لعن ، وهو فى السياق [1] مَن فعله) كما فى حديث عائشة

قلت : فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ، ويصلى عندها واليها ؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون .

قوله (الصلاة عندها من ذلك ، وان لم يبن مسجد) أى من اتخاذها مساجد الملعون فاعله . وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور واليها .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم رحمه الله : وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده ، جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه — صيغة « لاتفعلوا » وصيغة « انى أنهاكم عن ذلك » — ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه ، وارتكب ماعنه نهاه ، واتبع هواه ؛ ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عُدم من « لا إلٰه إلا الله » فان هذا وأمثاله من النبى ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه ؛ فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه ؛ وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين . وكلما كنتم لها أشد تعظيما وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد ، ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسر ؛ ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا الى يوم القيامة ؛ فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن فى طريقتهم ؛ فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وانزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الالٰهية عنهم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وممن علل بخوف الفتنة بالشرك : الامام الشافعى ، وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقدسى . وشيخ الاسلام وغيرهم رحمهم الله . وهو الحق الذى لاريب فيه .

---

(١) أى فى سياق الموت ؛ أصله « سواق » قلبت الواو ياء لكسر السين ، كأن روحه تساق لتخرج من البدن ، وسياق وسواق مصدران من ساق يسوق

وهو معنى قولها « خشى أن يتخذ مسجداً » فان الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً . وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً »

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا

قوله (فان الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً) أى لما علموا من تشديده فى ذلك وتغليظه النهى عنه ، ولعن من فعله .

قوله (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً) أى وان لم يبن مسجد ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعنى وإن لم يقصد بذلك ، كما اذا عرض لمن أراد أن يصلى فأوقع الصلاة فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

قوله ﴿ كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً (١) » ﴾ أى فسمى الأرض مسجداً ، تجوز الصلاة فى كل بقعة منها إلا ما استثنى من المواضع التى لا تجوز الصلاة فيها ، كالمقبرة ونحوها .

قال البغوى فى شرح السنة : أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم ؛ فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً ، ثم خص من جميع المواضع : الحمام والمقبرة والمكان النجس . انتهى .

قوله ﴿ ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعا « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه (٢) ﴾

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه ، وفيه زيادة « فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته »

(٢) فى قرة العيون : (قلت) وقد وقع هذا فى الأمة كثيراً كما وقع فى أهل الجاهلية قبل مبعث النبى «ص» كما لا يخفى على ذوى البصائر . وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور (منها) أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير

« إن من شِرار الناس مَن تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم فى صحيحه

قوله (إن من شرار الناس) بكسر الشين جمع شرير

قوله (من تدركهم الساعة وهم أحياء) أى مقدماتها ، كخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . وبعد ذلك ينفخ فى الصور نفخة الفزع

قوله (والذين يتخذون القبور مساجد) معطوف على خبر إن فى محل نصب على نية تكرار العامل ، أى وان من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أى بالصلاة عندها واليها ، وبناء المساجد عليها ، وتقدم فى الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى ، وأن النبى ﷺ لعنهم على ذلك ، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى . فما رفع أكثرهم بذلك رأسا ؛ بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة الى الله ، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته . والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لاينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغّبوا فى فعله ؛ فلقد اشتدت غربة الاسلام وعاد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ؛ نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

قال شيخ الاسلام : أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهى عنه ، متابعة للأحاديث الصحيحة . وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمه . قال : ولا ريب فى القطع بتحريمه ؛ ثم ذكر الأحاديث فى ذلك (الى أن قال) وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء

= الله وينسون الله (ومنها) انهم يعتقدون ان آلهتهم من الاموات يتصرفون فى الكون دون الله وجمعوا بين نوعى الشرك فى الالهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة ، ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : ان عبد القادر الجيلانى يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع ، فزعم انه يعلم الغيب وهو ميت فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله فى كتابه كقوله (٣٥ : ١٤ إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير) فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله فى كتابه بل بالغوا وعاندوا فى رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان .

فيه مسائل :

الاولى : ماذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل

الثانية : النهى عن التماثيل وغلظ الأمر فى ذلك

والصالحين ، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره . هذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم رحمه الله : يجب هدم القباب التى بنيت على القبور ، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم مافى القرافة من الأبنية ، منهم ابن الجميزى والظهير الترمينى وغيرهما .

وقال القاضى ابن كج : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

وقال الأذرعى : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وانفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب فى تحريمه .

وقال القرطبى فى حديث جابر رضى الله عنه « نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه » وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والجص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف فيه .

وقال الزيلعى فى شرح الكنز : ويكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضى خان : أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه . لما روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر . والمراد بالكراهة — عند الحنفية رحمهم الله — كراهة التحريم . وقد ذكر ذلك ابن نجيم فى شرح الكنز .

وقال الشافعى رحمه الله : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً ، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعى رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم

الثالثة : العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك ، كيف بيّن لهم هـذا أوّلا ، ثم قبل موته بخمس ، قال ما قال ، ثم لمـا كان فى السياق لم يكتف بماتقدم

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم

السادسة : لعنه إياهم على ذلك

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره

الثامنة : العلة فى عدم إبراز قبره

قال الشارح رحمه الله تعالى : وجزم النووى رحمه الله فى شرح المهـذب بتحريم البناء مطلقاً ، وذكر فى شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغنى ، والكافى وغيرهما رحمه الله تعالى : ولايجوز اتخاذ المساجد على القبور . لأن النبى ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى — الحديث » وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها ، انتهى (١)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة ، انقلبت تربتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه و بين الأرض حائل أولا ؛ لعموم الاسم وعموم العلة ، ولأن النبى ﷺ لعن الذين اتخذوا قبوراً نبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لاتنجس . وبالجملة فمن علل النهى عن الصلاة فى المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبى ﷺ ، ثم لايخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد ، فلا يصلى فى هذا المسجد سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف فى المذهب : لأن النبى ﷺ قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى انهاكم عن ذلك » وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ؛ واتخاذها مساجد

---

(١) وقد صرح ابن حجر الهيتمى المكى فى كتابه الكبائر : ان بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنص الصريح . وان الواجب على ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدأوا بقبة الامام الشافعى

التاسعة : فى معنى اتخاذها مسجداً

العاشرة : أنه قرَن بين مَن اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته

الحادية عشرة : ذكره فى خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور . وهم أول من بنى عليها المساجد

أشد ، وكذلك إن لم يكن بنى عليه مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التى كان النهى عن الصلاة عند القبور من أجلها ، فان كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال ﷺ « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » وإن كان موضع قبر أو قبرين .

وقال بعض اصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس فى كلام احمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق ، بل عموم كلامهم يقتضى منع الصلاة عند كل قبر .

وقد تقدم عن على رضى الله عنه أنه قال : « لا أصلى فى حمام ولا عند قبر »

فعلى هذا ينبغى أن يكون النهى متناولا لحريم القبر وفنائه ، ولا تجوز الصلاة فى مسجد بنى فى مقبرة ، سواء كان له حيطان تحجز بينه و بين القبور أو كان مكشوفا .

قال فى رواية الاثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، و إن كان بينها و بين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبى مَرْثَد عن النبى ﷺ « لا تصلوا إلى القبور [1] » وقال : إسناده جيد . انتهى

ولو تتبعنا كلام العلماء فى ذلك لاحتمل عدة أوراق . فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهى ما يؤدى اليه ذلك : من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر فى أبواب العلم بالله اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم ، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

الثانية عشرة : ما بُلى به ﷺ من شدة النزع

الثالثة عشرة : ما أُكرم به من الخلة

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة

السادسة عشرة : الاشارة إلى خلافته

باب

﴿ ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ﴾

بقيود أوهنت الانقياد وغيّروا بها ماقصده الرسول ﷺ بالنهى وأراد . فقال بعضهم : النهى عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة ، والنهى عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه : منها : أنه من القول على الله بلا علم . وهو حرام بنص الكتاب .

ومنها : أن ماقالوه لايقتضى لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : من صلى فى بقعة نجسة فعليه لعنة الله . و يلزم على ماقاله هؤلاء أن النبى ﷺ لم يبين العلة ، وأحال الأمة فى بيانها على من يجىء بعده ﷺ و بعد القرون المفضلة والأئمة ، وهذا باطل قطعاً وعقلا وشرعا ، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر فى البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل . فان النبى (ص) بلغ البلاغ المبين ، وقدرته فى البيان فوق قدرة كل أحد ، فاذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد انما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء فى بعض النصوص ما يَعُم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هى العلة لكانت منتفية فى قبور الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لايكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم ، فاذا كان النهى عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، عُلِم أن العلة ماذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة و بيان المحجة . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قوله : ﴿ باب ماجاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ﴾

﴿ روى مالك فى الموطأ أنّ رسولَ الله ﷺ قال « اللهم لا تجعل قبرى وَثناً يُعبَد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ (١)

هذا الحديث رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار : أن رسول الله ﷺ قال ـ الحديث • ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ، ولم يذكر عطاء ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا •

وله شاهد عند الامام أحمد بسنده عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه « اللهم لا تجعل قبرى وَثناً ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »

قوله ﴿ روى مالك فى الموطأ ﴾ هو الامام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو الأصبحى ، أبو عبد الله المدنى . إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث ، حتى قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، مات سنة تسع وسبعين ومائة . وكان مولده سنة ثلاث وتسعين . وقيل أربع وتسعين . وقال الواقدى : بلغ تسعين سنة

قوله ﴿ اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ﴾ قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

فأجاب رب العالمين دعاءه   وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه   فى عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبى ﷺ لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه و بين الناس فلا يوصل اليه . ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التى عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها ، كما قال عبد الله بن مسعود

---

(١) فى قرة العيون : وذلك انه (ص) خاف أن يقع فى أمته فى حقه كما وقع من اليهود والنصارى فى حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وكذلك رغب (ص) الى ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى ، وتقدم فى حديث عائشة رضى الله عنها « ولولا ذلك لأبرز قبره غير انه خشى أن يتخذ مسجدا » وقد استجاب الله دعوة نبيه (ص) وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران

رضى الله عنه « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير . تجرى على الناس يتخذونها سنة ، إذا غُيّرت قيل : غيرت السنة » انتهى.

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبى ﷺ .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : « أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ »(١) فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سُويد : « صليتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح . ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل: ياأمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبى ﷺ فهم يصلون فيه ؛ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم و يتخذونها كنائس و بِيَعاً ، فمن أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصلّ . ومن لا فليمض ولا يتعمدها »

وفى مغازى ابن إسحاق من زيادات يونس بن بُكير عن أبى خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال « لما فتحنا تُستَر وجدنا فى بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب . قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ؟ قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لِنُعمّيه على الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت: من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . فقلت منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما كان تغيّر منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شُعيرات

---

(١) كان ذلك فى صلح الحديبية . وهى الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ؛ وذلك حين أشاع الناس أن عثمان ابن عفان قتلته قريش حين بعثه النبى «ص» سفيراً بينه وبين قريش ، فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا رسول الله الناس الى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت ، وكان المبايعون ألفا وأربعمائة ، ثم أتى رسول الله أن الذى كان من أمر عثمان باطل . والقصة رواها البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازى

من قفاه ، إنّ لحوم الأنبياء لاتبليها الأرض (١)

قال ابن القيم رحمه الله : ففى هـذه القصة مافعله المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم من تعمية قبره لئلا يُفتتن به ؛ ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ؛ ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ؛ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها — ولم يستحب الشارع قصدها — فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلى عندها أو ليدعو عندها ، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعا ولا عيناً ، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتى ؛ كما جاءت به السنة . وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره ؛ فهذا هو المنهى عنه . انتهى ملخصا .

---

(١) ذكرها الطبرى (ج ٤ ص ٢٢٠) فى حوادث سنة ١٧ قال : قيل لأبى سبرة هذا جسد دانيال فى هـذه المدينة . قال وما لنا بذلك ؟ فاقره بأيديهم — ثم ذكر خبر دانيال وسبى بختنصر له من بيت المقدس وموته بالسوس ؛ فكان هنالك يستسقى بجسده ، فلما فتحها المسلمون أتوا به فاقروه فى أيديهم ؛ حتى اذا ولى أبو سبرة عنهم الى جندى سابور أقام أبو موسى بالسوس وكتب الى عمر فيه . الخ القصة . وقد ذكرها أبو عبيد فى الأموال ص ٣٤٣ رقم ٨٧٦ عن قتادة قال « لما فتحت السوس وعليهم أبو موسى الأشعرى وجدوا دانيال فى ابرن ، واذا الى جانبه مال موضوع وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه الى أجل ، فان أتى به الى ذلك الأجل وإلا برص . قال فالتزمه أبو موسى وقبله ، وقال : دانيال ورب الكعبة . ثم كتب فى شأنه الى عمر . فكتب اليه عمر : كفنه وحنطه وصل عليه ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات عليهم . وانظر ماله فاجعله فى بيت مال المسلمين . قال فكفنه فى قباطى بيض وصلى عليه ودفنه » وقال البلاذرى ص ٣٧١ ورأى أبو موسى فى قبلتهم بيتاً وعليه ستر فسأل عنه فقيل : ان فيه جثة دانيال النبى ، فانهم كانوا أقحطوا ، فسألوا أهل بابل دفعه اليهم ليستسقوا به ففعلوا . وكان بختنصر سبى دانيال وأتى به الى بابل فقبض بها . فكتب أبو موسى بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر أن كفنه وادفنه . فسكر أبو موسى نهراً حتى اذا انقطع دفنه ثم أجرى الماء عليه .

أشتد غضبُ اللهِ على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مَساجد »

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور

قوله ﴿ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ فيه تحريم البناء على القبور ، وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر . وفي القِرَى للطبرى (١) من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبي ﷺ ، وعلل ذلك بقوله ﷺ « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد » الحديث . كره إضافة هذا اللفظ الى القبر ، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سداً للذريعة

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفا عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا فى أسباب كراهته لأن يقول « زرت قبر النبي (ص) » لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية ، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه ، والرغبة اليه فى قضاء الحوائج ، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا . وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فان ذلك مما أمر الله به . أما لفظ الزيارة فى عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى . ألا ترى إلى قوله « فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » مع زيارته لقبر أمه . فان هذا يتناول قبور الكفار . فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به ، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ، بخلاف ما إذا كان المزور معظما فى الدين كالأنبياء والصالحين ، فانه كثيرا مايعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية ، فلهذا كره مالك ذلك فى مثل هذا ، وان لم يكره ذلك فى موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة . اه

وفيه : أن النبي (ص) لم يستعذ الا مما يخاف وقوعه . ذكره المصنف رحمه الله تعالى

﴿ ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (أفرأيتم اللات والعزى) قال كان يَلُتُّ لهم السويق ، فمات فعكفوا على قبره ، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان يلت السويق للحاج » ﴾

---

(١) كتاب « القرى لقاصد أم القرى » تأليف المحب الطبرى

عن مجاهد « (أفرأيتم اللات والعزى) قال : كان يلُت لهم السويق(١) فمات فعكفوا على قبره » وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس « كان يلت السويق للحاج »

قوله (ولابن جرير) هو الامام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن خزيمة : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من المجتهدين لايقلد أحداً . وله أصحاب يتفقهون على مذهبه و يأخذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة

قوله (عن سفيان) الظاهر : أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبدالله الكوفى ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً ؛ وله أتباع يتفقهون على مذهبه . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة

قوله ﴿ عن منصور ﴾ هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمى ثقة ثبت فقيه . مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة

قوله ﴿ عن مجاهد ﴾ هو ابن جبر ـ بالجيم والموحدة ـ أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى ، ثقة إمام فى التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره رضى الله عنهم . مات سنة أربع ومائة ؛ قاله يحيي القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد ، ولد سنة إحدى وعشرين فى خلافة عمر رضى الله عنه .

قوله ﴿ كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره ﴾ فى رواية « فيطعم من يمر من الناس . فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللاتّ » رواه سعيد بن منصور .

ومناسبته للترجمة : أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين

قوله ﴿ وكذا قال أبو الجوزاء ﴾ هو أوس بن عبد الله الربعى ، بفتح الراء والباء ، مات سنة ثلاث وثمانين .

قال البخارى : حدثنا مسلم وهو ابن ابراهيم . حدثنا أبو الأشهب(٢) حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان اللات رجلا يلت سويق الحجاج »

---

(١) السويق دقيق الحنطة أو الشعير ؛ ولتّه بله بالماء أو السمن ، والحاج بمعنى الحجاج.

(٢) أبو الأشهب هو جعفر بن حيان التيمى السعدى العطاردى الحذاء الأعمى . مات سنة ١٠٥

قال ابن خزيمة : وكذا العُزّى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : «لنا العزّى ولا عُزّى لكم»

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لَعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن ﴾

قلت : وفى الباب حديث أبى هريرة وحديث حسان بن ثابت . فأما حديث أبى هريرة فرواه أحمد والترمذى وصححه [١] . وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال « لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور » .

وحديث ابن عباس هذا فى إسناده أبو صالح مولى أم هانىء ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم [٢] . قال على بن المدينى ، عن يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانىء . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله بن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس ولهذا أخرجه ابن السكن فى صحيحه. انتهى من الذهب الابريز عن الحافظ المزى .

(١) أخرجه الترمذى من طريق عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة « أن رسول الله (ص) لعن زوارات القبور » وقال هذا حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه. قال الترمذى: وفى الباب عن عائشة وحسان بن ثابت . وحديث حسان بن ثابت رواه الامام أحمد فى مسنده أيضاً وروى ابن حبان فى صحيحه عن عبدالله بن عمرو حديث فاطمة بنت رسول الله (ص) فى عزائها أهل ميت فى ميتهم ، فقال لها « لعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ماتذكر . قال : لو بلغت معهم الكدى مارأيت الجنة حتى يراها جد أبيك »

(٢) وأبو صالح اسمه باذام ، أو باذان . وقد صرح فى هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس ؛ ثم قد حسن الترمذى هذا الحديث وان كان الحافظ المنذرى قد تعقبه عليه . وقال الحافظ ابن القيم فى تهذيب سنن أبى داود فى باب كراهية اتخاذ القبور مساجد. وفى صحيح أبى حاتم عن أبى صالح عن ابن عباس قال « لعن رسول الله (ص) زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » قال أبو حاتم : أبو صالح هذا اسمه مهران ثقة . وليس بصاحب الكلبى . ذاك اسمه باذام . وقال الاشبيلى : هو باذام صاحب الكلبى . وهو عندهم ضعيف جداً . وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يرجح هذا أيضاً . اه

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين : فعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور » وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هـذا ليس رجال هذا . فلم يأخـذه أحدهما عن الآخر . وليس فى الاسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهـذا من أجود الحسن الذى شرطه الترمذى ، فانه جعل الحسن ماتعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذاً ، أى مخالفا لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف .

والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ماروى عن عائشة رضى الله عنها : انها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : « لو شهدتك مازرتك » وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال . إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته سواء شهدته أم لا

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبى مُليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبدالله بن أبى مليكة أيضاً « أن عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنـين ؛ أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها »

فأجاب شيخ الاسلام رحمه الله عن هذا وقال : ولا حجة فى حديث عائشة ، فان المحتج عليها احتج بالنهى العام ، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة . يبين ذلك قولها « قد أمر بزيارتها » فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضى الأستحباب ، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصـة . ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها « لما زرتك » واللعن صريح فى التحريم ، والخطاب بالاذن فى قوله «فزوروها» لم يتناول النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء ، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى أشهر الروايتين عنه ؛ وهو المعروف عند أصحابه ، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص ؟ إذ قد يكون قوله « لعن الله زوارات القبور » بعد إذنه للرجال فى الزيارة .

يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج . ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهى عنها محكم ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر .

والصحيح : أن النساء لم يدخلن فى الاذن فى زيارة القبور لعدة أوجه :

أحدها : أن قوله ﷺ «فزوروها» صيغة تذكير . وانما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب . لكن هذا فيه قولان ، قيل : انه يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل ، وقيل انه يحمل على ذلك عند الاطلاق . وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف ، والعام لايعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء ، ولو كان النساء داخلات فى هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور . وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ، ولا كان النساء على عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور .

ومنها : أن النبى ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك «يذكر الموت ، ويرقق القلب ، وتدمع العين » هكذا فى مسند أحمد . ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة ؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر . وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة فانه لايمكن أن يحد المقدار الذى لايفضى إلى ذلك ؛ ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة : أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها . فيحرم هذا الباب سداً للذريعة ؛ كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة ، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك . وليس فى ذلك من المصلحة مايعارض هذه المفسدة . فانه ليس فى ذلك إلا دعاؤها للميت وذلك ممكن فى بيتها .

ومن العلماء من يقول : التشييع كذلك ، ويحتج بقوله ﷺ « ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فانكن تفتن الحى وتؤذين الميت » ، وقوله لفاطمة « أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلى الجنة » ويؤيده ماثبت فى الصحيحين من « أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز » ومعلوم أن قوله ﷺ « من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان » هو أدل على العموم من صيغة التذكير . فان لفظ «من» يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبى ﷺ لهن عن اتباع الجنائز ، فاذا لم يدخلن فى هذا العموم فكذلك فى ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصا

قلت : ويكون الاذن فى زيارة القبور مخصوصاً بالرجال ، خص بقوله « لعن الله زوّارات القبور ـ الحديث » فيكون من العام المخصوص .

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضا .

منها : أن ماذكروه عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما معارض بما ورد عنهما فى هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابى وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع . وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ مادلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور ، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم .

قال محمد بن اسماعيل الصنعانى رحمه الله فى كتابه تطهير الاعتقاد : فان هذه القباب والمشاهد التى صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والالحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الاسلام وخراب بنيانه : غالبُ ـ بل كل ـ من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفى أو فقير أو شيخ كبير ؛ ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه ، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فيأتى مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شيّد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالفراش الفاخر ، وأرخيت عليه الستور ، وألقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع . حتى يغرسوا فى جبلته كل باطل ، والأمر ماثبت فى الأحاديث النبوية من لعن[1] من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة فان ذلك فى نفسه منهى عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة . انتهى

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة والله أعلم .

قوله ﴿ والمتخذين عليها المساجد ﴾ تقدم شرحه فى الباب قبله .

قوله ﴿ والسُّرُج ﴾ قال أبو محمد المقدسى : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ،

(١) فى تطهير الاعتقاد : ولهذا الأمر ثبت فى الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج القبور . أهـ

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان

الثانية: تفسير العبادة

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يُخاف وقوعه

الرابعة: قَرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد (١)

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله

السادسة: وهي من أهمها ـ صفة معرفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية

التاسعة: لعنة زوارات القبور

العاشرة: لعنة مَن أسرجها

باب

ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى (٩: ١٢٨ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم

لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

وقال ابن القيم رحمه الله: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر(٢)

قوله ﴿رواه اهل السنن﴾ يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط ولم يروه النسائي.

قوله: باب ﴿ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك﴾

الجناب: هو الجانب. والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

---

(١) يعني انه لما قرن بذلك الدعاء اتخاذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريعة إلى اتخاذها أوثانا

(٢) وقد عده ابن حجر الهيتمي في الكبائر أيضا

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ١٢٩ فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ﴾

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال ابراهيم عليه السلام (٢:١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (٣:١٦٤ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم ، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : « إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته » وذكر الحديث . وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال « لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية [(١)] » .

وقوله ﴿ عزيز عليه ماعنتم ﴾ أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته و يشق عليها [(٢)] ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن هذا الدين يسر » وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه

قوله ﴿ حريص عليكم ﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخرى اليكم . وعن أبى ذر رضى الله عنه [(٣)] قال « تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء

---

(١) ثم ذكر ابن كثير حديث « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر . كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى . وقد استدل بعض الجاهلين بهذا على إيمان آباء النبى (ص) وهذا من عظيم جهلهم . فليس فيه أى دليل. لأن فى البخارى من حديث عائشة أنهم كانوا فى الجاهلية لهم نكاح هو نكاح الناس اليوم

(٢) فى قرة العيون : ووجه الدلالة بالآية انه «ص» يعز عليه كل مايؤثم الامة ويشق عليهم ، وأعظم مايؤثم الامة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله ومايقرب منه من كبائر الذنوب وقد بالغ «ص» فى النهى عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لايخفى ، وقد كانت هذه حال أصحابه رضى الله عنهم فى قطعهم الخيوط التى رقى للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم .

(٣) ساق ابن كثير سند الطبرانى الى أبى ذر

حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ١٢٩ فإِن تَوَلَّوْا فقل حسبيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً

إلا وهو يذكر لنا منه علما » أخرجه الطبراني ، قال[1] : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بقي شيء يقرب من الجنة و يباعد من النار إلا وقد بينته لكم »

وقوله ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٥ واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين ٢١٦ فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون ٢١٧ وتوكل على العزيز الرحيم) . وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله (فإن تولوْا) أى عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (فقلْ حسبي الله لا إلٰه إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)

قلت : فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أمته أن أنذرَهم وحذرهم الشرك الذى هو أعظم الذنوب ، و بيّن لهم ذرائعه الموصلة اليه ، وأبلغ في نهيهم عنها ، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها ، والصلاة عندها واليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم ، وكما سيأتي في أحاديث الباب .

قوله ﴿ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم » رواه أبو داود باسناد حسن . ورواته ثقات ﴾[2]

---

(١) أى قال أبو ذر : وهو من رواية الطبراني أيضاً . وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الامام أحمد عن ابن عباس حديث الملكين اللذين أتيا رسول الله (ص) في المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . ثم ضربا له ولأمته المثل . وروى عدة أحاديث في هذا المعنى في رحمة النبي (ص)

(٢) في قرة العيون : قال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن ، جيد الاسناد ، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة . نهاهم صلى الله عليه وسلم أنْ يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها ، كما تهجر القبور عن الصلاة اليها ، مخافة الفتنة بها ، ومايفضي إلى عبادتها من دون الله . لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم ، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك

ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن رواته ثقات

وعن علىّ بن الحسين

قوله « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً » قال شيخ الاسلام : أى لاتعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس مايفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة .

وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً »

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعا « لاتجعلوا بيوتكم مقابر فان الشيطان يفر من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه »

قوله « ولا تجعلوا قبرى عيداً » قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد مايعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد . فاذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً . وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية . فلما جاء الله بالاسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى ، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر .

قوله « وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم »

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : يشير بذلك إلى أن ماينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى و بُعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدا

قوله « لاتجعلوا بيوتكم قبورا » تقدم كلام شيخ الاسلام فى معنى الحديث قبله . اه

قوله « وعن على بن الحسين رضى الله عنه « أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة كانت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: لاتتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ فان تسليمكم

يبلغنى أين كنتم » رواه فى المختار ﴾

هذا الحديث والذى قبله جيدان حسنا الاسنادين .

أما الأول فرواه أبو داود وغيره من حديث عبدالله بن نافع الصائغ قال: أخبرنى ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر . وقال ابن معين : هو ثقة . وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ الاسلام رحمه الله : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى: هو حديث حسن جيد الاسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة . وأما الحديث الثانى فرواه أبو يعلى والقاضى اسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسى فى المختارة .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط . اه

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى سهيل قال « رآنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم عند القبر ، فنادانى ، وهو فى بيت فاطمة رضى الله عنها يتعشى ، فقال : هلمّ إلى العشاء . فقلت : لا أريده . فقال : مالى رأيتك عندك القبر ؟ فقلت :سلمت على النبى ﷺ . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ؛ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء »(١)

---

(١) قال فى قرة العيون : وهذا أيضاً له قرب النسب وقرب الدار ؛ فنهى عن المجىء الى القبر للدعاء عنده . فالمجىء إلى القبر للسلام عليه وتحرى إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة . ولو كان مشروعا لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ، ولما أنكروا على من فعله ، وقولهم هو الحجة ، وهو الذى دلت عليه الأحاديث ، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما ، لعلم السلف بما أراده النبى (ص) بنهيه عن الغلو ؛ وخوفه مما وقع ممن غلا فى الدين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ؛ كما قال تعالى (٤ : ١١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى

«أنه رأى رجلا يجىء إلى فُرجة كانت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حبان بن على ؛ حدثنا محمد عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى»

قال شيخ الاسلام : فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله . وذلك يقتضى ثبوته عنده ؛ هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسنداً ؟

قوله ﴿ على بن الحسين ﴾ أى ابن على بن أبى طالب ، المعروف بزين العابدين رضى الله عنه ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهرى : مارأيت قرشياً أفضل منه . مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سِبْط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضى الله عنه.

قوله ﴿ أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة ﴾ بضم الفاء وسكون الراء ، وهى الكُوّة فى الجدار والخوخة ونحوهما .

قوله ﴿ فيدخل فيها فيدعو فنهاه ﴾ هذا يدل على النهى عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى: ماعلمت أحداً رخص فيه، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه ، لأن ذلك لم يشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الانسان المسجد أن يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال « ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » وكان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يأتون إلى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فيصلون ، فاذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكمل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك ؛ أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ؛

= ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)
ولما حدث الشرك بأرباب القبور فى هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال اليها لقصد دعائها ؛ والاستغاثة بها ، وبذل نفيس المال تقربا اليها وتعظيم سدنتها . فيالها من مصيبة ما أعظمها . نسأل الله السلامة من هذا الشرك ومايقرب منه أو يوصل اليه

فنهاه ، وقال : ألا أُحدثكم حديثا سمعْتُه من أبى عن جدّى عن رسول الله ﷺ قال « لاتتخذوا قبرى عِيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ فإن تسليمكم يبلغنى

بل نهاهم عنه فى قوله « لاتتخذوا قبرى عيداً وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى » فبين أن الصلاة تصل اليه من بُعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة فى زمانهم يُدخَل إليها من الباب ، إذ كانت عائشة رضى الله عنها فيها، و بعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلاة ، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاما أو سلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، و بيّن لهم الأحاديث ، أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان فى غيرهم فأضلهم عند قبره (١) وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم فى الظاهر ، وأنه يخرج من القبر و يرونه خارجاً من القبر ، و يظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبى ﷺ ليلة المعراج .

والمقصود : أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف ، وانما كان بعضهم يأتى من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر . كما كان ابن عمر يفعله . قال عبيد الله بن عمر عن نافع « كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى ﷺ فقال : السلام عليك يارسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف » قال عبيد الله « ما نعلم أحداً من أصحاب النبى ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر » وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة. وفى المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبى ﷺ ولكن يسلم و يمضى . ونص أحمد

---

(١) ومن ذلك الحكاية المفتراة المنسوبة الى الشيخ أحمد الرفاعى ؛ وأنه طلب من النبي (ص) مد يده ليقبلها ففعل، وخرجت اليد فقبلها. فانظر بالله كيف استطاعت شياطين الجن والانس أن تلعب بعقول أولئك المخبولين، المحرومين من كل علم وعقل ودين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره .

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لايستقبل القبر ؛ وتنازعوا : هل يستقبله عند السلام عليه أم لا ؟ . وفى الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد ، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب الاشراك بأصحابها . وهذه هى المسألة التى أفتى بها شيخ الاسلام رحمه الله ـ أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ـ ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن مبيح لذلك . كالغزالى وأبى محمد المقدسى . ومن مانع لذلك ، كابن بطه وابن عقيل ؛ وأبى محمد الجُوينى ، والقاضى عياض . وهو قول الجمهور ، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب . لما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال «لا تُشَدُّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى» فدخل فى النهى شَدُّها لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن يكون نهياً ، وإما أن يكون نفياً . وجاء فى رواية بصيغة النهى ، فتعين أن يكون للنهى ، ولهذا فهم منه الصحابة رضى الله عنهم المنع ـ كما فى الموطأ والمسند والسنن ـ عن بَصْرة بن أبى بصرة الغِفارى أنه قال لأبى هريرة ـ وقد أقبل من الطور ـ : «لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُعْمَل المَطِىُّ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى» وروى الامام احمد وعمر بن شَبّة فى أخبار المدينة باسناد جيد عن قَزَعة قال «أتيت ابن عمر فقلت: إنى أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته » فابن عمر وبَصْرة بن أبى بصرة جعلا الطور مما نهى عن شد الرحال اليه . لأن اللفظ الذى ذكراه فيه النهى عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنى منه عام فى المساجد وغيرها ، وأن النهى ليس خاصاً بالمساجد ، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة . فان الله سماه (الوادى المقدس ، والبقعة المباركة) وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذى عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ ومن أراد بسط القول فى ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الاسلام مجيباً لابن الاخنائى (١) فيما اعترض به على مادلت عليه

---

(١) قاضى المالكية فى عصره ، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكرى ؛ على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح ؛ الملك عبدالعزيز آل سعود . أدام الله تأييده ونصره

أين كنتم » رواه فى المختارة

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة

الثانية : إبعاده أُمته عن هذا الحمى غاية البعد

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال

الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة

السادسة : حثه على النافلة فى البيت

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى فى المقبرة

الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب

التاسعة : كونه ﷺ فى البرزخ تعرَض أعمال أُمته فى الصلاة والسلام عليه (١)

الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى . لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة .

وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغايةمافيها: أنها لا مصلحة فى ذلك توجب شدّ الرحال ، ولا مزية تدعو اليه . وقد بسط القول فى ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادى فى كتاب الصارم المنكى فى رده على السبكى ، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة فى زيارة قبر النبى ﷺ وذكر هو وشيخ الاسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبى ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع . إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ، فيحمل على الزيارة الشرعية التى ليس فيها شرك ولا بدعة .

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن النبى «ص» لا يعرض عليه من أعمالنا إلا الصلاة والسلام عليه فقط ، لا كما يظنه المبتدعون أن كل الأعمال تعرض عليه فان وجد خيراً حمد الله وان وجد غير ذلك استغفر ، مستدلين على ذلك بحديث أوهى من بيت العنكبوت ، ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التى رواها البخارى ومسلم

باب

﴿ ماجاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ﴾

وقوله تعالى (٤ : ٥١ ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْت

قوله ﴿ رواه فى المختارة ﴾ المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين .

ومؤلفه : هو أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ ضياء الدين الحنبلى أحد الأعلام . قال الذهبى : أفنى عمره فى هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والاتقان . فالله يرحمه و يرضى عنه .

وقال شيخ الاسلام : تصحيحه فى مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأر بعين وستمائة .

قوله : باب ﴿ ماجاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ﴾

﴿ وقول الله تعالى (٤ : ٥١ ألم ترَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) ﴾

« الوثن » يطلق على ماقصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام (٢٢ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) ومع قوله (٢١ : ٧١ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وقوله (٣٧ : ٩٥ أتعبدون ماتنحتون ؟) فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ، كما تقدم فى الحديث .

قوله ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « جاء حُيَىّ ابن أخطَب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكَوْماء ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفُكُّ العناة ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صُنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار . فنحن خير أم هو؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلا» فأنزل الله تعالى

والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)

وقوله تعالى (٥ : ٦٠ قل هل أُنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله ؟ مَن لعنه الله وغضِب عليه وجعل منهم القِرَدةَ والخنازير وعَبَد الطاغوت)

(ألم إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)(١) . وفى مسند أحمد عن ابن عباس نحوه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان » وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبى مالك « الجبت الشيطان ـ زاد ابن عباس : بالحبشية » وعن ابن عباس أيضاً : « الجبت الشرك » وعنه « الجبت الأصنام » وعنه « الجبت : حيي بن أخطب » وعن الشعبي « الجبت الكاهن » وعن مجاهد « الجبت كعب بن الأشرف » قال الجوهرى « الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك »(٢)

قال المصنف رحمه الله تعالى (وفيه معرفة الايمان بالجبت والطاغوت فى هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟)

قوله ﴿ وقوله تعالى (٥:٦٠ قل هل أُنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله : من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردَة والخنازير وعَبَد الطاغوت) ﴾

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف . وقال الامام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال « لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية . قال أنتم خير : قال فنزلت فيهم (إن شانئك هو الأبتر) ونزل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ الآية) و « الكوماء » الناقة العظيمة السنام لسمنها . و « العناة » جمع « عان » وهو الأسير . و « الصنبور » الأبتر الذى لاعقب له . وأصله سفعة تنبت فى جذع النخلة لا فى الأرض ، وقيل هى النخلة المنفردة التى دق أسفلها . أرادوا أنه اذا قلع انقطع ذكره كما يذهب الصنبور لأنه لا عقب له .

(٢) زاد ابن كثير عن الجوهري : وفى الحديث « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » قال ابن كثير : رواه الامام أحمد عن قبيصة بن مخارق

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد هل أخبركم بشرّ جزاء عنـد الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أى أبعده من رحمته (وغضب عليه) أى غضباً لايرضى بعده أبداً (وجعل منهم القردة والخنازير) وقد قال الثورى عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن المغيرة بن عبد الله اليَشْكُرى عن المعرور بن سُويد أن ابن مسعود رضى الله عنه قال « سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهى مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يُهلك قوماً - أو قال لم يمسخ قوماً - فجعل لهم نسلا ولا عقبا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم[(١)]

قال البغوى فى تفسيره (قل) يا محمد (هل أنبئكم) أخبركم (بشرّ من ذلك) الذى ذكرتم ، يعنى قولهم : لم نرَ أهل دين أقلّ حظًّا فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الابتداء و إن لم يكن الابتداء شراً ، لقوله تعالى(٢٢ : ٧٢ قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم ؟ النار)

وقوله ﴿ مثوبة ﴾ ثوابا وجزاء ، نصب على التفسير (عند الله ، من لعنه الله) أى هو من لعنه الله (وغضب عليه) يعنى اليهود (وجعل منهم القردة والخنازير) فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وعن على بن أبى طلحة عن ابن عبـاس « أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير »

(وعَبَد الطاغوت) أى وجعل منهم مَنْ عبد الطاغوت ، أى أطاع الشيطان فيما سوّل له ، وقرأ ابن مسعود[(٢)] (عبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة : و «عَبُد» بضم الباء ، و «الطاغوتِ» بجر التاء[(٣)] أراد العبد . وهما لغتان : عَبْد بسكون الباء ، وعَبُد بضمها ، مثل سَبْع وسَبُع[(٤)]

---

(١) رواه مسلم فى كتاب القـدر فى باب بيان أن الآجال والأرزاق لاتزيد ولا تنقص من وجهين : أولهما عن أبى بكر بن أبى شيبة ، وأبى كريب عن مسعر . وهذا هو الذى فيه « ولا عقبا » والثانى عن إسحاق بن ابراهيم الحنظلى وحجاج بن الشاعر واللفظ لحجاج : وليس فيه « ولا عقبا »

(٢) فى البغوى : وتصدقها قراءة ابن مسعود

(٣) فيكون على الاضافة ، على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أى خدامه وعبيده

(٤) فى تفسير البغوى وقيل : هو جمع العباد وقرأ الحسن أخ .

وقرأ الحسن « وعبد الطاغوت » على الواحد [1]

وفى تفسير الطبرسى : قرأ حمزة وحده «وعبُد الطاغوتِ» بضم الباء وجر التاء ، والباقون « وعبَد الطاغوتَ» بنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابراهيم النخعى والأعمش وأبان بن تغلب « وعُبُدَ الطاغوتِ » بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحجة حمزة فى قراءته (وعبُد الطاغوت) أنه يحمله على ماعمل فيه (جعل) كأنه : وجعل منهم عبد الطاغوت . ومعنى (جعل) «خلق» . كقوله (وجعل الظلمات والنور) وليس (عبد) لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء ، ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن فى الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الأفراد ومعناه الجمع، كما فى قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس ؛ وكأن تقديره : أنه ذهب فى عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال (وعبَد الطاغوت) فانه عطفه على بناء المضى الذى فى الصلة ؛ وهو قوله (لعنه الله) وأفرد الضمير فى «عبد» وان كان المعنى فيه الكثرة ، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه ، وفاعله ضمير «من» كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير «من» فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ . وأما قوله (عبد الطاغوت) فهو جمع عبد [2]

وقال أحمد بن يحيى : عُبُد جمع عابد ؛ كبازل و بُزل، وشارف وشُرف، وكذلك عبد جمع عابد . ومثله عباد وعُبّاد . اه

وقال شيخ الاسلام فى قوله (وعبد الطاغوت) الصواب أنه معطوف على ماقبله من الأفعال، أى مَن لعنه وغضب عليه ، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت . قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله، مظهراً أو مضمراً . وهنا الفاعل اسم مَنْ عبد الطاغوت. وهوالضمير فى (عبد) ولم يعد سبحانه (من) لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود

قوله ﴿ أولئك شر مكانا ﴾ مما تظنون بنا ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى (٢٥: ٢٤ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) قاله العماد ابن كثير فى تفسيره ، وهوظاهر

---

(١) آخر النقل عن البغوى

(٢) قال ابن كثير : على أنه جمع الجمع . عبد وعبيد وعبد ؛ مثل ثمار و ثمر

وقوله تعالى ﴿ ٢١:١٨ قال الذين غُلبوا على أمرِهم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجدا ﴾

عن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لتتبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » أخرجاه

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٢١:١٨ قال الذين غُلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) ﴾ والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله . لأن النبي ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » أراد تحذير أُمته أن يفعلوا كفعلهم

قوله ﴿ عن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لتتبعن سَنن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » أخرجاه ﴾ وهذا سياق مسلم

قوله ﴿ سنن ﴾ بفتح المهملة أى طريق من كان قبلكم . قال المهلب : الفتح أولى

قوله ﴿ حذو القذة بالقذة ﴾ بنصب (حذو) على المصدر . والقذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم . أى لتتبعن طريقهم فى كل ما فعلوه ، وتشبهوهم فى ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو عَلم من أعلام النبوة

قوله ﴿ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ﴾ وفى حديث آخر « حتى لو كان فيهم من يأتى أمه علانية لكان فى أُمتى من يفعل ذلك » أراد ﷺ أن أُمته لا تدع شيئا مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئا . ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارى . اه

قلت : فما أكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما فى حديث ثوبان الآتى قريبا

قوله ﴿ قالوا يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ ﴾ هو برفع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف ، أى أهُم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم ؟ و يجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعنى

قوله (قال فمن ؟) استفهام إنكارى . أى فمن هم غير أولئك ؟

ولمسلم عن ثَوبانَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زَوَى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أُمَّتي سيبلغُ ملكها ما زَوَى لي منها .

قوله ﴿ ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، و إن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها . وأُعطيت الكنزين : الأحمر ، والأبيض . و إنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة بعامة ، وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، و إن ربى قال : يامحمد ، إذا قضيت قضاء فانه لايرد ، ، وانى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة . وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا » ورواه البرقانى فى صحيحه وزاد « و إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين . واذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَىٌّ من أمتى ، بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان . وانه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى ؛ وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى ﴾

هذا الحديث رواه أبو داود فى سننه وابن ماجه بالزيادة التى ذكرها المصنف

قوله ﴿ عن ثوبان ﴾ هو مولى النبى ﷺ صحبه . ولازمه . ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

قوله ﴿ زوى لى الأرض ﴾ قال التُّورِبِشْتى : زويت الشىء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب . وحاصله : أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف فى مرآة ينظره . قال الطيبى : أى جمعها لى حتى أبصرت ماتملكه أمتى من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله ﴿ و إن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ﴾ قال القرطبى : هذا الخبر وجد مخبره كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة - بالنون والجيم - الذى هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد السند والهند والصغد ؛ ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة

وأُعطيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألتُ ربى لأمتى أن لا يُهلكها بسَنَةٍ بعامة ، وأن لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم ، فيستبيحَ بَيْضتهم . وإن ربى قال : يامحمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يُرَدّ . وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامة . وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ،

الجنوب والشمال . ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه .

قوله ﴿ زوى لى منها ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله ﴿ وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ﴾ قال القرطبى : يعنى به كنز كسرى ، وهو مُلك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما و بلادهما . وقد قال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة . ووجد ذلك فى خلافة عمر . فانه سيق اليه تاج كسرى وحليته وما كان فى بيوت أمواله ، وجميع ماحوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر . « والأبيض والأحمر » منصوبان على البدل .

قوله ﴿ وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ﴾ هكذا ثبت فى أصل المصنف رحمه الله (بعامة) بالباء ، وهى رواية صحيحة فى صحيح مسلم وفى بعضها بحذفها . قال القرطبى : وكأنها زائدة لأن (عامة) صفة السنة ، والسنة : الجدب الذى يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجدب والقحط : سنة . ويجمع على سنين ، كما قال تعالى (٧ : ١٣٠ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أى الجدب المتوالى .

قوله ﴿ من سوى أنفسهم ﴾ أى من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضا ، وسبى بعضهم بعضا ، كما هو مبسوط فى التاريخ فيما قبل . وفى زماننا هذا ، نسأل الله العفو والعافية .

قوله ﴿ فيستبيح بيضتهم ﴾ قال الجوهرى : بيضة كل شىء حوزته . و بيضة القوم ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث : أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ماحازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهى جوانبها . وقيل : بيضتهم معظمهم وجماعتهم ، و إن قلوا .

ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضا، ويَسْبي بعضهم بعضا » ورواه البَرقاني في صحيحه .

قوله ﴿ حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضاً ﴾ والظاهر أن (حتى) عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضا . وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم

قوله (وان ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يُردّ) قال بعضهم : أي إذا حكمت حكما مبرما نافذاً فانه لا يرد بشيء ، ولا يقدر أحد على رده ، كما قال النبي ﷺ « ولا راد لما قضيت »

قوله (رواه البرقاني في صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة . قال الخطيب : كان ثبتاً ورعا ، لم نر في شيوخنا أثبت منه ؛ عارفا بالفقه كثير التصانيف . صنف مسنداً ضمنه مااشتمل عليه الصحيحان . وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة

وهذا الحديث رواه أبوداود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ « إن الله — أو قال إن ربي — زوى لي الأرض فأُريت مشارق الأرض ومغاربها ، وان ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها . وأُعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . وأني سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة عامة(١) ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وان ربي قال لي :يامحمد إني إذا قضيت قضاءً فانه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولواجتمع عليهم من بين أقطارها — أو قال : بأقطارها — حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً . وانما أخاف على أمتي الأئمة المضلين . واذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى

---

(١) الذي في سنن أبي داود (ج٤ ص ١٥) مع شرح عون المعبود — وهي طبعة هندية مصححة بدقة « بسنة بعامة » وقال في عون المعبود وفي رواية مسلم « بسنة عامة » في باب الفتن

وزاد « وإنما أخاف على أُمَّتى الأئمَّةَ المضلّين .

تعبد قبائل من أمتى الأوثان . وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبىّ بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق - قال ابن عيسى : ظاهرين، ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله تعالى »(١)

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « تدور رَحى الاسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يَقُمْ لهم دينهم يقم سبعين عاما ، قال ، قلت : أمِمَّا بقى أو مما مضى ؟ قال : مما مضى »(٢) .

وروى فى سننه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن ، ويلقى الشُّحُّ، ويكثر الهرْجُ ، قيل: يارسول الله أيّمْ هو؟ قال : القتل القتل »

قوله ﴿ وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ﴾ أى الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم(٣) ، كما قال تعالى (٣٣:٦٧ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبرى فانى أقضيها له ولا خير فى رجل يحجبهُ عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا هو الضلال البعيد ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه مالا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم ، وقد قال تعالى (٢٢:١٢ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ١٣ يدعو لَمنْ ضَرُّه أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) وقال تعالى (٢٥:٣

(١) قال فى عون المعبود : اسناده صحيح

(٢) قال الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى فى كتاب الاطراف : وأخرجه البخارى فى الصحيح فى الأدب وفى الفتن ؛ ومسلم فى القدر ، وأبو داود فى الفتن

(٣) فى قرة العيون : كما قال تعالى (٦:١١٩ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال (٣٧:٧١ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وأمثال هذه الآيات كثير ، وعن زياد بن حدير قال : قال لى عمر : «هل تعرف مايهدم الاسلام ؟ قلت لا ، قال يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب ؛ وحكم الأئمة المضلين» . رواه الدارمى

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) وقال تعالى (٢٩ : ١٧ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) وأمثال هذا فى القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : مَنْ يدّعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف ، ويدعى أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، ويعلم أسرار الناس وما فى ضمائرهم ، ويُجوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والافراط والعبادة لغير الله . فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله .

وقوله صلى الله عليه وسلم (وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين) أتى بإنما التى قد تأتى للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وما وقع فى خَلَد النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما فى الحديث قبله من قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم ـ الحديث »

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون » رواه أبو داود الطيالسى . وعن ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

وقد بين الله تعالى فى كتابه صراطه المستقيم الذى هو سبيل المؤمنين . فكل من أحدث حدثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون وحدثه مردود ، كما قال صلى الله عليه وسلم « من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا ولا عَدْلا » وقال « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » وقال « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وهذه أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله تعالى هذا الأصل فى مواضع من كتابه العزيز ، كما قال تعالى (٧ : ٣ اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٤٥ : ١٨ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ونظائرها فى القرآن كثير .

وعن زياد بن حُدَير قال : قال لى عمر رضى الله عنه « هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زَلّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمى

وإذا وقع عليهم السيف لم يُرْفَع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حَيٌّ من أمتي بالمشركين . وحتى تَعْبُدَ فِئامٌ من أمتي الأوثان .

وقال يزيد بن عمير : كان «معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلا و يقول : الله حكم قسط : هلك المرتابون - وفيه : فاحذروا زيغة الحكيم، فان الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ؛ والمنافق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال : ماهذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه ، فانه لعله أن يراجع الحق؛ وتَلَقَّ الحق إذا سمعته؛ فان على الحق نوراً» رواه أبو داود وغيره

قوله (و إذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وكذلك وقع . فان السيف لما وقع بقتل عثمان رضى الله عنه لم يرفع ؛ وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن قد يكثر تارة و يقل أخرى ، و يكون فى جهة و يرتفع عن أخرى(١)

قوله (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين) «الحى» واحد الأحياء وهى القبائل: وفى رواية أبى داود « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين » والمعنى : أنهم يكونون معهم و يرتدون برغبتهم عن أهل الاسلام ؛ و يلحقون بأهل الشرك .

قوله (وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان) « الفئام » بكسر الفاء مهموز : الجماعات الكثيرة، قاله أبو السعادات.

وفى رواية أبى داود « وحتى تعبد قبائل من أمتى الاوثان »

وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان . وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد(٢) ؛ فالتوحيد هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب .

---

(١) قال فى قرة العيون : وفيه ماهو حق ، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ، وجهادهم على تركهم الشرك ، وقد من الله بذلك على من أقامهم فى آخر هذا الزمان بالدعوة الى توحيده ، لكن أهل الشرك بدأوهم بالقتال ، وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين فى هذه الأزمنة . اه

(٢) فى قرة العيون : وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لا يعرف أحد فى

وفى معنى هذا الحديث : مافى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أَلْـيَات نساء دَوْس على ذى الخَلَصة . قال : وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية » وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقا

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لايجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها و إبطالها يوما واحداً ، وكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور ، والتى اتخذت أوثانا تعبد من دون الله ؛ والأحجار التى تقصد للتبرك والنذر لايجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركا عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ؛ وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ؛ وصار المعروف منكراً والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الاسلام ، وقلّ العلماء ؛ وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ؛ وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لاتزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ؛ ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . اه ملخصاً

قلت : فاذا كان هذا فى القرن السابع وقبله ، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع

قوله « وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى » قال القرطبى : وقد جاء

= هذه القرون المتأخرة أنكر ماوقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذى أنكره ونهى عنه . ودعا الناس إلى تركه والى أن يعبدوا الله وحده لاشريك له فى ألوهيته وأسمائه وصفاته . فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة . فأظهره الله بالحجة ، وأعز أنصاره على من ناوأهم . وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولكن من الناس من عرف ومنهم من أنكر . وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها . فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين

قال أبو طاهر — غفر الله لهما — : وانما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذى دعا اليه الشيخ ابن عبد الوهاب . فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر فى ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقا لقول الله تعالى(٥٧ : ٢٥ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ماوفقهم له

وأنا خاتم النبيين . لا نبيَّ بَعْدى .

عددهم معيناً فى حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « يكون فى أمتى كذابون دجالون سبع وعشرون ؛ منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم . وقال : هذا حديث غريب . انتهى وحديث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضى عياض : عدّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة . فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا (١) .

وقال الحافظ : وقد ظهر مصداق ذلك فى زمن رسول الله ﷺ ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العنَسى باليمن ، وفى خلافة أبى بكر : طُليحة بن خويلد فى بنى أسد بن خزيمة ، وسَجاج فى بنى تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبى ﷺ ، وقتل مسيلمة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، قتله وَحْشى قاتل حمزة يوم أُحد ، وشاركه فى قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الاسلام فى زمن عمر رضى الله عنه . ونقل أن سجاج تابت أيضاً . ثم خرج المختار بن أبى عبيد الثقفى وغلب على الكوفة فى أول خلافة ابن الزبير . وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ؛ وأعان عليه . فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرث الكذاب ؛ خرج فى خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . وخرج فى خلافة بنى العباس جماعة .

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا . فانهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء . وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا . وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقى منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله ﴿ وأنا خاتم النبيين ﴾ قال الحسن . الخاتم : الذى ختم به يعنى أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

---

(١) للسيد صديق حسن خان كتاب الاذاعة لما كان ويكون بين يدى الساعة . عد فيه أولئك الدجالين الى زمنه ؛ وعد منهم الدجال الافرنجى الخبيث غلام أحمد القاديانى الهندى قبحه الله وأخزاه ، ومن اتبعه على كفره ، فانه ماقام بفتنته وادعى المهدوية ثم النبوة إلا بايعاز ومساعدة دولة نصرانية ، سياستها التفريق لجماعات المسلمين

ولا تزالُ طائفة من أمتى على الحقّ منصورة لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتىَ أمرُ الله، تبارك وتعالى »

وإنما ينزل عيسى بن مريم فى آخر الزمان حاكما بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمًا مُقْسِطا. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليَضَعنّ الجزية »

قوله ﴿ ولا تزال طائفة من أُمتى على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ﴾ قال يزيد بن هٰرون، وأحمد بن حنبل « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟ »

قال ابن المبارك وعلى بن المدينى، وأحمد بن سنان، والبخارى وغيرهم «إنهم أهل الحديث» وعن ابن المدينى رواية « هم العرب » واستدل برواية من روى، هم أهل الغرب. وفسر الغرب بالدلو العظيمة، لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووى: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع و بصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد، وافتراقهم فى أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولا فأولا إلى أن لايبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فاذا انقرضوا جاء أمر الله. اه ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ

قال القرطبى : وفيه دليل على أن الاجماع حجة لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة(١).

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه الآية العظيمة : أنهم مع قلتهم لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. وفيه البشارة بأن الحق لايزول بالكلية ﴾

قلت : واحتج به الامام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع مادامت هذه الطائفة موجودة.

قوله ﴿ حتى يأتى أمر الله ﴾ الظاهر أن المراد به ماروى من قبض مَنْ بقى من المؤمنين

---

(١) المراد من الاجماع : اجماع كل من يعتد به من هذه الأمة فى جميع أقطار الأرض ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه، ولذلك يروى عن الشافعي وأحمد : ان من ادعى الاجماع بعد الصحابة فقد أخطأ .

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النساء

الثانية : تفسير آية المائدة

الثالثة : تفسير آية الكهف

الرابعة : ـ وهى أهمها ـ مامعنى الايمان بِالجبْتِ والطاغوتِ ، هل هو اعتقادُ قلب ، أوهو موافقةُ أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها ؟

الخامسة : قولهم : إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدىَ سبيلا من المؤمنين

السادسة : ـ وهى المقصود بالترجمة ـ أنّ هذا لابدّ أن يوجد فى هذه الأمة ، كما تقرر فى حديث أبى سعيد

السابعة: التصريح بوقوعها، أعنى عبادَة الأوثانِ فى هذه الأمة فى جموعٍ كثيرة

بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ؛ ثم لايبقى إلا شِرار الناس ، كما روى الحاكم أن عبد الله ابن عمرو قال « لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية » فقال عُقبة بن عامر لعبد الله : «اعلم ماتقول ، وأما أنا فسمعت النبى ﷺ يقول : لاتزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله ظاهرين لايضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » قال عبد الله : « ويبعث الله ريحاً ريحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة» وفى صحيح مسلم «لاتقوم الساعة حتى لايقال فى لأرض الله الله»

وعلى هذا فالمراد بقوله فى حديث عقبة وما أشبهه «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم . وهى وقت موتهم بهبوب الريح . ذكره الحافظ

وقد اختلف فى محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : انها تكون فى بيت المقدس ، كما رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة « قيل: يارسول الله ، أين هم ؟ قال : ببيت المقدس » وقال معاذ ابن جبل رضى الله عنه « هم بالشام » وفى كلام الطبرى مايدل على أنه لايجب أن تكون فى الشام أو فى بيت المقدس دائما، بل قد تكون فى موضع آخر فى بعض الأزمنة

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فانهم من أزمنة طويلة

الثامنة : العجبُ العجاب : خروج مَن يَدّعى النبوة ، مثل المختار مع تكلّمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة . وأنّ الرسول حقّ وأن القرآن حقّ . وفيه أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصَدَّق فى هذا كله مع التضادّ الواضح : وقد خرج المختارُ فى آخر عصر الصحابة وتبعه فِئامٌ كثيرة .

التاسعة : البشارة بأن الحق لايزول بالكلية ، كما زال فيما مضى ، بل لا تزالُ عليه طائفة .

العاشرة : الآيةالعظمى أنهم مع قلّتهم لايضرهم مَنْ خذلهم ولا من خالفهم .

الحادية عشرة : أنّ ذلك الشرط إلى قيام الساعة

الثانية عشرة : مافيهن من الآيات العظيمة .

منها : إخبارُه بأن الله زوَى له المشارقَ والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال

وإخبارُه بأنه أُعطى الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأمته فى الاثنتين

وإخباره بأنه مُنعَ الثالثة

وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع

وإخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة

لايعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه وأصحابه فى القرن السابع وأول الثامن ، فانهم كانوا فى زمانهم على الحق يدعون اليه ، و يناظرون عليه ، ويجاهدون فيه . وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة . والله على كل شىء قدير

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة فى زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء فى ذلك الزمان

وكل هذا وقع كما أخبر ، مع أن كل واحدٍ منها من أبعدِ مايكون فى العقول .

الثالثة عشرة : حَصْرُ الخوف على أمته من الأئـمة المضلين

الزابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان

وقبله و بعده لم يكونوا فى محل واحد ، بل هم فى غالب الأمصار : فى الشام منهم الأئمة ، وفى الحجاز وفى مصر ، وفى العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ، ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التى صارت أعلاما لأهل السنة ، وحجة على كل مبتدع

فعلى هذا ، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تـكون فى الشام ، وقد تـكون فى غيره ، فان حـديث أبى أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام ، وانما يفيد أنها تكون فى الشام فى بعض الأزمان لا فى كلهـا

وكل جملة من هذا الحديث عَلم من أعلام النبوة ، فان كل ما أخبر به النبى ﷺ فى هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ .

وقوله ﴿ تبارك وتعالى ﴾ قال ابن القيم رحمه الله : البركة نوعان : أحدهما بركة هى فَعَلة والفعل منها بارك ، و يتعدى بنفسه تارة و بأداة « على » تارة ، و بأداة « فى » تارة ، والمفعول منها مبارك . وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركا بجعله تعالى

والنوع الثانى : بركة تضاف اليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المتبارك ، وعبـده ورسوله المبارك ، كما قال المسيح عليه السلام (١٩ : ٣٠ وجعلنى مباركا أينما كنت) فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك وأما صفة تبارك فمختصة به ، كما أطلقه على نفسه فى قوله (٧ : ٥٤ تبارك الله رب العالمين) (٦٧ : ١ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) أفلا تراها كيف اطردت فى القرآن جارية عليه مختصة به ، لاتطلق على غيره ؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه ، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذى هو دال على كمال العلو ونهايتـه ، فـكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف (تبارك) تعاظم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء بكل بركة

باب

﴿ ماجاء في السحر ﴾

وقول الله تعالى ﴿ ٢ : ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾

قوله ﴿ باب ما جاء في السحر ﴾ أي والكهانة

السحر في اللغة : عبارة عما خفي ولطُف سببه ، ولهذا جاء في الحديث « إن من البيان لسحراً »(١) وسمى السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل

قال أبو محمد المقدسي في الكافي : السحر عزائم ورُقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان ؛ فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه . قال الله تعالى (٢ : ١٠٢ فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه) وقال سبحانه (ومن شر النفاثات في العقد) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه

وعن عائشة رضي الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر حتى إنه ليخيل اليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، وأنه قال لها ذات يوم : أتاني ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومَن طَبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم في مشط ومِشاطة وفي جَف طلعة ذَكر في بئر ذَرْوان » رواه البخاري

قال ﴿ وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) ﴾ قال ابن عباس (من نصيب) قال قتادة : وقد علم أهل الكتاب فيما عهد اليهم : أن الساحر لا خلاق له في الآخرة . وقال الحسن : ليس له دين

فدلت الآية على تحريم السحر ، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام ؛ كما قال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يُفلح الساحر حيث أتى) وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم شيئا من السحر قليلا كان أو كثيرا كان آخر عهده من الله » وهذا مرسل

« ١ » رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر

وقولة (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت)

قال عمر «اجبت السحر، والطاعوت الشيطان»

وقال جابر «الطواغيت : كهان ، كان ينزل عايهم الشيطان فى كل حى واحد»

واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله . قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شىء يضر فلا يكفر

وقال الشافعى : إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فان وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد إباحته كفر . اه

وقد سماه الله كفراً بقوله (٢ : ١٠٢ إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله (٢ : ١٠٢ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) قال ابن عباس فى قوله (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والايمان ، فعرفا أن السحر من الكفر

قال ﴿ وقوله تعالى (يؤمنون بالجبت والطاغوت) تقدم الكلام عليهما فى الباب قبله . وفيه أن السحر من الجبت . قاله المصنف رحمه الله

قوله ﴿ قال عمر رضى الله عنه : الجبت السحر . والطاغوت : الشيطان ﴾ هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره

قوله ﴿ وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، فى كل حى واحد ﴾ هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم بنحوه مطولا عن وهب بن منبه قال : «سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون اليها، فقال : إن فى جهينة واحداً ، وفى أسلم واحداً ، وفى هلال واحداً ، وفى كل حى واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين »(١)

---

(١) الذى يستخلص من كلام السلف رضى الله عنهم : أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله واخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله . سواء فى ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الانس ، والأشجار والأحجار وغيرها . ويدخل فى ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الاسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الانسان ليحكم به فى الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا

قوله ﴿ قال جابر ﴾ هو ابن عبد الله بن حرام الأنصارى (١)

قوله ﴿ الطواغيت كهان ﴾ أراد أن الكهان من الطواغيت ؛ فهو من أفراد المعنى

قوله ﴿ كان ينزل عليهم الشيطان ﴾ أراد الجنس لا الشيطان الذى هو ابليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين و يخاطبونهم و يخبرونهم بما يسترقون من السمع ، فيصدقون مرة و يكذبون مائة .

قوله ﴿ فى كل حى واحد ﴾ الحى واحد الأحياء ، وهم القبائل ؛ أى فى كل قبيلة كاهن يتحاكمون اليه و يسألونه عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبى ﷺ ، فأبطل الله ذلك بالاسلام وحرست السماء بكثرة الشهب .

قوله ﴿ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا : يارسول الله وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ؛ وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾

كذا أورده المصنف غير معزو . وقد رواه البخارى ومسلم

قوله ﴿ اجتنبوا ﴾ أى أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ، لأن النهى عن القربان أبلغ ، كقوله (٦: ١٤١ ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن)

قوله ﴿ الموبقات ﴾ بموحدة وقاف . أى المهلكات . وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفى الآخرة من العذاب

وفى حديث ابن عمر عند البخارى فى الأدب المفرد والطبرى فى التفسير ، وعبد الرزاق مرفوعا وموقوفا قال « الكبائر تسع - وذكر السبعة المذكورة - وزاد : والالحاد فى الحرم ، وعقوق الوالدين » ولابن أبى حاتم عن على قال « الكبائر - فذكر السبع - إلا مال اليتيم ، وزاد -

---

= والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها . والقوانين نفسها طواغيت ، وواضعوها ومروجوها طواغيت . وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشرى ليصرف عن الحق الذى جاء به رسول الله (ص) إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه . فهو طاغوت .

(١) توفى جابر سنة ٧٤ وقيل سنة ٧٧ ، وكان عمره أربعاً وتسعين سنة

العقوق ، والتعرب بعد الهجرة ؛ وفراق : الجماعة ، ونكث الصفقة »

قال الحافظ : ويحتاج عندى هذا الجواب عن الحكمة فى الاقتصار على سبع

ويجاب : بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أولا بالمذكورات . ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .

وقد أخرج الطبرانى واسماعيل القاضى عن ابن عباس أنه قيل له « الكبائر سبع » قال : « هن أكثر من سبع وسبع » وفى رواية « هى إلى السبعين أقرب » وفى رواية « إلى السبعمائة »[1]

قوله ﴿ قال الشرك بالله ﴾ هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ، ويخافه كما يخاف الله ، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود « سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، الحديث » وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عسال قال « قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى ، فقال له صاحبه : لا تقل نبى ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال النبى ﷺ : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تولوا للفرار يوم الزحف ؛ وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت . فقبلا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبى — الحديث » وقال حسن صحيح .

قوله (السحر) تقدم معناه . وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة

وقوله (وقتل النفس التى حرم الله) أى حرم قتلها . وهى نفس المسلم المعصوم .

قوله (إلا بالحق) أى بأن تفعل ما يوجب قتلها ، كالشرك ، والنفس بالنفس ، والزانى بعد الاحصان ، وكذا قتل المعاهد ، كما فى الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة »

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلالا بقوله تعالى (٤ : ٩٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً

---

(١) قد ألف الحافظ عبد الرحمن بن رجب رحمه الله كتابا فى عد الكبائر . طبع . ولشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : كتاب مسائل الجاهلية ، هو كذلك فى عد الكبائر

فجزاؤه جهنم خالداً فيها) وقال ابن عباس « نزلت هذه الآية وهى آخر ما نزل ، وما نسخها شىء » وفى رواية « لقد نزلت فى آخر ما نزل ، وما نسخها شىء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى » وروى فى ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الامام أحمد والنسائى وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فان تاب وأناب وعمل صالحا بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى (٢٥ : ٦٨ – ٧١ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل صالحا – الآيات)

قوله (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) قال أبو هريرة وغيره « هذا جزاؤه إن جازاه »

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد ابن عبادة أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقول (لمن قتل مؤمناً توبة) وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما . وروى مرفوعا « أن جزاءه جهنم إن جازاه » .

قوله (وأكل الربا) أى تناوله بأى وجه كان ؛ كما قال تعالى (٢ : ٢٧٥ – ٢٨٠ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس – الآيات) قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الخاتمة . نعوذ بالله من ذلك .

قوله (وأكل مال اليتيم) يعنى التعدى فيه . وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ، كما قال تعالى (٤ : ١٠ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً)

قوله (والتولى يوم الزحف) أى الادبار عن الكفار وقت التحام القتال ، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال . كما قيد به فى الآية[1]

---

(١) فى سورة الأنفال (٨ : ١٥، ١٦ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله)

وقذف المحصناتِ الغافلات المؤمنات »

وعن جُنْدَب مرفوعا « حَدُّ الساحر ضرُبه بالسيف » رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف .

وفى صحيح البخارى عن بَجالة بن عَبْدة قال :

قوله (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وهو بفتح الصاد : المحفوظات من الزنا ؛ و بكسرها الحافظات فروجهن منه . والمراد الحرائر العفيفات ، والمراد رميهن بزنا أو لواط ، والغافلات ، أى عن الفواحش وما رمين به . فهو كناية عن البريئات . لأن الغافل برىء عما بهت به . والمؤمنات ، أى بالله تعالى احترازاً من قذف الكافرات .

قوله « وعن جندب مرفوعا « حدُّ الساحر ضرب به بالسيف » رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف »

قوله « عن جندب » ظاهر صنيع الطبرانى فى الكبير أنه جندب بن عبدالله البجلى . لا جندب الخير الأزدى قاتل الساحر فانه رواه فى ترجمة جندب البجلى من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وخالد العبد ضعيف . قال الحافظ : والصواب أنه غيره . وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير « أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ؛ وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكره » وجندب الخير هو جندب بن كعب ، وقيل : جندب بن زهير ، وقيل : هما واحد ، كما قال ابن حبان : أبو عبدالله الأزدى الغامدى صحابى ، روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة »

قوله « حد الساحر ضربة بالسيف » وروى بالهاء و بالتاء ، وكلاهما صحيح .

و بهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك عن عمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمر بن عبد العزيز ؛ ولم ير الشافعى القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل فى سحره مايبلغ الكفر . و به قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد . والأول أولى للحديث ولأثر عمر ، وعمل به الناس فى خلافته من غير نكير .

« كتب عمر بن الخطاب : أنِ اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة » قال فقتلنا ثلاث سواحر

وصح عن حفصة رضى الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَتها . فقُتلت

وكذلك صح عن جندب

قال ﴿ وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب أن أقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر ﴾

هذا الأثر رواه البخارى كما قال المصنف رحمه الله ؛ لكن لم يذكر قتل السواحر

قوله ﴿ عن بجالة ﴾ بفتح الموحدة بعدها جيم ؛ ابن عبدة بفتحتين ، التميمى العنبرى بصرى ثقة .

قوله ﴿ كتب الينا عمر بن الخطاب أن أقتلوا كل ساحر وساحرة ﴾ وظاهره أنه يقتل من غير استتابة . وهو كذلك على المشهور عن احمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة . وعن أحمد يستتاب ؛ فان تاب قبلت توبته ؛ وبه قال الشافعى لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله ﴿ وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت ﴾

هذا الأثر رواه مالك فى الموطأ .

وحفصة هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبى ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين

قوله ﴿ وكذلك صح عن جندب ﴾ أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخارى فى تاريخه عن أبى عثمان النهدى قال « كان عند الوليد رجل يلعب فذبح انساناً وأبان رأسه فعجبنا ، فأعاد رأسه فجاء جندب الازدى فقتله » ورواه البيهقى فى الدلائل مطولا . وفيه « فأمر به الوليد فسجن . فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة

قوله ﴿قال احمد عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ﴾ احمد هو الامام احمد بن محمد بن حنبل [1]

(١) الامام الجليل ، ناصر السنة وقامع البدعة ، الصابر المحتسب فى الله ولله على مالقى فى نصر دين الله ، العلم الحافظ الحجة . ولد سنة ١٦٤ ومات سنة ٢٤١ . قال الشافعى رحمه الله : خرجت من بغداد وماخلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل . رحمة الله عليه

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة

الثانية : تفسير آية النساء

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجنّ وقد يكون من الإنس

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى

السادسة : أن الساحر يكفر

السابعة : أنه يُقتل ولا يستتاب

الثامنة : وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟

باب

﴿ بيان شيء من أنواع السحر ﴾

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف

قوله ﴿ عن ثلاثة ﴾ أى صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ ، يعنى عمر ، وحفصة ، وجندباً . والله أعلم .

قوله : باب ﴿ بيان شيء من أنواع السحر ﴾

قلت : ذكر الشارح رحمه الله تعالى ها هنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التى غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال : ولشيخ الاسلام كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فراجعه . انتهى

قال رحمه الله تعالى ﴿ قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا عوف عن حيان بن

عن حيان بن العلاء حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال « إن العِيافَة والطَّرْق والطِّيَرَة من الجبت »

قال عوف : العيافة زَجر الطير . والطرق الخط يخط بالأرض (١)

العلاء ، حدثنا قَطَن بن قَبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال إن « العيافة ، والطّرق ، والطِّيرة من الجِبْت » قال عوف : العيافة زجر الطير ، والطرق الخط يخط فى الأرض ، والجبت : قال الحسن « رنة الشيطان » اسناده جيد . ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه ﴾

قوله ﴿ قال أحمد ﴾ هو الامام أحمد بن محمد بن حنبل

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغُندَر الهذلى البصرى ، ثقة مشهور ، مات سنة ست ومائتين.

وعوف هو ابن أبى جميلة — بفتح الجيم — العبدى البصرى ، المعروف بعوف الاعرابى، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء هو بالتحتية ، ويقال حيان بن مخارق ، أبو العلاء البصرى مقبول

وقَطَن ، بفتحتين أبو سهل البصرى صدوق .

قوله (عن أبيه) هو قبيصة — بفتح أوله — ابن مخارق — بضم الميم — أبو عبد الله الهلالى . صحابى نزل البصرة .

قوله (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف : العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ؛ وهو من عادات العرب ، وكثير فى أشعارهم ؛ يقال : عاف يعيف عيفا ، إذا زجر وحدس وظن .

« ١ » هو مايسمونه خط الرمل وعلمه ، وهو ذائع بين أهل العصر ، ولبعضهم فيه تأليف وقد يتعيش به كثير من المتكهنين يغرون به البله والجهلة ؛ زاعمين أنهم يطلعون على المغيبات وهم كاذبون ؛ فان هذا العلم بل الجهل لايقصد به الا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وقد بحثت فى قواعده فوجدته كما ذكرت لك رجما بالغيب وهو من الجبت كما فى الحديث ؛ فيجب على المؤمنين بالله الكفر به . ومثله مايسمونه علم قراءة الكف ؛ وقراءة الفنجان ؛ ومناجاة حب البن ونحوه ؛ كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن والانس ببعضهم . نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الامراض الفتاكة

والجبت : قال الحسن «رنّة الشيطان» إسناده جيد

ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه المسند منه

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من اقتبس شُعبة

قوله (والطرق الخط يخط الأرض) كذا فسره عوف ، وهو كذلك .

وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء . وأما الطيرة فيأتى الكلام عليها فى بابها إن شاء الله تعالى .

قوله (من الجبت) أى السحر . قال القاضى : والجبت فى الأصل الفشل الذى لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر

قوله ﴿قال الحسن : رنة الشيطان﴾ قلت : ذكر ابراهيم بن محمد بن مفلح أن فى تفسير بَقِيّ بن مَخْلَد أن إبليس رنّ أربع رنات : رنة حين لُعن ، ورنة حين أُهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب . قال سعيد بن جبير : لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنّ رنة ، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة . رواه ابن أبى حاتم . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنّ إبليس رَنّةً اجتمعت اليه جنوده . رواه الحافظ الضياء فى المختارة : الرنين الصوت . وقد رن يرن رنيناً ، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ ولأبى داود وابن حبان فى صحيحه : المسند منه ﴾ ولم يذكر التفسير الذى فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن .

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من اقتبس شُعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود باسناد صحيح ﴾ وكذا صححه النووى والذهبى ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله ﴿ من اقتبس ﴾ قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته إذا علمته[1] . اه

قوله ﴿ شعبة ﴾ أى طائفة من علم النجوم . والشعبة الطائفة . ومنه الحديث « الحياء

---

(١) أصله مأخوذ من القبس ، وهو القليل من النار ليستدفىء به . قال موسى (لأهله : امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى)

من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد مازاد » رواه أبو داود، وإسناده صحيح
وللنسائي من حديث أبي هريرة « مَن عَقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سَحر ،

شعبة من الايمان » أى جزء منه .

قوله (فقد اقتبس شعبة من السحر) المحرم تعلمه .

قال شيخ الاسلام رحمه تعالى : فقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علم النجوم من السحر ، وقال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يفلح الساحر حيث أتى)

قوله (زاد ما زاد) أى كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد فى الاثم الحاصل بزيادة الاقتباس[١] من شُعَبه ، فان ما يعتقده فى النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير السحر باطل[٢]

قوله (وللنسائى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « من عَقَد عقدة ثم نفَث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئاً وكل اليه » هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبى هريرة وعزاه للنسائى . وقد رواه النسائى مرفوعا وحسنه ابن مفلح .

قوله (وللنسأى) هو الامام الحافظ أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق ، وكان

«١» الوعيد لمن يتعلم منه مايؤدى الى الكفر كادعاء علم الغيب كما فى كتيب ينسب الى أبى معشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء اسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول . وقد تمدن الشياطين واخوانهم من سحرة هذا الزمان فى البلاد المتمدنة ؛ فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك ، مثل اسم التنويم المغناطيسى ومناجاة الأرواح واستحضارها بأنواع من الحيل والتعازيم المتمدنة أيضا

٢) علم النجوم علمان : علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها . وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به . وعلم يُعرف بالعلم الروحانى ، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها فى الأرض ومن عليها بالأمراض والحروب والضيق والسعة والموت والحياة ؛ والسعادة والشقاوة بين الزوجين إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا . ولهم فى ذلك مايسمونه بالطالع ، ويعملون جدولا بالحوادث التى ستحدث فى العام كله من حوادث عامة وخاصة . وهذا هو الدجل والكذب . وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم

ومن سَحر فقد أشرك . ومن تعلّـق شيئاً وُكِل اليه »

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «ألا هل أُنبئكم ما العَضْه ؟

اليه المنتهى فى العلم بعلل الحديث ؛ مات سنة ثلاث وثلثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى

قوله (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر) إعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) يعنى السواحر اللاتى يفعلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل . والنفث فعـل الساحر ، فاذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ فى تلك العقدة نفخا معه ريق . فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك ، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه باذن الله الكونى القدرى لا الشرعى ؛ قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

قوله (ومن سحر فقد أشرك) نص فى أن الساحر مشرك ، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله (ومن تعلّـق شيئاً وكل اليه) أى من تعلق قلبه شيئاً ؛ بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشىء (١) . فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شىء ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟) ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك . ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق ونظر بعين البصـيرة رأى ذلك عياناً ؛ وهذا من جوامع الـكلم . والله أعلم

قال (وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هى النميمة ، القالة بين الناس » رواه مسلم)

قوله (ألا هل أنبئكم) أخبركم و (العضه) بفتح المهملة وسكون المعجمة ؛ قال أبو السعادات

---

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى (٦٥ : ٣ [ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وهذا التعلق هو روح الايمان وخلاصة التوحيد ، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه فى دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك

هى النميمة : القالة بين الناس » رواه مسلم

ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « إن من البيان لسحراً »

هكذا يروى فى كتب الحديث . والذى فى كتب الغريب « ألا أنبئكم ما العِضَه » بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشرى : أصلها « العضهة » فعلة من العضه وهو البهت . فحذفت لامه ، كما حذفت من السنة والشفة ، وتجمع على « عضين » ثم فسره بقوله « هى النميمة القالة بين » فأطلق عليها « العضه » لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبى

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال : « يفسد النمام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة » . وقال أبو الخطاب فى عيون المسائل : ومن السحر السعى بالنميمة والافساد بين الناس . قال فى الفروع : ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، أشبه السحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله السحر ، أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهى ملخصاً

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النميمة ؛ وهو مجمع عليه قال ابن حزم رحمه الله : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة فى غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله (القالة بين الناس) قال أبو السعادات : أى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس ومنه الحديث « فشت القالة بين الناس »

قال ﴿ ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « إن من البيان لسحراً » ﴾ البيان البلاغة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان « صدق نبى الله ، فان الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق » وقال ابن عبد البر تأولته طائفة على الذم . لأن السحر مذموم ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح . لأن الله تعالى مدح البيان . قال وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : « هذا والله السحر الحلال » انتهى . والأول أصح

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت

الثانية : تفسير العيافة والطرق

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك

الخامسة : أن النميمة من ذلك

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة

باب

﴿ ماجاء فى الكهان ونحوهم ﴾

والمراد به البيان الذى فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

فى زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مُجاج النحل ، تمدحه ... وإن تشأ قلت : ذا قىء الزنابير

مدحاً وذماً ، وما جاوزتَ وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله (إن من البيان لسحراً) هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل السحر ، فيجعل الحق فى قالب الباطل ، والباطل فى قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذى يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو الممدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم فى الفضائل وعظمت حسناتهم .

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الاسهاب والاطناب وتغطية الحق وتحسين الباطل . فاذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » رواه أحمد وأبو داود

روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال « مَن أتى عَرّافا فسأله عن شىء فصدَّقه لم تقبَل له صلاة أربعين يوما »

قوله ﴿ باب ما جاء فى الكهان ونحوهم ﴾

« الكاهن » هو الذى يأخذ عن مسترق السمع؛ وكانوا قبل المبعث كثيراً . وأما بعد المبعث فانهم قليل . لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب . وأكثر ما يقع فى هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الانس عن الأشياء الغائبة بما يقع فى الأرض من الأخبار ، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة[1] ، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله. وهو من أولياء الشيطان، كما قال تعالى (٦ : ١٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس. وقال أولياؤهم من الانس : ربنا استمتع بعضنا ببعض. و بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم)

قوله ﴿ روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال « من أتى عَرّافا فسأله عن شىء، فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوما » ﴾

قوله ﴿ عن بعض أزواج النبى ﷺ ﴾ هى حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفى .لأنه ذكر هذا الحديث فى الأطراف فى مسندها

قوله (من أتى عرافا) سيأتى بيان العراف إن شاء الله تعالى . وظاهر هذا الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك فى خبره . فان فى بعض روايات الصحيح « من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »

قوله ﴿ لم تقبل له صلاة ﴾ إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسئول ؟ قال النووى

«١» والواقع أن ذلك من تآلف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الانسان الخبيث فيتناجيان . ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحب من الأخبار التى يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الانسان الآخر . وهكذا فان لكل انسان قرينا من الشيطان كما جاء ذلك فى القرآن والسنة . فيخبر شيطان الانس بما أوحى اليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله فى منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه اليه الشيطان القرين ، فيظن الجهلة والمغفلون ان ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات ؛ وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه . وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وان اعتقده وخدع به كثير ممن ينتسب الى ظاهر العلم والصلاح

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « مَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » رواه أبو داود

وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن (١) « من أتى عرَّافا أو كاهناً فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ »

وغيره : معناه أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث ؛ فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة . اه ملخصاً

وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه . قال القرطبي : يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجيء اليهم ، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء اليهم ممن ينتسب إلى العلم ، فانهم غير راسخين في العلم بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور

قال ﴿ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه أبو داود ﴾

وفي رواية أبي داود « أو أتى امرأة — قال مسدد : امرأته حائضاً — أو أتى امرأة . قال مسدد : امرأته في دبرها — فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ » فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة

قال ﴿ وللأربعة والحاكم — وقال صحيح على شرطهما عن من أتى عرافا أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ﴾

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي. وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعا

قوله (من أتى كاهناً) قال بعضهم : لا تعارض بين هذا و بين حديث « من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » هذا على قول من يقول هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين . وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون

---

(١) بياض بالأصل

ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا

وعن عمران بن حصين مرفوعا « ليس منا من تَطير أو تُطُيِّر له ، أو تكهن

عن الشياطين .

قوله (فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) قال القرطبي : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . اه وهل الكفر فى هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينقل عن الملة ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال يخرج عن الملة ولا لا يخرج ؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى

قال ﴿ ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا ﴾

أبو يعلى اسمه أحمد بن على بن المثنى الموصلى الامام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روى عن يحيى بن معين وأبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة وخلق . وكان من الأئمة الحفاظ ، مات سنة سبع وثلاثمائة ؛ وهذا الاثر رواه البزار أيضاً ولفظه « من أتى كاهناً أوساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك و يرضى به وذلك كفر أيضاً [1]

قال ﴿ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مرفوعا « ليس منا من تطيّر أو تُطيّر له، أو تَكَهن أو تُكُهّن له ، أو سَحر أو سُحر له . ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه البزار باسناد جيد ، و رواه الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى كاهناً » إلى آخر ﴾

قوله (ليس منا [2]) فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله (من تطير) أى فعل الطيرة (أو تطير له) أى قبل قول المتطير له وتابعه وكذا

(١) وذلك لأن فى الكتاب المنزل (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير) وقال فى سورة الأنعام (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) وقال فى سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) فمن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات ، ومن كذبها كفر

(٢) فيه دليل على نفى الايمان الواجب ، وهو لاينافى ماتقدم من أن الطيرة شرك ؛ وأن الكهانة كفر

أو تُكُهِّن له ، أو سَحر أو سُحر له . ومَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » رواه البزار باسناد جيد

ورواه الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى – إلى آخره

قال البغوى : العراف الذى يدَّعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة . ونحو ذلك

وقيل :هو الكاهن . والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل . وقيل : الذى يخبر عما فى الضمير

وقال أبو العباس بن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق

معنى «أو تكهن أو تكهن له » كالذى يأتى الكاهن و يصدقه و يتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركا ، كالطيرة ، أو كفراً كالكهانة والسحر ،فمن رضى بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه .

قوله ﴿ رواه البزار ﴾ هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ؛ أبو بكر البزار البصرى صاحب المسند الكبير . وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق ؛ مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله ﴿ قال البغوى إلى آخره ﴾ البغوى – بفتحتين — هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعى ؛ صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان ، كان ثقة فقيهاً زاهداً ؛ مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ العرّاف : الذى يدعى معرفة الأمور ﴾ ظاهره : أن العرّاف هو الذى يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرّمال

ونحوهم ، كالحازر الذى يدعى علم الغيب أو يدعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل فى اسم العراف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال إيضاً : والمنجم يدخل فى اسم الكاهن عندالخطابى وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن العرب . وعند آخرين هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالا منه ، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الامام أحمد : العرافة طَرَف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العـرّاف المنجم ، والحازر الذى يدعى علم الغيب ، وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : من اشتهر باحسان الزجر عندهم سموه عائفا ، وعرافا .

والمقصود من هـذا : معرفة أن من يدعى معرفة علم شىء من المغيبات فهو إما داخل فى اسم الكاهن، و إما مشارك له فى المعنى فيلحق به . وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ماهو من الشياطين و يكون بالفـأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى و الخط فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ ، فان هـذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم (١) ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرّافا أو فى معناهما ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان

---

(١) ومعنى الجاهلية : الاعراض عن العلم المنزل من الله على رسله هدى ورحمة ، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات ، وما يوحى به الشياطين ، ويحددها قول الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقد عادت الجاهلية الى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشراً منها ، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوهما مهجورين ، فوجودهما حجة عليهم فقط ، ولا يغرنك منهم عمائم ولحى وصور فما وراءها الا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شراً من عقلية من يتبعون أذناب الابل والبقر . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعى أنه ولى و يقول للناس: اعلموا أنى أعلم المغيبات ؛ فان هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، و إن كانت أسبابا محرمة كاذبة فى الغالب، ولهذا قال النبى ﷺ فى وصف الكهان «فيكذبون معها مائة كذبة» فبين أنهم يصدقون مرة و يكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه . لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى (٣٢:٥٣ فلا تزكوا أنفسكم) وليس هذا من شأن الأولياء ، فان شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس و يقولون: اعرفوا أننا أولياء، و أنا نعلم الغيب ؟ وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شىء ؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضى الله عنه ؛ وكان عمر رضى الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته ، وكان يمرّ بالآية فى ورده من الليل فيمرض منها ليالى يعودونه ، وكان تميم الدارى يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلا خوفا من النار ثم يقوم إلى صلاته . و يكفيك فى صفات الأولياء ماذكره الله تعالى فى صفاتهم فى سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور[1] فالمتصفون بتلك الصفات

«١» قوله تعالى (١٣: ١٩و ٢٠ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ـ الآيات الى ٢٤) وقوله (١٣: ٣٠ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقوله (٢٢ :٥٧ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ـ الآيات الى ٦١) وقوله (٢٥ : ٦٣ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ـ الآيات الى ٧٦) وقوله (١٥:٥١ ان المتقين فى جنات وعيون ـ الآيات الى ١٩) وقوله (١٧:٥٢ ان المتقين فى جنات ونعيم ـ الآيات الى ٢٨)

هذا وفى القرآن الكريم صفات المؤمنين كثير جدا ؛ بل أكثر آى القرآن فى وصف الايمان وأهله ؛ وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقا كثيفا أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن فى قوم يبولون على ثيابهم وهم فى غاية القذر والوسخ، ولا يركعون لله ركعة ؛ وقد سلبوا كل نعمة الا الحيوانية ؛ وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يفتتن بها أولئك الجاهلين، ولا قوة الا بالله

وقال ابن عباس — فى قوم يكتبون أباجاد وينظرون فى النجوم — « ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق

فيه مسائل :

الأولى : لايجتمع تصديق الكاهن مع الايمان بالقرآن

الثانية : التصريح بأنه كفر

الثالثة : ذكر من تُكُهِّن له

الرابعة : ذكر من تُطير له

الخامسة : ذكر من سحر له

هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية فى الدنيا والآخرة

قوله ﴿ وقال ابن عباس فى قوم يكتبون أبا جاد إلى آخره ﴾ هذا الأثر رواه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا . واسناده ضعيف . ولفظه « رُبّ مُعَلِّم حروف أبى جاد دارسٍ فى النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حميد بن زَنجويه عنه بلفظ « رُب ناظرٍ فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق »

قوله ﴿ ما أرى ﴾ يجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن

وكتابة « أبى جاد » وتعلمها لمن يدعى بها علم الغيب هو الذى يسمى علم الحرف(١)، وهو الذى جاء فيه الوعيد ، فأما تعلمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله ﴿ وينظرون فى النجوم ﴾ أى ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتى فى باب التنجيم . وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى (٤٠ : ٨٣ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

---

١) وينسبه الدجالون المشركون الى جعفر الصادق ؛ ولهم فى ذلك كلام كثير فى منتهى الكفر والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فأعملوا فى هدم الاسلام كل معول

السادسة : ذكر من تعلم أباجاد

السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف

باب ما جاء فى النشرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ؟ فقال هى من عمل الشيطان رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله

قوله ﴿ باب ماجاء فى النُّشْرة ﴾

بضم النون ؛ كما فى القاموس . قال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ماخامره من الداء ؛ أى يكشف ويزال .

قال الحسن : النُّشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث: « فلعل طباً أصابه ؛ ثم نشره بقل أعوذ برب الناس » أى رقاه .

وقال ابن الجوزى: النشرة حل السحر عن المسحور . ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر

قال ﴿ عن جابر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ « سئل عن النشرة فقال: هى من الشيطان» رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ، فقال : ابن مسعود يكره هذا كله » ﴾

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود فى سننه . والفضل بن زياد فى كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر فذكره . قال ابن مفلح : اسناد جيد ، وحسن الحافظ اسناده

قوله ﴿ سئل عن النشرة ﴾ والألف واللام فى (النشرة) للعهد أى النشرة المعهودة التى كان أهل الجاهلية يصنعونها هى من عمل الشيطان

قوله ﴿ وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله ﴾ أراد أحمد رحمه الله أن ابن مسعود يكره النشرة التى هى من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً

وفى البخارى عن قتادة : قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته ، أيُحَلّ عنه أو يُنْشر ؟ قال : لابأس به ، إنما يريدون به الاصلاح ، فأما ماينفع فلم ينه عنه .اه

وروى عن الحسن أنه قال لا يحُلّ السحر إلا ساحر

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان (أحدهما) حل

قوله ﴿ وللبخارى عن قتادة : قلت لابن المسيب « رجل به طبّ أو يُؤَخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ، أو يُنَشّر ؟ قال: لابأس به : إنما يريدون به الاصلاح فأما ماينفع فلم يُنه عنه»

قوله ﴿ عن قتادة ﴾ هو ابن دعامة — بكسر الدال — الدوسى ثقة فقيه من أحفظ التابعين . قالوا إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة

قوله ﴿ رجل به طب ﴾ بكسر الطاء . أى سحر ، يقال : طُبّ الرجل — بالضم — ذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلا . كما يقال للديغ : سليم

وقال ابن الانبارى : الطب من الاضداد . يقال لعلاج الداء طب ، والسحر من الداء يقال له طب .

قوله ﴿ يؤَخَّذ ﴾ بفتح الواو مهموزة وتَشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة ، أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذة ـ بضم الهمزة ـ الكلام الذى يقوله الساحر

قوله ﴿ أيُحل ﴾ بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول

قوله ﴿ أو ينشر ﴾ بتشديد المعجمة

قوله (لا بأس به) يعنى أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الاصلاح ؛ أى إزالة السحر ؛ ولم ينه عما يراد به الاصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله ﴿ وروى الحسن أنه قال « لا يَحُل السحر إلا ساحر » ﴾ هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى جامع المسانيد .

والحسن هو ابن أبى الحسن واسمه : يسار — بالتحتية والمهملة — البصرى الأنصارى : مولاهم . ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة رحمه الله ، وقد قارب التسعين

بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان . وعليه يُحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور (والثانى) النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز .

فيه مسائل:

الأولى : النهى عن النشرة . الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال

قوله *(قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان ، حل بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان إلى آخره)* ومما جاء فى صفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال « بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر باذن الله ، تقرأ فى إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور [1] : الآية التى فى سورة يونس (١٠ : ٨١ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله . إن الله لا يصلح عمل المفسدين : ٨٢ ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقوله (٧ : ١١٨-١٢٠ فوقع الحق و بطل ما كانوا يعملون) إلى آخر الآيات الأربع . وقوله (٢٠ : ٦٩ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)

وقال ابن بطال : فى كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء و يقرأ فيه آية الكرسى والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت : قول العلامة ابن القيم (والثانى النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأى ليث بن سليم ولا برأى ابن القيم ولا غيرهما ؛ وانما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله «ص» ولم يجىء عنه «ص» شىء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم . وماينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الاسرائيليين لا على هدى خير المرسلين. ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر . وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدى رسول الله «ص» والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ويتجنب المحدثات وان كانت عمن يكون فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله «ص»

باب ماجاء فى التطير

وقول الله تعالى ﴿ ٧ : ١٣١ ألا إنما طائرهم عندالله ولـكن أكثرهم لايعلمون ﴾

المباحة فهذا جائز) يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء

والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز . والله أعلم

قوله ﴿ باب ماجاء فى التطير ﴾

أى من النهى عنه والوعيد فيه ، مصدر تَطيّر يتطير ، و « الطِّيرة » بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طِيرة ، كما يقال : تخير خِيرة ، ولم يجىء فى المصادر على هذه الزنة غيرهما ، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لاتأثير له فى جلب نفع ولا دفع ضر .

قال المدائنى « سألت رُؤبة بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال ما ولاّك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ماولاك مياسره . والذى يجىء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد »

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لـكمال التوحيد الواجب لـكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه و وسوسته (١) ذكرها المصنف رحمه الله فى كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافى كمال التوحيد الواجب .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٧:١٣١ ألا إنما طائرهم عند الله) الآية ﴾ ذكر تعالى هذه الآية فى سياق قوله (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنـا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية) المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة ، أى الخِصْب والسعة والعافية ، كما

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفا وطمعاً ، ومنافاتها للتوكل على الله الذى لاينفع ولا يضر غيره ، واعتقاد النفع والضر فى طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد ، وإنما تذهب وتجىء فى ضرورة معايشها وشئونها . فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثراً فى جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر ، وتمكن الخرافات والجهل وعمى القلوب . وهذا اعتقاد المنجمين فى النجوم التى سخرها الله تعالى تجرى فى بروجها ومداراتها لمستقرلها ، اعتقدوا لها تأثيراً فى الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم عليه السلام

وقوله ﴿ ٣٦ : ١٩ قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾

فسره مجاهد وغيره — قالوا : لنا هذه ، أى نحن الجديرون والحقيقيون به ، ونحن أهله . و إن تصبهم سيئة . أى بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) قال ابن عباس « طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم » وفى رواية « شؤمهم عند الله و مِن قِبَله » أى إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله

قوله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى أن أكثرهم جهال لا يدرون . ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه

قوله ﴿ وقوله تعالى (٣٦ : ١٩ قالوا طائركم معكم - الآية) ﴾ المعنى - والله أعلم - حظكم وما نابكم من شر معكم ؛ بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا . بل ببغيكم وعدوانكم . فطائر الباغى الظالم معه ، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله ؛ كما قال تعالى (٦٨ : ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٣٦ مالكم كيف تحكمون) ويحتمل أن يكون المعنى : طائركم معكم . أى راجع عليكم ، فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص فى الكلام . ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم [١] » ذكره ابن القيم رحمه الله

قوله تعالى (أئن ذُكّرتم) أى من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام (بل أنتم قوم مسرفون) قال قتادة : أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟

ومناسبة الآيتين للترجمة : أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين . وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم ؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك . كما سيأتى فى أحاديث الباب

قال *(وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا عَدْوَى ولا طِيَرة ولا هامة ولا صَفَر » أخرجاه . زاد مسلم « ولا نَوْء ولا غُول »)*

قال أبو السعادات « العدوى » اسم من الإعداء . كالدعوى . يقال : أعداه الداء يعديه

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أنس رضى الله عنه

إعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء

وقال غيره : « لا عدوى » هو اسم من الاعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفى نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

وفى رواية لمسلم أن أباهريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ؛ ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال « لا يُوردُ مُمرِض على مُصِح » ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث « لا يورد ممرض على مصح » وأمسك عن حديث « لاعدوى » فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يعترف به . قال أبو مسلمة — الراوى عن أبى هريرة : فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟

وقد روى حديث « لا عدوى » جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر بن عبدالله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ؛ وغيرهم ، وفى بعض روايات هذا الحديث « وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد »

وقد اختلف العلماء فى ذلك . وأحسن ماقيل فيه : قول البيهقى ؛ وتبعه ابن الصلاح وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله « لا عدوى » على الوجه الذى يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وإن هذه الأمور تعدى بطبعها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال « فِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » وقال « لا يورد ممرض على مصح » وقال فى الطاعون « من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه » وكل ذلك بتقدير الله تعالى . ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعا « لا يعدى شيء » قالها ثلاثا ؛ فقال أعرابى يا رسول الله إن النُّقْبة [1] من الجَرَب تكون بمِشْفَر البعير أو بذنبه فى الأبل العظيمة فتجْرَب كلها ؟ فقال رسول الله ﷺ : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها » فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب

(١) النقبة ـ بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة ـ أول شيء يظهر من الجرب ؛ وجمعها : نقب ـ بسكون القاف . لأنها تنقب الجلد أى تخرقه

الشر إذا كان فى عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء وفى النار ، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر . فكذلك اجتنيب مقاربة المريض كالمجذوم ، والقدوم على بلد الطاعون . فان هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها . لا خالق غيره ولا مقدر غير . وأما إذا قوى التوكل على الله والايمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ؛ ففى هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى : « أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة ، ثم قال كل بسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه » وقد أخذ به الامام احمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضى الله عنهم . ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه أكل السم ومنه مَشْى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى على متن البحر ؛ قاله ابن رجب رحمه الله

قول ﴿ ولا طيرة ﴾ قال ابن القيم رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً أى لا تطيروا ، ولكن قوله فى الحديث « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها . والنفى فى هذا أبلغ من النهى . لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ؛ والنهى إنما يدل على المنع منه

وفى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ « ومنا أُناس يتطيرون . قال : ذلك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته ؛ لا فى المتطير به ، فوهمه وخوفه و إشراكه هو الذى يطيره و يصده لما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأمته الأمر ؛ و بيّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ؛ ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السماوات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد ؛ فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ، لئلا يبقى فيها علقة منها ؛ ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ألبتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ؛ قطع هاجس

ولا هامَة ولا صفر » أخرجاه.

الطيرة من قبل استقرارها ، و بادر خواطرها من قبل استمكانها . قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ؛ فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم : خير خير . فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر. فبادره بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره فى الخير والشر. وخرج طاوس مع صاحب له فى سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خ ـ . فقال طاوس : وأى خير عند هذا ؟ لا تصحبنى . اهـ ملخصاً

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله ﷺ « الشؤم فى ثلاث : فى المرأة ، والدابة ، والدار » ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم فى هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التى نفاها الله سبحانه ، وانما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهـذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولداً مباركا يريان الخير على وجهه ، و يعطى غيرهما ولداً مشؤوما يريان الشر على وجهه ، وكذلك مايعطاه العبد من ولاية وغيرها ؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، و يقضى بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له . و يخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب ور بطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة . كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من النـاس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك فى الديار والنساء والخيل . فهذا لون والطيرة الشركية لون . انتهى

قوله ﴿ ولا هامة ﴾ بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل. كأنه يعنى البومة . قال ابن الاعرابى : كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم ، يقول: نَعَت إلىّ نفسى أو أحداً من أهل دارى ، فجاء الحديث بنفى ذلك و إبطاله .

قوله ﴿ ولا صفر ﴾ بفتح الفاء ، روى أبو عُبيدة فى غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هى حيّة تكون فى البطن تصيب الماشية والناس ، وهى أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هـذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العـدوى . وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والامام أحمد والبخارى و ابن جرير .

زاد مسلم : « ولا نَوْءَ ، ولا غُـول »

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ ويُعْجِبُنِى الفألُ

وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفى لما كان أهل الجاهلية يفعلونه فى النسىء ، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم ؛ فأبطل النبى ﷺ ذلك . قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة .

قوله ﴿ ولا نوء ﴾ النوء واحد الأنواء ، وسيأتى الكلام عليه فى بابه إن شاء الله تعالى .

قوله ﴿ ولا غول ﴾ هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان ، وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين ، كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً فى صور شتى وتغولهم ، أى تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبى ﷺ وأبطله

فان قيل: مامعنى النفى وقد قال النبى ﷺ « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان [1] » أُجيب عنه : بأن ذلك كان فى الابتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : المنفى ليس وجود الغول ، بل مايزعمه العرب من تصرفه فى نفسه ، أو يكون المعنى بقوله « لا غول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه . ويشهد له الحديث الآخر « لا غول ولكن السعالى سحرة الجن » أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل . ومنه الحديث « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أى ادفعوا شرها بذكر الله . وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها. ومنه حديث أبى أيوب « كان لى تمر فى سَهوة فكانت الغول تجىء فتأخذ »

قوله ﴿ ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة ﴾

---

(١) قال السيوطى فى الجامع الصغير: رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة وهو ضعيف

قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمةُ الطَّيبة »
ولأبى داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال « ذُكرتْ الطِّيرةُ عند رسول الله

قوله ﴿ ويعجبنى الفأل ﴾ قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت ،على التحقيق والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفا، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فان فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء ، والتفاؤل :أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : ياسالم ، أو يكون طالب ضالّة فيسمع آخر يقول : ياواجد ، فيقع فى ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته. ومنه الحديث « قيل يارسول الله ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة »

قوله ﴿ قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة ﴾ بين ﷺ أن الفأل يعجبه. فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس فى الاعجاب بالفأل ومحبته شىء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الانسانية التى تميل إلى مايوافقها ويلائمها. كما أخبرهم ﷺ أنه حبب اليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع اليه ، ويحب معالى الأخلاق ومكارم الشيم . وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضى اليهما ، والله سبحانه قد جعل فى غرائز الناس الاعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته ، وميل نفوسهم اليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك ، فاذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب ، واذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفا وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ؛ فأورث لها ضرراً فى الدنيا ونقصاً فى الايمان ومقارفة الشرك .

وقال الحليمى: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال

قوله ﴿ ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال « ذكرت الطيرة عند رسول الله

ﷺ فقال : «أحسنُها الفألُ ، ولا تَرُدُّ مسلما ، فإذا رأى أحدكم مايكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت .

ﷺ فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فاذا رأى أحدكم مايكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك » ﴾

قوله ﴿ عن عقبة بن عامر ﴾ هكذا وقع فى نسخ التوحيد، وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكى اختلف فى نسبه؛ فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشى ، وقال غيره : الجهنى . واختلف فى صحبته ، فقال الماوردى: له صحبة، وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين ، وقال المزى : لا صحبة له تصح

قوله ﴿ فقال أحسنها الفأل ﴾ قد تقدم أن النبى ﷺ كان يعجبه الفأل . وروى الترمذى وصححه عن أنس رضى الله عنه « أن النبى ﷺ كان اذا خرج لحاجته يحب أن يسمع : يانجيح، ياراشد » وروى أبو داود عن بريدة « أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شىء ، وكان إذا بعث عاملا سأله عن اسمه فاذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك فى وجهه» واسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل .

قال ابن القيم : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا : منعه من الرقى بالشرك وإذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك ، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة .

قوله ﴿ ولا ترد مسلماً ﴾ قال الطيبى : تعريض بأن الكافر بخلافه

قوله ﴿ اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ﴾ أى لا تأتى الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات ، وتدفع السيئات ، و «الحسنات» هنا النعم ، و «السيئات» المصائب ، كقوله (٤ :٧٨ و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ؛ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)

ولا حول ولا قوة إلا بك »

وعن ابن مسعود مرفوعا « الطِّيَرَة شِرْك ، الطيرة شرك . وما منا إلا ،

ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة ، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركا .

قوله ﴿ ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و « الحول » التحول والانتقال من حال إلى حال ؛ و « القوة » على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته . وهذا هو التوحيد في الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الالهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والارادة ؛ وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله ﴿ وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا « الطِّيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » رواه أبو داود والترمذي وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود ﴾ ورواه ابن ماجه وابن حبان . ولفظ أبي داود « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك . ثلاثا » وهذا صريح في تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ؛ وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية ؟

قال في شرح السنن : وإنما جعل الطيره من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله ﴿ وما منا إلا ﴾ قال ابو القاسم الاصبهاني ، والمنذري : في الحديث إضمار . التقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك . اهـ

وقال الخلخالي : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة . وهذا من أدب الكلام .

ولـكن الله يُذهِبُه بالتوكل » رواه أبو داود والترمذى وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد من حديث ابن عمر « ومَنْ رَدَّته الطِّيرَةُ عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟

قوله ﴿ ولـكن الله يذهبه بالتوكل ﴾ أى لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله ﴿ وجعل آخره من قول ابن مسعود ﴾ قال ابن القيم : وهو من الصواب ؛ فان الطيرة نوع من الشرك .

قال ﴿ ولأحمد من حديث ابن عمرو ﴾ من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك ﴾

هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفى إسناده ابن لهيعة(١) و بقية رجاله ثقات

قوله (من حديث ابن عمرو) وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى أبو محمد . وقيل أبو عبد الرحمن ؛ أحد السابقين المكثرين من الصحابة ؛ وأحد العبادلة الفقهاء . مات فى ذى الحجة ليالى الحرة على الأصح بالطائف (٢)

قوله (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن الطيرة هى التشاؤم بالشىء المرئى أو المسموع ، فاذا رده شيء من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كإرادة السفر ونحوه ، فمنعه عما أراده وسعى فيه مارأى وماسمع تشاؤما ، فقد دخل فى الشرك . كما تقدم ؛ فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ماسواه ، فيكون للشيطان منه نصيب

قوله (فما كفارة ذلك ؟) إلى آخره . فاذا قال ذلك وأعرض عما وقع فى قلبه ، ولم يلتفت

---

(١) هو عبدالله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى قاضيها وعالمها ومسندها . قال الامام أحمد : احترقت كتبه . وهو صحيح الكتاب . ومن كتب عنه قديما فسماعه صحيح . مات سنة ١٧٤

(٢) واقعة الحرة وفتنة الحرة . الموقعة التى كانت من أهل الشام فى أهل المدينة ، بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته ؛ فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثاً ، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله (ص) ورضي عنهم ؛ وكان ذلك سنة خمس وستين

قال : أن تقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرُكَ ، ولا طَيْرَ إلا طيرُكَ ، ولا إلٰهَ غيرك »

وله من حديث الفضل بن عباس رضى الله عنه « إنما الطِّيرة ما أمضاك أو رَدَّك »

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) مع قوله (طائركم معكم)

الثانية : نفى العدوى

الثالثة : نفى الطيرة

اليه ، كفـَّر الله عنه ما وقع فى قلبه ابتداء لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والإعراض عما سواه

وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى فى طريقه ؛ وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان فى ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ، لأنه أعرض عن واجب الايمان بالله ؛ وأن الخير كله بيده ؛ فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته ، وهو الذى يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه و إحسانه ؛ فلا خير إلا منه ، وهو الذى يدفع الشر عن عبده ، فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك)

قوله ﴿ وله من حديث الفضل بن عباس « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » ﴾

هذا الحديث عند الامام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال « خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً ، فبرّح ظبى ؛ فمال فى شقه فاحتضنته ، فقلت : يارسول الله تطيرت ، فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » وفى إسناده انقطاع ، أى بين مسلمة راويه و بين الفضل ، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى ﷺ . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصُّفَّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . وقال أبوداود : قتل بدمشق . كان عليه درع رسول الله ﷺ

قوله ﴿ إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك ﴾ هذا حد الطيرة المنهى عنها: أنها ما يحمل الانسان على المضى فيما أراده ؛ ويمنعه من المضى فيه كذلك . وأما الفأل الذى كان يحبه النبى ﷺ فيه

الرابعة : نفى الهامة

الخامسة : نفى الصفر

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب

السابعة : تفسير الفأل

الثامنة : أن الواقعَ فى القلوب من ذلك مع كراهته لا يضرُّ ، بل يُذهبُه الله بالتوكل

التاسعة : ذكر مايقول مَنْ وَجده

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك

الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة

باب

ماجاء فى التنجيم

قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة : « خلق الله هـــذه النجوم لثلاث :

نوع بشارة ، فيسرّ به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده ، فان للقلب عليه نوع اعتماد . فافهم الفرق والله أعلم

قوله (باب ماجاء فى التنجيم)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية

وقال الخطابى : علم النجوم المنهى عنه هو مايدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجىء المطر ، وتغير الأسعار ، ومافى معناها من الأمور التى يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها ، واجتماعها وافتراقها ، يدّعون أن لها تأثيراً فى السفليات ، وهذا منهم تحكُّم على الغيب ، وتعاط لعلم قد استأثر الله به ، لا يعلم الغيب سواه

قوله (قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ،

زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين .

ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به)

هذا الأثر علقه البخارى فى صحيحه . وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب فى كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال « إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلهما زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه ، وتكلف مالا علم له به ، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب : ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء » . انتهى(1)

فتأمل ما أنكره هذا الامام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين . وما زال الشر يزداد فى كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار ، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار فمقلّ ومستكثر ، وعزّ فى الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة به فى الدين . فانا لله وإنا اليه راجعون .

قوله ﴿ خلق الله هذه النجوم لثلاث ﴾ قال تعالى (٦٧ : ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (١٦:١٦ وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وفيه إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا ، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما السماء الدنيا فان الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجا وقمراً

---

(١) فى قرة العيون : وقول قتادة رحمه الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث فى عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به ؛ وهذا العلم مما ينافى التوحيد ويوقع فى الشرك لأنه ينسب الحوادث الى غير من أحدثها وهو سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى (٣:٣٥ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟) وقال (٦٥:٢٧ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون)

وعلاماتٍ يُهتدَى بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ . وأضاع نصيبه ، وكلف مالا عِلْمَ له به » انتهى .

وكره قتادة

منيرا ، وزينها بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين ، وحفظا من كل شيطان رجيم »

قوله (وعلامات) أى دلالات على الجهات (يهتدى بها) أى يهتدى بها الناس فى ذلك . كما قال تعالى (٦: ٩٧ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى لتعرفوا بها جهة قصدكم ؛ وليس المراد أنه يهتدى بها فى علم الغيب ، كما يعتقده المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة « فمن تأول فيها غير ذلك » أى زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .

فان قيل : المنجم قد يصدق ؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، يصدق فى كلمة ويكذب فى مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً ؛ فيكون فتنة فى حق مَن صدقه

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (١٦ : ١٥ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات) فقوله « وعلامات » معطوف على ما تقدم مما ذكره فى الأرض ، ثم استأنف فقال (وبالنجم هم يهتدون) ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم ، كقوله « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر . زاد ما زاد[1] »

وعن رجاء بن حيوة أن النبى ﷺ قال « إن مما أخاف على أمتى : التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواه عبد بن حميد . وعن أبى مِحجن مرفوعا « أخاف على أمتى ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيمانا بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر » رواه ابن عساكر وحسنه السيوطى

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعا « أخاف على أمتى بعدى خصلتين : تكذيباً بالقدر ، وإيمانا بالنجوم » رواه أبو يعلى وابن عدى والخطاب فى كتاب النجوم وحسنه السيوطى أيضا . والأحاديث فى ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة

---

(١) رواه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس

قوله ﴿ وكره قتادة تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق ﴾

قال الخطابى : أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة فانه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، واذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته . وأما مايستدل به من النجوم على جهة القبلة فانها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها ؛ مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين فى دينهم ، ولا مقصرين فى معرفتهم . انتهى (١)

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لايرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر . وروى عن ابراهيم أنه كان لايرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم مايهتدى به . قال ابن رجب : والمأذون فى تعلمه التسيير لا علم التأثير فانه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم مايحتاج اليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله ﴿ ذكره حرب عنهما ﴾ هو الامام الحافظ حرب بن اسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه من جلة أصحاب الامام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المدينى وابن معين وغيرهم .

---

(١) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها . وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة ؛ ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئاً كثيراً جداً من العوالم العلوية ؛ حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض . وكل ذلك لايصح أن يختلف فيه مطلقا ؛ لانه كعلم الحساب . أما أن ينسب الى هذه النجوم والكواكب شىء من الحوادث على الارض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون فى المستقبل فهذا هو الذى لاشك فى كذبه وأنه ضلال .

ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق

وعن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مُدْمِن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة فى خلق النجوم

وله كتاب المسائل التى سئل عنها الامام أحمد وغيره ، مات سنة ثمانين ومائتين . وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلى النيسابورى ، الامام المعروف بابن راهويه . روى عن ابن المبارك وأبى أسامة وابن عيينة وطبقتهم . قال أحمد : إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين . روى عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وروى هو أيضاً عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين

قال (وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه)

هذا الحديث رواه أيضاً الطبرانى والحاكم وقال : صحيح . وأقره الذهبى . وتمامه « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة : نهر يجرى من فروج المومسات ؛ يؤذى أهل النار ريح فروجهن »

قوله (وعن أبى موسى) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبى موسى الأشعرى . صحابى جليل . مات سنة خمسين

قوله (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف تأويلها . وقالوا : أمِرُّوها كما جاءت ، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم . وأحسن ما يقال : إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الاسلام فانه يرجع إلى مشيئة الله ، فان عذبه فقد استوجب العذاب ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته

قوله (مدمن الخمر) أى المداوم على شربها

قوله (وقاطع الرحم) يعنى القرابة كما قال تعالى (٤٧ :٢٢ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) الآية

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك

الثالثة : ذكر الخلاف فى تعلم المنازل

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشىء من السحر ولو عرف أنه باطل

باب

﴿ ماجاء فى الاستسقاء بالأنواء ﴾

وقول الله تعالى ﴿ ٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذِّبون)

قوله (ومصدق بالسحر) أى مطلقا . ومنه التنجيم ؛ لما تقدم من الحديث . وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة

قال الذهبى فى الكبائر : و يدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقْد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته و بغضها و بغضه . وأشباه ذلك بكلمات مجهولة . قال : وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه ، ومابلغه الزجر فيه؛ ولا الوعيد عليه .اه

قوله ﴿ باب ماجاء فى الاستسقاء بالأنواء ﴾

أى من الوعيد ؛ والمراد : نسبة السُّقيا ومجىء المطر إلى الأنواء . جمع « نَوْء » وهى منازل القمر . قال أبو السعادات : وهى ثمان وعشرون منزلة . ينزل القمر كل ليلة منزلة منها . ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٩ والقمر قدرناه منازل) يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ؛ و ينسبونه اليها ، و يقولون « مطرنا بنوء كذا وكذا » و إنما سمى نَوْءاً لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق ، أى نهض وطلع .

قال ﴿ وقوله تعالى (٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ روى الامام أحمد والترمذى - وحسنه - وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (وتجعلون رزقكم) يقول : شكركم (أنكم تكذبون) تقولون : مطرنا

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أربعٌ فى أُمَّتى من أمر الجاهلية لا يتركونَهُنَّ :

بنوء كذا وكذا : بنجم كذا وكذا » وهذا أولى مافسرت به الآية . وروى ذلك عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغيرهم. وهو قول جمهور المفسرين . و به يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم رحمه الله : أى تجعلون حظكم من هذا الرزق الذى به حياتكم : التكذيب به ؛ يعنى القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله ﴿ عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن : الفخر بالأحساب ؛ والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ؛ والنياحة » وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قَطِران ودِرْعٌ من جَرَب» رواه مسلم ﴾ أبو مالك اسمه الحرث بن الحرث الشامى . صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا .

قوله ﴿ أربع فى أمتى من أمر الجاهلبة لايتركونهن ﴾ ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا : ماقبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم. وكل مايخالف ماجاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله ﷺ فى كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ماخالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة(١)

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لايتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه ، وهذا يقتضى أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الاسلام ، وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات الى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى

---

(٢) كتاب مسائل الجاهلية طبع فى المطبعة السلفية وهو نفيس جداً ككل كتب شيخ الاسلام التى تفيض علماً ونوراً ، رحمه الله

الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ،

الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى (٣٣:٣٣ ولا تَبرَّجْنَ تبرج الجاهلية الأولى) فان فى ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة

قوله (الفخر بالأحساب) أى التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم ؛ وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ؛ كما قال تعالى (١٣:٤٩ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (٣٧:٣٤ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضِّعْفِ بما عملوا وهم فى الغُرُفات آمنون)

ولأبى داود عن أبى هريرة مرفوعا : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لَيَدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنّ أهونَ على الله من الجُعلان »

قوله (والطعن فى الأنساب) أى الوقوع فيها بالعيب والتنقص . ولما عَيّر أبو ذر رضى الله عنه رجلا بأمه[1] قال له النبى صلى الله عليه وسلم « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه . فدل على أن الطعن فى الأنساب من عمل الجاهلية ؛ وأن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الاسلام رحمه الله

قوله (والاستسقاء بالنجوم) أى نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الامام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أخاف على أمتى ثلاثا : استسقاء بالنجوم . وحَيْف السلطان . وتكذيباً بالقدر »

فاذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا . فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيراً فى إنزال المطر . فهذا شرك وكفر . وهو الذى يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً . أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنهى عنه وقتال من فعله . كما قال تعالى (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) والفتنة الشرك ، وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلا ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ،

---

(١) وانما عيره بسوادها فقط . فقال له : يا ابن السوداء . فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان ؟

والنِّياحة » .

وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربال من قَطران ودِرعٌ من جَرَب » رواه مسلم

والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح فى الفروع: بأنه يحرم قول « مُطرنا بنوء كذا » وجزم فى الانصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافا . وذلك أن القائل لذلك نسب ماهو من فعل الله تعالى الذى لايقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لاينفع ولا يضر ولا قدرة له على شىء ، فيكون ذلك شركا أصغر . والله أعلم

قوله ﴿ والنياحة ﴾ أى رفع الصوت بالندب على الميت [1] لأنها تَسخّط بقضاء الله ، وذلك ينافى الصبر الواجب ، وهى من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة

قوله ﴿ النائحة إذا لم تتب قبل موتها) ﴾ فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ؛ هذا مجمع عليه فى الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ؛ وبالشفاعة باذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لايشرك به شيئاً . وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعا « إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يُغَرغِر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان

قوله (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) قال القرطبى : السربال واحد السرابيل ، وهى الثياب والقُمُص ، يعنى أنهن يُلطّخن بالقطران ، فيكون لهن كالقمص ؛ حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وألمهن بسبب الجرب أشد . وروى عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب [2]

قال (ولهما [3] عن زيد بن خالد قال « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل

---

(١) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى (١٤ : ٤٩ ، ٥٠ وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران)

(٣) رواه البخارى فى الصلاة فى باب يستقبل الامام الناس اذا سلم ؛ وفى الاستسقاء فى باب قول الله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ورواه مسلم فى كتاب الايمان .

ولهما عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما ذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر ،

الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ؛ كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرنا بِنوْء كذا وكذا فذلك كافر بى ؛ مؤمن بالكوكب)

زيد بن خالد الجهنى صحابى مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة

قوله (صلى لنا رسول الله ﷺ) أى بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازا . وانما الصلاة لله

قوله (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل (١)

قوله (على إثر سماء كانت من الليل) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور ، وهو ما يعقب الشىء

قوله (سماء) أى مطر . لأنه ينزل من السحاب ؛ والسماء يطلق على كل ما ارتفع

قوله (فلما انصرف) أى من صلاته ، أى التفت إلى المأمومين ، كما يدل عليه قوله « أقبل على الناس » ويحتمل أنه أراد السلام

قوله ﴿ هل تدرون ﴾ لفظ استفهام ومعناه التنبيه . وفى النسائى « ألم تسمعوا ماقال ربكم الليلة ؟ » وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم

قوله ﴿ قالوا الله ورسوله أعلم ﴾ فيه حسن الأدب للمسئول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه . وذلك يجب (٢)

قوله ﴿ أصبح من عبادى) ﴾ الاضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى (٦٤ : ٢ هو الذى خلقكم : فمنكم كافر ومنكم مؤمن)

---

(١) قرية على حدود الحرم ؛ وتسمى الآن الشميسى ، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله «ص» والمشركين سنة ست من الهجرة ؛ وكان هذا الصلح الفتح المبين

(٢) وردهم هذا انما كان يصح حينما كان الرسول «ص» فى حياته الدنيا حاضر المجلس . فان الواجب رد العلم الى الله ثم اليه . وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا ، فلا ينبغى رد العلم إلا الى الله وحده . فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم « الله ورسوله أعلم »

فأما مَن قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب »

قوله (مؤمن بى وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيرا فى إنزال المطر فهذا كفر لأنه أشرك فى الربوبية . والمشرك كافر . وان لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وانما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء و ينزله إذا شاء

ودل هذا الحديث على أنه لايجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز . وأيضاً الباء تحتمل معانى ، وكلها لاتصدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ، لأن المطر قد يجىء فى هذا الوقت وقد لايجىء فيه ؛ وانما يجىء المطر فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسد . فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقا لفساد المعنى [1] .وقد تقدم القطع بتحريمه فى كلام صاحب الفروع والانصاف

قال المصنف رحمه الله (وفيه التفطن للايمان فى هذا الموضع) يشير الى أنه الاخلاص

قوله ﴿ فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ﴾ فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات : كالحياة والعلم، وصفات الأفعال ، كالرحمة التى يرحم بها عباده . كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره ، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف .

وفى هذا الحديث : أن نِعَم الله لايجوز أن تضاف إلا اليه وحده ، وهو الذى يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله ﴿ وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ﴾ إلى آخره ، تقدم مايتعلق بذلك

قال المصنف رحمه الله ﴿ وفيه التفطن للكفر فى هذا الموضع ﴾

يشير إلى أن نسبة النعمة الى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد

---

(١) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون ، كقولهم : يا ربنا بمحمد وببنته ؛ ونحو ذلك من ألفاظ فى توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية .

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه « قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ فلا أقسم بمواقع النجوم ٧٦ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

تأثير النوء بانزال المطر ؛ فيكون من كفر النعم ، لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها ، ونسبتها إلى غيره ، كما سيأتى فى قوله تعالى (١٦:٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها)

قال القرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح ، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إلى ايجاد واختراع ؛ ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث . فنهى الشارع عن إطلاق ذلك ، لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم فى نطقهم . انتهى

قوله : فمنهم من ينسبه نسبة ايجاد — يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك ، كما قال تعالى (٢٩:٦٣ ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) فدل على ان منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذى أوجد المطر ؛ وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبى فى شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره . فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور .

قوله ﴿ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه: قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ فلا أقسم بمواقع النجوم ٧٦ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ٧٧ إنه لقرآن كريم ٧٨ فى كتاب مكنون ٧٩ لا يمسه إلا المطهرون ٨٠ تنزيل من رب العالمين ٨١ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وبلفظه عن ابن عباس قال « مُطر الناس على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر . قالوا: هذه رحمة الله . وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا . قال: فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم)

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه على ماشاء . وجواب القسم (إنه لقرآن كريم) فتكون (لا) صلة لتأكيد النفى ؛ فتقدير الكلام : ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر ، أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . قال ابن جرير : قال بعض أهل العربية: معنى قوله (فلا أقسم

٧٧ إنه لقرآن كريم ٧٨ فى كتاب مكنون

فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد فقيل : أقسم بمواقع النجوم . قال ابن عباس: يعنى نجوم القرآن، فانه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا فى السنين بعد [1] ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وقال مجاهد : مواقع النجوم مطالعها ومشارقها . واختاره ابن جرير . وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ـ وهو القرآن ـ من وجوه :

أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل . فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، والقرآن هداية فى الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين مع مافى النجوم من الزينة الظاهرة . وفى القرآن من الزينة الباطنة ، ومع مافى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى القرآن من رجوم شياطين الجن والانس . والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع مافى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . ذكره ابن القيم رحمه الله .

وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال ابن كثيره : أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه

وقوله (إنه لقرآن كريم) هذا هو المقسم عليه ، وهو القرآن ، أى إنه وحى الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر . بل هو قرآن كريم أى عظيم كثير الخير لانه كلام الله

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فان الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم ؛ وهو من كل شيء أحسنه وأفضله . والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره

(١) الآية تدل على أنه مازال فى الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجما . فكان ينزل مباشرة الى النبى «ص» ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين انه نزل الى السماء الدنيا مرة ثم كان ينزل بعد ذلك الى رسول الله «ص» منها

٧٩ لا يمسّه إلا المطهّرون

وحسن منظره من النبات وغيره ، ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن . قال الازهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة

وقوله (فى كتاب مكنون) أى فى كتاب معظم محفوظ موقر ، قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون فى هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله (٨٠ : ١٣ فى صحف مكرمة ١٤ مرفوعة مطهرة ١٥ بأيدى سفرة ١٦ كرام بررة) ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله (لا يمسه إلا المطهرون) فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه

قوله (لا يمسه الا المطهرون) قال ابن عباس رضى الله عنهما: «لا يمسه الا المطهرون. قال: الكتاب الذى فى السماء» ، وفى رواية «لا يمسه الا المطهرون يعنى الملائكة »وقال قتادة «لا يمسه عند الله الا المطهرون . فأما فى الدنيا فانه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس» واختار هذا القول كثيرون ، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه . وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه «لا يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى (٢٦: ٢١٠ وما تنزلت به الشياطين ٢١١ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ٢١٢ إنهم عن السمع لمعزولون) قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخارى رحمه الله تعالى فى صحيحه فى هذه الآية : «لا يجد طعمه إلا من آمن به »

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به و بقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً. لا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون (لا يمسه إلا المطهرون). أى من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « ان فى الكتاب الذى كتبه رسول الله

صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر »(١)

وقوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ؛ وليس وراءه حق نافع . وفى هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به .

قال ابن القيم رحمه الله : ونظيره (٣٢ : ١٣ ولكن حق القول منى) وقوله (١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق) هو إثبات علو الله تعالى على خلقه . فان النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشىء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله (٣٩ : ٦ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) لأنا نقول : إن الذى أنزلها فوق سمواته . فأنزلها لنا بأمره .

قال ابن القيم رحمه الله : وذكر التنزيل مضافا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم ؛ وحكمه عليهم ؛ وإحسانه اليهم ، وانعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويَدَعهم هَمَلا ، ويخلقهم عبثاً . لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقرَّ بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله . واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ماجاء به ؛ وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق . وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس . وتلك إنما تكون لخواص العقلاء

قوله ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مُدْهنون ﴾ قال مجاهد : أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا اليهم ؟

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : ورواه أبو داود فى المراسيل من حديث الزهرى . قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الخ . قال : ومثل هذا لا ينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبى العاص . وفى إسناد كل منهما نظر . وقال الحافظ فى التلخيص الحبير : وقد ضعف النووى وابن كثير فى الارشاد وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعاً

والضمير فى الآية يعود على الكتاب المكنون ؛ فهى صريحة فى أنهم الملائكة . والمقصود بالآية ماقال ابن زيد — الرد على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين ؛ فليس فى الآية دليل ولا شبه دليل لمن يقول إن المصحف لا يمسه إلا طاهر

٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة

الثانية : ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية

الثالثة : ذكر الكفر فى بعضها

الرابعة : أن من الكفر ما لا يخرج من الملة

الخامسة : قوله « أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر » بسبب نزول النعمة

السادسة : التفطن للإيمان فى هذا الموضع

السابعة : التفطن للكفر فى هذا الموضع

الثامنة : التفطن لقوله « لقد صدق نوء كذا وكذا »

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها لقوله « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ »

العاشرة : وعيد النائحة

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الإدهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته ، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم

باب

قول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ومن الناس مَن يتخـذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله

قوله ﴿ باب قول الله تعالى ٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ لما كانت محبته سبحانه هى أصل دين الاسلام الذى يدور عليه قطب رحاه ، فبكمالها يكمل ، وبنقصها ينقص توحيد الانسان ، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة

قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ﴾ الآية . قال فى شرح المنازل [١] : أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند فى المحبة لا فى الخلق والربوبية ، فان أحداً من أهل الارض لا يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة . فان أكثر أهل الارض قد اتخذوا من دون الله انداداً فى الحب والتعظيم . ثم قال تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وفى تقدير الآية قولان : أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الانداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله .

وروى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق بالانداد (والذين آمنوا أشد حباً لله) من الكفار لأوثانهم . ثم روى عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم . انتهى

والثانى : والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالانداد لله ، فان محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الانداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فان فيها قولين أيضاً ، أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله . ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم . والثانى : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم

---

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة المنار

وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الاول ويقول : إنما ذموا بأن شرّكوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ؛ وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم فى النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب (٢٦ : ٩٧ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ٩٨ إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ماسووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية[1] وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم ، وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى (٦ : ١ الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم

وقال تعالى (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهذه تسمى آية المحنة . قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) إشارة الى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وفائدتها وثمرتها : محبة المرسل لكم ، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة ، ومحبته لكم منتفية .

وقال تعالى (٥ : ٥٤ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ذكر لهم أربع علامات :

إحداها : أنهم أذلة على المؤمنين ، قيل : معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم ، فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه باداة «على» . قال عطاء رحمه الله : للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده ، وعلى الكافرين كالاسد على فريسته ، (أشداء على الكفار رحماء بينهم)

العلامة الثالثة[2] الجهاد فى سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان . وذلك تحقيق دعوى المحبة

العلامة الرابعة : انهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم . وهذه علامة صحة المحبة . فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة . وقال تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى

---

(١) فى قرة العيون . وقد وقع الشرك فى الربوبية أيضا فى كثير من الخاصة والعامة فى آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن هؤلاء الأموات تصرفا فى الكون ونحو ذلك

(٢) لم يذكر الثانية . ولعله اكتفى بما فى كلام عطاء من الاشارة اليها بقوله : وعلى الكافرين الخ

ربهم الوسيلة أيهم أقرب و يرجون رحمته ويخافون عذابه) فذكر المقامات الثلاثة: الحب . وهو ابتغاء القرب اليه ، والتوسل اليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب ، ومن المعلوم قطعا انه لا يتنافس الا فى قرب من يحب قربه ، وحب قربه تبع لمحبة ذاته ؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه . وعند الجهمية والمعطلة : ما من ذلك كله شىء فانه عندهم لا تقرب ذاته من شىء ، ولا يقرب من ذاته شىء ، ولا يحب ، فأنكروا حياة القلوب ، ونعيم الارواح وبهجة النفوس ، وقرة العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته ؛ فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ؛ بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالادواء التى هم أحق بها وأهلها . وحسب ذى البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء . فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، و إنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل فى ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتانى عن الجنيد .

قال أبو بكر «جرت مسألة فى المحبة بمكة - أعزها الله فى أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها ؛ وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ؛ ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر اليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياء من أستار غيبه ، فان تكلم فبالله ، و إن نطق فعن الله ، و إن تحرك فبأمر الله ؛ و إن سكن فمع الله ، فهو لله و بالله ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين»

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به

الثانى : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى

وقوله (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشونْ كسادها ومساكنُ ترضونها ، أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره)

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها

السادس : مشاهدة بره و إحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة

السابع : وهو أعجبها ـ انكسار القلب بين يديه

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلٰهى (١) وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب و بين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩: ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين) ﴾

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التى يحبها الله تعالى و يرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : أى إن كانت هذه الاشياء (أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) أى انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه . روى الامام أحمد وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث أبى عبد الرحمن السلمى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعِينة ، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لاينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم »

«١» وذلك اذا مضى ثلث الليل كما فى حديث النزول

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه ، ويوالى فيه ويعادى فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم فى آية المحنة ونظائرها

قوله ﴿ وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه ﴾ أى البخارى ومسلم .

قوله ﴿ لا يؤمن أحدكم ﴾ أى الايمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول أحب الى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب اليه من نفسه ، كما فى الحديث : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا رسول الله لأنت أحب الىّ من كل شىء الا من نفسى . فقال : والذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك . فقال له عمر : فانك الآن أحبُّ إلىّ من نفسى ، فقال : الآن يا عمر » رواه البخارى .

فمن قال : إن المنفى هو الكمال ، فان أراد الكمال الواجب الذى يذم تاركه ويعرّض للعقوبة فقد صدق ؛ وان أراد أن المنفى الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ﷺ . قاله شيخ الاسلام رحمه الله

فمن ادعى محبة النبى ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب ، كما قال تعالى (٢٤ : ٤٧ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ ، لكن كل مسلم يكون محبا بقدر ما معه من الاسلام وكل مسلم لابد أن يكون مؤمنا وإن لم يكن مؤمنا الايمان المطلق . لأن ذلك لا يحصل الا لخواص المؤمنين

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وعامة الناس اذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله . فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، لكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم يحصل شيئا فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ؛ وإلا فكثير من الناس لا يصلون الى اليقين ولا الى الجهاد ؛ ولو شُكِّكوا لشكّوا ، ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا . إذ ليس عندهم من

علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، فهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ؛ وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب و إلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى

وفى هذا الحديث : أن الاعمال من الايمان . لأن المحبة عمل القلب

وفيه : أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فانها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله فى قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محبا لله فانما يحب فى الله ولأجله كما يحب الايمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه فى حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة اليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة فى الله ولأجله ، التى هى من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التى هى محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق فى قلوب المشركين من الإلهية التى لا تجوز الا لله وحده

قوله ﴿ ولهما عنه - أى البخارى ومسلم ، عن أنس رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » وفى رواية « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه الا لله الخ» ﴾

قوله « ثلاث » أى ثلاث خصال

قوله ﴿ من كن فيه ﴾ أى وجدت فيه تامة

قوله ﴿ وجد بهن حلاوة الايمان ﴾ الحلاوة هنا هى التى يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهى شيء محسوس يجده أهل الايمان فى قلوبهم

قال السيوطى رحمه الله فى التوشيح « وجد حلاوة الايمان » فيه استعارة تخييلية . شبه رغبة المؤمن فى الايمان بشيء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه اليه

وقال النووى : معنى حلاوة الايمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته . وكذلك الرسول ﷺ

قال يحيي بن معاذ : حقيقة الحب فى الله : أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء

قوله ﴿ أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ﴾ يعنى بالسوى : ما يحبه الانسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها . فتكون « أحب » هنا على بابها

وقال الخطابى : المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع كذا قال

وأما المحبة الشركية التى قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله . وفى بعض الأحاديث « أحبوا الله بكل قلوبكم » فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، و يؤثر مرضاته على ماسواه ، ويسعى فى مرضاته ما استطاع ؛ و يبعد عما حرمه الله و يكرهه أشد الكراهة و يتابع رسوله و يمتثل أمره و يترك نهيه ، كما قال تعالى (٤ : ٨٠ من يطع الرسول فقد أطاع الله) فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه ، فذلك عَلَم على عدم محبته لله ورسوله ، فان محبة الرسول من لوازم محبة الله ، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه . ومن لا فلا ؛ كما فى آية المحنة ونظائرها . والله المستعان .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أخبر النبى ﷺ أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الايمان . لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له . فمن أحب شيئاً واشتهاه ؛ إذا حصل له مراده فانه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى . قال : فحلاوة الايمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله . وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة وتفريغها ، ودفع ضدها . فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ، فان محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب ؛ بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما .

قلت : ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فانه يحب من عبده أن يطيعه . والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده . فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الايمان ، كما فى حديث ابن عباس الآتى :

قال : وتفريغها . أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ؛ قال : ودفع ضدها أن يكره ضد الايمان كما

وأن يُحِبَّ المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف فى النار »

وفى رواية « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى » إلى آخره

يكره أن يقذف فى النار . انتهى

قوله ﴿ أحب اليه مما سواهما ﴾ فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان:

أحدهما : أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة ، فانها وحدها لاغية . وأمر بالافراد فى حديث الخطيب (١) إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف فى تقدير التكرير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم .

الثانى : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا على الجواز

وجواب ثالث : وهو أن هذا ورد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح

قوله ﴿ كما يكره أن يقذف فى النار ﴾ أى يستوى عنده الأمران . وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً و إن تاب منه . والصواب : أنه إن لم يتب كان نقصاً و إن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الاسلام ، والاسلام يمحو ماقبله ؛ وكذلك الهجرة . كما صح الحديث بذلك

قوله ﴿ وفى رواية : لايجد أحد ﴾ هذه الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه .

---

(١) وذلك مارواه مسلم وأبوداود والنسائى من حديث عدى بن حاتم « أن خطيباً خطب عند النبى (ص) فقال : من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى . فقال له صلى الله عليه وسلم : بئس الخطيب أنت . قل : من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى »

قال النووى : سبب الانكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والايضاح ، واجتناب الاشارات والرموز . قال ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه ، قال وانما ثنى الضمير فى قوله « أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » لأنه ليس خطبة وعظ وانما هو تعليم حكم ، فكلما قل لفظه كان أقرب الى حفظه بخلاف الخطبة اهـ

أقول : ولعلها حادثة حال لها ظروفها التى اقتضت أن يقول رسول الله (ص) ذلك والله أعلم

وعن ابن عباس « مَن أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالَى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تُنال وَلاية الله بذلك

ولفظها « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب اليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والاجلال والهيبة ولوازم ذلك ، قال الشاعر :

أهابك إجلالا . وما بك قدرة   علىّ ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فانما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الايمان ، و إن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدِى على أهله شيئاً » رواه ابن جرير ﴾

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم الجملة الأولى منه فقط

قوله ﴿ من أحب فى الله ﴾ أى أحب أهل الايمان بالله وطاعته من أجل ذلك .

قوله ﴿ وأبغض فى الله ﴾ أى أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل مافعلوه مما يسخط الله و إن كانوا أقرب الناس اليه ، كما قال تعالى (٥٨:٢٢ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسوله ـ الآية)

قوله ﴿ ووالى فى الله ﴾ هذا والذى قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى أحب فيه ، ووالى أولياءه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره . وكلما قويت محبة العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، و بكمالها يكمل توحيد العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ، فمقلّ ومستكثر ومحروم .

قوله ﴿ فانما تنال ولاية الله بذلك ﴾ أى توليه لعبده . و «ولاية» بفتح الواو لا غير : أى الأخوة [1] والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحمد والطبرانى

---

(١) لعل كلمة «الأخوة» زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام

ولن يجد عبدٌ طعم الايمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدِي على أهـــله شيئا » رواه ابن جرير

وقال ابن عباس فى قوله تعالى (٢ : ١٠٢ وتقطعت بهم الأسباب) قال «المودّة»

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب لله و يبغض لله . فاذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله » وفى حديث آخر «أوثق عرى الايمان الحب فى الله ، والبغض فى الله عز وجل » رواه الطبرانى .

قوله ﴿ ولن يجد عبد طعم الايمان ﴾ إلى آخره . أى لا يحصل له ذوق الايمان ولذته وسروره و إن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أى حتى يحب فى الله ، و يبغض فى الله ، و يعادى فى الله ، و يوالى فيه

وفى حديث أبى أمامة مرفوعا « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » رواه أبو داود .

قوله ﴿ وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا . وذلك لا يجدى على أهله شيئاً ﴾ أى لا ينفعهم، بل يضرهم كما قال تعالى (٤٣ : ٦٧ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) فاذا كانت البلوى قد عمت بهذا فى زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان . وقد وقع ما أخـبر به صلى الله عليه وسلم بقوله « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريبـاً كما بدا »[1] . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم من المهاجرين والأنصار فى عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة فى الله وتقرباً اليه ، كما قال تعـالى (٥٩ : ٩ و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال « لقـد رأيتُنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » رواه ابن ماجه

قوله ﴿ وقال ابن عباس فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦ وتقطعت بهم الأسباب) قال «المودة» ﴾

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة . والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود . وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحا نفيسا سماه كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة » طبع مراراً

فيه مسائل :

الأَولى : تفسير آية البقرة

الثانية : تفسير آية براءة

الثالثة : وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال

الرابعة : نفى الايمان لا يدل على الخروج من الاسلام

الخامسة : أن للايمان حلاوة قد يجدها الانسان وقد لا يجدها

السادسة : أعمال القلب الأربع التى لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الايمان إلا بها

السابعة : فهم الصحابى للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا

الثامنة : تفسير (وتقطعت بهم الأسباب)

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديدا

هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه .

قوله ﴿ قال المودّة ﴾ أى التى كانت بينهم فى الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا اليها ، وتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى (٢٩ : ٢٥ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦، ١٦٧ اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب ـ الآيتين) فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيامة فانهم اتخذوهم أولياء من دون الله . وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ، ويعادى لهم ، ويرضى لهم ، ويغضب لهم ، فان أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، اذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله . وقطع تلك الاسباب ، فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله،

العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية (١) أحب اليه من دينه

الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر

باب

قول الله تعالى (٣ : ١٧٥ إنما ذٰلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه . وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها : من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة ، والتقريب والابعاد ، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريدا محضا بريئا من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشرك بينه وبين غيره ، فضلا عن تقديم قول غيره عليه . فهذا السبب هو الذى لاينقطع بصاحبه . وهذه هى النسبة التى بين العبد وربه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته التى يجول مايجول وإليها مرجعه ، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ولا سبيل اليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى (٢٥ : ٢٣ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) فهذه هى الأعمال التى كانت فى الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباء منثورا لا ينتفع منها صاحبها بشىء أصلا . وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعا . وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم . انتهى ملخصاً

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٣ : ١٧٥ إنما ذٰلكم الشيطان يخوّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ﴾

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة التى يجب اخلاصها لله تعالى . قال الله تعالى (٢١ : ٢٨ وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى (٥٥ : ٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال تعالى (١٦ : ٥١ فاياى فارهبون) وقال تعالى (٥ : ٤٤ فلا تخشوا الناس واخشون) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير .

---

(١) هى الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام

أحدها : خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له (١١ : ٥٤ إن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله ، واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) وقال تعالى (٣٩ : ٣٦ ويخوفونك بالذين من دونه) وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها ، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا باخلاص العبادة لله ، وهذا ينافي التوحيد

الثاني : أن يترك الانسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد . وهذا هو سبب نزول هذه الآية . كما قال تعالى (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ١٧٤ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذوفضل عظيم ١٧٥ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ـ الآية) وفى الحديث « ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس . فيقول : اياى كنت أحق أن تخشى »(١)

الثالث : الخوف الطبيعى ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك . فهذا لا يذم . كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام (٢٨ : ٢١ فخرج منها خائفاً يترقب ـ الآية)

ومعنى قوله ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أى يخوفكم أولياءه (فلا تخافوهم وخافون) وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إياه . وهذا هو الاخلاص الذى أمر الله به عباده ورضيه منهم . فاذا أخلصوا له

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد بلفظ « لا يحقر أحدكم نفسه ، قالوا يارسول الله ، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا : كذا وكذا ؟ فيقول خشيت الناس . فيقول : فاياى كنت أحق أن تخشى » ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى فى سورة المائدة (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) الآيات

الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه - الآية)

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة: يعظمهم فى صدوركم . فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف ايمانه قوى خوفه منهم . فدلت هذه الآية على أن اخلاص الخوف من كمال شروط الايمان

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩: ١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله - الآية) ﴾

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها الا أهل الايمان بالله واليوم الآخر ؛ الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين . لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعمله (٢٤ : ٣٩ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) أو (١٤: ١٨ كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) وما كان كذلك فالعدم خير منه ، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالايمان الذى معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل فى مسمى الايمان المطلق عند أهل السنة والجماعة

قوله ﴿ ولم يخش الا الله ﴾ قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الانسان يخشى المحاذير الدنيوية . وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه

وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح الا لله ، كالذل والانابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب

قوله ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى

وقوله (٢٩: ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) الآية

الله عنهما : « يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة[1] » وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » رواه احمد والترمذى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى

قوله ﴿ (٢٩ : ١٠ ومن النـاس من يقول آمنا بالله فاذا أُوذى فى الله جعـل فتنة الناس كعذاب الله) ﴾

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعـالى مخبراً عن صفات قوم من المـكذبين الذين يدّعون الايمان بألسنتهم ، ولم يثبت فى قلوبهم : أنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم ، فارتدوا عن الاسلام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : « يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله »

وقال ابن القيم رحمه الله تعـالى : الناس إذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، و إما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئات والـكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه . والفتنة الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الـكاذب ، ومن لم يقل : آمنا . فلا يحسب أنه يعجز الله و يفوته و يسبقه . فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه ، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب فى الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه ، وكان هـذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم . فلا بد من حصول الألم لـكل نفس ، آمنتْ أو رغبت عن الايمان ؛ لـكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تـكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الايمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير فى الألم الدائم ؛ والانسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، و إن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ؛ و إن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دِين وتـقى حلّ بين قوم فُـجّـار ظَـلَمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم ؛ فان وافقهم

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس « كقوله لنبيه (ص) (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وهى الشفاعة . وقال محمد بن إسحاق بن يسار « وعسى » فى القرآن من الله حق »

أو سكت عنهم سلم من شرهم فى الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالاهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، و إن سلم منهم فلا بد أن يهان و يعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لمعاوية رضى الله عنه « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا[1] »

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم؛ ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم .

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل فى الايمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس له ، وهى أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذى لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به: كعذاب الله الذى فرّ منه المؤمنون بالايمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الايمان ، وتحملوا مافيه من الألم الزائل المفارق عن قرب . وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله . فجعل ألم فتنة النـاس فى الفرار منه بمنزلة عذاب الله . وغُبن كل الغبن إذ استجار من الرّمْضاء بالنار . وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد؛ و إذا نصر الله جنده وأولياءه قال : إنى كنت معكم ، والله اعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق . انتهى

وفى الآية رد على المرجئة والكرّامية ؛ ووجهه : أنه لم ينفع هؤلاء قولهم : آمنا بالله . مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم فى الله ، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل . فلا يصدق الايمان الشرعى على الانسان إلا باجتماع الثلاثة : التصديق بالقلب وعمله ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان . وهذا قول اهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ،والله سبحانه وتعالى اعلم

وفيه الخوف من مداهنة الخلق فى الحق . والمعصوم من عصمه الله

قوله ﴿ عن أبى سعيد مرفوعا « إن من ضَعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمُّهم على مالم يؤتك الله ؛ إن رزق الله لايجره حرص حريص،

(١) رواه الترمذى عن عائشة عن النبى (ص) وسيأتى فى ص ٣٤٢

« إن من ضعف اليقين أن تُرضيَ الناسَ بسخط الله ، وأن تحمَدهم على رزق الله، ولا يرده كراهية كاره » ﴾

هذا الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى ، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال: ضعيف، وفيه أيضاً عطية العوفى : ذكره الذهبى فى الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتمامه « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين ،وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط »

قوله (ان من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك ؛ ضد القوة ، ضعف ككرم ونصر، ضعفاً ، وضعفة ، وضعافية ، فهو ضعيف وضعوف وضعفان ؛ والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعفَى وضعافى ؛ أو الضعْف - بالفتح - فى الرأى وبالضم فى البدن ، فهى ضعيفة وضعوف .
و « اليقين » كمال الايمان . قال ابن مسعود « اليقين الايمان كله، والصبر نصف الايمان » رواه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الزهد من حديثه مرفوعا . قال : ويدخل فى ذلك تحقيق الايمان بالقدر السابق ، كما فى حديث ابن عباس مرفوعا « فان استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل ،فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا » وفى رواية « قلت يارسول الله كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك »

قوله ﴿ أن ترضى الناس بسخط الله ﴾ أى تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذى يتصرف فى القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب . وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك . لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب اليه بما يسخط الله . ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله . ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ماينافى كماله ؛ ومعرفة توحيده فى ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق

قوله ﴿ وأن تحمدهم على رزق الله ﴾ أى على ماوصل اليك من أيديهم ؛ بأن تضيفه اليهم وتحمدهم عليه . فان المتفضل فى الحقيقة هو الله وحده الذى قدر ذلك وأوصله اليك ؛ وإذا أراد أمراً قيض له أسباباً . ولا ينافى هذا حديث «من لا يشكر الناس لا يشكر الله » (١) لأن شكرهم إنما هو

(١) رواه أبو داود والترمذى - وقال : حسن صحيح - وابن حبان عن أبى هريرة ،

وأن تذمهم على مالم يؤتك الله . إن رزق الله لايجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره »

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « من التمس رضى الله بسخط

بالدعاء لهم لكون الله ساقه على ايديهم فتدعو لهم أوتكافئهم ؛ لحديث «من صنع اليكم معروفاً فكافئوه، فان لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه[1] » فاضافة الصنيعة اليهم لكونهم صاروا سبباً فى ايصال المعروف اليك ، والذى قدره وساقه هو الله وحده

قوله (وأن تذمهم على مالم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ماطلبته على أيديهم . فلو قدره لك لساقته المقادير اليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو الذى يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لايحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره الى الله ؛ ويعتمد عليه فى أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبى هذا المعنى بقوله فى الحديث «ان رزق الله لايجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره » كما قال تعالى (٣٥ : ٢ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فاذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فانه إنما يحمل الانسان على ذلك إما ميل إلى مافى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة . فانك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم . وإرضاؤهم بما يسخطه انما يكون خوفا منهم ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدر لك ماتظن أنهم يفعلونه معك فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم . فانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فاذا ذممتهم على مالم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ؛ ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفد بنى تميم « أى محمد أعطنى . فان حمدى زين وذمى شين، قال النبى ﷺ ذاك الله » . ودل الحديث على أن الايمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الايمان .

(١) رواه أبو داود والنسائى باسناد صحيح . كذا فى كشف الخفاء

الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان فى صحيحه

قوله ﴿ وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه ﴾

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال: « كتب معاوية رضى الله عنه إلى عائشة رضى الله عنها : أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ، ولا تكثرى علىّ ، فكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . والسلام عليك» ورواه ابو نعيم فى الحلية

قوله ﴿ من التمس ﴾ أى طلب .

قال شيخ الاسلام : وكتبت عائشة إلى معاوية ؛ وروى أنها رفعته « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع . ولفظ الموقوف « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً » وهذا من أعظم الفقه فى الدين ، فان من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ؛ والله كاف عبده (٦٥:٢،٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك ؛ لكن يرضون عنه إذ سلموا من الأغراض و إذا تبين لهم العاقبة . « ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» كالظالم الذى يعضّ على يديه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً و يحصل فى العاقبة. فان العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم . اه

وقد أحسن من قال :

إذا صح منك الود ياغاية المنى ... فكل الذى فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران

الثانية : تفسير آية براءة

الثالثة : تفسير آية العنكبوت

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى

الخامسة : علامة ضعفه . ومن ذلك هذه الثلاث

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض

السابعة : ذكر ثواب من فعله

الثامنة : ذكر عقاب من تركه

باب

قول الله تعالى (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب .

وفي الحديث : عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله ، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذاً بالله من ذلك . كما قال تعالى (٩: ٧٨ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون)

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٥: ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) ﴾

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر . إذا ضمن القيام به ؛ ووكلت أمرى إلى فلان. إذا اعتمدت عليه ؛ ووكّل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ؛ أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه . اه

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فان تقديم المعمول يفيد الحصر . أى وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها،

لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فانه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو من أعظم منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله ؛ كما فى هذه الآية ، وكما قال تعالى (١٠:٨٤ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقوله (٧٣:٩ ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلٰه إلا هو فاتّخِذه وكيلا) والآيات فى الأمر به كثيرة جداً . قال الامام أحمد رحمه الله « التوكل عمل القلب »

وقال ابن القيم فى معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطا فى الايمان ؛ فدل على انتفاء الايمان عند انتفائه ؛ وفى الآية الأخرى (١٠:٨٤ قال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ؛ وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ؛ واذا ضعف الايمان ضعف التوكل ، واذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلا على ضعف الايمان ولابد . والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، و بين التوكل والايمان وبين التوكل والتقوى ، و بين التوكل والاسلام ، و بين التوكل والهداية

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان ، ولجميع أعمال الاسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الايمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك (٢٢ :٣١ ومَنْ يُشرِكْ بالله فكأنما خرّ من السّماء فتَخطفُه الطيرُ أو تَهْوِي به الريحُ فى مكانٍ سَحيق)

قال الشارح رحمه الله تعالى : قلت : لكن التوكل على الله قسمان : أحدهما : التوكل فى الأمور التى لا يقدر الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطالبهم من نصر ، أو حفظ أو رزق أو شفاعة . فهذا شرك أكبر

الثانى : التوكل فى الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة هى توكيل الانسان

وقوله (٢:٨ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجِلتْ قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون)

الانسانَ فى فعل مايقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه فى حصول ماوُكل فيه، بل يتوكل على الله فى تيسير أمره الذى يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التى يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذى أوجد السبب والمسبب.

قال ﴿وقول الله تعالى (٢:٨-٤ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم -الآيات)﴾

قال ابن عباس فى الآية «المنافقون لايدخل فى قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشىء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه[1]» رواه ابن جرير وابن أبى حاتم. ووجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك مانهى عنه: قال السدى (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يَهِمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه[2] رواه ابن أبى شيبة وابن جرير.

قوله ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ استدل الصحابة رضى الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الايمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابى: «إن الايمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته. واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه». رواه ابن سعد.

وقال مجاهد «الايمان يزيد وينقص وهو قول وعمل» رواه ابن أبى حاتم

وحكى الاجماع على ذلك الشافعى وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قوله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين اليه أمورهم فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا اليه، يعلمون أن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن،

---

(١) تمامه عند ابن جرير «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا. يقول: تصديقا. وعلى ربهم يتوكلون. يقول: لايرجون غيره»

(٢) عند ابن جرير: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية، أحسبه قال: فينزع عنه

وقوله (٨: ٦٤ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبعك من المؤمنين)

وأنه المتصرف فى الملك وحده ، والمعبود وحده ، لاشريك له . وفى الآية وصف المؤمنين حقا بثلاث مقامات من مقامات الاحسان ، وهى : الخوف ، وزيادة الايمان ، والتوكل على الله وحده . وهذه المقامات تقتضى كمال الايمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة . مثال ذلك : الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى (٢٩: ٤٥ إن الصلاةِ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، ولَذِكرُ الله أكبرُ)

قال وقوله ﴿٨: ٦٤ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبعك من المؤمنين﴾ قال ابن القيم رحمه الله : أى الله وحده كافيك وكافى أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وهذا اختيار شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا خطأ محض لايجوز حمل الآية عليه ، فان الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى (٨: ٦٢ وإن يريدوا أن يَخْدَعوك فإنَّ حَسْبَكَ الله ، هو الذى أيدك بنَصْره و بالمؤمنين) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره و بعباده ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى (٣: ١٧٣ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخْشَوْهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ونظير هذا قوله سبحانه (٩: ٥٩ وقالوا حسبنا الله سَيُؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنّا إلى الله راغبون) . فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده . فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال (إنا الى الله راغبون) فجعل الرغبة اليه وحده ، كما قال تعالى (والى ربك فارغب) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لايكون إلا له سبحانه وتعالى . انتهى

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة . فاذا كان هو الكافى لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه الى سواه وَكَله الله الى من التفت اليه ، كما فى الحديث « مَنْ تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ اليه »

قال ﴿ وقول الله تعالى (٦٥:٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ﴾

قال ابن القيم رحمه الله وغيره : أى كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذىً لابد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء وفى الحقيقة إحسان و إضرار بنفسه ، و بين الضرر الذى يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال (ومن يتوكل على الله فهوحسبه) فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافىَ عبدَه المتوكل عليه وحسبه وواقيه . فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومَنْ فيهن ، لجعلَ الله له مخرجا وكفاه رزقه ونصره . انتهى

وفى أثر رواه أحمد فى الزهد عن وهب بن منبه قال « قال الله عز وجل فى بعض كتبه : بعزتى إنه من اعتصم بى فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فانى أجعل له من ذلك مخرجا، ومن لم يعتصم بى فانى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله فى الهواء ثم أكِلُه إلى نفسه . كفى بى لعبدى مآلا . إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى ، وأستجيب له قبل أن يدعونى . فأنا أعلم بحاجته التى نرفق به منه »

وفى الآية دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار . لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط . فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْباً له .

وفيها : تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل ؛ كما قال تعالى (٥:١١ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فجعل التوكل مع التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها . فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، و إن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلا ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لايتم المقصود إلا بها كلها . ذكره ابن القيم بمعناه .

وعن ابن عباس قال « حَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ، قالها ابراهيم ﷺ حين أُلقِىَ فى النار ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له (إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخارى والنسائى

قال ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها ابراهيم ﷺ حين أُلقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ﴾ رواه البخارى .

قوله ﴿ حسبنا الله ﴾ أى كافينا . فلا نتوكل إلا عليه . قال تعالى (٣٩:٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟)

قوله ﴿ ونعم الوكيل ﴾ أى نعم الموكول اليه ، كما قال تعالى (٢٢:٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) ومخصوص « نعم » محذوف تقديره « هو »

قال ابن القيم رحمه الله : هو حسب من توكل عليه وكافى من لجأ اليه ، وهو الذى يُؤَمِّن خوفَ الخائف ، ويُجير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ؛ وانقطع بكليته اليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه . ومن خافه واتقاه ، أمنه مما يخاف ويحذر ، ويجلب اليه مايحتاج اليه من المنافع .

قوله ﴿ قالها ابراهيم ﷺ حين أُلقى فى النار ﴾ قال تعالى (٢١ : ٦٨ قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ٦٩ قلنا يانارُ كونى برداً وسلاماً على ابراهيم ٧٠ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين)

قوله ﴿ وقالها محمد ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا وحسبنا الله ونعم الوكيل) ﴾ وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أُحد « بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكَرَّة عليهم ، فخرج النبى ﷺ فى سبعين راكباً حتى انتهى الى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان . فرجع الى مكة بمن معه ، ومَرَّ به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عنى رسالة ؟ قالوا : نعم . قال : فاذا وافيتموه فاخبروه أنا قد أجمعنا السير اليه والى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ؛ فأخبروه بالذى قال

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكل من الفرائض

الثانية : أنه من شروط الايمان

الثالثة : تفسير آية الأنفال

الرابعة : تفسير الآية فى آخرها

الخامسة : تفسير آية الطلاق

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة : أنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ فى الشدائد

باب

قول الله تعالى (٧ : ٩٩ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل » ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد . وجاء فى الحديث « اذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٧:٩٩ أفأمنوا مكرَ الله ، فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القوم الخاسرون) ﴾

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب . وأنه ينافى كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك . وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد اليه سلف الأمة والأئمة

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه ، كما قال تعالى (٧:٩٦ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ٩٧ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون ٩٨ أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى الهالكون . وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعَم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً .

وقوله (١٥: ٥٦ ومن يَقْنَطُ من رحمةِ ربِّه إلا الضَّالون)

قال الحسن رحمه الله: «من وَسَّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكر به فلا رأى له»

وقال قتادة: «بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوما قطُّ إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرّتهم. فلا تغتروا بالله»

وفى الحديث «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فانما هو استدراج» رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم.

وقال اسماعيل بن رافع: «من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة» رواه ابن أبى حاتم.

وهذا هو تفسير المكر فى قول بعض السلف «يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر». وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحوذلك، ذكره ابن جرير بمعناه

قال ﴿ وقول الله تعالى (١٥: ٥٦ ومن يقنطُ من رحمة ربه إلا الضالون) ﴾ القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله. وكلاهما ذنب عظيم. وتقدم مافيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التى قبلها تنبيهاً على أنه لايجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفا راجياً، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته، ويرجو رحمته، كما قال تعالى (٣٩: ٩ أمَّن هو قانت آناءَ الليل ساجداً وقائما يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمة ربه) وقال (٢: ٢١٨ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان، ليوقع العبد فى المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الايمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفا من الله تعالى وهرباً من عقابه، وطمعاً فى المغفرة ورجاء لثوابه.

والمعنى: أن الله تعالى حكى قول خليله ابراهيم عليه السلام، لما بَشَّرته الملائكة بابنه إسحاق (١٥: ٥٤ قال أبشَّرتمونى على أنْ مَسَّنى الكِبَرَ، فبم تبشرون؟) لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شىء قدير، فقالت الملائكة (بشرناك بالحق) الذى لاريب فيه. فان الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون (فلا تكن من القانطين) أى من الآيسين، فقال عليه السلام (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ « سئل عن الكبائر فقال : الشركُ بالله، واليأسُ من رَوْح الله ، والأمنُ من مَكْر الله »

فانه يعلم من قدرة الله ورحمته ماهو أبلغ من ذلك وأعظم ؛ لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب .

قوله ﴿ إلا الضالون ﴾ قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون . كقوله (١٢ : ٨٧ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ « سئل عن الكبائر ؟ فقال : الشرك بالله ، واليأس من رَوْح الله ، والأمن من مكر الله» ﴾

هذا الحديث رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر . فقال ابن معين : ثقة . ولَيَّنه أبو حاتم . وقال ابن كثير : فى اسناده نظر . والأشبه أن يكون موقوفا

قوله ﴿ الشرك بالله ﴾ هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هَضْمٌ للربوبية وتَنقُّصٌ للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى

ولقد صدق ونصح . قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) ولهذا لايغفره الله إلا بالتوبة منه .

قوله ﴿ واليأس من ووح الله ﴾ أى قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته

قوله ﴿ والأمنُ من مكر الله ﴾ أى من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الايمان ، نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حصْرَ الكبائر فى الثلاث ، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة فى الكتاب والسنة ، وضابطها : ماقاله المحققون من العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : أو نفى الايمان .

قلت : ومن برىء منه رسوله الله ﷺ ، أو قال « ليس منا من فعل كذا وكذا » .

وعن ابن مسعود قال « أكبرُ الكبائر: الإشراك بالله ، والأمنُ من مكرِ الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأسُ من رَوْح الله » رواه عبد الرزاق

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف

الثانية : تفسير آية الحِجْر

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله

الرابعة : شدة الوعيد فى القنوط

وعن ابن عباس رضى الله عنهما «هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار»

قوله ﴿ وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أكبر الكبائر الاشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله » رواه عبدالرزاق ﴾

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضى الله عنه

قوله ﴿ أكبر الكبائر الاشراك بالله ﴾ أى فى ربوبيته أو عبادته . وهذا بالاجماع .

قوله ﴿ والقنوط من رحمة الله ﴾ قال أبو السعادات : هو أشد اليأس

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف ، فاذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ؛ بل يرجو رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف ؛ وفى المرض الرجاء . وهذه طريقة أبى سليمان الدارانى وغيره . قال : وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فاذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب . قال تعالى (٦٧: ١٢ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وقال (١٤: ٣٧ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) وقال تعالى (٢٣ : ٦٠ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) وقال تعالى (٣٩: ٩ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية . قدّم الحذر على الرجاء فى هذه الآية

باب

﴿ من الايمان بالله : الصبر على أقدار الله ﴾

وقوله تعالى (٦٤: ١١ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه ، والله بكل شىء عليم)

قوله ﴿ باب من الايمان بالله الصبر على أقدار الله ﴾

قال الامام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر فى تسعين موضعاً من كتابه . وفى الحديث الصحيح « الصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم ، وللبخارى ومسلم مرفوعا « ما أُعْطِىَ أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » قال عمر رضى الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخارى . قال علىّ رضى الله عنه : « إن الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ـ ثم رفع صوته ـ فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له »

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكى والتسخط ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما . ذكره ابن القيم رحمه الله

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عما نهى عنه ، وصبر على ماقدّره من المصائب .

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٦٤: ١١ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه) ﴾

وأول الآية (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله) أى بمشيئته و إرادته وحكمته ، كما قال فى الآية الأخرى (٥٧: ٢٢ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وقال (٢: ١٥٤ و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

قوله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال ابن عباس فى قوله (إلا باذن الله) « إلا بأمر الله » يعنى عن قدره ومشيئته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أى من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدًى فى قلبه ، و يقيناً صادقاً . وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

قوله ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته .

قال عَلْقمة «هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلمُ أنها من عندالله ، فيرضى ويسلم»

وفى صحيح مسلم : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « اثنتان فى الناس هُمَا بهم كفرٌ : الطعنُ فى النَّسَب ،

وذلك يوجب الصبر والرضا .

قوله ﴿ قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم ﴾ هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

وعلقمة : هو ابن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى . ولد فى حياة النبى ﷺ ، وسمع من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضى الله عنهم . وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم . مات بعد الستين

قوله ﴿ هو الرجل تصيبه المصيبة ﴾ ألخ . هذا الأثر رواه الأعمش عن أبى ظبيان . قال : كنا عند علقمة فقرىء عليه هذه الآية (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . هذا سياق ابن جرير . وفى هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الايمان . قال سعيد بن جبير (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يعنى يسترجع . يقول: إنا لله و إنا اليه راجعون . وفى الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب وأنها من ثواب الصابرين

قوله ﴿ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال « اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت » ﴾

أى هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علماً و إيمانا يستضىء به . لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الايمان يصير مؤمناً الايمان المطلق . وفرق بين الكفر المعرف باللام كما فى قوله « ليس بين العبد و بين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة »(١) و بين كفر منكر فى الاثبات .

قوله ﴿ الطعن فى النسب ﴾ أى عيبه ، يدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه .

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن جابر بن عبد الله بألفاظ متقاربة

والنِّياحة على الميت »

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا « ليس مِنَّا مَنْ ضَرب الخدود ، وشَقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوَى الجاهلية »

قوله ﴿ والنياحة على الميت ﴾ أى رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت ، لما فيه من التسخط على القدر المنافى للصبر ، كقول النائحة : وا عضداه ، وا ناصراه ، ونحو ذلك . وفيه دليل على أن الصبر واجب ، وأن من الكفر مالا ينقل عن الملة .

قوله ﴿ ولهما عن ابن مسعود مرفوعا « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ﴾

هذا من نصوص الوعيد ، وقد جاء عن سفيان الثورى وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ فى الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافى كمال الايمان الواجب

قوله ﴿ من ضرب الخدود ﴾ وقال الحافظ : خُص الخد لكونه الغالب ، والا فضرْب بقية الوجه مثله

قوله ﴿ وشق الجيوب ﴾ هو الذى يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت

قوله (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : هو ندب الميت . وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم رحمه الله : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعو الى ذلك ويوالى عليه ويعادى ، فكل هذا من دعوى الجاهلية

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبى أُمامة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الخامشة وجهها ، والشاقَّة جيبها ، والداعية بالويل والثبور »

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً وليس على وجه النوح والتسخط . نص عليه أحمد رحمه الله ، لما وقع لأبى بكر وفاطمة رضى الله عنهما لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وليس فى هذه الأحاديث مايدل على النهى عن البكاء ، لما فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيـــا ،

لما مات ابنه إبراهيم قال « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون (١) وفى الصحيحين عن أُسامة بن زيد رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته (٢) ولها صبى فى الموت ، فرُفع اليـه ونفسـه تَقَعقَع كأنها شَنّ ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يارسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء »

قوله ﴿ وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة فى الدنيا ، واذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ﴾

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم وحسنه الترمذى . وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبدالله بن مغفل . وأخرجه ابن عَدى عن أبى هريرة ، والطبرانى عن عمار بن ياسر

قوله (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا) أى يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : المصائب نعمة ، لأنها مكفرات للذنوب ، وتدعو الى الصبر فيثاب عليهـا . وتقتضى الانابة الى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، الى غـير ذلك من المصالح العظيمة . فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا . وهذا من أعظم النعم . فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شراً عليه من جهة ماأصابه فى دينه ، فان من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات مايوجب له الضرر فى دينه ، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ماأورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صـبراً وطاعة ، كانت فى حقه نعمة دينية ، فهى بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها . فمن ابتلى فرزق

(١) رواه البخارى وغيره
(٢) هى زينب كما فى صحيح البخارى

وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة»

وقال ﷺ « إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء ،

الصبر كان الصبر عليه نعمة فى دينه ، وحصل له بعد ما كفّر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى (٢: ١٥٦ أُولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . انتهى ملخصاً

قوله (و إذا أراد بعبده الشر أمسك عنه) أى أخّر عنه العقوبة بذنبه « حتى يوافى به يوم القيامة » وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبا بحتى مبنياً للفاعل . قال العزيزى : أى لايجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجىء فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها ، فيستوفى مايستحقه من العقاب . وهذه الجملة هى آخر الحديث . فأما قوله وقال النبى ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء » إلى آخره ، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذى باسناد واحد وصحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى (٢: ٢١٦ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

قوله ﴿ وقال النبى ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء . و إن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذى ﴾

قال الترمذى : حدثنا قتيبة ثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس، فذكر الحديث السابق ثم قال: وبهذا الاسناد عن النبى ﷺ أنه قال« إن عظم الجزاء — الحديث» ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه . وروى الامام أحمد عن محمود بن لَبيد رفعه« إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » قال المنذرى : رواته ثقات

قوله ﴿ إن عظم الجزاء ﴾ بكسر العين وفتح الظاء فيها . و يجوز ضمها مع سكون الظاء . أى من كان بتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط ، إلا اذا كانت سبباً لعمل صالح ،كالصبر والرضا والتوبة

وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التَّغابن

والاستغفار . فانه حينئذ يثاب على ماتولد منها، وعلى هذا يقال فى معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء اذا صبر واحتسب .

قوله ﴿ وإن الله اذا أحب قوماً ابتلاهم ﴾ ولهذا ورد فى حديث سعد « سئل النبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فان كان فى دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقّة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمى وابن ماجه والترمذى وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فاذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء فى أنفسهم الذى هو فى الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعا ، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى ، فيحرم قصدهم والرغبة اليهم فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ، وفى وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة مالا يحصى .

قوله *(فمن رضى فله الرضاء)* أى من الله تعالى ؛ والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه فى مواضع من كتابه كقوله تعالى(٩٨:٨ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه) ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على مايليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ؛ فاذا رضى الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب فى ثوابه ؛ وقد يجد لذلك راحة وانبساطا محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ؛ وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط

قوله *(ومن سخط)* وهو بكسر الخاء ، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشىء وعدم

الثانية : أن هذا من الايمان بالله

الثالثة : الطعن فى النسب

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير

السادسة : إرادة الله به الشر

السابعة : علامة حب الله للعبد

الثامنة : تحريم السخط

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء

باب

﴿ ما جاء فى الرياء ﴾

الرضا به . أى من سخط على الله فيما دبره فله السخط ؛ أى من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضاء وهو اختيار ابن عقيل . واختار القاضى عدم الوجوب ، ورجحه شيخ الاسلام وابن القيم

قال شيخ الاسلام : ولم يجىء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر . وانما جاء الثناء على أصحابه.

قال : وأما مايروى « من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى » فهذا إسرائيلى لم يصح عن النبى ﷺ

قال شيخ الاسلام : وأعلى من ذلك — أى من الرضا — أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها .اه والله أعلم

قوله (باب ما جاء فى الرياء)

أى من النهى والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية . والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه و بين السمعة : أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة . والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر ؛ و يدخل فى ذلك التحدث بما عمله

وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

وعن أبى هريرة مرفوعا «قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ،

قوله ﴿ وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) أى ليس لى من الربوبية ولا من الإلهية شىء ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إلىّ (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يخافه (فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) قوله (أحداً) نكرة فى سياق النهى تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم

قال شيخ الاسلام رحمه الله : أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وذكر الأدلة على ذلك

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الآية : أى كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لا شريك له ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة .

وفى الآية دليل على أن أصل الدين الذى بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى (٢١:٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه ؛ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت ينازع الله فى ربوبيته وإلهيته ، ويدعو الناس الى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس الى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب اليه بأنواع العبادة أو بعضها ، أو شاك فى التوحيد : أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريك فى عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم مَنْ قَبلهم ؛ لما اشتدت غُرْبةُ الدين ونُسىَ العلم بدين المرسلين .

قوله ﴿ وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا «قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » رواه مسلم ﴾

من عمل عملاً أشركَ معي فيه غيري تركتُه وشِرْكَه » رواه مسلم .

قوله (من عمل عملا أشرك فيه غيرى) أى من قصد بعمله غيرى من المخلوقين تركته وشركه . ولابن ماجه « فأنا منه برىء وهو للذى أشرك » قال الطيبى : الضمير المنصوب فى قوله « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل .

قال ابن رجب رحمه الله(١) : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين . كما قال تعالى (٤: ١٤٢ و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالَى يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وهذا الرياء المحض لايكاد يصدر عن مؤمن فى فرض الصلاة والصيام . وقد يصدر فى الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها ، فان الاخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لايشك مسلم أنه حابط ؛ وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة .

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فان شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه — وذكر أحاديث تدل على ذلك، منها : هذا الحديث ، وحديث شَدّاد بن أوس مرفوعا « من صلى يُرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، و إن الله عز وجل يقول: أنا خير قَسيم لمن أشرك بى ، فمن أشرك بى شيئاً فان جِدّة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به . أنا عنه غنى » رواه أحمد ، وذكر أحاديث فى المعنى ثم قال: فان خالط نية الجهاد مثلا نية غير الرياء ؛ مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية .

قال ابن رجب : وقال الامام أحمد رحمه الله : التاجر والمستأجر والمكرى أجرهم على قدر مايخلص من نياتهم فى غزواتهم ؛ ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لايخلط به غيره .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه . وروى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : « إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقا فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم أعطى دراهم غزا و إن لم يعط لم يغز فلا خير فى ذلك » . وروى عن مجاهد رحمه الله أنه قال فى حج الجمّال وحج الأجير ، وحج التاجر

(١) فى شرح حديث « انما الأعمال بالنيات » من جامع العلوم والحكم

وعن أبي سعيد مرفوعا « ألا أُخبرُكم بما هو أخوَفُ عليكم عندي من المسيح الدَّجال ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الشرك الخفي : يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته لما يرى من نظرِ رجل » رواه أحمد

« هو تام لاينقص من أجرهم شيء » أي لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء ، فان كان خاطراً ثم دفعه فلايضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الامام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لايبطل بذلك ، وأنه يُجازَى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن وغيره . وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ « أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ، فقال : تلك عاجل بُشرى المؤمن » رواه مسلم . انتهى ملخصاً .

قلت : وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله ﴿ وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يَرى من نظر رجل » رواه أحمد ﴾

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لَبيد قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس ، إيّاكم وشِرْك السرائر ، قالوا : يارسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل اليه . فذلك شِرْك السرائر »

قوله (عنَ أبي سعيد الخدري) وتقدم .

قوله (الشرك الخفي) سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . وعن شداد بن أوس قال : « كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص ، وابن جرير في التهذيب ، والطبراني والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي إلا الله

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف

الثانية : الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شىء لغير الله

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى

الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء

الخامسة : خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء لله، لكن يُزَيِّنها لما يرى من نظر رجل اليه

باب

﴿ من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا ﴾

وقوله تعالى (١١: ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ اليهم أعمالهم فيها

وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده . انتهى

ولا خلاف أن الاخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله فى قوله تعالى (٦٧: ٢ ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال «أخلصه وأصوبه» قيل: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صوابا ؛ فالخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة»

وفى الحديث من الفوائد : شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال . فاذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره .

قوله ﴿ باب من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا ﴾

فان قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة ، وهو ما إذا أراد الانسان بعمله

وهم فيها لا يُبخسون ١٦ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبط ماصنعوا فيها، وباطلٌ ما كانوا يعملون)

التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء ، فهذا رياء كما تقدم بيانه ، كحال المنافقين . وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطلب المدحة منهم والاكرام . ويفارق الرياء بكونه عمل عملا صالحا، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالا ، كما فى الحديث « تعِس عبدُ الدينار » أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التى ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضى الله عنه وغيره من المفسرين فى معنى قوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها)

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء ، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال ﴿ وقوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ١٦ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبط ما صَنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون) ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « من كان يريد الحياة الدنيا ، أى ثوابها . وزينتها ، أى مالها . نُوفّ ، أى نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد « وهم فيها لا يبخسون » لا ينقصون ، ثم نسختها (١٧ : ١٨، ١٩ من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها مانشاء لمن نريد) الآيتين » رواه النحاس فى ناسخه .

قوله « ثم نسختها » أى قيدتها . فلم تبق الآية على إطلاقها[1] .

وقال قتادة : « من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة » ذكره ابن جرير بسنده ، ثم ساق حديث أبى هريرة عن ابن المبارك عن حيوة

(١) من العجيب جداً دعوى النسخ . فان الآيتين فى معنى واحد . وتفسير النسخ بتقييد مطلقها — يعنى بالمشيئة — كذلك غير واضح ، والظاهر أنها لا تثبت رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما

ابن شريح قال: حدثنى الوليد بن أبى الوليد أبوعثمان أن عُقبة بن مسلم حدثه أن شُفَىّ بن ماتع الأصبحى حدثه « أنه دخل المدينة فاذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة . قال فدنوت منه حتى قعدت بين يديه؛ وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا قلت : أنْشُدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدثتنى حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عَقَلتَه وعلمته . قال: فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت مافيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشَغ أبوهريرة نَشْغَة[1] ؛ ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت مافيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشغ أبو هريرة نَشْغة أخرى ، ثم مال خارًّا على وجهه ؛ واشتد به طويلا . ثم أفاق فقال : حدثنى رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم ؛ وكلُّ أُمَّةٍ جاثية . فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتِل فى سبيل الله ؛ ورجل كثير المال . فيقول الله تبارك وتعالى للقارىء : ألم أعلمك ماأنزلتُ على رسولى؟ قال : بلى يارب . قال: فماذا عملت فيماعلمت؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله له : كذبت، وتقول له الملائكة : كذبت؛ ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ؛ قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له : كذبت؛ وتقول له الملائكة : كذبت ،ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد ؛ فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له : فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جرىء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال : ياأبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة »[2]

---

(١) نشغ بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة ؛ أى شهق حتى كاد يغشى عليه أسفا وخوفا

(٢) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره «قال أبوعثمان الوليد : فأخبرنى عقبة أن شفيا هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا . قال أبوعثمان وحدثنى العلاء بن أبى حكيم: أنه كان سيافا لمعاوية ـ قال : فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة ، فقال معاوية : وقد فعل بهؤلاء هذا ؟ فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا :

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك: العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الانسان أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه فى الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولا همة له فى طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا وليس له فى الآخرة من نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس

النوع الثانى : وهو أكبر من الأول وأخوف ؛ وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية : أنها نزلت فيه : وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا ، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية؛ وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عمل يكفّره كفراً يخرجه عن الاسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الاسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ؛ لكنهم على أعمال تخرجهم من الاسلام وتمنع قبول أعمالهم؛ فهذا النوع أيضاً قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ؛ وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول (٥:٢٧ إنما يتقبل الله من المتقين)

ثم قال : بقى أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء

= قد جاء هذا الرجل بشر . ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال: صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) قال المنذرى ؛ ورواه ابن خزيمة فى صحيحه

في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تَعِسَ عبدُ الدينار، تعِسَ، عبدُ الدرهم، تعِسَ عبدُ الخميصة، تعسَ عبدُ الخميلة، إن أُعطىَ رضىَ، وإن لم يُعط سَخِط، تعِسَ وانتُكِس

وجه الله، طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالا قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيرا ما يذكر أهل الجنة الخلّص وأهل النار الخالص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله اه

قوله ﴿في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطى رضى، وان لم يُعط سخط، تعِس وانتُكِس، وإذا شِيك فلا انتُقِش. طُوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مُغبرّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة. إنِ استأذن لم يؤذن له، وان شَفع لم يشفّع﴾

قوله (في الصحيح) أي صحيح البخاري

قوله (تعس) هو بكسر العين ويجوز الفتح، أي سقط، والمراد هنا هلك. قاله الحافظ. وقال في موضع آخر: وهو ضد سَعد. أي شقي. وقال أبو السعادات: يقال تعس يتعس إذا عَثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك

قول (عبد الدينار) هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن

قوله (تعس عبد الدرهم) وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزناً، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة، سماه عبداً له، لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكا له في عبوديته كما هو حال الأكثر.

قوله (تعس عبد الخميصة) قال أبو السعادات: هي ثوب خزٍّ أو صوف معلّم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلمَة، وتُجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة. وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خَمل من أي شيء كان.

قوله (تعس وانتكس) قال الحافظ: هو بالمهملة، أي عاوده المرض. وقال ابو السعادات: أي انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة. قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه. لأنه

وإذا شِيكَ فلا انْتُقِشَ ،

إذا تعس انكبّ على وجهه . وإذا انتُكِس انقلب على رأسه بعد أن سقط .

قوله ﴿ وإذا شيك ﴾ أى أصابته شوكة (فلا انتقش) أى فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش قاله أبو السعادات :

والمراد أن من كانت هذه حاله فانه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه فى العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات فى الوقوع فيما يضره فى عاجل دنياه وآجل أخراه

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فسماه النبى ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة. وذكر فيه ماهو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ، لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه « إن أُعطى رضى ، وإن مُنِعَ سَخِط » كما قال تعالى (٨ : ٥٨ ومنهم من يَلمِزُكَ فى الصدقات ، فان أُعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يَسْخَطون) فرضاؤهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد مايهواه من ذلك وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رِقّ القلب وعبوديته ، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده — إلى أن قال :—

وهكذا أيضاً طالب المال ، فان ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان ، فمنها مايحتاج اليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ؛ فهذا يطلب من الله ويرغب اليه فيه . فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه ، وبساطه الذى يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعا.

ومنها : مالا يحتاج اليه العبد ، فهذا ينبغى أن لايعلق قلبه بها ؛ فاذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ « تعس عبد الدينار ؛ تعس عبد الدرهم ؛ تعس عبد الخميصة ،

تعس عبد الخميلة» وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله ، فان الله إذا أعطاه إياها رضى، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه مايرضى الله و يسخطه مايسخط الله، ويُحبُّ ماأحبه الله ورسوله و يبغض ماأبغض الله ورسوله ؛ و يوالى أولياء الله و يعادى أعداء الله ،فهذا الذى استكمل الايمان . انتهى ملخصاً .

قوله ﴿ طوبى لعبد ﴾ قال أبو السعادات : « طوبى » اسم الجنة ، وقيل : هى شجرة فيها ويؤيد هذا ماروى ابن وهب بسنده عن أبى سعيد قال « قال رجل : يارسول الله وماطوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» ورواه الامام احمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دَرّاج ابوالسمح ان أبا الهيثم [1] حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ «إن رجلا قال : يارسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ؛ قال: طوبى لمن رآنى وآمن بى، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وله شواهد فى الصحيحين وغيرهما . وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً . قال وهب رحمه الله : « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها : زَهْرها رياط ، وورقها بُرود [2] وقضبانها عَنْبَر، و بطحاؤها ياقوت ؛ وترابها كافور ، ووَحْلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ؛ بينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح من حسنها ، ووبرها كخزِّ المرعِزّى من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس و إستبرق ؛ فينيخونها و يقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها ، قال : فهى أسرع من الطائر ؛ وأوطأ

---

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان . كما صرح بذلك الامامان أحمد وأبو داود . وقد روى البخارى ومسلم من حديث سهل بن سعد أن رسول الله (ص) قال «ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها»

(٢) الرياط : جمع ريطة ــ بفتح الراء المهملة ــ ثوب كالملاءة . وقيل : كل ثوب رقيق لين . والبرد : كالعباءة

من الفراش . خَبّا من غـير مِهنة ، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لاتصيب أُذن راحلة منها أُذن صاحبتها ، ولا بَرك راحلة برك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا اليه ، فاذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والاكرام ؛ قال : فيقول تبارك وتعالى عند ذلك ، أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، مرحباً بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك ، فائذن لنا بالسجود قدامك . قال: فيقول الله : إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة ، فسلونى ماشئتم ، يان لكل رجل منكم أمنيته . فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : ربى ؛ تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فآتنى من كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهث الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصّرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك منى وسأتحفك بمنزلتى لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قِصَر يَدٍ . قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادى مالم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم (١) التى فى أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقَرّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة . على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة . فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة . فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين . على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة . وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما . ولا ريح طيب إلا قد عَبَق بهما . ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة . حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة . يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء . يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهما مثل ذلك . ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ماظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً فى الجنة حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له »

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد : « فانظروا إلى مواهب ربكم الذى وهب لكم ؛ فاذا بقباب فى الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان أبوابها من

---

(١) فى ابن جرير « حتى يقضوهم أمانيهم » وفى ابن كثير « حتى تقصر بهم أمانيهم »

ذهب وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها . فلولا أنه مُسَخَّر إذاً لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالارجوان الأصفر ، مُبَوَّبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرَفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ؛ تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حَكَمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظروهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم ؛ فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان ؛ وفيهما من كل فاكهة زوجان ؛ وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم) وربِّنا . قال: هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربَّنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائى عنكم أحللتكم دارى ونظرتم إلى وجهى ، فعند ذلك قالوا (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد فى الصحيحين [1] .

وقال خالد بن مَعدان « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، ضُروع كلها ، ترضع صبيان

---

(١) روى هذا الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى فى سورة الرعد (١٣: ٢٩ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقال فيه ابن كثير : إنه سياق غريب وأثر عجيب اه . وظاهر عليه صبغة الاسرائيليات الملفقة . وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفه التى تمجها الفطر السليمة وقد فتن الناس بهذه الاسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أخَذَ بعِنان فَرَسه فى سبيل الله أشْعثَ رأسهُ ، مُغْبَرَّةً قدماه . إن كان فى الحِراسة كان فى الحِراسة . وإن كان فى السَّاقة كان فى السَّاقة . إن استأذَنَ لم يُؤْذَن له . وإن شَفَع لم يُشَفَّع »

أهل الجنة ، وإن سَقْط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن اربعين سنة » رواه ابن أبى حاتم.

قوله ﴿ أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ﴾ أى فى جهاد المشركين

قوله ﴿ أشعث ﴾ مجرور بالفتحة لأنه اسم لاينصرف للوصفية ووزن الفعل ، و(رأسه) مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شَغَله الجهاد فى سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر.

قوله ﴿ مغبرة قدماه ﴾ هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله ﴿ إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ﴾ هو بكسر الحاء أى حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قوله ﴿ كان فى الحراسة ﴾ أى غير مقصر فيها ولا غافل ، وهذا اللفظ يستعمل فى حق من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله ﴿ وان كان فى الساقة كان فى الساقة ﴾ أى فى مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه فى مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلا أو نهاراً ، رغبة فى ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته

قال ابن الجوزى رحمه الله : وهو خامل الذكر لايقصد السمو

وقال الخلخالى : المعنى ائتماره بما أمر ، و إقامته حيث أقيم . لايفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة. انتهى . وفيه فضل الحراسة فى سبيل الله .

قوله ﴿ ان استأذن لم يؤذن له ﴾ أي ان استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له لأنه لاجاه له عندهم ولا منزلة . لأنه ليس من طلابها . وانما يطلب ماعند الله لايقصد بعمله سواه

قوله ﴿ وان شفع ﴾ بفتح أوله وثانيه (لم يشفّع) بفتح الفاء مشددة . يعنى لو ألجأته الحال الى أن يشفع فى أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الامراء ونحوهم

وروى الامام احمد ومسلم عن أبى هريرة مرفوعا « رُبَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه »

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الانسان الدنيا بعمل الآخرة

الثانية : تفسير آية هود

الثالثة : تسمية الانسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أُعطى َرضىَ ، وإن لم يعط سخط

الخامسة : قوله « تعِسَ وانتكس »

السادسة : قوله « وإذا شيك فلا انتقش »

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات

قال الحافظ : فيه ترك حب الرياسة والشهرة . وفضل الخمول والتواضع انتهى .

وروى الامام احمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان رضى الله عنه ـ وهو يخطب على منبره « إنى محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الظن بكم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حرسُ ليلة فى سبيل الله أفضل من الف ليلة يقام ليلها و يصام نهارها »

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك قال عبد الله بن محمد قاضى نصيبين حدثنى محمد بن ابراهيم بن أبى سُكينة انه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطَرَسوس وواعده الخروج . وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... رَهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبّار خيل الله فى ... أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا : ... ليس الشهيد بميت . لا يكذب

باب

﴿ من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرم الله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله ﴾

وقال ابن عباس : « يُوشَكُ أن تنزلَ عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ »

قال : فلقيت الفضيل بكتابه فى المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم قال لى : اكتب هذا الحديث ، وأملى علىّ الفضيلُ بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة « أن رجلا قال : يارسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله ؛ فقال : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال : يارسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ : فوالذى نفسى بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين فى سبيل الله ، أما علمت أن فرس المجاهد ليَسْتَنُّ فى طِوَله فيكتب له بذلك حسنات ؟[(1)] »

قوله : ﴿ باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرم الله ؛ فقد اتخذهم أربابا من دون الله ﴾

لقول الله تعالى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وتقدم تفسير هذا فى أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه.

قوله ﴿ وقال ابن عباس رضى الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال ابو بكر وعمر ؟ » ﴾

قوله ﴿ يوشك ﴾ بضم أوله وكسر الشين المعجمة أى يقرب ويسرع

---

(١) روى البخارى حديث سؤال الرجل هذا عن أبى هريرة . وفيه : فقال أبو هريرة « فان فرس المجاهد ليستن يمرح فى طوله فيكتب له حسنات » والطول الحبل . والاستنان: العدو ، وروى مسلم مثله قريبا منه فى فضل الجهاد فى سبيل الله .

وهذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما جواب لمن قال له « إن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ، و يريان إن افراد الحج أفضل » أو ماهو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول « إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة اشواط فقدحل من عمرته شاء أم أبى » لحديث سُراقة بن مالك حين أمرهم النبى ﷺ أن يجعلوها عمرة ويُحلُّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة « يارسول الله ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل للابد » والحديث فى الصحيحين، وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من اقوالهم مادل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى (٤ : ٥٩ فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)

وللبخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ قال « لواستقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معى الهدى لأحللت[1] » هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها . ولفظه فى حديث جابر « إفعلوا ما أمرتكم به فلولا أنى سُقتُ الهدْى لفعلت مثل الذى امرتكم » فى عدة احاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء — الحديث »

وقال الامام الشافعى رحمه الله « أجمع العلماء على ان من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول احد »

وقال الامام مالك رحمه الله تعالى « مامنا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ »

وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير .

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع فمن أصاب منهم فله اجران ، ومن اخطأ فله اجر ، كما فى الحديث[2] ، لكن إذا استبان لهم الدليل اخذوا به وتركوا اجتهادهم . وأما إذا لم

---

(١) قال ذلك حين أمرهم فى حجة الوداع أن يفسخوا حجهم الى العمرة ، ليكونوا متمتعين . ووجدوا فى أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم الى منى ، وقصر المدة التى يقيمونها فى مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا : نذهب الى منى ومذا كيرنا تقطر فينا » انظر زاد المعاد فى حجة الرسول (ص)

(٢) « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا أخطأ فله أجر »

وقال الامام احمد « عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحَته ، ويذهبون إلى رأى

يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبى ﷺ عندهم فيه حديث ، أوثبت وله معارض أومخصص ونحو ذلك فحينئذ يسوغ للامام أن يجتهد . وفى عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هى عنده بالتَّلقى والسماع ؛ و يسافر الرجل فى طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين . ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، و بينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا فى كل مذهب ؛ وذكروا حجج المجتهدين . فسهل الأمر على طالب العلم . وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده ، وفى كلام ابن عباس رضى الله عنهما مايدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به — تقليداً لامامه — فانه يجب الانكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل .

وقال الامام احمد : حدثنا احمد بن عمر البزاز ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا ابو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله و يدع غير النبى ﷺ »

وعلى هذا فيجب الانكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائناً من كان ، ونصوص الأئمة على هذا ؛ وأنه لايسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لا دليل فيها يرجع اليه من كتاب ولا سنة ؛ فهذا هوالذى عناه بعض العلماء بقوله : لاإنكارفى مسائل الاجتهاد . وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعى ومالك واحمد ، وذلك مجمع عليه ، كما تقدم فى كلام الامام الشافعى رحمه الله تعالى .

قوله : ﴿ وقال الامام احمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان والله تعالى يقول : (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك ﴾

هذا الكلام من الامام احمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب . قال الفضل عن احمد « نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ فى ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم

سفيان . والله تعالى يقول : ٢٤ : ٦٣ فَلْيَحذرِ الذين يخالفون عن أمره أن

جعل يتلو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة — الآية) فذكر من قوله : الفتنة الشرك — إلى قوله — فيهلك » . ثم جعل يتلو هذه الآية (٤ : ٦٥ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)

وقال ابو طالب عن احمد وقيل له « إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره ؛ فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الاسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره ، قال الله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ماالفتنة ؟ الفتنة الكفر . قال الله تعالى (٢ : ٢١٧ والفتنة أكبر من القتل) فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى » ذكر ذلك عنه شيخ الاسلام رحمه الله تعالى .

قوله ﴿ عرفوا الاسناد ﴾ أى إسناد الحديث وصحته ، فاذاصح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء

وسفيان : هو الثورى الامام الزاهد العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة ، كالتمهيد لابن عبد البر ، والاستذكار له ، وكتاب الاشراف على مذاهب الاشراف لابن المنذر ، والمحلى لابن حزم ، والمغنى لأبى محمد عبد الله بن احمد بن قدامة الحنبلى . وغير هؤلاء

فقول الامام احمد رحمه الله : « عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته الخ » إنكار منه لذلك . وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً . وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه ؛ فمن ذلك قولهم : لايستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد . والاجتهاد قد انقطع [1] ويقول : هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ؛

---

(١) فى قرة العيون : وقد أخطأوا فى ذلك . وقداستدل الامام احمد رحمه الله بقوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » أن الاجتهاد لاينقطع

تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ،

ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ؛ والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه و يمنع قوله بدليل ، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك : أن ينتهى اليه و يعمل به ، و إن خالفه من خالفه ؛ كما قال تعالى (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٢٩ : ٥١ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقد تقدم حكاية الاجماع على ذلك ؛ و بيان أن المقلد ليس من أهل العلم ، وقد حكى أيضا ابو عمر ابن عبد البر وغيره الاجماع على ذلك .

قلت : ولا يخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة ، لجهلهم بالكتاب والسنة ، ورغبتهم عنهما ، وهؤلاء و إن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فانهم فى الحقيقة قد خالفوهم ، واتبعوا غير سبيلهم . كما قدمنا من قول مالك والشافعى واحمد ، ولكن فى كلام احمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم وانما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول امام من الأئمة ، وذلك انما نشأ عن الاعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والاقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين ، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) كما سيأتى بيان ذلك فى حديث عدى بن حاتم ، فيجب على من نصح نفسه اذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما فى الكتاب والسنة ، فان كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب الى مذهبه لابد أن يذكر دليله ، والحق فى المسئلة واحد ، والأئمة مثابون على اجتهادهم ؛ فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً الى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون ، و يعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه ، والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر وفى السنة كذلك ، كما أخرج ابو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ « أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً الى اليمن قال : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله تعالى ، قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله

عن عَدِيّ بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٩: ٣١ اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بنَ مريم . وما أُمروا إلا إلهـاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحللون ماحرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه احمد والترمذى وحسنه

عن أمره) فاذا كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك ، أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم أن افضاءه الى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية ، فافضاؤه الى الكفر انما هو لما يقترن به من الاستخفاف فى حق الأمر ، كما فعل ابليس لعنه الله تعالى اه .

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة » قال : « يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه. »

قال ابو جعفر بن جرير : أدخلت « عن » لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين :

قوله (أو يصيبهم) فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ

قوله ﴿ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه : أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم - الآية) فقلت: « انا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه و يحلون ماحرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم » رواه احمد والترمذى وحسنه ﴾

هذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى

قوله (عن عدى بن حاتم) أى الطائى المشهور . وحاتم هوابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء - المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدى على النبى ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة . فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة .

وفى الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ،

ﷺ . قال : فان لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، قال فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » وساق بسنده عن الحارث بن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله « أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن — بمعناه »

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء

قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولى لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ . وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال اتركوا قولى لقول الصحابة .

وقال الربيع سمعت الشافعى رحمه الله يقول : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ماقلت

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا بقولى الحائط

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ

وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لمقلد بعد هذا . ولو استقصينا كلام العلماء فى هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى [1]

قوله ﴿ لعله إذا رد بعض قوله ﴾ أى قول الرسول ﷺ ﴿ أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك ﴾ نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب ، وذلك هو الهلاك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين)

قال شيخ الاسلام رحمه الله فى معنى قول الله تعالى (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون

---

(١) فى قرة العيون : فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر فى أقوال المخالفين وما استدلوا به ، فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه . وبالله التوفيق .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور

الثانية : تفسير آية براءة

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التى انكرها عدى

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر ، وتمثيل احمد بسفيان .

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال وتسمى الولاية : وعبادة الأحبار هى العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين . وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله لقوله تعالى فى آخر الآية : (وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ونظير ذلك قوله تعالى : (٦ : ١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، وإنه لفسق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم ، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره ، أو يحرم ؛ فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة . ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل ؛ ولا ريب أن هذا من غربة الاسلام كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل :

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأحبار هى العلم والفقه . ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ماشرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا . وقد قال تعالى (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين).

باب

قول الله تعالى : (٤ : ٦٠ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل اليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمروا أن يكفروا به

وعن زياد بن حُدير قال قال لي عمر رضي الله عنه : « هل تعرف ما يهدمُ الاسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زَلّة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمي جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

باب ﴿ قول الله تعالى : (٤ : ٦٠ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل اليك وما أنزل من قبلك — الآيات ﴾

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ماسواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت ههنا .

وتقدم ماذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت ، وأنه كل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ، فان التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما ، فمن تحاكم الى غيرهما فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها . وكذلك من عبد شيئاً دون الله فانما عبد الطاغوت ، فان كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة الى الشيطان الذي أمره بها ، كما قال تعالى : (١٠ : ٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزَيّلنا بينهم وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ٢٩ * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كُنّا عن عبادتكم لغافلين ٣٠ * هنالك تَبْلُو كلُّ نفس ما أسلفت ورُدوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) وكقوله : (٣٤ : ٤٠ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وان كان ممن يدعو الى عبادة نفسه أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناما على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ، ومن عبادة كل

معبود سوى الله كائناً من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله ، فهو الذى دعا الى كل باطل وزينه لمن فعله ؛ وهذا ينافى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فالتوحيد : هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة مالا يستحقه .

قال الامام مالك رحمه الله « الطاغوت ماعبد من دون الله »

وكذلك من دعا الى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ماجاء به الرسول ﷺ ورغب عنه ، وجعل لله شريكا فى الطاعة وخالف ماجاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به فى قوله : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) وقوله تعالى : (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ماأنزل الله ، أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الاسلام والايمان من عنقه . وإن زعم أنه مؤمن ، فان الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم فى زعمهم الايمان لما فى ضمن قوله : « يزعمون » من نفى إيمانهم ، فان « يزعمون » إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها ، يحقق هذا قوله : « وقد أُمروا أن يكفروا به » لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما فى آية البقرة فاذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً والتوحيد هو أساس الايمان الذى تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه . كما أن ذلك بين فى قوله تعالى : (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى — الآية) وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ﴾ يبين تعالى فى هذه الآية أن التحاكم الى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه ؛ ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله ، وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد . فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى . ففى هذه الآية أربعة أمور . الأول : أنه من إرادة الشيطان : الثانى : انه ضلال . الثالث :

٦١ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يصدون عنك صدوداً ٦٢ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً)

وقوله :(٢ : ١١ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون)

تأكيده بالمصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ماأعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدله على أنه كلام رب العالمين ،أوحاه إلى رسوله الكريم،وبلغه عبده الصادق الأمين . صلوات الله وسلامه عليهما .

قوله ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وان زعم أنه مؤمن فانه فى غاية البعد من الايمان .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دُعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله ﴿ ويصدون ﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون . لأن مصدره « صدوداً » فما أكثر من اتصف بهذا الوصف،خصوصاً ممن يدعى العلم . فانهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطىء كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة فى تقليدهم من لايجوز تقليده،واعتمادهم على قول من لايجوز الاعتماد على قوله ، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هوالمعتمد عندهم الذى لاتصح الفتوى إلا به . فصارالمتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا فى الباب الذى قبل هذا

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ماوقع فيه غالب الناس من الاعراض عن الحق وترك العمل به فى أكثر الوقائع . والله المستعان .

قوله : (٢ : ١١وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) قال أبوالعالية فى الآية : يعنى لاتعصوا فى الأرض . لأن من عصى الله فى الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . وقد أخبر تعالى

وقوله (٧ : ٥٦ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعاً . إن رحمة الله قريب من المحسنين .)

عن إخوة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى : (١٢ : ٧٠ — ٧٢ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون — إلى قوله — قالوا تالله لقد علمتم ماقد جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) فدلت الآية على أن كل معصية فساد فى الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم الى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد فى الأرض .

وفى الآية : التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء و إن زخرفوها بالدعوى . وفيها التحذير من الاغترار بالرأى مالم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فما أكثر من يصدق بالكذب و يكذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد فى الأرض و يترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله فى الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر إلا من عصمه الله ومن عليه بقوة داعى الايمان ، وأعطاه عقلا كاملا عند ورود الشهوات ، و بصراً نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله ﴿ ٧ : ٥٦ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ قال أبو بكر بن عياش فى الآية : إن الله بعث محمداً ﷺ الى أهل الأرض وهم فى فساد ، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا الى خلاف ماجاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض.

وقال ابن القيم رحمه الله : قال أكثر المفسرين : لاتفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء الى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، و بيان الشريعة والدعاء الى طاعة الله، فان عبادة غير الله والدعوة الى غيره والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة الى غير الله و إقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ ، هو أعظم فساد فى الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا

وقوله (٥ : ٥٠ أفحكمَ الجاهلية يَبْغون ؟ ومن أحسنُ من الله حكما لقوم يوقنون)

أمر بطاعة الرسول ﷺ . فاذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر فى العالم وفتنة و بلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة الى غير الله ورسوله . اهـ

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم الى غير الله ورسوله من أعظم مايفسد الأرض من المعاصى ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى (٤ : ١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً)

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٥ : ٥٠ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان الذى وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه . فصارت فى بنيه شرعا يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه فى قليل ولا كثير (١)

قوله : (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) إستفهام إنكار ، أى لاحكم أحسن

---

(١) ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم اليها فى الدماء والفروج والأموال ، ويقدمها على ماعلم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فهو بلاشك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع الى الحكم بما أنزل الله . ولا ينفعه أى اسم تسمى به ، ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح

حكمه تعالى . وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له فى الطرف الآخر مشارك ؛ أى ومن أعدل من الله حكما لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده القادر على كل شيء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ؟

وفى الآية : التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسوله ؛ فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ؛ وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

قوله : ﴿ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح ﴾

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى الشافعى فى كتاب « الحجة على تارك المحجة » باسناد صحيح كما قاله المصنف رحمه الله عن النووى . ورواه الطبرانى وأبو بكر ابن عاصم ؛ والحافظ أبو نعيم فى الأربعين التى شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار ، وشاهده فى القرآن قوله تعالى (٤ : ٦٥ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم — الآية) وقوله : (٣٣ : ٣٦ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله : (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) ونحوه هذه الآيات

قوله : ﴿ لايؤمن أحدكم ﴾ أى لايكون من أهل كمال الايمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون فى درجة أهل الاساءة والمعاصى من أهل الاسلام .

قوله : ﴿ حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ﴾ . « الهوى » بالقصر ، أى ما يهواه وتحبه نفسه وتميل اليه ، فان كان الذى تحبه وتميل اليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لايخرج عنه الى مايخالفه . فهذه صفة أهل الايمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أو فى بعض

أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الايمان كماله الواجب، كما في حديث أبى هريرة « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن (١) » يعنى أنه بالمعصية ينتفى عنه كمال الايمان الواجب وينزل عنه فى درجة الاسلام وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الايمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بايمانه فاسق بمعصيته؛ فيكون معه مطلق الايمان الذى لا يصح إسلامه إلا به (٢). كما قال تعالى: (٥ : ٩٢ فتحرير مؤمنة) والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها: أن الايمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٤٣ وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم الى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبى ﷺ لوفد عبد القيس « آمركم بالايمان بالله وحده، أتدرون ما الايمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله » الحديث، وهو فى الصحيحين والسنن. والدليل على أن الايمان يزيد قوله تعالى (٧٤ : ٣١ ويزداد الذين آمنوا إيمانا) الآية. وقوله (٩ : ١٢٤ وأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا — الآية) خلافا لمن قال: إن الايمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: من الايمان هو التصديق كالأشاعرة. ومن المعلوم عقلا وشرعا أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق وليس مع أهل البدع ما ينافى قول أهل السنة والجماعة ولله الحمد والمنة. قال الله تعالى (٢ : ١٧٧ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا) أى فيما عملوا به فى هذه الآية

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) فى قرة العيون: وهذا التوحيد الذى لا يشوبه شرك ولا كفر. وهذا هو الذى يذهب اليه أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة، فان الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلون لا يطلقون عليه الايمان ويقولون بتخليده فى النار، وكلا الطائفتين ابتدع فى الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة. وقد قال تعالى (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب اليه أهل السنة. فقد أخرج البخارى وغيره عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير »

من الأعمال الظاهرة والباطنة .وشاهده فى كلام العرب قولهم : حملة صادقة . وقدسمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهـاً ، فقال تعالى (٢٥ : ٤٣ أفرأيت من اتخذ آلهه هواه) قال بعض المفسرين : لايهوى شيئاً إلا ركبه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الانسان لايكون مؤمناً كامل الايمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها . فيحب ماأمر به و يكره مانهى عنه ، وقد ورد القرآن بمثل هـذا المعنى فى غير موضع ، وذم سبحانه من كره ماأحبه الله أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى (٤٧ : ٢٨ ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ماأحبه الله محبة توجب له الاتيان بما أوجب عليه منه ؛ فان زادت المحبة حتى أتى بما ندب اليه منه كان ذلك فضلا ، وأن يكره مايكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فان زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلا . فمن أحب الله ورسوله محبـة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه مايحب الله ورسوله و يكره مايكرهه الله ورسوله ، فيرضى مايرضى به الله ورسوله ، و يسخط مايسخط الله ورسوله ، و يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ؛ فان عمـل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ؛ بأن ارتكب بعض مايكرهه الله ورسوله وترك مايحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك و يرجع الى تكميل المحبة الواجبة التى هى ركن العبادة إذا كملت . فجميع المعاصى تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبـة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه ، فقال تعالى (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنمـا يتبعون أهواءهم ، ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟) وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمى أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصى إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة مايحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجبُ فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، فيجب على المؤمن محبة مايحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموما ؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الايمان : أن يحب المرء لايحبه إلا الله[1]

---

(١) لما روى البخارى وغيره « ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ؛ وأن يحب المرء لايحبـه إلا الله . وأن يكره أن يعود الى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه ؛ كما يكره أن يقذف فى النار »

وقال الشعبى «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودى: نتحاكم إلى محمد — لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة . فاتفقا أن يأتيا كاهناً فى جُهينة فيتحاكما اليه فنزلت (ألم تر إلى الذين يزعمون) الآية

، وقيل : نزلت فى رجلين اختصما فقال « أحدهما نترافع الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ثم ترافعا الى عمر ، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذى لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك ؟ قال نعم : فضربه بالسيف فقتله » .

فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموما ، وبهذا يكون الدين كله لله . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان ، ومن كان حبه و بغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب . فتجب التوبة من ذلك: انتهى ملخصاً.

ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الايمان وأهل النفاق والمعاصى فى أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

قوله ﴿ وقال الشعبى ﴾ هو عامر بن شُراحيل الكوفى ، عالم أهل زمانه ؛ وكان حافظاً علامة ذا فنون . كان يقول : « ما كتبت سوداء فى بيضاء [1] » ، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة . قاله الذهبى

وفيما قاله الشعبى مايُبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . و يكون أشد عداوة منهم لأهل الايمان . كما هو الواقع فى هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين . ، وحرصهم على إطفاء نور الاسلام والايمان : ومن تدبر مافى التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من طاعتهم والقرب منهم ؛ وحضه على جهادهم فى مواضع من كتابه ،قال تعالى (٦٦ : ٩ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ علعهم — الآية) وفى قصة عمر رضى الله عنه وقتله

---

(١) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة

المنافق الذى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى : دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق ، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبى ﷺ والأذى له والاظهار لعداوته فانتقض به عهده . وحلّ به قتله . وروى مسلم فى صحيحه عن عمر : سمعت جابراً يقول : قال رسول الله ﷺ « من لكعب بن الأشرف ؟ فانه قد آذى الله ورسوله، قال محمد بن مَسْلمة : يارسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال نعم قال : ائذن لى فَلأقُلْ ، قال : قل ، فأتاه فقال له ، وذكر ما بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنّانا . فلما سمعه قال : وأيضاً والله لتَمَلُّنّه ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير أمره ، قال : وقد أردتُ أن تُسلفنى سلفاً ، قال : فما ترهننى ؟ قال : ماتريد . قال : ترهننى نساءكم ؟ قال : أنت أجمل العرب ، أنرهنك نساءنا ؟ قال : ترهنونى أولادكم ؟ قال : يُسبّ ابن أحدنا فيقال : رُهن فى وَسْقين من تمر . ولكن نرهنك اللأمة — يعنى السلاح — قال : فنعم . وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبس بن جبر وعباد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلا فنزل اليهم — قال سفيان قال غير عمرو : قالت له امرأته : إنى أسمع صوتا كأنه صوت دم ، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة[1] إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلا لأجاب ، قال محمد : إنى إذا جاء فسوف أمد يدى إلى رأسه ، فاذا استمكنت منه فدونكم ، قال : فلما نزل وهو متوشح . فقالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم، تحتى فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لى أن أشُم منه ؟ قال : نعم . فشم ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لى أن أعود ؟ قال : فاستمكن من رأسه . ثم قال : دونكم قال : فقتلوه »

وفى قصة عمر : بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما فى الصحيحين وغيرهما : أن النبى ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فانه قال « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » فصلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) قال النووى : هكذا هو فى جميع النسخ . قال القاضى رحمه الله : قال لنا شيخنا القاضى الشهيد : صوابه أن يقال : انما هو محمد ورضيعه أبو نائلة . وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعاً لمحمد بن مسلمة . ووقع فى صحيح البخارى « ورضيعى » أبو نائلة »

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات : وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب)

قوله ﴿ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات — وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربى ؛ لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب)

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور فى كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركى قريش جحدوا اسم « الرحمن » عناداً ؛ وقال تعالى (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ؛ أيّاً مّا تدعو فله الأسماء الحسنى) « والرحمن » اسمه وصفته ، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه ؛ وهى من صفات الكمال ، فاذا كان المشركون جحدوا اسما من أسمائه تعالى ، وهو من الأسماء التى دلت على كماله سبحانه وبحمده فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك ، فان جَهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لاتدل على صفة قائمة بالله تعالى . وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون فى ... عشر من العلماء فى البلدان

واللالكائى الامام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبرانى

فان هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم ؛ فقالوا : هذه الصفات هى صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما ، هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا مافهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله فى ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ؛ فشبهوا أولا وعطلوا ثانياً . وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم ، فتركوا مادل عليه الكتاب والسنة من إثبات ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على مايليق بجلاله وعظمته . وهذاهو

وفى صحيح البخارى قال على « حدِّثوا النـاس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ »

الذى عليه سلف الأمة وأئمتها ، فانهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ إثباتا بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل ، فان الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتا لاتشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك و يثبتون ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله لاتشبه صفاته صفات خلقه ؛ فانهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا . فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة ،و إجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى فى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم فى إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالامام احمد رحمه الله تعالى فى رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكنانى فى رده على بشر المريسى، وكتاب السنة لأبى عبدالله المروزى، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد.وهو بشر المريسى، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعى ؛ وكتاب السنة لأبى بكر الخلال ، وأبى عثمان الصابونى الشافعى ، وشيخ الاسلام الانصارى ؛ وأبى عمر بن عبد البر النمرى ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم ؛ وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله ابن احمد بن قدامة ، وشيخ الاسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم .

قوله ﴿ وفى صحيح البخارى عن على رضى الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله ﴾

« على » هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين .

وسبب هذا القول — والله أعلم — ماحدث فى خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ . فيأتون فى قصصهم بأحاديث لاتعرف من هذا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات — استنكاراً لذلك — فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقّة عند مُحكمه، ويهلكون عند متشابهه » انتهى.

القبيل[1]، فربما استنكرها بعض الناس وردها. وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملا، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته؛ وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش؛ والتبصرة لما في ذلك من الاعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القصاص عن القصص، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك؛ ويقول « لا يقص إلا أمير أو مأمور » وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملا ونية وقصداً، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله ﴿ وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه ﴾

---

(١) وقد كان هؤلاء القصاص لعدم تحريهم الصدق سبباً في وضع كثير من الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكرها أئمة الجرح والتعديل، وحذروا الناس منها. ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمسانيد. فلا ينبغي لاحد اليوم أن ينسب الى النبي صلى الله عليه وسلم حديثا الا بذكر من خرجه، وخير وأولى: أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف؛ اذا كان في غير الصحيحين.

قوله ﴿ وروى عبد الرزاق ﴾ هو ابن همام الصنعانى المحدث محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهرى . وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً .

ومعمر — بفتح الميمين وسكون العين — أبو عروة بن أبى عَمرو راشد الأزدى الحرانى ثم اليمانى ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى يروى عنه كثيراً .

قوله ﴿ عن ابن طاوس ﴾ هو عبد الله بن طاوس اليمانى . قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عُيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله ﴿ عن أبيه ﴾ هو طاوس بن كَيْسان الجَنَدى بفتح الجيم والنون - الامام العلم ، قيل : اسمه ذَكوان ، قاله ابن الجوزى

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم ، قال فى تهذيب الكمال : عن الوليد الموقرى عن الزهرى قال « قدمت على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمت يازهرى ؟ قال قلت: من مكة ، قال : ومن خلّفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : فبم سادهم ؟ قال قلت : بالديانة والرواية . قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمن؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء . قال : إنه لينبغى ذلك . قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال: فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمن العرب أم من الموالى ، قال قلت : من الموالى . قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قال قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال فمن يسود أهل البصرة ؟ قال قلت : الحسن البصرى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : ابراهيم النخعى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من العرب قال : ويلك يازهرى فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا

البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . قال قلت : ياأمير المؤمنين ، إنما هو دين : مَن حفظه ساد ومن ضيعه سقط »

قوله ﴿ عن ابن عباس ﴾ قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم وقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وروى عنه أصحابه أئمة التفسير : كمجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله ﴿ مافرق هؤلاء ﴾ يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس ، فاذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرَق أى خوف ، فاذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الايمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين[1] قال الذهبى : حدث وكيع عن اسرائيل بحديث « إذا جلس الرب على الكرسى » فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع . وقال « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله بن احمد فى كتاب الرد على الجهمية. وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ماوجب من الايمان به؛ فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه فى ذلك من الايمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى (٣ : ٧ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ؛ والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ؛ كلٌّ من عند ربنا ، وما يذّكر إلا أولو الألباب) فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضى الله عنهما تركوا ماوجب عليهم من الايمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن ؛ و بعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله فيحمله على غير معناه ؛ كما جرى لأهل البدع ؛ كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ؛ فان الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس

---

(١) قال الشيخ رحمه الله فى قرة عيون الموحدين : وقد ظهر من البدع فى زمن ابن عباس بدعة القدرية كما فى صحيح مسلم وغيره . فقتل من دعاتهم غيلان . قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفى القدر . ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية ، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة . اه

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم فى الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص؛ والقطع بأن بعضها لايخالف بعضاً ؛ ورد المتشابه إلى المحكم .وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان ؛ فلله الحمد لانحصى ثناء عليه .

﴿ ذكر ماورد عن علماء السلف فى المتشابه ﴾

قال فى الدر المنثور : أخرج الحاكم — وصححه — عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ؛ ومحكم ؛ ومتشابه ، وأمثال .فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ماأمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، . وقولوا آمنا به كل من عند ربنا »

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى (٣ . ٧ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه — الآية) قال : طلب القوم التأويل ،فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ؛ وطلبوا ماتشابه منه فهلكوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (آيات محكمات) قال «منهن قوله تعالى (٦ : ١٥١ ـ ١٥٣ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) إلى ثلاث آيات ، ومنهن (١٧ : ٢٣ ـ ٣٩ وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) إلى آخر الآيات »

وأخرج ابن جرير من طريق أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضى الله عنهم « المحكمات الناسخات التى يعمل بهن ، والمتشابهات المنسوخات »

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن اسحق بن سويد أن يحيى بن يَعْمُر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية (هُنّ أمّ الكتاب) فقال أبو فاختة « هن فواتح السور . منها يستخرج القرآن « الم ذلك الكتاب » منها استخرجت البقرة و « الم الله لا إله إلا هو » منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى . هن اللاتى فيهن الفرائض ، والأمر والنهى والحلال والحرام، والحدود وعماد الدين [1] »

---

(١) تمام الأثر عند ابن جرير « وضرب لذلك مثلا . فقال : أم القرى مكة . وأم خراسان مرو . وأم المسافرين : الذى يجعلون اليه أمرهم . ويعنى بهم فى سفرهم . قال فذاك أمهم » .

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر « الرحمن » أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن)

فيه مسائل :

الاولى : عدم الايمان بجحد شيء من الأسماء والصفات

الثانية : تفسير آية الرعد

الثالثة : تركُ التحديث بما لا يفهم السامع

الرابعة : ذكر العِلّة أنه يُفضى إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « المحكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ؛ ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه (وأُخر متشابهات) فى الصدق ، لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان « إنما قال (هن أُم الكتاب) لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن (وأُخر متشابهات) يعنى فيما بلغنا « الم » و« المص » و« المر » .

قلت : وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله ﴿ ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن) ﴾ روى ابن جرير عن قتادة : (وهم يكفرون بالرحمن) ذكر لنا أن نبى الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ؛ فقال مشركوا قريش [1] : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن

---

(١) الذى كان يقول ذلك . هو سهيل بن عمرو الذى ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

باب

قول الله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)

قال مجاهد مامعناه «هو قول الرجل: هذا مالى ورثته عن آبائى»

وقال عون بن عبدالله «يقولون لولا فلان لم يكن كذا»

وقال قتيبة «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا»

كتب: هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يارسول الله دعنا نقاتلهم. فقال: لا. اكتبوا كما يريدون: إنى محمد بن عبدالله. فلما كتب الكاتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه. وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم. فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: لا. ولكن اكتبوا كما يريدون» وروى أيضاً عن مجاهد قال قوله (١٣ : ٣٠ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك. وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) قال «هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً فى الحديبية؛ كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لاتكتب الرحمن؛ ولا ندرى ماالرحمن؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم. قال الله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) الآية. وروى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً: يارحمن يارحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) الآية

قوله ﴿باب قول الله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)﴾

ذكر المصنف رحمه الله ماذكر بعض العلماء فى معناها. وقال ابن جرير: فان أهل التأويل اختلفوا فى المعنىّ بالنعمة. فذكر عن سفيان عن السدى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال «محمد ﷺ» وقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ماعدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك؛ ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وقال ابو العباس بعد حديث زَيْد بن خالد الذى فيه أن الله تعالى قال « أُصبح من عبادى مؤمن بى وكافر — الحديث » وقد تقدم.:وهذا كثير فى الكتاب والسنة يَذُم سبحانه مَن يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .

وأخرج عن مجاهد « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، قال : هى المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره ، بأن تقول : هذا كان لآبائنا فورّثونا إياه » وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من:رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذى يرزقهم ثم ينكرونه بقولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدّينَورى قاضى مصر(١) النحوى اللغوى ،صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة ، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته . توفى سنة ستوسبعين ومائتين .

وقال آخرون : ما ذكره المصنف (عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى) أبو عبد الله الكوفى الزاهد عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهرى ، وثقه احمد وابن معين قال البخارى : مات بعد العشرين ومائة (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال « انكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا » واختار ابن جرير القول الأول ، واختار غيره أن الآية تعم ماذكره العلماء فى معناها . وهو الصواب والله أعلم

قوله ﴿ قال مجاهد ﴾ هو شيخ التفسير : الامام الربانى ، مجاهد بن جبر المكى مولى بنى مخزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول عرضت المصحف على ابن عباس مرات ؛ أقفه عند كل آية وأسأله : فيم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟توفى سنةاثنتين ومائة . وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله

قوله ﴿ وقال أبو العباس ﴾ هو شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الامام الجليل رحمه الله — بعد حديث زيد بن خالد — وقد تقدم فى باب ماجاء فى الاستسقاء بالأنواء . قال : وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه

---

(١) لعله قاضى الدينور ؛ فانه لم يتول القضاء الا فيها

قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب

باب

قول الله تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

إلى غيره و يشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا . ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير . اه

وكلام شيخ الاسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذى أنعم بها ، وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور فى كلام المفسرين المذكور بعضه هنا

قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين فى القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ﴾

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة أو شىء منها لغير الله ؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم و يدفع عنهم ، ويشفع لهم . وهذه الآية فى سياق قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال العماد ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : قال أبو العالية : لا تجعلوا لله أنداداً أى عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك واسماعيل بن أبى خالد

وقال ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أى لاتشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لاتنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لارب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول اليه من توحيده هو الحق الذى لاشك فيه . وكذلك قال قتادة . وعن قتادة ومجاهد (لاتجعلوا لله أنداداً) قال أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هى الآلهة التى جعلوها معه وجعلوا لها مثل ماجعلوا له . وعن ابن عباس (فلاتجعلوا لله أنداداً) أشباهاً . وقال مجاهد (فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والانجيل . وذكر حديثاً فى معنى هذه الآية الكريمة ، وهومافى مسند أحمد عن الحارث الأشعرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيي بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطىء بها . فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ، فقال : ياأخى ، إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى . قال : فجمع يحيي بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشُرَف . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً : فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خاص ماله بذهب أو ورق ، فجعل يعمل ويؤدى غَلّته إلى غير سيده ، فأيُّكم يَسُرّه أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه لوجه عبده مالم يلتفت . فاذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام : فان مثل ذلك كمثل رجل معه صُرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك . وإن خَلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة : فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله كثيراً : فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : الجماعة والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، فانه من خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبقة الاسلام

قال ابن عباس فى الآية « الأنداد هو الشركُ ، أخفى من دَبيبِ النملِ على صَفاةٍ سوداء فى ظُلمَةِ الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يافلانة .وحياتى ، وتقول : لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص . ولولا البطُّ فى الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان .لاتجعل فيها فلانا . هذا كلُّه به شركٌ » رواه ابن أبى حاتم

من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى(١) جهنم . قالوا يارسول الله وإن صلّى وصام ؟ فقال : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التى سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين عباد الله » .

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه فى هذه الآية قوله « إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لاشريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع ؛ وهى دالة على ذلك بطريق الاولى . والآيات الدالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل فى نبات الارض وانظر ... إلى آثار ماصنع المليك

عيون من لُجين ناظرات ... بأحداق هى الذهب السبيك

على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فياعجباً ، كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد ؟

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله وحياتك يافلان وحياتى ؛ وتقول : لولا كليبة هذه لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه :

(١) الجثا — بضم الجيم وفتح الثاء المثلثة مقصورا — جمع جثو بضم الجيم — وهو الشىء المجموع. قال ابن الأثير : وتروى هذه الكلمة « جثى » بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء — جمع جاث . وهو الذى يجلس على ركبتيه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ حلفَ بغير الله فقد كفر ، أو أشرك » رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم

وقال ابن مسعود "لأن أحلفَ بالله كاذبا أحبُّ إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقا »

ماشاء الله وشئت . وقول لرجل : لولا الله وفلان . لاتجعل فيها فلانا . هذا كله به شرك » . رواه ابن أبى حاتم ﴾ بين ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك : فتنبه لهذه الأمور . فانها من المنكر العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر من الكبائر . وهذا من ابن عباس رضى الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى

قوله ﴿ وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » [1] رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم ﴾

قوله ﴿ فقد كفر أو أشرك ﴾ يحتمل أن يكون شكا من الراوى ويحتمل أن تكون « أو » بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك . ويكون من الكفر الذى هو دون الكفر الأكبر . كما هو من الشرك الأصغر . وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ

قوله ﴿ وقال ابن مسعود « لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلىّ من أن أحلف بغيره صادقا ﴾

---

(١) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه : انما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذى يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه ان كان كاذبا . ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذبا غير مبالين . فاذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدن له السر والتصرف تكعكعوا وصدقوا وان كان فى ذلك ذهاب بعض مايحرصون عليه من منفعة ، يضحون بها خوفا من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولى فيهم . ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادى باعتقاد العامة فى أوليائهم . فيحكون أن رجلا سرق سمكة مملحة ؛ وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شيء . فاستحلفه بأحمد البدوى . فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها . وذلك منهم اعتقاد أن البدوى أغير وأعز وأقدر من الله . قبحهم الله وأخزاهم

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر. وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك ، فاذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود فى النار ؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به ، والرغبة اليه ، وإنزال حوائجه به ؛ كما هو حال الأكثر من هذه الأمة فى هذه الأزمان وما قبلها : من تعظيم القبور ، واتخاذها أوثانا ، والبناء عليها ، واتخاذها مساجد ، و بناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه ، والاقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال . وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذى لايغفره الله ، وتركوا مادل عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يوصل اليه . قال الله تعالى (٧ : ٣٧ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته أُولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه فى دار الدنيا . وقد قال تعالى (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (٧٢ : ٢٠ ، ٢١ قل إنما أدعو ربى ولا أُشرك به أحداً . قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا مابلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ ؛ فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله حتى قال قائلهم :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلا ، وإلا فقل : يازلة القدم
فان من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم حيث اعتقد أنه لانجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله ، وانظر إلى هذا الاطراء العظيم الذى تجاوز الحد فى الإطراء الذى نهى عنه ﷺ بقوله « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » رواه مالك وغيره[1] ، وقد قال تعالى (٦ : ٥٠ قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولاأقول لكم إنى ملك)

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس عن عمر فى باب قول الله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم) من كتاب أحاديث الأنبياء وفى كتاب الحدود فى باب رجم الحبلى فى الزنا اذا أحصنت . قال الحافظ فى الفتح (ج ٦ ص ٣١٤) نقول : أطريت فلانا . مدحته فأفرطت فى مدحه .

وعن حُذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه قال «لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح

وجاء عن ابراهيم النَّخعِى «أنه يكره أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا تقولوا: لولا اللهُ وفلانٌ»

فيه مسائل:

الاولى: تفسير آية البقرة فى الأنداد

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغَموس

الخامسة: الفرق بين الواو وثُمّ فى اللفظ

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله. وهذا الذى يقوله هذا الشاعر[1] هو الذى فى نفوس كثير خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة. ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات. فانا لله وإنا اليه راجعون.

قوله ﴿وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ماشاء الله، ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح﴾

وذلك لان المعطوف بالواو يكون مساويا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع. فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً. وتسوية المخلوق بالخالق شرك؛ إن كان فى الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر، وإن كان فى الأكبر فهو أكبر. كما قال الله تعالى عنهم فى الدار الآخرة (٢١: ٩٧ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ٩٨ إذ نسويكم برب العالمين) بخلاف المعطوف بثم. فان المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة. فلا محذور لكونه صار تابعاً.

قوله ﴿وعن ابراهيم النخعى «أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا تقولوا لولا الله وفلان﴾

---

(١) هو الأبوصيرى فى قصيدته المشهورة بالبردة؛ التى هى عند الناس بمنزلة القرآن وربما عظمها بعضهم أكثر. فانه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن

وقد تقدم الفرق بين مايجوز وما لايجوز من ذلك . وهذا إنما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب فى الشىء . وهو الذى يجرى فى حقه مثل ذلك . وأما فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر . فلا يقال فى حقهم شىء من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشىء ما بوجه من الوجوه ؛ والقرآن يبين ذلك و ينادى بأ نه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً من ذلك ؛ أو رغب اليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر ، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق .

والعلم لايؤخذ قسراً و إنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم فى قوله :

أخى ، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء ، وحرص ، واجتهاد ، و بلغة ... و إرشاد أستاذ ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه فى تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى (٤ : ١١٣ وعلمناك مالم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما)

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال :

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران فى التركيب متفقان
نص من القرآن ، أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الربانى
والعلم أقسام ثلاث ، مالها ... من رابع ، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذى هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثانى
والكل فى القرآن والسنن التى ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ماقال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

باب

﴿ ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ﴾

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتحلفوا بآبائكم . من حُلف له بالله فليُصَدِّق . ومن حُلِف له بالله فليَرْضَ . ومن لم يرضَ فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن

فيه مسائل :

الاولى : النهى عن الحلف بالآباء

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى

الثالثة . وعيد من لم يرض .

قوله ﴿ باب ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ﴾

﴿ عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لاتحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن ﴾

قوله ﴿ لاتحلفوا بآبائكم ﴾ تقدم النهى عن الحلف بغير الله عموما

قوله ﴿ من حلف بالله فليصدق ﴾ هذا مما أوجبه الله على عباده وحضّهم عليه فى كتابه. قال تعالى (٩ : ١١٩ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال (٣٣ : ٣٥ والصادقين والصادقات) وقال : (٤٧ : ٢١ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى (٢ : ١٧٧ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

وقوله ﴿ ومن حُلف له فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله ﴾ أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضا . وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك . فهذا من حق المسلم على

باب

قول « ماشاء الله وشئتَ »

عن قُتَيلة « أن يهوديًا أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : إنكم تشركون . تقولون :

المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئا من تهمة، ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه ، كما فى الأثر عن عمر رضى الله عنه « ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملا »

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله مالا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم انه يدخل فى حسن الخلق الذى هو أثقل مايوضع فى ميزان العبد ، كما فى الحديث[1] وهو من مكارم الأخلاق .

فتأمل أيها الناصح لنفسه مايصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه وحقوق عباده ، و إدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فان فيه من الضرر مالا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . و بسط هذه الأمور وذكر ماورد فيها مذكور فى كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه وترك مايجب تركه من ذلك ، دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم

قوله ﴿ باب قول ماشاء الله وشئت ﴾

﴿ عن قُتَيلة « أن يهوديًا أتى النبى ﷺ فقال : إنكم تشركون . تقولون : ماشاء الله وشئت ، وتقولون: والكعبة . فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة وأن يقولوا : ماشاء الله ثم شئت » رواه النسائى وصححه ﴾

قوله ﴿ عن قتيلة ﴾ بمثناة مصغرة بنت صيفى الأنصارية صحابية مهاجرة ، لها حديث فى سنن النسائى ، وهو المذكور فى الباب . ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفى

---

(١) روى الترمذى ـ وقال : حسن صحيح ـ وابن حبان ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى (ص) قال « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وان الله ليبغض الفاحش البذىء » ورواه أبو داود مختصراً

ماشاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة . وأن يقولوا : ماشاء الله ثم شئت » رواه النسائى وصححه

وله أيضاً عن ابن عباس « أن رجلا قال للنبى ﷺ : ماشاء الله وشئت ،

وفيه : قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان . وفيه : بيان النهى عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التى حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهى عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا نبى مرسل . ولا للكعبة التى هى بيت الله فى أرضه . وأنت ترى ماوقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها مالا يقدر عليه إلا الله . ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة : فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع . فميِّز أيها المكلف بين مايشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا

قوله ﴿ إنكم تشركون . تقولون ماشاء الله وشئت ﴾ والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى (٨١ : ٢٨ لمن شاء منكم أن يستقيم ٢٩ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله (٧٦ : ٢٩ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ٣٠ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما)

وفى هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة ، نُفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتى مايبطل قولهم فى « باب ماجاء فى منكرى القدر » إن شاء الله تعالى ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى فى كل شيء مما يوافق ماشرعه الله وما يخالفه ؛ من أفعال العباد وأقوالهم . فالكل بمشيئة الله وارادته . فما وافق ماشرعه رضيه وأحبه . وما خالفه كرهه من العبد ، كما قال تعالى (٣٩ : ٧ إن تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر - الآية)

وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك . فان النبى ﷺ أقر اليهودى على قوله « إنكم تشركون »

قوله ﴿ وله أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما[1] « أن رجلا قال للنبى ﷺ ماشاء الله وشئت ،

---

(١) قال ابن كثير ج : ١ ص ١٠٤ وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح - عن يزيد

فقال : أجعلتنى لله نداً ، ماشاء الله وحده »

ولابن ماجه : عن الطُّـفيل أخى عائشة لأمها قال « رأيتُ كأنى أتيت على نفرٍ من اليهود قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عُزير ابنُ الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ماشاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفرٍ من النصارى

قال : أجعلتنى لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده » ﴾

هذا يقرر ماتقدم من أن هذا شرك ، لوجود التسوية فى العطف بالواو

وقوله ﴿ أجعلتنى لله نداً ﴾ فيه بيان أن من سوّى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله شاء أم أبى ، خلافا لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عبادة ، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه . ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين .

قوله[1] ﴿ ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها قال «رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون عزير بن الله : قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ماشاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ماشاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله وحده » ﴾

قوله ﴿ عن الطفيل أخى عائشة لأمها ﴾ هو الطفيل بن عبدالله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها ، صحابى له حديث عند ابن ماجه ، وهو ما ذكره المصنف فى الباب .

= ابن الأصم عن ابن عباس ـ وساقه . رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه . وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد . والله أعلم

(١) قال ابن كثير فى التفسير (ج ١ ص ١٠٤) وقال حماد بن سلمة : حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن خراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها ـ وساقه ـ ثم قال :ـ هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير الآية . وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه

فقلت: إنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ فان طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها. فلا تقولوا: ماشاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ماشاء الله وحده»

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا ماشاء الله وشاء محمد، وأمرهم ان يقولوا «ماشاء الله وحده»

وهذا الحديث والذى قبله أمرهم فيه ان يقولوا «ماشاء الله وحده». ولا ريب أن هذا أكمل فى الاخلاص وأبعد عن الشرك من ان يقولوا «ثم شاء فلان» لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافى للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال فى مقام التوحيد والاخلاص.

قوله «كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها» ورد فى بعض الطرق «أنه كان يمنعه الحياء منهم»(١) و بعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغا، فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، و بلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وفيه معنى قوله ﷺ «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(٢)

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهى وحى يثبت بها ماثبت بالوحى أمراً ونهياً. والله أعلم

(١) لعل الذى كان يمنعه (ص) أنه لم يكن الله أوحى اليه فيها شيئا. فلما أوحى اليه بلغه أما الحياء فى تبليغ الأوامر والنواهى، فهذا مالا يليق برسول الله (ص) والله أعلم.

(٢) هذا الحديث انما يخبر به النبي (ص) عما كان يرى قبل النبوة وهو يتحنث فى غار حراء من الرؤيا التى كانت تجىء مثل فلق الصبح. وذلك فى الدور الذى كان يريده الله فيه لتلقى الوحى. وكان ذلك الدور ستة أشهر. وهى بالنسبة الى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً منها. والله أعلم

فيه مسائل :

الاولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر

الثانية : فهم الانسان إذا كان له هوى

الثالثة : قوله ﷺ « أجعلتنى لله نداً » فكيف بمن قال : « مالى من ألوذ به سواك » والبيتين بعده

الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله « يمنعنى كذا وكذا »

الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى

السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام

باب

« من سَبَّ الدهرَ فقد آذى الله »

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤ وقالوا ماهى إلا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحْيَـا وما يُهْلِكُنا إلا الدَّهر وما لهم بذلك من عِلْم إنْ هُمْ إلا يَظُنُّون)

قوله ﴿ باب من سب الدهر فقد آذى الله ﴾

وقول الله تعالى ﴿ (٤٥:٢٤ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ﴾

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر) ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم و يعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، و يقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة . وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لاتتناهى ؛ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ،

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ ، أُقَلِّبُ الليلَ والنهارَ »

ولهذا قالوا (وما يهلكنا إلا الدهر) قال الله تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أي يتوهمون ويتخيلون. فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبوداود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم ؛ يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار[1] » . وفي رواية « لاتسبوا الدهر فاني أنا الدهر» وفي رواية «لايقل ابن آدم : ياخيبة الدهر ، فاني أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ؛ فاذا شئت قبضتهما[2] » اه .

قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون اليه مايصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ؛ فاذا أضافوا إلى الدهر مانالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر . اه باختصار

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق[3] . قال « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه (وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . ويسبون الدهر . فقال الله عز وجل « يؤذيني ابن آدم ؛ يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به

(١) في ابن كثير « أقلب ليله ونهاره »

(٢) هذه الرواية ليست في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا . وهي في تفسير البغوي

(٣) أي من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي «ص» قال « كان أهل الجاهلية إلخ »

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله عز وجل : استقرضت عبدى فلم يعطنى ، ويسبنى عبدى ، يقول : وا دهراه ، وأنا الدهر »

قال الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله « لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر » كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : ياخيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله هو الدهر الذى يعنونه ويسندون اليه تلك الأفعال . هذا أحسن ماقيل فى تفسيره ـ وهو المراد ـ والله أعلم

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عَدّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث . اه

وقد بين معناه فى الحديث بقوله « أُقلّبُ الليلَ والنهار » وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفى هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهى قوله « بيدى الأمر »

قوله ﴿ وفى رواية « لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر » ﴾

معنى هذه الرواية : هو ماصرح به فى الحديث من قوله « وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » يعنى أن مايجرى فيه من خير وشر بارادة الله وتدبيره ، بعلم منه تعالى وحكمة ، لايشاركه فى ذلك غيره . ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده فى الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده ، والرجوع اليه بالتوبة والانابة . كما قال تعالى (٧ : ١٦٨ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يذكرون) وقال تعالى (٢١ : ٣٥ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ونسبة الفعل الى الدهر ومسبته كثيرة ، كما فى أشعار المولدين ، كابن المعتز والمتنبى وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى (١٢ : ٤٨ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد ـ الآية) وقال بعض الشعراء :

إن الليالى من الزمان مهولة ... تُطوَى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سب الدهر

الثانية : تسميته أذى الله

الثالثة : التأمل فى قوله « فان الله هو الدهر »

الرابعة : أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه

باب

﴿ التسمى بقاضى القضاة ونحوه ﴾

فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إنَّ أَخْنَعُ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله »

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنسى طيبها ذِكر النوى ، فكأنها أيام

ثم انبرت أيام هجر أعقبت نحوى أسًى ، فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها ، وكأنهم أحلام

قوله ﴿ باب التسمى بقاضى القضاة ونحوه ﴾

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة الى النهى عن التسمى بقاضى القضاة قياسًا على مافى حديث الباب . لكونه شبهه فى المعنى فينهى عنه.

قوله ﴿ فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن أخنع اسم عندالله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله »(١)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . قال العزيزي فى الشرح الكبير: وفى الباب غيره أيضًا . وفى قرة العيون : لأن هذا اللفظ انما يصدق على الله فهو ملك الأملاك لأنه هو الملك فى الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير يتصرف فى الملوك وغيرهم

لأن هـذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى . فهو ملك الأملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه ، مالك الملك ذو الجـلال والاكرام . وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير . وهو الله تعالى ، ينزع المُلكَ ممن مُلـكِه تارة وينزع المُـلْكَ منه تارة [1] فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه . وأما رب العالمين فملـكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه ؛ ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى ، وماتكتبه الحفظة عليهم . فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كما ورد فى الحديث « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخـير كله . وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله »

قوله ﴿ قال سفيان ﴾ يعنى ابن عيينة ﴿ مثل شاهنشاه [2] ﴾ عنـد العجم عبارة عن ملك الأملاك . ولهذا مثل به سفيان لأنه عبارة عنه بلغة العجم

= بمشيئته وإرادته كما قال تعالى (٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخير) الآية . فلا ينبغى أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا ، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذى ترجم به المصنف ؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله ؛ فلا يصلح أن يسمى به المخلوق ، لأن كل لفظ يقتضى التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره

(١) قال تعالى (٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ؛ وتعز من تشاء وتذل من تشاء)

(٢) قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (ج ١٢ ص ٤٣) فى حوادث سنة ٤٢٩ : وفى رمضان منها لقب جلال الدولة ـ السلجوقى ـ شاهنشاه الأعظم ؛ ملك الملوك بأمر الخليفة القائم لله . وخطب له بذلك على المنابر ، فنفرت العامة من ذلك ، ورموا الخطباء بالآجر ، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك . واستفتوا القضاة والفقهاء فى ذلك ؛ فأفتى أبو عبد الله الصيمرى ـ الشافعى ـ أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية . وقد قال الله تعـالى (إن الله قد بعث لـكم طالوت ملكا) وقال (وكان وراءهم ملك) وإذا كان فى الارض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض . وليس فى ذلك ما يوجب النكير ؛ والمماثلة بين الخالق والمخلوقين وكتب القاضى أبو الطيب الطبرى « ان إطلاق « ملك الملوك » جائز . ويكون معناه : ملك ملوك الارض . واذا جاز أن يقال : كافى الكفاة ، وقاضى القضاة ؛ جاز أن يقال ملك الملوك ،

= واذا كان فى اللفظ مايدل على أن المراد به ملك ملوك الارض زالت الشبهة . ومنه قولهم : اللهم أصلح الملك ، فيصرف الكلام الى المخلوقين »

وكتب التميمى الحنبلى نحو ذلك

وأما الماوردى صاحب الحاوى الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً . والمشهور عنه مانقله ابن الجوزى والشيخ أبو منصور بن الصلاح فى أدب المفتى أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه ، مع صحبته للملك جلال الدولة ، وكثرة ترداده عليه ووجاهته عنده ، وأنه امتنع من الحضور فى مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة فى يوم عيد : فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهاً ، فلما واجهه قال له جلال الدولة : قد علمت أنه انما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياى ووجاهتك عندى : دينك واتباعك الحق وأن الحق آثر عندك من كل أحد ؛ ولو حابيت أحداً من الناس لحابيتنى ، وقد زادك ذلك عندى صحبة ومحبة وعلو مكانة

قال ابن كثير والذى حمل القاضى الماوردى على ذلك المنع هو اتباع السنة التى وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه . قال الامام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى «ص» أنه قال « أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك » قال الزهرى سألت أبا عمرو الشيبانى عن « أخنع اسم » قال « أوضع » وقد رواه البخارى عن على بن المدينى عن ابن عيينة . وأخرجه مسلم من طريق همام عن أبى هريرة عن النبى «ص» قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك . لا ملك إلا الله عز وجل » وقال الامام أحمد حدثنى محمد بن جعفر حدثنا عوف عن جلاس عن أبى هريرة قال قال رسول الله «ص» « اشتد غضب الله على من قتله نبى . واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك ، لا ملك الا الله عز وجل » اه

وقال العزيزى فى الشرح الكبير أى سمى نفسه ؛ أو سماه غيره فرضى به وأقره ونحوه وما فى معناه شاهشاهان ، والعجم تقدم المضاف اليه على المضاف ، وألحق به ملك شاه . قيل واذا امتنع التسمى بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبار والرحمن أولى .

قال القرطبى : وحاصل الحديث ان من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التى لا تنبغى لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ماهو خاص بالاله الحق لما ثبت فى الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق الا الله ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى فعوقب على ذلك من الاذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق ؛ والمالك من له الملك ؛ والملك أمدح ، والمالك أخص . وكلاهما واجب لله تعالى

وقال الطيبى : قوله « لا مالك الا الله » استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية ، فنفى جنس الملاك بالكلية ، لأن المالك الحقيقى ليس الا هو ؛ ومالكية الغير مستردة الى مالك الملوك ، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى فى رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ، لأن

وفى رواية « أَغْيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه »

قوله «أخنع» يعنى أوضع

قوله ﴿ وفى رواية « أغيظ رجل على الله وأخبثه » ﴾

قوله ﴿ أغيظ ﴾ من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغيضاً إلى الله مغضوبا

= وصف المالكية مختص بالله عز وجل لايتجاوزه ، والمملوكية بالعبد لاتتجاوزه . فمن تعدى طوره فله الخزى فى الدنيا والعار ؛ وفى الآخرة الالقاء فى النار اه

ومن العجائب التى لاتخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية ـ الشاعر المشهور كان له ابنتان سمى إحداهما الله ، وسمى الاخرى الرحمن . وهذا من أعظم القبائح ؛ وأشد الجرائم والفضائح . وقيل انه تاب

وألحق بعض المتأخرين بملك الاملاك : حاكم الحكام . وقد شدد الزمخشرى النكير عليه فقال فى تفسير قوله تعالى (وأنت أحكم الحاكمين) رب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين . فاعتبر واستعبر اه . واعترضه ابن المنير بأن خبر «أقضاكم على» يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم فى زمنه «قاضى القضاة» ورد عليه وشنع العلم العراقى منتصراً للزمخشرى . ومن النوادر : أن العز بن جماعة رأى أباه فى النوم ، فسأله عن حاله فقال : ماكان على أضر من هذا الاسم . فنهى الموثقين أن يكتبوا له فى الأسجال : قاضى القضاة . بل قاضى المسلمين

وقال ابن القيم : وتحرم التسمية بسيد الناس ؛ وسيدة الكل ، كما تحرم بسيد ولد آدم ، فان ذا ليس لأحد الا للرسول «ص» اه

قال أبو طاهر ـ غفر الله لهما ـ ولعله يلحق بذلك ماتعارف عليه الناس فى بعض البلدان الاسلامية : كصاحب العزة ؛ وصاحب الجلالة و نحو ذلك ، وكل هذه الألقاب انما شاعت فى الناس من وقت دخول الاعاجم وتمكن دولتهم فى البلاد الاسلامية ؛ وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل مايتزينون به عند الله والناس ، بل لعله كان لهم ضد ذلك ؛ فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الاسماء والألقاب مايلقى فى نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع . ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يدعون بعضهم بعضا بأسمائهم أو بوظائفهم ، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والاجلال لعلمائهم وأمرائهم ؛ لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والاحسان التى جملهم الله بها . نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل

فيه مسائل :

الاولى : النهى عن التسمى بملك الأملاك

عليه (١) . والله أعلم

قوله (وأخبثه) وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت فى حقه هذه الأمور لتعاظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التى هى من أعظم التعظيم، فتعظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضعه عند الله يوم القيامة . فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم ، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم ، لتعاظمه فى نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله ﴿ أخنع ؛ يعنى أوضع (٢) ﴾ هذا هو معنى «أخنع» فيفيد ماذكرنا فى معنى «أغيظ» أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله .

وفيه التحذير من كل مافيه تعاظم . كما أخرج أبو داود عن أبى مجلز قال « خرج معاوية رضى الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس ؛ فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » وأخرجه الترمذى أيضاً ، وقال حسن . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله ﷺ متكئا على عصا ، فقمنا اليه . فقال : لاتقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضا» رواه أبو داود .

قوله ﴿ أغيظ رجل ﴾ هذا من الصفات التى تُمَرّ كما جاءت ، وليس شىء مما ورد فى الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة فى ذلك واثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ،

«١» ويؤيده « اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك » أخرجه الطبرانى

(٢) «أخنع» بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة أى أدخلها فى الخنوع ؛ وهو الذل والضعة والهوان . ذكره الزمخشرى . وفى رواية «أخنى» من الخنا بمعنى الفحش فى القول ويحتمل أن يكون من قولهم : أخنى عليه الدهر أى أهلكه . وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ «أنخع» بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك . قال ابن بطال : واذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلا يوم القيامة أى أشدهم ذلا وصغاراً . وفى قرة العيون : وهذا من الصفات التى تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل ؛ والله أعلم

الثانية : إن مافى معناه مثله كما قال سفيان

الثالثة : التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه ، مع القطع بأنَّ القلبَ لم يقصد معناه

الرابعة : التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه

باب

﴿ احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك ﴾

عن أبى شريح « أنه كان يُكْنَى أبا الحكم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم ، والباب كله واحد . وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة . وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث فى أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع فى الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ؛ والله المستعان .

قوله ﴿ باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك ﴾

﴿ عن أبى شريح أنه كان يكنى أبا الحكم . فقال له النبى ﷺ « إن الله هو الحكم واليه الحكم ، فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين . فقال: ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قلت شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت: شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره ﴾ .

قوله ﴿ عن أبى شريح ﴾ قال فى خلاصة التذهيب : هو أبو شريح الخزاعى ، اسمه خويلد بن عمرو[1] أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، اتفقا على حديثين وانفرد البخارى بحديث ، وروى عنه أبو سعيد المقبرى ونافع بن جبير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح : اسمه هانىء بن يزيد الكندى قاله الحافظ ، وقيل: الحارث الضبابى قاله المزّى

قوله ﴿ يكنى ﴾ الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك واللقب ما ليس كذلك[2] ؛

---

(١) وبهامش الخلاصة : وقيل ، عمرو بن خويلد . وقيل هانىء ابن عمرو ، وقيل خويلد ابن شريح بن عمرو ، كذا فى الكنى من كتاب ابن الملقن وجامع الأصول

(٢) فى كتب العربية : اللقب . ما أشعر بمدح أو ذم ، كزين العابدين ونحوه

كزين العابدين ونحوه .

وقول النبي ﷺ ﴿ إن الله هو الحكم واليه الحكم ﴾ فهو سبحانه الحكم فى الدنيا والآخرة ؛ يحكم بين خلقه فى الدنيا بوحيه الذى أنزل على أنبيائه ورسله ؛ وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ؛ فانها لاتجتمع على ضلالة ، فان العلماء وإن اختلفوا فى بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واجداً ، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه اليه ، فما أجلها من عطية ، فنسأل الله من فضله .

قوله ﴿ وإليه الحكم فى الدنيا والآخرة ﴾ كما قال تعالى (٤٢:١٠ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال (٤:٥٩ فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فالحكم إلى الله هو الحكم الى كتابه ، والحكم إلى رسوله هو الحكم اليه فى حياته وإلى سنته بعد وفاته[1] .

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه الى اليمن « بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال: فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى . فقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى مايرضى رسول الله» فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكما فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ﷺ ، بخلاف مايقع اليوم وقبله من أهل التفريط فى الأحكام ممن يجهل حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات[2] .

---

(١) يعنى رد الحكم الى الله : رد الحكم الى كتابه ، ورد الحكم الى الرسول (ص) رد الحكم إليه فى حياته ، ثم رده الى سنته بعد وفاته (ص)

(٢) وبخلاف الصنف الآخر : الذين يعنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متونا وشروحا مهما كانت معقدة وطويلة ، ثم يقدمونها فى العبادات والأحكام بين يدى الله ورسوله ، فانا لله وانا اليه راجعون . ماذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتهما

فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم ، فرضى كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قال : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذى لايخفى عليه خافية من أعمال خلقه (٤ : ٤٠ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ويؤتِ من لَدُنْه أجراً عظيما) والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لايزيد على هذا مثقال ذرة ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

قوله ﴿ فان قومى اذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين فقال : ما أحسن هذا ﴾ فالمعنى — والله أعلم — أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرّ للعدل بينهم ومعرفة مايرضيهم من الجانبين ، صار عندهم مرضياً وهذا هو الصلح ؛ لأن مداره على الرضى لا على الالزام . ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد الى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التى تخالف حكم الكتاب والسنة . كما قد يقع اليوم كثيراً ؛ كحال الطواغيت الذين لايلتفتون إلى حكم الله ولا الى حكم رسوله . وإنما المعتمد عندهم ماحكموا به بأهوائهم وآرائهم (١)

---

(١) فى قرة العيون : وأما مايحكم به الجهلة من الاعراب ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهى الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله الى مايخالفه ، كما قال تعالى (٥ : ٤٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وهذا كثير ، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه ، ومنهم من يتبع فى ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به ، وهذا كفر اذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس اليه اذا اختلفوا . اھ

والنص الصريح فى ابطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الاسلام ، ولذلك كنوه « بأبى الحكم » فأنكرها عليه النبى (ص) وغيرها ، ولفظ « الحكم » بفتحتين لاينهى عنه فى الاسلام لقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وذلك لانه يحكم بما شرعه الله من صلح واصلاح ، وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكُنْية

باب

﴿ من هَزَل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﴾

وقول الله تعالى (٩ : ٦٥ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟)

عن ابن عمر ومحمد بن كعبٍ ، وزيد بن أسْلم وقتادة ـ دخل حديثُ بعضهم فى بعض ـ أنه قال رجل فى غَزْوة تَبوك «ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرْغَبُ بطوناً

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ماهو الصواب الموافق لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان

وقول رسول الله ﷺ (فما لك من الولد ؟ قال : شريح ، ومسلم ؛ وعبد الله . قال فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح) فيه تقديم الأكبر فى الكنية وغيرها غالباً . وجاء هذا المعنى فى غير ما حديث والله أعلم .

قوله ﴿ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﴾ أى فقد كفر

قوله ﴿ وقول الله تعالى (٩:٦٥ ولئن سألتهن ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : قال أبو مَعْشَر المدنى عن محمد بن كعب القُرظى وغيره « قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قُرّائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطونا [1] ،

---

(١) فى تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير « ما أرى قراءنا هؤلاء الا أرغبنا بطونا »

ولا أكذب ألسُنًا، ولا أجبنُ عند اللقاء ؛ يعنى رسولَ الله ﷺ وأصحابه القراء .
فقال له عَوْفُ بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ .
فذهب عوف الى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجلُ
إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحلَ وركبَ ناقته . فقال يارسول الله ، إنما كُنَّا نخوض
ونتحدثُ حديثَ الركب نقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأنى أنظر إليه متعلقاً
بِنِسْعَة ناقةِ رسول الله ﷺ وإن الحجارة تَنْكبُ رجليه ، وهو يقول : إنما كنا
نخوض ونلعب . فيقول له رسول الله ﷺ (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟

وأكذبنا ألسناً ، وأجبننا عند اللقاء ، فرُفع ذلك الى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركبَ ناقته ،
فقال : يارسول الله إنما كُنّا نخوض ونلعب ، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق ،
فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعْفُ
عن طائفة منكم نعذّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) وإن رجليه ليسفعان [1] الحجارة ،
وما يلتفت اليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ [2] » وقال عبدالله
ابن وهب : أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال « قال رجل فى
غزوة تبوك فى مجلس: مارأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن
عند اللقاء . فقال رجل فى المجلس : كذبتَ ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ .
فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبدالله بن عمر : وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة
رسول الله ﷺ تنكُبه الحجارة ، وهو يقول يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله
ﷺ يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) » .
وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو ون هذا .

وقال ابن إسحاق « وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت أخو بنى أمية
ابن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مُخَشِّى بن حمير ،

١) سفع الطائر ضريبته — كمنع — لطمها بجناحيه ، وسفع فلان فلانا لطمه وضربه ، والمغنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك

(٢) النسعة — بكسر النون وسكون المهملة ، سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره

يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرّنين فى الحبال ، إرجافا وترهيباً للمؤمنين . فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يُضْرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة ، وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر : أدرك القوم فانهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فان أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا ، فانطلق اليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون اليه . فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال مخشى بن حمير : يارسول الله قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عناه أى بقوله تعالى (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) فى هذه الآية : مخشى بن حمير فسُمِّى عبدَ الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر » .

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية : « كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم انى أسمع آية أنا أعنى بها تَقْشَعِرُّ منها الجلود ، وتَجِلُ منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك ، لايقول أحد أنا غسّلتَ ، أنا كفنت ، أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجدَ غيرُه » .

وقوله ﴿ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أى بهذه المقالة التى استهزأتم بها (إن نُعفُ عن طائفة منكم) أى مخشى بن حمير (نعذِّب طائفة) أى لايعفى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم (إنهم كانوا مجرمين) أى بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى

قال شيخ الاسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم (قد كفرتم بعد إيمانكم) وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم : لايصح لأن الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ، فانهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وإن أريد انكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الايمان ، فهم لم يظهروا للناس الا لخواصهم ، وهم مع خواصهم مازالوا كذلك . ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين .

فيه مسائل :

الاولى : وهى العظيمة ـ أن مَنْ هزَلَ بهذا إنه كافر

الثانية : أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان

الثالثة : الفرقُ بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله

الرابعة : الفرقُ بين العفو الذى يُحبُّه الله وبين الغِلْظة على أعداءِ الله

الخامسة : أن من الاعتذارِ مالا ينبغى أن يُقبلَ

وقال رحمه الله فى موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ؛ بل إنما كنا نخوض ونلعب . و بين أن الاستهزاء بآيات الله كفر. ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام ؛ ولوكان الايمان فى قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ؛ والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه. كقوله تعالى (٢٤:٤٧-٥٢ و يقولون آمنا بالله و بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك — إلى قوله — : إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا . فبين أن هذا من لوازم الايمان . انتهى

وفيه : بيان أن الانسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به[1] . وأشدها خطراً إرادات القلوب . فهى كالبحر الذى لا ساحل له . و يفيد الخوف من النفاق الأكبر . فان الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانا قبل أن يقولوا ماقالوه ، كما قال ابن أبى مُليكة «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه» . نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله ؛ وعدم احترامهم لأجله

باب

قول الله تعالى (٤١: ٥٠ ولئن أذقناه رحمةً مِنّا من بعد ضَرّاء مَسَّته ليقولَنَّ هـذا لى ، وما أظن الساعة قائمةً ولئن رددتُ إلى رَبِّى إن لى عنـده للحُسْـنَى . فلننبئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنُذيقنَّهم من عذابٍ غليظ)

قال مجاهد « هذا بعملى وأنا محقوق به »

وقال ابن عباس « يريد من عندى »

وقوله (قال إنما أُوتيته على علم عندى) قال قتادة « على علم منى بوجوه المكاسب »

وقال آخرون « على علم من الله أنى له أهل » وهذا معنى قول مجاهد « أُوتيته على شرف »

قوله ﴿باب قول الله تعالى (٤١: ٥٠ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته)﴾ الآية ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين فى معنى هذه الآية ومابعدها مايكفى فى المعنى ويشفى

قوله ﴿ قال مجاهد : هذا بعملى وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يريد من عندى . وقوله (قال إنما أُوتيته على علم عندى) قال قتادة « على علم منى بوجوه المكاسب » وقال آخرون « على علم من الله أنى له أهل » وهذا معنى قول مجاهد : أُوتيته على شرف ﴾

وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هى أفراد المعنى

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى معنى قوله تعالى (٣٩ : ٤٩ وإذا خوّلناه نعمة منا قال : إنما أُوتيته على علم ، بل هى فتنـة) يخبر أن الانسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى و ينيب اليه ويدعوه ، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى و بغى و (قال إنما أوتيته على علم) أى لما يعلم الله من استحقاق له، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خولنى هذا[1] .قال تعالى (بل هى فتنة) أى ليس الأمر كما زعم

---

(١) فى تفسير ابن كثير زيادة : قال قتادة « على علم عندى : على خير عندى »

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرصَ، وأقرعَ، وأعمى. فأراد الله أن يَبْتَليَهم، فبعث إليهم مَلَكاً. فأتى الأبرصَ، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسن، وجلد حسن، ويَذْهبُ عني الذى قد قَذِرنى الناسُ به. قال: فمسحه فذهب عنه قَذَره، فأُعطِىَ لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأىُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأُعْطِىَ ناقة عُشَراء، وقال: بارك الله لك فيها. قال فأتى الأقرعَ، فقال أى شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عنى الذى قد قَذِرنى الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأُعطى شعراً حسناً. فقال: أىُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر أو الإبل. فأُعطى بقرة حاملا. قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أىُّ شيء أحب إليك؟ قال: أن يردَّ الله إلىَّ بصَرى فأبصر به الناس. فمسحه، فردَّ الله اليه

بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك (بل هى فتنة[1]) أى اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون مايدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أى قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. كما قال تعالى مخبرا عن قارون اذ (٢٨: ٧٦ قال له قومه لا تفرح؛ إن الله لا يحب الفرحين ٧٧ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسِن كما أحسن الله اليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين ٧٨ قال: إنما أوتيته على علم عندى، أوَلم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً؟ ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون) وقال تعالى (٢٦: ١٣٨ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) اهـ

قوله «وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة - الحديث»[2]

---

(١) فى ابن كثير «مع علمنا بذلك فهى فتنة»

(٢) وقد حذفناه من الشرح منعاً للتكرار

بصره . قال : فأى المال أحبُّ اليك؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والداً . فأُنْتِجَ هذان وَوَلَّدهذا . فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم . قال : ثم إنه أتى الابرصَ فى صورته وهيئته . فقال : رجلٌ مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال – بعيراً أتَبَلَّغُ به فى سفرى، فقال الحقوق كثيرة . فقال : كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يَقْذَرُكَ الناس فقيرا، فأعطاك الله عز وجل المال، فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيّرك الله الى ما كنتَ . وأتى الأقرعَ فى صورته، فقال له مثل ماقال لهذا، وَرَدَّ عليه مثل ماردَّ عليه هذا . فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنتَ . قال : وأتى الأعمى فى صورته، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل . قد انقطعت بى الحبال فى سفرى . فلا بلاغ لى اليومَ إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى رَدَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغُ بها فى سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرَدَّ الله إلىَّ بصرى، فخذ ماشئتَ ودَعْ ماشئتَ، فوالله لا أَجْهَدُك اليومَ بشىءٍ أخذته لله . فقال : أَمْسِكْ مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضىَ الله عنك وسَخِطَ على صاحبيك» أخرجاه

﴿ أخرجاه ﴾ أى البخارى ومسلم . والناقة العشراء – بضم العين وفتح الشين وبالمد – هى الحامل

قوله (أنتج) وفى رواية (فنتج) معناه تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة

قوله (ولد هذا) هو بتشديد اللام، أى تولى ولادتها، وهو بمعنى (أنتج) فى الناقة؛ فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد؛ لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره

وقوله (انقطعت بى الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة : هى الأسباب

قوله (لا أجهدك) معناه : لا أشق عليك فى رد شىء تأخذ، أو تطلبه من مالى . ذكره النووى

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر : فان الأولَين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها، فحلّ عليهما السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية

الثانية : مامعنى (ليقولنّ هذا لى)

الثالثة : مامعنى قوله (إنما أوتيته على علم عندى)

الرابعة : مافى هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٩٠ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون)

بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها : وهى الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم ، و بذلها فيما يحب

قال العلامة ابن القيم رحمه الله [١] : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له ، والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضا ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقرّ بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه ، لم يشكره أيضا ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضى به وعنه ، واستعملها فى محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلابد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له

قوله (قذرنى الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم

قوله ﴿ باب قول الله (٧ : ١٩٠ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) ﴾

قال الامام أحمد رحمه الله فى معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سَمُرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس

---

(١) فى مدارج السالكين ج٢ ص ١٣٥-١٤٤

وكان لايعيش لها ولد فقال : سمّيه عبد الحارث ، فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » . وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لانعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه . ورواه الامام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا(١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال « كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم » . وحدثنا بشر بن معاذ قال حدثنى يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول « هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا و نصّروا » وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : وأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :
أحدها : أن عمر بن ابراهيم هذا هو البصرى . وقد وثقه ابن معين . ولكن قال أبو حاتم الرازى : لايحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا . فالله أعلم .

الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، وليس مرفوعا . كما قال ابن جرير .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا . فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه ــ ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن ، بمثل ماروى ابن جرير عنه ثم قال : هذه أسانيد صحيحة عن الحسن : أنه فسر الآية بذلك ؛ وهو من أحسن التفاسير وأولى ماحملت عليه الآية . ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله (ص) لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ؛ ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتى بيانه ان شاء الله ، الا أننا برئنا من عهدة المرفوع . والله أعلم اه . وقال الامام أبو محمد بن حزم فى كتاب الملل والنحل وهذا الذي نسبوه الى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولاحياء ؛ لم يصح سندها قط وانما نزلت الآية فى المشركين على ظاهرها اه .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبَّد لغيرِ الله . كعبد عمرو وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ،

عن عكرمة عن ابن عباس قال « كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم لله وتسميهم عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ؛ فأتاهما إبليس فقال : أما إنكما لو تسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله (هو الذى خلقكم من نفس واحدة - الآية) وقال العوفى عن ابن عباس : « فأتاهما الشيطان فقال : هل تدريان مايولد لكما ؟ أم هل تدريان مايكون ، أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل، إنه لَغوىٌّ مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ؛ فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) »

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه ابن أبى حاتم . وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدى وجماعة من الخلف ؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لايحصون كثرة . قال العماد ابن كثير : وكأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب(١) .

قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله ﴿ قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبدعمرو وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب ﴾

---

(١) قال ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وانما المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال (فتعالى الله عما يشركون)

*) فائدة : قال شيخنا العلامة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ - أطال الله حياته لنفع المسلمين - أما قوله تعالى فى آخر الآية (فتعالى الله عما يشركون) فليس المراد به آدم وحواء ، لأن الكلام قد تم قبله ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، وانما المراد به المشركون ؛ وما ساقه الشارح رحمه الله فى قوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) هو القول المعتمد الذى يدل عليه ظاهر القرآن اهـ

حاشى عبدَ المطاب

ابن حزم : هو عالم الاندلس، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى الظاهرى . صاحب التصانيف ، توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبدالمطلب هذا هو جد رسول الله ﷺ . وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىٍّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله ، لأنه شرك فى الربوبية والإلهية . لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدهم لعبادته وحده ، وتوحيده فى ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحده فى ربوبيته و إلهيته ؛ ومنهم من أشرك به فى إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولابد ، كما قال تعالى (١٩ : ٩٣ إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) فهذه هى العبودية العامة . وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الاخلاص والطاعة ، كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ؟) ونحوها

قوله ﴿ حاشى عبد المطلب ﴾ هذا استثناء من العموم المستفاد من « كل » وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها ، لأن أصله من عبودية الرق ؛ وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ؛ وكان ابن أخيه « شيبة » هذا قد نشأ فى أخواله بنى النجار من الخزرج ، لأن هاشما تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب فى أخواله ، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته [1] فقدم به مكة وهو رديفه ، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الاسم وركبه ؛ فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به [2] ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . وقد قال النبى ﷺ « أنا ابن

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن زيد الخزرجى النجارى على هاشم أن تلد عنده بالمدينة . فولدت له شيبة . ومات هاشم فى الشام فبقى شيبة بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه المطلب اليه وأحضره الى مكة

(٢) واسمه العلم : شيبة الحمد

وعن ابن عباس فى الآية « قال لما تَغشَّاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس . فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتُطيعُننى أو لأجعلنّ له قَرْنَى أيلٍ . فيخرج من بطنك فَيَشقَّه . ولأفعلنّ ولأفعلنّ ، يُخوِّفهما . سمِّياه عبدالحارث. فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت ، فأتاهما . فقال مثل قوله . فأبيا أن يطيعاه . فخرج ميتاً . ثم حملت فأتاهما . فذكر لهما . فأدركهما حُبُّ الولد ، فسمياه عبدالحارث

عبدالمطلب (١) وقدصار معظمافى قريش والعرب ، فهو سيد قريش وأشرفهم فى جاهليته ؛ وهو الذى حفر زمزم وصارت له السقاية وفى ذريته من بعده . و «عبدالله» والد رسول الله ﷺ أحد بنى عبد المطلب ، وتوفى فى حياة أبيه . قال الحافظ صلاح الدين العلائى فى كتاب الدرة السنية فى مولد خير البرية : كان سن أبيه عبدالله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاما ؛ ثم ذهب الى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله فمات بها عند أخواله بنى عدى بن النجار ، والنبى ﷺ حملٌ على الصحيح . انتهى

قلت : وصار النبى ﷺ لما وضعته أمه فى كفالة جده عبد المطلب . قال الحافظ الذهبى : وتوفى أبوه عبدالله وللنبى ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل. توفى بالمدينة ، وكان قد قدمها ليمتار تمراً ، وقيل : بل مرّ بها راجعاً من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة . قال الواقدى : وذلك أثبت الأقاويل فى سنه ووفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء ؛ وهى راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم ؛ وقيل : ابن أربع سنين . فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ؛ فكان فى كفالته إلى أن توفى جده ، وللنبى ﷺ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبى طالب. اه

قوله ﴿ وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية ﴾ قد قدمنا نظيره عن ابن عباس فى المعنى

---

(١) روى البخارى ومسلم عن البراء بن عازب ـ وسأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال « لكن رسول الله لم يفر . كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا ؛ فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام . ولقد رأيت رسول الله «ص» على بغلته البيضاء وان أبا سفيان آخذ بزمامها يقول : أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب اللهم نزل نصرك » وكنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله . وان الشجاع الذى يحاذى به »

فذلك قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما)» رواه ابن أبي حاتم

وله بسند صحيح عن قتادة قال «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله (لئن آتيتنا صالحا) قال «أشفقا أن لا يكون إنسانا» وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله[1]

الثانية: تفسير الآية

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها

الرابعة: إن هِبةَ الله للرجل البنتَ السوية من النعم

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة

باب

قول الله تعالى (٧: ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذَرُوا الذين يُلْحِدُون في أسمائه) الآية

قوله ﴿وله بسند صحيح عن قتادة قال «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»﴾ قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته

قوله ﴿باب قول الله تعالى (٧: ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه) ﴾ الآية[2]

---

١) كتسمية عبد علي وعبد الحسين وغلام الحسين، وعبد النبي وعبد الرسول

٢) في قرة عيون الموحدين: أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا، والأعمال الصالحة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان ابن عيينة . ورواه البخارى عن أبى اليمان عن أبى الزناد عن الأعرج عنه . وأخرجه الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله . وزاد بعد قوله « يحب الوتر : — هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز الجبار ، المتكبر ، الخالق البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، التفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفوّ ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المعطى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى . الوارث . الرشيد . الصبور » ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . والذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن : كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبى زيد اللغوى والله أعلم

هذا ماذكره العماد ابن كثير فى تفسيره . ثم قال : ليعلم ان الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى تسعة وتسعين . بدليل مارواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حَزَن فقال : اللهم انى عبدك بن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك . ماضٍ فىّ حكمك . عَدلٌ فىّ قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك . سميت به نفسك . أو أنزلته فى كتابك . أو علمته أحداً من خلقك . أو استأثرت به فى علم الغيب

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس « (يلحدون في أسمائه) يشركون »
وعنه سمَّوا اللاتَ من الإله، والعُزَّى من العزيز
وعن الأعمش « يدخلون فيها ماليس منها »

عندك. أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري. وجلاء حزني. وذهاب همِّي وغمي. إلا أذهب الله همه وحزنه. وأبدله مكانه فرحا. فقيل: يارسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: بلى. ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قال « إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله » وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قال: « اشتقوا اللاّت من الله. واشتقوا العُزّى من العزيز »

وقال قتادة « يلحدون: يشركون » وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس « الالحاد التكذيب »

وأصل الالحاد في كلام العرب: العدول عن القصد. والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر. لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الالحاد فيها الميل بالاشـ　　　ـراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده ودلت على كماله جل وعلا.

وقال رحمه الله: فالالحاد إما بجحدها وإنكارها. وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات. وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كالحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلا وشرعا وعرفا. وبكل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة. متقدمهم ومتأخرهم: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على مايليق بجلال الله وعظمته. إثباتا بلا تمثيل. وتنزيهاً بلا تعطيل. كما قال تعالى (٤٢: ١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وان الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. يحتذى حذوه ومثاله. فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتا حقيقة لاتشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لاتشبه شيئاً من صفات

المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ماظهر من معناه فهو جهمى قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى (٤:١٥١ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى و يتبع غيرسبيل المؤمنين ؛ نولـّه ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً :

فائدة جليـــــلة

مايجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : مايرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات وموجود

الثانى : مايرجع إلى صفاته ونعوته ؛ كالعليم والقدير ، والسميع والبصير

الثالث : مايرجع إلى أفعاله . كالخالق والرازق

الرابع : التـنزيه المحض . ولا بد من تضمنه ثبـوتا ؛ إذ لا كمال فى العـدم المحض ، كالقـدوس والسلام .

الخامس : ـ ولم يذكره أكثر الناس ـ وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لاتختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد العظيم الصمد . فان المجيــد من اتصف بصفات متعدد، من صفات الـكمال ؛ ولفظه يدل على هذا . فانه موضوع للسعة والزيادة والـكثرة ، فمنه « استمجد المرخ والعفار[1] » وأمجد الناقة ، علفها . ومنه (رب العرش المجيد) صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه . وتأمل كيف جاء هـذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ لأنه فى مقـام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوامه . فأتى فى هـذا المطلوب باسم يقتضيه ؛ كما تقول : اغفرلى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل اليه بأسمائه وصفاته . وهو من أقرب الوسائل وأحبها اليه . ومنه الحديث الذى فى الترمذى « أَلِظُّوا بياذا الجلال والاكرام » ومنه « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام » فهذا سؤال له وتوسل اليه بحمده

---

(١) المرخ ـ شجر سريع الورى والاشتعال . والعفار ـ كسحاب ـ شجر يتخذ منه الزناد ، والمراد : كثرت النار ؛ ويضرب المثل للـكثرة

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء

الثانية : كونها حسنى

الثالثة : الأمر بدعائه بها

الرابعة : ترك من عارضَ من الجاهلين الملحدين

الخامسة : تفسير الالحاد فيها

السادسة : وعيد من ألحد

باب

لا يقال « السلام على الله »

فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى ﷺ لا تقولوا

وأنه لا إله إلا هو المنان . فهو توسل اليه بأسمائه وصفاته . وما أحق ذلك بالاجابة وأعظمه موقعاً عند المسئول . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر . وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن . فان « الغنى » صفة كمال و « الحمد » كذلك ، واجتماع « الغنى » مع « الحمد » كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله فانه من أشرف المعارف .

قوله ﴿ باب لا يقال : السلام على الله ﴾

قوله ﴿ فى الصحيح عن ابن مسعود — الخ ﴾ هذا الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود

السلامُ على الله . فان الله هو السلام »

والنسائى وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال « كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ فى الصلاة قلنا : السلام على الله قبل عباده ؛ السلام على فلان وفلان — الحديث » وفى آخره ذكر التشهد الاخير . رواه الترمذى من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود . وذكر فى الحديث سبب النهى عن ذلك بقوله « فان الله هو السلام ومنه السلام » وقد كان النبى ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثا و يقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والاكرام » وفى الحديث « إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى » وفى التنزيل مايدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم فى الجنة . كما قال تعالى (٣٦ : ٥٨ سلامٌ قولا من رب رحيم)

ومعنى قوله « إن الله هو السلام » إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل . فهو الموصوف بكل كمال ؛ المنزه عن كل عيب ونقص

قال العلامة ابن القيم فى بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر . وهو من ألفاظ الدعاء . يتضمن الانشاء والاخبار ، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الانشائيــة . وهو معنى السلام المطلوب عند التحية . وفيه قولان مشهوران :

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل . ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ونحو ذلك . فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم « السلام » دون غيره من الأسماء

الثانى : أن السلام مصدر بمعنى السلامة . وهو المطلوب المدعو به عند التحية . ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يأتى مُنَكراً ، فيقول المسلّم « سلام عليكم » ولو كان اسما من أسماء الله لم يستعمل كذلك . ومن حجتهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ؛ وانما المقصود منه الايذان بالسلامة خبراً ودعاء

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق فى مجموع القولين . فكل منهما بعض الحق ؛ والصواب فى مجموعهما . وانما يتبين ذلك بقاعدة . وهى : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب ، المناسب لحصوله ، حتى إن الداعى متشفع إلى الله تعالى متوسل به اليه . فاذا قال : رب اغفر لى وتب علىّ

فيه مسائل :

الاولى : تفسير السلام

الثانية : أنه تحية

الثالثة : أنها لاتصلح لله

الرابعة . العلة فى ذلك

الخامسة : تعليمهم التحيـة التى تصلح لله

إنك أنت التواب الغفور . فقد سأله أمرين وتوسل اليه باسمين من أسمائه ؛ مقتضيين لحصول مطلو به . وقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه وقد سأله مايدعو به « قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ؛ ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ؛ وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم عند الرجل ، أتى فى طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو «السلام» الذى تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما : ذكر الله ، والثانى: طلب السـلامة وهو مقصود المسلم . فقد تضمن « سلام عليكم » اسماً من أسماء الله وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولهم : سلمك الله ، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط « رب سلم سلم » ومنه سلم الشىء لفلان، أى خاص له وحده . قال تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَـلَماً لرجل) أى خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السِّـلم ضد الحرب : لأن كل واحد من المتحاربين يخلص و يسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة . ومنه : القلب السليم وهو النقى من الدغل والعيب . وحقيقته : الذى قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته . وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته . ومنه أخذ الاسلام ، فانه من هـذه المادة ، لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك ، فسلم لربه وخلص له ، كالعبد الذى سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به

باب

قول « اللهم اغفر لى إن شئت »

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقلْ أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، لِيَعْزِم المسألة فإن الله لا مُكْرِه له »

قوله ﴿ باب قول : اللهم اغفر لى إن شئت ﴾

يعنى أن ذلك لا يجوز لورود النهى عنه فى حديث الباب

قوله ﴿ فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت . ليَعْزِم المسألة فان الله لا مُكره له » ﴾ بخلاف العبد، فانه قد يعطى السائل مسألته لحاجته اليه ، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلّق حصول حاجته على مشيئة المسئول ، مخافة أن يعطيه وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فانه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال جوده وكرمه ، وكلهم فقير اليه ، محتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام . وفى الحديث « يمينُ الله مَلْأى لا يَغيضها نفقة، سَحّاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فانه لم يَغِضْ مافى يمينه ، وفى يده الأخرى القِسْط يَخفضه ويرفعه[١] » يعطى تعالى لحكمة ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير . فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة ، فانه لا يعطى عبده شيئاً عن كراهة ولا عن عظم مسألة . وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم فى عين الصغير صغارها ... ويصغر فى عين العظيم العظائم

---

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع من الجامع ومسلم عن أبى هريرة وفيه زيادة « وكان عرشه على الماء » بعد « خلق السموات والأرض » وفى تفسير سورة هود من البخارى أول الحديث « أنفق أنفق عليك ، وقال « يد الله ملأى ـ الحديث » قال الحافظ فى الفتح : وترد رواية « يمين الله » على من فسر اليد هنا بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن اه . ومعنى « يغيضها » ينقصها ، يقال : غاض الماء اذا نقص ؛ ومعنى « سحاء » أى دائمة الصب والعطاء الكبير

ولمسلم « وليُعْظِم الرغبةَ فان الله لايتعاظمه شيء أعطاه »

فيه مسائل :

الاولى : النهى عن الاستثناء فى الدعاء

الثانية : بيان العلة فى ذلك

الثالثة : قوله « ليعزم المسألة »

الرابعة : إعظام الرغبة

الخامسة : التعليل لهذا الأمر

وهذا بالنسبة ألى مافى نفوس أرباب الدنيا ، وإلا فان العبد يعطى تارة ويمنع أكثر ، ويعطى كرهاً ، والبخل عليه أغلب . وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر ، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة فى الرحم . فنعمه على الجنين فى بطن أمه دارّة ، يربيه أحسن تربية ، فاذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدّه ، يتقلب فى نعم الله مدة حياته ، فان كانت حياته على الايمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الدنيا من النعم التى لايقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين . وكل مايناله العبد فى الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته واحسانه إلى عبده ، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها ، فهو الذى شاءها وقدّرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله . فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن . قال تعالى (١٦: ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون) وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ماسأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين.

وقوله ﴿ ولمسلم : وليعظم الرغبة ﴾ أى فى سؤاله ربّه حاجته ، فانه يعطى العظائم كرماً وجوداً واحسانا . فالله تعالى لايتعاظمه شيء أعطاه ، أى ليس شيء عنده بعظيم ، وإن عظم فى نفس المخلوق . لأن سائل المخلوق لايسأله إلا مايهون عليه بذله بخلاف رب العالمين ، فان عطاءه كلام (٣٦: ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إلٰه غيره ولا رب سواه .

باب

﴿ لا يقول : عبدى وأمتى ﴾

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك ، وليقل سيدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى »

قوله ﴿ باب لا يقول : عبدى وأمتى ﴾

ذكر الحديث الذى فى الصحيح ﴿ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا يقولن أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك . وليقل : سيدى ومولاى . ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » ﴾

هذه الألفاظ المنهى عنها . وإن كانت تطلق لغة . فالنبى ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك لما فيها من التشريك فى اللفظ . لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم . فاذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم . فينهى عنه لذلك . وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له . فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهى عنه حسما لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق . وتحقيقاً للتوحيد . وبعداً عن الشرك حتى فى اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى ، وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم ﷺ إلى مايقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله « سيدى ومولاى » وكذا قوله « ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى » لأن العبيد عبيد الله . والاماء إماء الله . قال الله تعالى (١٩ : ٩٣ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيما لله تعالى وأدباً وبعداً عن الشرك وتحقيقا للتوحيد ، وأرشدهم الى أن يقولوا « فتاى وفتاتى وغلامى » وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، فقد بلغ ﷺ أمته كل مافيه لهم نفع ؛ ونهاهم عن كل مافيه نقص فى الدين . فلا خير إلا دلهم عليه ؛ خصوصاً فى تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً مايقرب من الشرك لفظا وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

فيه مسائل :

الأولى : النهىُ عن قولِ : عبدى وأمتى

الثانية : لايقول العبد : رَبِّى ، ولا يقال له : أَطْعِمْ رَبَّك

الثالثة : تعليم الأول قول : فتاى ، وفتاتى ، وغلامى

الرابعة : تعليم الثانى قول : سيدى ومولاى

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ

باب

﴿ لا يُرَدُّ مَنْ سألَ بالله ﴾

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مَنْ سألَ بالله فأعطوه،

قوله ﴿ باب لا يردُّ من سأل بالله ﴾

ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله . لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ماورد فى الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأل السائل ماله فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبا ؛ وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسئول مالا يضر به ولا يضر عائلته ، وان كان مضطراً وجب أن يعطيه مايدفع ضرورته

ومقام الانفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ماجبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح . فالأول محمود فى الكتاب والسنة . والثانى مذموم فيهما . وقد حث الله تعالى عباده على الانفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى (٢:٢٦٧ ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه ؛ واعلموا أن الله غنى حميد ٢٦٨ الشيطان يَعِدُكم الفقرَ ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) وقال تعالى (٧:٥٥ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وذلك الانفاق من خصال البر المذكورة فى قوله

(٢: ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ـ الآية) فذكره بعد ذكر أصول الايمان وقبل ذكر الصلاة . وذلك ـ والله أعلم ـ لتعدى نفعه . وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده . وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم . قال تعالى (٣٣ : ٣٥ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ؛ والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهن والحافظات . والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما)

وكان النبى ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء ، نصحاً للأمة وحثاً لهم على ماينفعهم عاجلا وآجلا . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالايثار ؛ فقال تعالى (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) والايثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة ، وقد قال تعالى (٧٦ : ٨ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ٩ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)

والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب فى هذا ورغّب ؛ وبالله التوفيق.

قوله ﴿ من دعاكم فأجيبوه ﴾ هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض : إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين

قوله ﴿ ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه ﴾ ندبهم ﷺ الى المكافأة على المعروف ، فأن المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث ، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ؛ وبعض اللئام يكافىء على الاحسان بالاساءة ؛ كما يقع كثيراً من بعضهم . نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، بخلاف حال أهل التقوى والايمان فانهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه ، كما قال تعالى (٢٣ : ٩٦ ـ ٩٨ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك

فان لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له ، حتى ترون أنكم قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائى بسند صحيح .

فيه مسائل : الأولى : إعاذة من استعاذ بالله

الثانية : إعطاء من سأل بالله . الثالثة : إجابة الدعوة

الرابعة : المكافأة على الصنيعة . الخامسة : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه

السادسة قوله : حتى ترون أنكم قد كافأتموه

باب

﴿ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ﴾

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود

من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضُرن) وقال تعالى (٤١ : ٣٤ ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىّ حميم ٣٥ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍّ عظيم) وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة .

قوله ﴿ فان لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له ﴾ أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف ، فيدعو له على حسب معروفه .

قوله ﴿ تُروا ـ بضم التاء تظنوا ـ أنكم قد كافأتموه ﴾ و يحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا . و يؤيده مافى سنن أبى داود من حديث ابن عمر « حتى تعلموا » فتعين الثانى للتصريح به . وفيه « من سألكم بالله فأجيبوه » أى إلى ماسأل . فيكون بمعنى : أعطوه ، وعند أبى داود فى رواية أبى نُهيك عن ابن عباس « من سألكم بوجه الله فأعطوه » وفى رواية عبيدالله القواريرى لهذا الحديث « ومن سألكم بالله » كما فى حديث ابن عمر .

قوله ﴿ باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ﴾

ذكر فيه حديث جابر ـ رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة »

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد فى دعاء النبى ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن فى الطائف من أهل مكة ، فدعا النبى ﷺ بالدعاء المأثور « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؛ أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يك بك غضب علىّ فلا أبالى ؛ غير أن عافيتك هى أوسع لى » وفى آخره « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن يحل علىّ غضبك ، أو ينزل بى سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله[1] » . والحديث المروى فى الأذكار « اللهم أنت أحق من ذكر وأحق من عبد ـ وفى آخره ـ أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض » وفى حديث آخر « أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم و بكلماته التامة من شر السامة واللامة ، ومن شر ماخلقت ، أى رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر مابعده ، ومن شر الدنيا والآخرة » وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ماورد من ذلك فهو فى سؤال مايقرب إلى الجنة أو مايمنعه من الأعمال التى تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأل بوجه الله و بنور وجهه مايقرب إلى الجنة كما فى الحديث الصحيح « اللهم انى أسألك الجنة وما يقرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب اليها من قول وعمل » بخلاف مايختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة فى المعيشة رغبة فى الدنيا ؛ مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك مايعينه على عمل الآخرة . فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله . وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث . كما لايخفى . والله أعلم

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى . فانه صفة كمال ؛ وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات . كسلبهم جميع الصفات أو بعضها . فوقعوا فى أعظم مما فروا منه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا . وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفا : الايمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه ووصفه به رسوله ﷺ فى سنته على مايليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ ، و ينفون عنه مشابهة المخلوق . فكما أن ذات الرب لاتشبه الذوات فصفاته كذلك لاتشبه الصفات ؛ فمن نفاها فقد سلبه الكمال .

---

(١) رواه ابن اسحاق والطبرانى عن عبد الله بن جعفر

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب

الثانية : إثباتُ صفةِ الوجه

باب

﴿ ماجاء في اللَّوِّ ﴾

وقول الله تعالى (٣ : ١٥٤ يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا هاهنا)

قوله ﴿ باب ماجاء في اللّوّ ﴾

أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة ، كالمصائب إذا جرى بها القدر ، لما فيه من الاشعار بعدم الصبر والأسى على مافات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر ، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره . والايمان بالقدر أصل من أصول الايمان الستة . وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على « لوّ » وهذه في هذا المقام لاتفيد تعريفا كنظائرها ، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا   شديداً بأعباء الخلافة كاهله

وقوله ﴿ وقول الله عز وجل (٣:١٥٤ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا) ﴾ قاله بعض المنافقين يوم أُحد ، لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم .

قال ابن إسحاق : فحدثني يحيي بن عَبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير « لقد رأيتُني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم . فما منا رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ، ما أسمعه إلا كالحُلُم : لو كان لنا من الأمر شيء ماقُتلنا هاهنا . فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا) لقول معتب » رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي هذا قدر مقدّر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه .

وقوله ﴿ ٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ـ الآية ﴾

قال العماد ابن كثير (الذين قالوا لاخوانهم ، وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا) أى لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ماقتلوا مع من قتل . قال الله تعالى (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى اذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ؛ فينبغى لكم أن لاتموتوا ، والموت لابد آت إليكم ، ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد عن جابر بن عبدالله : «نزلت هذه الآية فى عبدالله ابن أبىّ وأصحابه» يعنى أنه هو الذى قال ذلك . وأخرج البيهقى عن أنس أن أبا طلحة قال : «غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أُحد ، فجعل يسقط سيفى وآخذه و يسقط وآخذه . قال : والطائفة الأخرى ـ المنافقون ـ ليس لها هَمٌّ إلا أنفسهم ، أجبن قوم ؛ وأرعبه ، وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل»

قوله ﴿ قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعنى لايغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : لما ذكر ماوقع من عبد الله بن أُبىّ فى غزوة أُحد قال : فلما انخذل يوم أُحد وقال «يَدَعُ رأيى ورأيه و يأخذ برأى الصبيان ؟» أو كما قال .. انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك . فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذى ضرب الله به المثل . فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الاسلام ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة . وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم ، اذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيراً و ينافق كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا مافيه عبرة . و إذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً ، لكنه إيمان لايثبت على المحنة ؛ ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم ، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا ، فقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) أى الايمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً ، فان هذا هو الايمان اذا أطلق فى كتاب الله

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن »

تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الايمان في القلوب . انتهى

قوله : وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا مافيه عبرة

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك مافيه عبرة عند غلبة العدو ، من إعانتهم العدو على المسلمين ، والطعن في الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ، و بذل الجهد في إطفاء نور الاسلام ، وذهاب أهله ، وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان

قوله ﴿ في الصحيح ﴾ أي صحيح مسلم ﴿ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « احرص ـ الحديث ﴾

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث ، وتمامه : عن النبي ﷺ أنه قال « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير . احرص على ما ينفعك » أي في معاشك ومعادك . والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ماسواه ليتم له سببه وينفعه ، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك ، لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا اذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سنة ، والتوكل على الله توحيد . فاذا جمع بينهما تم له مراده باذن الله .

قوله ﴿ ولا تعجزن ﴾ النون نون التأكيد الخفيفة ، نهاه ﷺ عن العجز وذمه ، والعجز مذموم شرعا وعقلا ، وفي الحديث « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني[1] » فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه

---

(١) رواه أحمد والترمذي ـ وحسنه ـ والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بان فيه ابن أبي مريم وهو واه . وهذا من حديث شداد بن أوس . وهو عندهم بدون كلمة « الأماني »

وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان »

ما يكره أن لا يقول: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن يقول: قدّر الله وما شاء فعل، أى هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر ، والرضى به ، واحتساب الثواب عليه .

قوله ﴿ فان « لو » تفتح عمل الشيطان ﴾ أى لما فيها من التأسف على مافات والتحسر ولوم القدر ، وذلك ينافى الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والايمان بالقدر فرض ، قال تعالى (٥٧ : ٢٢ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ؛ إن ذلك على الله يسير ٢٣ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور)

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » وقال الامام أحمد « ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن » .

قال شيخ الاسلام رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال فى معناه : لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع من مقدور ، ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبى ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضى الوجوب ، و إلا فالاستحباب ؛ ونهى عن العجز وقال «إن الله يلوم على العجز» والعاجز ضد (الذين هم ينتصرون) فالأمر بالصبر والنهى عن العجز مأمور به فى مواضع كثيرة ؛ وذلك لأن الانسان بين أمرين: أمر أُمر بفعله، فعليه أن يفعله و يحرص عليه و يستعين الله ولا يعجز ، وأمرٌ أصيب به من غير فعله . فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ؛ ولهذا قال بعض العقلاء — ابن المقفع أو غيره — الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه . وهذا فى جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذى فيه حيلة هو ما أمره الله به ، وأحبه له . فان الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؛ وقد أمره بكل خير له فيه حيلة . وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله .
واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين : فالأفعال مثل قوله تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) ومثل قوله تعالى (١٧: ٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها) ومثل قوله تعالى(٤٢: ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومثل قوله

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين فى آل عمران

الثانية : النهى الصريح عن قول « لو » إذا أصابك شىء

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان

الرابعة : الإرشـاد إلى الكلام الحسن

الخامسة : الأمر بالحرص على ماينفع، مع الاستعانة بالله

السادسة : النهى عن ضد ذلك ، وهو العجز

تعالى(٢: ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم والقسم الثانى : مايجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب . كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والآية قبلها ، فالحسنة فى هاتين الآيتين : النعم ؛ والسيئة : المصائب ، هذا هو الثانى من القسمين .

وأظن شيخ الاسلام رحمه الله ذكره فى هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم

ثم قال رحمه الله : فان الانسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولـكن عند مايجرى عليه من المصائب التى لاحيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعـل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلم ، قال تعالى (٦٤ : ١١ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ولهذا قال آدم لموسى : « أتلومنى على أمر قـدّره الله علىّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى » لأن موسى قال له : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة[١] » فلامه على المصيبة التى حصلت بسببِ فعله ؛ لا لأجل كونها ذنباً . وأما كونه لأجل الذنب — كما يظنه طوائف من الناس — فليس مراداً بالحديث ، فان آدم عليه السـلام كان قد تاب من الذنب . والتائب من الذنب كمن لاذنب له . ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس . انتهى

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فتضمن هذا الحديث أصولا عظيمة من أصول الايمان. أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة . الثانى : أنه يحب مقتضى أسمائه

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب

وصفاته وما يوافقها ، فهو القوى ويحب المؤمن القوى وهو وتر ويحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ؛ وعليم ، يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ؛ ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر يحب الصابرين ؛ وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض

ومنها : أن سعادة الانسان فى حرصه على ماينفعه فى معاشه ومعاده ، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع . فاذا صادف ماينتفع به الحريص كان حرصه محموداً وكماله كله فى مجموع هذين الأمرين : أن يكون حريصاً وأن يكون حرصه على ماينتفع به ، فان حرص على مالا ينفعه أو فعل ماينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر مافاته من ذلك ، فالخير كله فى الحرص على ماينفع .

ولما كان حرص الانسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام (إياك نعبد و إياك نستعين) فان حرصه على ماينفعه عبادة لله تعالى . ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده وأن يستعين به . فالحريص على ماينفعه ، المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ماهو من أعظم أسباب حصوله ؛ وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها اليه

فان فاته مالم يقدر له فله حالتان : عجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ؛ فيلقيه العجز إلى « لو » ولا فائدة من « لو » ههنا بل هى مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان . فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية . وهى النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التى توجب وجوب المقدور ، و إن انتفت امتنع وجوده ؛ ولهذا قال « فان غلبك أمر فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » فأرشده إلى ماينفعه فى الحالتين : حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً ، بل هو أشد اليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار ، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً فى حالتى حصول المطلوب وعدمه ؛ وبالله التوفيق .

باب النهى عن سب الريح

عن أُبَيِّ بن كعب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير مافيها ، وخير ما أُمِرتْ به ، ونعوذ بك من شر هـذه الريح وشر مافيها وشر ما أُمرت به » صححه الترمذى .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سب الريح . الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الانسان مايكره . الثالثة : الإرشاد إلى أنها مأمورة . الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشرّ

قوله ﴿ باب النهى عن سب الريح ﴾

عن أبى بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا الريح . فاذا رأيتم ماتكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير مافيها وخير ماأُمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ماأمرت به. صححه الترمذى ﴾

لأنها أى الريح — إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره . لأنه هو الذى أوجدها وأمرها ، فمسبتها مسبة للفاعل ، وهو الله سبحانه . كما تقدم فى النهى عن سب الدهر وهذا يشبهه ، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه و بما شرعه لعباده ؛ فنهى ﷺ أهل الايمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء وأرشدهم إلى مايجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال « إذا رأيتم ماتكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير مافيها وخـير ماأُمرت به » يعنى إذا رأيتم ماتكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير مافيها ، وخير ماأمرت به . ونعوذ بك من شر هـذه الريح وشر مافيها وشر ماأمرت به »ففى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ؛ وتعرض لفضله ونعمته ، وهذه حال أهل التوحيد والايمان ، خـلافا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الايمان .

باب

قول الله تعالى (٣:١٥٤ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيءٍ ، قل إن الأمرَ كلَّه لله ، يُخفُون فى أنفسهم مالا يُبدُون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ما قُتِلنا هٰهُنا ، قل لو كنتم فى بُيوتِكم لَبرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ، ولِيبتَليَ الله مافى صُدورِكم ولِيُمحِّصَ مافى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور)

وقوله (٤٨ : ٦ الظانين بالله ظنَّ السوءِ عليهم دائرة السوء)

قال ابن القيم فى الآية الأولى : فسِّر هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله ،

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٣:١٥٤ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ؛ يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ـ الآية) ﴾

وهذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أحد (ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طائفةً منكم) يعنى أهل الايمان والثبات والتوكل الصادق ؛ وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله ، ولهذا قال (وطائفة قد أهمَّتهم أنفسُهم) يعنى لا يغشاهم النُّعاس من الجزع والقلق والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ، كما قال تعالى (٤٨:١٢ بل ظننتم أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزِيِّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السَّوء وكنتم قوماً بوراً) وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ، وأن الاسلام قد باد وأهله . وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة . عن ابن جريج قال: قيل : لعبدالله بن أبى : « قُتل بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا من الأمو من شيء ؟ »

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام على ماتضمنته وقعة أُحد[1] : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل ،

---

(١) زاد المعاد ج٢ ص١٠٣ـ١٠٦) وقد بسط القول فى ذلك أيضاً فى اغاثة اللهفان

وان أمره سيضمحلّ ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَر الله وحكمته . ففسر بانكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله وأن يظهره الله على الدين كله . وهذا هو ظنّ السَّوء الذى ظن المنافقون والمشركون فى سورة الفتح . وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير مايليق به سبحانه وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلّ معها الحق ، أو أنكر أن يكونَ ماجَرَى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدرُه لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زَعَم أن ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة ،

وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه . ففسر بانكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح حيث يقول (٤٨ : ٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوْء ، عليهم دائرة السوْء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا) وانما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية — وهو المنسوب إلى أهل الجهل — وظن غير الحق ، لأنه ظن غير مايليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، وخلاف مايليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والالهية ، وما يليق بوعده الصادق الذى لايخلفه ، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لاينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لاينصر دينه وكتابه ، وأنه يُديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالا لايقوم بعده أبداً . فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبه الى خلاف مايليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته ، فان حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يُذل حزبَه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به . فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره . فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدّر ماقدره من ذلك وغير لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن ح

فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النـار .

وأكثر الناس يظنون بالله ظَنَّ السَّوْء فيما يختص بهم ، وفيما يَفعله بغيرهم ، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عرَف الله وأسماءه وصفاته ، وموجبَ حكمته وحمده ، فَلْيَعتَنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا ولْيَتُبْ إلى الله ولْيَسْتَغْفِره من ظنه بربه ظَنَّ السوء . ولو فَتَّشتَ مَنْ فَتَّشتَ لرأيت عنده تَعَنُّتاً على القَدَر وملامَةً له ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا . فمُستَقِلٌّ ومستكثر وفَتِّشْ نفسك ، هل أنتَ سالم ؟

فان تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمةٍ وإلا فانى لا إخالُكَ ناجيا

وغاية مطلوبة هى أحب اليه من فواتها . وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية اليها ، لايخرج تقديرها عن الحكمة، لافضائها إلى مايحب وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلا (٤٨ : ٢٧ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسمائه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده . فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوى بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر والنهى ، لايرسل اليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هَمَلا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء ؛ ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى المحسن فيها باحسانه والمسىء باساءته ، ويبين لخلقه حقيقة مااختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لاصنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده ، وانه يحسن منه

فيه مسائل :

الاولى : تفسير آية آل عمران

الثانية : تفسير آية الفتح

كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته فيخلده فى الجحيم فى أسفل سافلين ، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين فى الحسن عنده سواء ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز اليه رموزاً بعيدة ، وأشار اليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائما بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى [1] أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه . بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان. فقد ظن به ظن السوء ، فانه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرته العجز ، وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق الى ما يوهم ، بل يوقع فى الباطل المحال والاعتقاد الفاسد . فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء .

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وأن الهدى والحق فى

---

(١) يقال : كلمة محجية : مخالفة المعنى للفظ . وهى إما من معنى الناحية ، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها ، أو من معنى الفطنة وهى الأحجية والأحجوة . قال صاحب المثل السائر : وأما اللغز والأحجية فانهما شيء واحد ، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً . ولا يفهم منه غرضه . انتهى من هامش الأصل نقلا عن سر الليال

كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فانما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين والحيارى هو الهدى والحق فهذا من أسوأ الظن بالله

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية

ومن ظن به أن يكون فى ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن بالله ظن السوء

ومن ظن أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات فى الأعيان، فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربى الأسفل كان كمن قال: سبحان ربى الأعلى. فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الايمان والبر والطاعة والاصلاح. فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالى ولا يعادى، ولا يقرُب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد. وأن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين. فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده فى العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره فى مساخطة ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكا، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم اليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم اليه،

الثالثة : الاخبار بأنَّ ذلك أنواعٌ لا تُحْصَر

الرابعة : أنه لايسلمُ من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعَرفَ نفسه

و يتوصلون بهم اليه ، و يجعلونهم وسائط بينه و بينهم ؛ فيدعونهم و يخافونهم و يرجونهم فقدظن به أقبح الظن وأسواه .

ومن ظن به أنه ينال ماعنده بمعصيته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب اليه ، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه ، فقد ظن به ظن السوء

ومن ظن به أنه يغضب على عبده و يعاقبه و يحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الارادة فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرهبة وتضرع اليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ماسأله ، فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ماهو أهله

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك فى دعائه ، فقدظن به خلاف ماتقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ماهو أهله وما لا يفعله

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع فى معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملكا أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه و يخلصه من عذابه ، فقدظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم — إلا من شاء الله — يظنون بالله غير الحق وظن السوء ، فان غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ؛ وأنه يستحق فوق ماشاءه الله وأعطاه . ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ومنعنى ماأستحقه ؛ ونفسه تشهد عليه بذلك ؛ وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما فى زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً (وتعتباً) على القدر وملامةله واقتراحا عليه خلاف ماجرى به ، وانه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا . فمستقل ومستكثر ؛ وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟

فان تَنْجُ منها تنجُ من ذى عظيمة   وإلا فانى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، ولْيَتُبْ إلى الله و يستغفره فى كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ؛ وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم . فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه وصفاته كذلك وأفعاله كلهاحكمة ومصلحة ورحمة وعدل ، وأسماؤه كلها حسنى .

فلا تظنَنْ بربك ظنَّ سَوء   فان الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قطُّ خيراً   فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل : يانفس مأوى كل سَوء   أترجو الخير من ميتٍ بخيل
وظُنَّ بنفسك السوأى تجدها   كذاك ، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير   فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن   من الرحمن فاشكر للدليل . اه

قوله ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ قال ابن جرير فى تفسيره (و يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الايمان بك على أعدائك ، ولن يُظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء . يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء فى قراءة ذلك : فقرأته عامة قراء الكوفة (دائرة السوء) بفتح السين . وقرأ بعض قراء البصرة (دائرة السوء) بالضم . وكان الفراء يقول : الفتح أفشى فى السين . وقلَّ ماتقول العرب (دائرة السوء) بضم السين

وقوله ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ يعنى ونالهم الله بغضب منه ولعنهم . يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته (وأعد لهم جهنم) يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيرا) يقول : وساءت جهنم منزلا يصير اليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات

باب

﴿ ما جاء فى منكرى القدر ﴾

وقال ابن عمر « والذى نفس ابن عمر بيده ، لو كان لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى يتهمون الله فى حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى (عليهم دائرة السوء) وذكر فى معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى.

قوله ﴿ قال ابن القيم رحمه الله تعالى ﴾ الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته لاندراجه فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره

قوله ﴿ باب ما جاء فى منكرى القدر ﴾ أى من الوعيد الشديد ونحو ذلك

أخرج أبوداود عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « القدَرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم (١) »

وعن عمر مولى غُفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدَر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ؛ ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال (٢) »

قوله ﴿ وقال ابن عمر : والذى نفسى بيده — الخ ﴾ حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم

---

(١) قال فى عون المعبود (ج ٤ ص ٣٥٧) قال الخطابى : إنما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين ، وهما النور والظلمة . يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة . وكذلك القدرية يضيفون الخير الى الله ، والشر الى غيره . اه وقال المنذرى : هذا منقطع . أبو حازم ـ سلمة بن دينار ـ لم يسمع من ابن عمر . وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ؛ ليس فيها شىء يثبت . اه

(٢) قال المنذرى : عمر مولى غفرة — بضم الغين وسكون الفاء — لا يحتج بحديثه . ورجل من الانصار مجهول . وقد روى من طرق أخرى عن حذيفة . ولا يثبت

ثم أنفقه فى سبيل الله ماقَبِلَه الله منه ، حتى يُؤْمِنَ بالقَدَر . . ثم استدل بقول النبى ﷺ « الايمانُ أن تؤْمِنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرّه » رواه مسلم

وابو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن يحيى بن يَعمر قال « كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة مَعبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين ، أو معتمرين . فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ؟ فوفق الله تعالى لنا عبدالله بن عمر داخلا فى المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ ، فقلت : أبا عبدالرحمن ؛ إنه قد ظهر قِبلنا أناس يقرأون القرآن ، ويتقفّرون العلم (١) يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنف ، فقال : إذا لقيتَ أولئك فأخبرْهم أنى منهم برىء ، وأنهم منى برآء . والذى يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ماقبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر . ثم قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يامحمد أخبرنى عن الاسلام . قال رسول الله ﷺ : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا قال : صدقتَ . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الايمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الاحسان ؛ قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ؛ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تَلد الأَمَةَ رَبّتها وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رِعاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : فانطلق . فلبثت ثلاثاً ، وفى رواية : ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم ؛ قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »

ففى هذا الحديث أن الايمان بالقدر من أصول الايمان الستة المذكورة ، فمن لم يؤمن بالقدر

---

(١) يقال : اقتفرت الأثر ، أى تتبعته وقفوته . فمعنى يتقفرون العلم أى يتطلبونه

وعن عُبادة بن الصَّامت أنه قال لابنه « يا بُنَيَّ إنك لن تجِدَ طَعْمَ الايمان حتى تَعْلَمَ أنّ ما أصابك لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك ، وما أخطأك لم يكن لِيُصيبَك سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أولَ ما خلقَ الله القلمَ ، فقال له اكتبْ . فقال رَبِّ وماذا أكتبُ ؟ قال اكتبْ مقادير كُلِّ شيءٍ حتى تقوم الساعة . يا بُنَيَّ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : من ماتَ على غيرِ هذا فليس منى

وفى روايةٍ لأحمد « إن أوّلَ ما خلقَ اللهُ تعالى القلم . فقال له : اكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة

وفى رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ « فمن لم يؤمن بالقدر خَيْرِه وشره أحرقه الله بالنار »

خيره وشره فقد ترك أصلا من أصول الدين وجحده ؛ فيشبه من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض — الآية)

قوله ﴿ وعن عُبادة ﴾ قد تقدم ذكره فى باب فضل التوحيد ، وحديثه هذا رواه ابو داود ورواه الامام احمد بكماله [١] قال : حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب ابن زياد ، حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة ثنى أبى قال « دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصنى واجتهد لى ، فقال : أجلسونى . قال : يابنىّ إنك لن تجد طعم الايمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : ياأبتاه فكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يابنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ؛ فقال له : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يابنىّ ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار » ورواه الترمذى بسنده المتصل إلى عطاء بن أبى رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح وغريب .

---

(١) المسند (ج ٥ ص ٣١٧) وهو عند أبى داود أخصر مما عند احمد ومن طريق جعفر بن مسافر الهذلى أخبرنا يحيى بن حسان أخبرنا الوليد بن رباح عن ابراهيم بن أبى جميلة عن أبى حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه الحديث . وسكت عنه المنذرى .

وفى المسند والسنن عن ابن الديلمى قال «أتيت أُبَى بن كعب فقلت : فى نفسى شىء من القدَر . فحدِّثنى بشىء لعل الله يُذهبه من قلبى ، فقال : لو أنفقت مثل أُحد ذهباً ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولو مُتّ على غير هـذا لكنت من أهـل النار . قال : فأتيت عبدالله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فـكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ » حديث صحيح رواه الحاكم فى صحيحه

وفى هذا الحديث ونحوه : بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون فى الدنيـا والآخرة ، كما قال تعالى (٦٥ : ١٢ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) (١)

وقد قال الامام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر قال « القـدر قدرة الرحمن » واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله

والمعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شىء . ونفاة القـدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى ، فضلوا عن سواء السبيل . وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعـلم ، فان أقروا به خُصموا ، وان جحدوه كفروا .

قوله ﴿ وفى المسند وسنن ابى داود عن ابن الديلمى ﴾ وهو ابو بسر - بالسين المهمـلة ، وبالباء المضمومة . ويقال : أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحـح الاول . واسمه عبدالله بن فيروز . ولفظ ابى داود قال « لو ان الله عذب اهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لـكانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لـكنت من أهل النار . قال : فأتيتُ عبدَ الله بن مسعود فقال مثل ذلك ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت زيد بن ثابت ، فقال:

---

(١) فى قرة العيون: والآيات فى إثبات القدر كثيرة ، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم ، كما فى الآية

فيه مسائل :

الأولى : بيان فرض الإيمان بالقدر

الثانية : بيان كيفية الايمان

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به

الرابعة : الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به

الخامسة : ذكر أول ماخلق الله

السادسة : أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى قيام الساعة

فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك [1] وأخرجه ابن ماجه .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله : عن سفيان عن منصور عن ربعى بن حراش عن رجل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذى عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبى داود الطيالسى عن شعبة عن ربعى عن على فذكره .

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبى هانىء الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة — زاد ابن وهب — : وكان عرشه على الماء » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما فى معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الايمان بالقدر وهى الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصى فى النار . وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصى .

وفى الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من

---

(١) قال فى عون المعبود (ج ٤ ص ٣٦٢) فيصير الحديث مرفوعا . قال المنذرى : وفى اسناده أبو سنان الشيبانى وثقة ابن معين وغيره وتكلم فيه احمد وغيره

السابعة : بَراءَته ﷺ ممن لم يؤمن به

الثامنة : عادَةُ السلف فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء .التاسعة : ان العلماء أجابوه بما يزيل شبهته . وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط .

باب

﴿ ماجاء فى المصورين ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى « ومن أَظْلمُ ممن ذهب يخلقُ كخلقى فليخلقوا ذَرَّةً أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه

ولهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « أَشدُّ الناسِ عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله »

ولهما عن ابن عباس سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « كل مُصورٍ فى النار، يُجعل له بكل صورةٍ صورَّها نفْسٌ يعذب بها فى جهنم »

ولهما عنه مرفوعاً « من صور صورة فى الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ »

إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود فى النار إن لم يتوبوا . وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين فى النار (١)

قوله ﴿ باب ماجاء فى المصورين ﴾ أى من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه

وقد ذكر النبى ﷺ العلة : وهى المضاهاة بخلق الله ،لأن الله تعالى له الخلق والأمر ،فهو

---

(١) فى قرة العيون : وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع . وكثير منهم وافقوا الجهمية فى نفى صفات الرب تعالى وتقدس .

ولمسلم عن أبي الهيَّاجِ قال « قال لي عليٌّ : ألا أَبْعَثُكَ على ما بَعَثَني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألاَّ تدَعَ صورةً إلا طَمَسْتَها، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سوَّيْتَه »

رب كل شيء ومليكه ، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة ، كما قال تعالى (٣٢ : ٧ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ٨ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ٩ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئاً لخلق الله . فصار ماصوره عذابا له يوم القيامة ، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذابا ، لأن ذنبه من أكبر الذنوب

فاذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ماخلقه الله تعالى من الحيوان ، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه ، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق الا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه . فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكا له فيما اختص به تعالى وتقدس ، هو أعظم ذنب عُصي الله تعالى به . ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد ، فما أعظمه من ذنب (٤ : ٤٨ و ١١٦ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٢٢ : ٤١ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)

قوله ﴿ ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي - حيان بن حصين - قال : قال لي علي رضي الله عنه ﴾ هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قوله ﴿ ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفا إلا سويته[1] » ﴾

---

(١) في قرة العيون : فهذا ما صح عن النبي (ص) من انكار هذه الأمور وازالتها (٢ : ٥٩ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثانا ، وزعموه ديناً وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات ، تعظيما للاموات وغلواً ، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد فى المصورين

الثانية : التنبيه على العلة وهو تركُ الأدب مع الله . لقوله ” ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى “

الثالثة : التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله « فليخلقوا ذرة أوحبةأو شعيرة »

فيه تصريح بأن النبى ﷺ بعث علياً لذلك . أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله . وأما تسوية القبور فلما فى تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله . فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته . ولما وقع التساهل فى هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطا لرحال العابدين المعظمين لها . فصرفوا لها جل العبادة : من الدعاء والاستعانة والاستغاثة ، والتضرع لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظور

قال العلامة ابن القيم رحمه الله (١) : ومَن جمع بين سنة رسول الله ﷺ فى القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ماعليه أكثر الناس اليوم . رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لايجتمعان أبداً . فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها واليها . ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى — فذكر حديث الباب — وحديث ثمامة بن شُفَى وهو عند مسلم أيضاً قال « كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برودس ، فتُوُفِّىَ صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوِّى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالغون فى مخالفة هذين الحديثين ، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه . كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه قال « نهى رسول الله ﷺ

---

(١) فى اغاثة اللهفان الجزء الأول

الرابعة : التصريح بأنهم أشدُّ الناس عذابا

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور فى جهنم

السادسة : أنه يكلَّف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إدا وجدت

عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى ابو داود فى سننه . عن جابر أن رسول الله ﷺ « نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها » قال الترمذى حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها . كما روى ابو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ « نهى أن يجصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه » وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار(١) . قال ابراهيم النخعى : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم

والمقصود : أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد ، و إيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء من أصحاب احمد وغيرهم بتحريمه .

قال ابو محمد المقدسى : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله . ولأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة و إفراطا فى تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبى ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذّر ماصنعوا ، متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب اليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى

---

(١) اختصر المؤلف كلام ابن القيم هنا وحذف منه مايأتى :
« ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر ، وأوصى أن لايفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لاتجعلوا على قبرى آجراً ، وأوصى ابو هريرة حين حضرته الوفاة أن لايضربوا على قبره فسطاطا ، وكره الامام احمد أن يضرب على القبر فسطاطا » اه اغاثة اللهفان « ج١ ص ١٠٣ »

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتابا وسماه مناسك حج المشاهد ، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الاسلام ، ودخول فى دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ماشرعه رسول الله ﷺ وقصده ، من النهى عما تقدم ذكره فى القبور ، و بين ماشرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن فى ذلك من المفاسد مايعجز عن حصره .

فمنها : تعظيمها الموقع فى الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها السفر اليها . ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها ، وعُبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، و يرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها . ومنها : النذر لها ولسدنتها . ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء و ينصر على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج ، و ينصر المظلوم ، و يجار الخائف إلى غير ذلك . ومنها : الدخول فى لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها و إيقاد السرج عليها . ومنها : الشرك الأكبر الذى يفعل عندها .

ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم . فانهم يؤذيهم مايفعل عند قبورهم ، و يكرهونه غاية الكراهية ، كما أن المسيح عليه السلام يكره مايفعله النصارى عند قبره ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم مايفعله أشباه النصارى عند قبورهم . و يوم القيامة يتبرأون منهم ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ و ١٨ و يوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ما كان لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) قال الله تعالى للمشركين (فقد كذبوكم بما تقولون) وقال تعالى (٥ : ١١٦ و إذ قال الله ياعيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلٰهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق — الآية) وقال تعالى (٣٤ : ٤٠، ٤١ و يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

ومنها (١): إماتة السنن وإحياء البدع

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فان عُباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه فى المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه

ومنها (٢): أن الذى شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والاحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت. فقلَب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء. ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت. وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة. فلما تمكن التوحيد فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولا وفعلا

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «زوروا القبور، فانها تذكّر الموت» (٣) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال «مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه أحمد والترمذى وحسنه (٤)

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده

---

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتى: ومنها مشابهة اليهود والنصارى فى اتخاذ المساجد والسرج عليها. ومنها محادة الله ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها. ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والاثم العظيم

(٢) زاد فى الاغاثة: ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين الله الذى بعث به رسوله بضد ذلك. ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد

(٣) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث على عند الامام أحمد «إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فانها تذكر الآخرة»

«٤» حذف المؤلف رحمه الله حديث ابن مسعود «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فانها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة» رواه ابن ماجه. وحديث أبى سعيد «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فان فيها عبرة» رواه الامام أحمد

أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه ؛ حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا [1] ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ؛ حتى لا يدعو عند القبر ، فان الدعاء عبادة . وفى الترمذى وغيره « الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ ، من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم . وأخرج أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير . وقوله : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً » أى لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور وأمر بتحرى النافلة فى البيوت ونهى عن تحرى النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن [2] فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من فى قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك ؛ ولكن ما لجرح بميت إيلام .

فمن المفاسد : اتخاذها أعياداً والصلاة اليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، و إغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التى كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم . فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم ،

---

(١) قال ابن القيم : فقال سلمة بن وردان « رأيت أنس بن مالك رضى الله عنه يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسند ظهره الى جدار القبر ثم يدعو »

(٢) الذى فى نسخ اغاثة اللهفان التى بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله « ثم ان فى تعظيم القبور الخ » فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا

بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ؛ ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج ؛ فاستغاثوا بمن لا يبدىء ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ؛ فتراهم حول القبر رُكعاً وسجداً يبتغون فضلا من الميت ورضوانا ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانا

فلغير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويُسأل من تفريج الكربات ، واغاثة اللهفات ، وإغناء ذوى الفاقات ، ومعافاة ذوى العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين . ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام . أرأيت الحجر الأسود وما يَفعل به وفد البيت الحرام ؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التى يعلم الله أنها لم تُعَفر كذلك بين يديه فى السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنىء بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظا ، فاذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ولا بحجك كل عام

هذا - ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال ، ويدور فى الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح كما تقدم . وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور ، سد الذريعة إلى هذا المحظور . وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول اليه ، وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى فى اتباعه وطاعته ، والشر والضلال فى معصيته ومخالفته . اه كلامه رحمه الله تعالى [1]

«١» اختصره المؤلف رحمه الله تعالى ؛ وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدنا من نسخ إغاثة اللهفان . والله يرحم الجميع ويغفر لنا ولهم

باب

ماجاء فى كثرة الحلف

وقول الله تعالى (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم)

عن أبى هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلف مَنْفَقَةٌ للسِّلْعة ممحقة للكسب » أخرجاه

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال

قوله : ﴿ باب ماجاء فى كثرة الحلف ﴾ أى من النهى عنه والوعيد

﴿ وقول الله تعالى (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم ﴾

قال ابن جرير لاتتركوها بغير تكفير . وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لاتحلفوا . وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا . والمصنف أراد من الآية المعنى الذى ذكره ابن عباس ، فان القولين متلازمان ، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع مايدل عليه من الاستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

﴿ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب » أخرجاه ﴾

أى البخارى ومسلم . وأخرجه أبو داود والنسائى . والمعنى : أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو انه اشتراها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشترى صادقا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب وحلف طمعاً فى الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فاذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التى دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً . وما عند الله لاينال إلا بطاعته وإن تزخرفت الدنيا للعاصى فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

قوله ﴿ وعن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم

ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لايشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح ﴾

وسلمان لعله سلمان الفارسى أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبى ﷺ المدينة ، وشهد الخندق؛ روى عنه أبو عثمان النهدى وشرحبيل بن السمط وغيرهما . قال النبى ﷺ « سلمان منا أهل البيت ، إن الله يحب من أصحابى أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلمان، والمقداد » أخرجه الترمذى وابن ماجه . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم فى عباءة يفترش نصفها و يلبس نصفها. توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه . قال أبو عبيدة سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . و يحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبى

قوله ﴿ ثلاثة لا يكلمهم الله (١) ﴾ نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه . وأن الكلام صفة من صفات كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه . وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وسائر الطوائف ؛ كما قال تعالى (٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً . وذلك فى القرآن كثير .

قال شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله : فاذا قالوا لنا يعنى النفاة : فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الاعراض والنقائص ،والله تعالى منزه عن ذلك — ولكن يقوم به مايشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ؛ مما دل عليه

---

(١) فى قرة العيون : هذا وعيد شديد فى حقهم . لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الايمان ويكلمونه فى عرصات القيامة . والأدلة على ذلك فى الكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه . وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِطٌ زانٍ وعائلٌ مستكبرٌ ورجل جعل (الله) بضاعته لايشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح

وفى الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ

الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلما إذا شاء ، كما قال ابن المبارك واحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة . اه

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى :قدرته عليها وايجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم

قوله ﴿ ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم ، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات

قوله ﴿ أشيمط زان ﴾ صغره تحقيرا له [١] وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا :محبة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله . وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ،بخلاف الشاب ،فان قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولومها على المعصية فينتهى ويراجع .

وكذا العائل المستكبر ليس له مايدعوه إلى الكبر ، لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و «العائل» الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى اليه يدل على أن الكبر طبيعة له ،كامن فى قلبه ، فعظمت عقوبته لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم الذى هو من أكبر المعاصى

قوله ﴿ ورجل جعل الله بضاعته ﴾ بنصب الاسم الشريف ؛ أى الحلف به ، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة ،بحسب ماقام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعى اليها. نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لايحبه ربنا ولا يرضاه

قوله ﴿ وفى الصحيح ﴾ أى صحيح مسلم . وأخرجه أبو داود والترمذى . ورواه البخارى بلفظ «خيركم» [٢]

«١» تصغير أشمط ؛وهو الذى بشعره شمط أى شيب «٢» بل رواه باللفظين ، فرواية «خير أمتى أهل قرنى» فى فضائل الصحابة . ورواية «خيركم» فى عدة مواضع منه

« خير أُمتى قرنى ثم الذين يَلُونهم ، ثم الذين يلونهم — قال عمران « فلا أدرى : أذكرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ؟ — ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستَشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن

قوله ﴿ عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم — قال عمران : فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا — ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمَن ﴾

قوله ﴿ خير أمتى قرنى ﴾ لفضيلة أهل ذلك القرن فى العلم والايمان والأعمال الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون ، و يتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهله ، وقلّ الشر فيها وأهله واعتز فيها الاسلام والايمان ، وكثر فيها العلم والعلماء ﴿ ثم الذين يلونهم ﴾ فضّلوا على من بعدهم لظهور الاسلام فيهم وكثرة الداعى اليه والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة ، فهذه البدع و إن كانت قد ظهرت فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب

قوله ﴿ فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أوثلاثا ﴾ هذا شك من راوى الحديث عمران ابن حصين رضى الله عنه . والمشهور فى الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين فى الفضل ، لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون والاسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ماوقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء فى الدين ، وكثرة الأهواء

فقال « ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون » لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق ، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم .

قوله ﴿ ويخونون ولا يؤتمنون ﴾ يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم ﴿ وينذرون ولا يوفون ﴾ أى لا يؤدون ماوجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله ﴿ و يظهر فيهم السمن ﴾ لرغبتهم فى الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال « خير الناس قَرْنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تَسْبق شهادةُ أحدهم يمينَه ويمينُه شهادته »

وقال ابراهيم « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار »

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان

الثانية : الاخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لايبيع ولا يشترى إلا بيمينه

عن الدار لآخرة والعمل لها . وفى حديث أنس « لايأتى على الناس زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد فى الأمة حتى ظهر الشرك والبدع فى كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف (١) .

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا فى ذلك نظما ونثراً فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله ﴿ وفيه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته (٢) » ﴾

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده

---

(١) فى قرة العيون : فحدث التفرق والاختلاف فى الدين وحدث الغلو فى أهل البيت من بنى بويه فى المشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا فى أربابها وظهرت دولة القرامطة وظهر فيهم الكفر والالحاد فى شرائع الدين ومذهبهم معروف وظهر فيهم من البدع مايطول عده وكثر الاختلاف والخوض فى أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفا نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير

(٢) فى قرة العيون : فى هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى

الخامسة : ذمُّ الذين يحلفون ولا يستحلفون

السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر مايحدث

السابعة : ان الذين يشهدون ولا يستشهدون

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد

باب

ماجاء فى ذمة الله وذمة نبيه

وقوله (١٦ :٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)

تحملا وأداء ، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر . والله المستعان . فاذا كان هذا قد وقع فى صدر الاسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف . فكن الناس على حذر .

قوله (قال ابراهيم — هو النخعى — كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار) وذلك لكثرة علم التابعين ، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به . وفى هذا الرغبة فى تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله ﴿باب ماجاء فى ذمة الله وذمة رسوله وقول الله تعالى (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا — الآية)﴾

قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وقوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) و بين قوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أى لاتتركوها بلا تكفير . و بين قوله ﷺ فى الصحيحين « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها — وفى رواية —

وعن بُريدة قال « كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً فقال : اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله

وكفّرت عن يمينى » لا تعارض بين هذا كله و بين الآية المذكورة هنا وهى (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد فى الآية : يعنى الحلف أى حلف الجاهلية . ويؤيده مارواه الامام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حِلف فى الاسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة » وكذا رواه مسلم ، ومعناه أن الاسلام لايحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فان فى التمسك بالاسلام كفاية عما كانوا فيه

وقوله تعالى ﴿ إن الله يعلم ماتفعلون ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها

قوله (عن بُريدة) هو ابن الحُصيب الأسلمى . وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله فى المفهم

قوله (قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه تأمير الامراء ووصيتهم .

قال الحربى : السرية الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها . والجيش ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه

قوله (ومن معه من المسلمين خيراً) أى ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً : من الرفق بهم ، والاحسان اليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاظم عليهم

قوله (اغزوا باسم الله) هذا أى اشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له . قلت : فتكون الباء فى « بسم الله » هنا للاستعانة والتوكل على الله

قوله (قاتلوا من كفر بالله) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم . وقد خصص منهم من له عهد والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلا به « ولا تقتلوا وليداً » وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان لأنه لايكون منهم قتال غالباً . وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

اغزوا ولا تغُلّوا ولا تَغدِروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ماأجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الاسلام . فان أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، واخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين .

قلت : وكذلك الذرارى والاولاد

قوله (ولا تَغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر نقض العهد . والتمثيل هنا التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف فى تحريم الغلول والغدر . وفى كراهية المثلة

قوله (واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال أوخصال) الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد

قوله (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم) قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و«ما» زائدة . ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم . كما تقول : جئتك إلى كذا وفى كذا . فيعدى إلى الثانى بحرف الجر

قلت : فيكون فى ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثانى : على نزع الخافض

قوله (ثم ادعهم إلى الاسلام) كذا وقعت الرواية فى جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها . كما روى فى غير كتاب مسلم ، كمصنف أبى داود ، وكتاب الأموال لأبى عبيد . لان ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال

وقوله (ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين) يعنى المدينة . وكان فى أول الامر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل فى الاسلام . وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم [1]

---

١) فى قرة العيون : وكذلك اذا ظهرت المعاصي فى بلدة . نص عليه الفقهاء فى كتبهم اه يعني

فان أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فان هم أبوا فاسألهم الجزية . فان هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم . فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

قوله (فان أبوا أن يتحولوا) يعنى أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفىء شيئاً . وقد أخذ الشافعى رحمه الله بالحديث فى الأعراب ، فلم ير لهم من الفىء شيئا . وانما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم فى الصدقة عنده ، ومصرف كل مال فى أهله . وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين ، وجوّزا صرفهما للضعيف

قوله (فان هم أبوا فاسألهم الجزية) فيه حجة لمالك وأصحابه والاوزاعى فى أخذ الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركى العرب ومجوسهم . وقال الشافعى : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما . وهو قول الامام أحمد فى ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس

قلت : لان النبى صلى الله عليه وسلم أخذها منهم . وقال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »

وقد اختلفوا فى القدر المفروض من الجزية : فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الورِق . وهل ينقص منها الضعيف أو لا ؟ قولان . وقال الشافعى : فيه دينار على الغنى والفقير . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والكوفيون : على الغنى ثمانية وأربعون درهما والوسط أربعة وعشرون درهماً . والفقير اثناعشر درهما . وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله

قال يحيي بن يوسف الصرصرى الحنبلى رحمه الله :

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجـ ... ـوس ، فان هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن ... وأربعة من بعد عشرين زيد
لأوسطهم حالا ومن كان موسراً ... ثمانية مع أربعين لتنقد

= اذا غلبت المعاصى وأهلها ولم يقدر ولا يجد سبيلا للانكار عليهم . أما اذا وجد السبيل لاقامة الحجة . فان بقاءه يكون واجباً لتبليغ الدين خصوصاً اذا كان يدعو الى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع ويجد من يسمع له ويصغى اليه وينتفع بدعوته . والله الموفق

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فانكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهْوَنُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حُكم الله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على حكمك . فانك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ » رواه مسلم

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين

الثانية : الارشاد إلى أقل الامرين خطراً

الثالثة : قوله « اغزو بسم الله فى سبيل الله »

وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد
وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدى

وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم ، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره ، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله ﴿وإذا حاصرت أهل حصن﴾ الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : ان المصيب فى مسائل الاجتهاد واحد . وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكما معيناً فى المجتهدات . فمن وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطىء

قوله (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه : الحديث) الذمة العهد ، وتخفر تنقض يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته أجرته ، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد ، كجملة الاعراب : فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم

قوله (وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال [1] ، ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع

---

(١) ليس فى نسخ المتن التى بأيدينا قول نافع هذا فليحرر

الرابعة : قوله « قاتلوا من كفر بالله »

الخامسة : قوله « استعن بالله وقاتلهم »

السادسة : الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء

السابعة : فى كون الصحابى يحكم عند الحاجة بحكم لايدرى أيوافق حكم الله أم لا

باب

﴿ ماجاء فى الإقسام على الله ﴾

عن جندب بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : مَن ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له وأحبطتُ عملك » رواه مسلم

بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال ؛ قال وهو أن مالكا قال : لايقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة . فيجوز أن تلتمس غرتهم وهذا الذى صار اليه مالك هو الصحيح لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لايقاتلون للدنيا ولا للعصبية وإنما يقاتلون للدين فاذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلا لهم إلى الانقياد الى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزويدون عتواً وبغضاً . والله أعلم

قوله ﴿ باب ماجاء فى الإقسام على الله ﴾

ذكر المصنف فيه حديث ﴿ جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « قال رجل : والله لايغفر الله لفلان . قال الله عز وحل : من ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له وأحبطت عملك » رواه مسلم ﴾

قوله (يتألى) أى يحلف . والألية بالتشديد الحلف . وصح من حديث أبى هريرة قال البغوى فى شرح السنة — وساق بالسند الى عكرمة بن عمار — قال « دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ قال : يايمامى ، تعال ، وماأعرفه ؛ قال: لاتقولن لرجل: والله لايغفر الله لك أبدا

وفى حـديث أبى هريرة « أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة : تـكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته »

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألى على الله

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله

ولا يدخلك الجنة . قلت: ومن أنت يرحمك الله ؟ قال: أبو هريرة، فقلت : إن هـذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله اذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه، قال : فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجلين كانا فى بنى اسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد فى العبادة، والآخر ، كأنه يقول مذنب، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول: خلنى وربى ، قال: فوجده يوما على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال: خلنى وربى ؛ أبعثت علىّ رقيبا ، فقال والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدا. قال: فبعث الله اليهما ملكا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتى، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى؟ قال: لا يارب ، قال اذهبوا به الى النار. قال أبو هريرة : والذى نفسى بيـده لتـكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته » ورواه أبو داود فى سننه ، وهذا لفظه عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول « كان رجلان فى بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد فى العبادة . فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوما على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلنى وربى أبعثت علىّ رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالما ، أو كنت على مافى يدى قادراً ؟ فقال للمذنب : إذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار »

قوله « وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد » يشير إلى قوله فى هـذا الحديث « أحدهما مجتهد فى العبادة » وفى هذه الأحاديث بيان خطر اللسان وذلك يفيـد التحرز من الـكلام ، كما فى حديث معاذ « قلت يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتـكلم به ؟ قال ثـكلتك

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك

الرابعة : فيه شاهد لقوله «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» الخ

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور اليه

باب

﴿ لا يُستشفع بالله على خلقه ﴾

عن جُبير بن مطعم رضى الله عنه «قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله نُهِكت الأنفس، وجاع العيال، وهَلكتِ الأموال، فاستسق لنا ربك،

أمك يامعاذ، وهل يَكُبّ الناس فى النار على وجوه — أو قال على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم [1] والله أعلم

قوله ﴿ باب لا يستشفع بالله على خلقه ﴾

وذكر الحديث [2] وسياق أبي داود فى سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه .

﴿ عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال « أتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال : يارسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فانا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ : ويحك، أتدرى ماتقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه، ثم قال : ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدرى ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا — وقال بأصابعه مثل القبة عليه — وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » قال ابن بشار فى حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته »

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى: حسن صحيح . وفى قرة العيون: وفيه معنى قوله(ص) « إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايظن أن تبلغ مابلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه »

(٢) يعني أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسبا له الى أبي داود ولكنه اختصره

فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : سبحان الله ، سبحان الله فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال : ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك. إنه لا يُستشفع بالله على أحد» وذكر الحديث ، رواه أبو داود [1]

قال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود باسناد حسن عنده فى الرد على الجهمية من حديث محمد ابن اسحاق بن يسار [2].

قوله ﴿ ويحك [3] إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ﴾ فانه تعالى رب كل شيء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . والخلق ومافى أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذى يشفّع الشافع اليه ، ولهذا أنكر على الاعرابى.

قوله ﴿ وسبح الله كثيراً وعظمه ﴾ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده إن شأن الله أعظم من ذلك .

وفى هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد فى أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذى وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التى دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فانهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل

---

(١) فى قرة العيون : هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحا أو حسنا وسكت عليه . اه أقول : بل تكلم أبو داود على سنده ، وخطأ بعض رواته فى سياقه وصوب من قال : انه روى كتابة من نسخة وهب بن جرير لا تحديثا ، وأن مداره فيها على محمد ابن اسحاق عنعنة لا سماعا

(٢) يشير بذلك الى ضعف الحديث لأن محمد بن اسحاق مدلس . وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له فى عون المعبود (ج ٤ ص ٣٧٠)

(٣) فى قرة العيون : ويحك كلمة تقال للزجر . قوله «أتدرى ما الله ؟» فيه إشارة الى قلة علمه بعظمة الله وجلاله

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال «نستشفع بالله عليك»

الثانية . تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة — بعد كلام سبق فيما يُعرّف العبد بنفسه و بربه من عجائب مخلوقاته . قال بعد ذلك:

والثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء ؛ فيجول في أقطارها وملكوتها و بين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ، و يرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة اليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، و يرى الملائكة حافّين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لايعلمها إلا ربها ومليكها ؛ فينزل الأمر باحياء قوم و إماتة آخرين ، و إعزاز قوم و إذلال آخرين ؛ و إنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها : من جبر كسير ، واغناء فقير ؛ وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ورَدّ آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف واغاثة لملهوف ، واعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ؛ وكف لعدوان ، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل ؛ والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العوالم ، لايشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها ؛ ولا يتبرم بالحاح الملحين ، ولاتنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقا لهيبته خاشعاً لعظمته عانيا لعزته ، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين ؛ سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم المزيد ، فهذا سفر القلب ، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه ، فياله من سفر ما أبركه وأروحه ، وأعظم ثمرته وربحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب ، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . اهـ كلامه رحمه الله

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد به استجلاب دعائه ، وليس خاصاً به ﷺ

الثالثة : انه لم ينكر عليه قوله «نستشفع بك على الله»

الرابعة : التنبيه على تفسير سبحان الله

الخامسة : ان المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء

بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة «لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك» (١) وأما الميت فانما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع ؛ بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ١٤ . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة أي ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر . والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته ، حتى في أوقات الجدب ؛ كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فامره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه (٢) فلو جاز يستسقى بأحد

---

١) رواه أبو داود وأحمد في المسند «ج ١ ص ٢٩ و ج ٢ ص ٥٩ » عن عبد الله بن عمر «أن عمر استأذن النبي «ص» في العمرة، فأذن له . فقال : يا أخي أشركنا في صالح دعائك ؛ ولا تنسنا» قال عبد الرزاق في حديثه . فقال عمر «ما أحب أن لي بها ما طلعت الشمس» لقوله «يا أخي»

«٢» رواه البخاري . وقد حصل ذلك في عام الرمادة سنة ثمان عشرة ، ودام القحط تسعة أشهر . قال الحافظ في الفتح (ج ٢ ص ٣٣٩) وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقعت فيه . فأخرج باسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة ؛ وقد توجه القوم اليك بي لمكاني من نبيك . وهذه أيدينا اليك بالذنوب ؛ ونواصينا اليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث» فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الارض وعاش الناس

باب

﴿ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك﴾

عن عبدالله بن الشخير رضى الله عنه (١) قال « انطلقت في وفد بني عامر

بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ. وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت، لأن المقصود من الحي دعاؤه اذا كان حاضراً. فانهم في الحقيقة انما توجهوا الى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع اليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع الى ما لا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة اليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق؛ وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجا؛ ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق

﴿قوله: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك﴾

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والاعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص [٢] وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله « لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وتقدم. وقوله « إنه لايستغاث بي وانما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك. ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح انسانا « ويلك قطعت عنق صاحبك ـ الحديث » أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه « أن رجلا

---

١) قال في أسد الغابة: عبدالله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش.. العامري ثم الكعبي ثم من بني الحريش وهو بطن من بني عامر بن صعصعة. له صحبة. سكن البصرة ـ ثم ساق بسنده الى مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه أنه قال « قدمت على رسول الله (ص) في رهط من بني عامر؛ فقالوا يارسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا، وأنت أطولنا علينا طولا، وأنت الجفنة الغراء، وأنت وأنت، فقال: قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان » وقولهم « أنت الجفنة الغراء » كانت العرب تدعو السيد المطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها، فسمى باسمها، و (الغراء) البيضاء أي انها مملوءة بالشحم والدهن؛ قاله أبو السعادات في النهاية

٢) في قرة العيون: وقد اشتمل هذا الكتاب ـ على اختصاره ـ على أكثر ذلك والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه؛ يعرف ذلك من تدبره وعرف ماتضمنه بابا بابا

إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى ، قلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا . فقال : قولوا بقولكم او بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد

أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له : قطعت عنق صاحبك ـ ثلاثا » وقال « إذا لقيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن المقداد بن الاسود

وفى هذا الحديث « نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا وقال : السيد الله تبارك وتعالى » ونهاهم أن يقولوا « وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا » وقال « لا يستجرينكم الشيطان »

وكذلك قوله فى حديث أنس « أن ناساً قالوا : يارسول الله ياخيرنا وابن خيرنا » الخ . كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم الى الغلو . وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه — ولو بما هو فيه — من عمل الشيطان ؛ لما تفضى محبة المدح اليه من تعاظم الممدوح فى نفسه وذلك ينافى كمال التوحيد ، فان العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه ، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة ؛ وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ؛ وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها والمعاتبة لها فى حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا اذا كان يحب مايحبه الله ، ويكره مايكرهه الله من الأقوال والأعمال والارادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف مايحبه الله منه ، والمادح يغره من نفسه فيكون آثما ، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً ، والنهى عنه صيانة لهذا المقام ؛ فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت ومتى أدخل عليها مايشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح الى التعاظم فى نفسه والاعجاب بها وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة كما فى الحديث « الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى شيئا منهما عذبته [1] » وفى الحديث « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر [2] » وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً اليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ؛ وأما المادح فقد يفضى به المدح

---

١) رواه مسلم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص باسناد رجاله رجال الصحيح

وعن أنس رضى الله عنه « أن ناساً قالوا : يارسول الله ،ياخيرنا ،وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال « ياأيها الناس ،قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد عبد الله ورسوله (١) ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد

لى أن ينزل الممدوح منزلة لايستحقها ؛ كما يوجد كثيرا فى أشعارهم من الغلو الذى نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم ، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والالهية والملك ، كما تقدمت الاشارة الى شىء من ذلك . والنبى ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح ، صيانة لهذا المقام ، وأرشد الامة الى ترك ذلك نصحاً لهم ، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله مايفسده ، او يضعفه من الشرك ووسائله (٢:٥٩ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) ورأوا أن فعل مانهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات وحسنة من أعظم الحسنات !

واما تسمية العبد بالسيد فاختلف العلماء فى ذلك .

قال العلامة ابن القيم فى بدائع الفوائد : اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على البشر . فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبى ﷺ لما قيل له « ياسيدنا » قال « السيد الله تبارك وتعالى » وجوّزه قوم ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للانصار « قوموا إلى سيدكم[٢] » وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد مايضاف اليه ، فلا يقال للتميمى سيد كِندة ، ولا يقال الملك سيد البشر . قال : وعلى هذا فلايجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفى هذا نظر ، فان السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو فى منزلة المالك ، والمولى والرب ، لا بمعنى

---

(١) فى قرة العيون : فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان : العبودية الخاصة والرسالة . وللنبى (ص) أكملهما . وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه . وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره . فلا يذكر فى الأذان والتشهد والخطب الا ذكر معه . صلوات الله وسلامه عليه

٢) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتياً على حمار قد أسندوه لانه كان مريضا من جرح أصابه من المشركين فى الخندق . وقد دعا به رسول الله (ص) ليحكم فى بنى قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فكان هذا القول منه (ص) لانه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده فامرهم أن يقوموا لينزلوه ولانه جاء لهذه القضية ، فاراد أن يجعل له من التعظيم ماينا سب هذه الواقعة . وكان سعد بن معاذ سيد الاوس ورئيسهم رضى الله عنهم

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغُلوّ

الثانية : ماينبغي أن يقول مَن قيل له أنت سيدنا

الثالثة : قوله «لايستجرينكم الشيطان» مع انهم لم يقولوا إلا الحق

الرابعة : قوله « ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى »

باب

ماجاء فى قول الله تعالى (٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)

الذى يطلق على المخلوق . انتهى

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى معنى قول الله تعالى (٦ : ١٦٤ قل أغير الله أبغى رباً) «أى إلهاً وسيداً » وقال فى قول الله تعالى (الله الصمد) « أنه السيد الذى كمل فى جميع أنواع السؤدد » وقال ابو وائل « هو السيد الذى انتهى سؤدده » . وأما استدلالهم بقول النبى ﷺ للأنصار (قوموا إلى سيدكم) فالظاهر أن النبى ﷺ لم يواجه سعداً به ، فيكون فى هذا المقام تفصيل والله أعلم .

قوله ﴿ باب قول الله تعالى (٣٩ : ٦٧ وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم مقيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) ﴾ أى من الأحاديث والآثار فى معنى هذه الآية الكريمة .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ماقدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت فى قريش . وقال السُّدّى : ماعظموه حق عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد ، إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إِصْبَع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثَّرَى على إصبع وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبى ﷺ حتى بَدَتْ نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) »

وفى رواية لمسلم « والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله »

وفى رواية للبخارى « يجعلُ السمواتِ على إصبع والماء والثرى على إصبع ، وسائر

عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شىء قدير فقد قدر الله حق قدره ؛ ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف — وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب قال : ورواه البخارى فى غير موضع من صحيحه . والامام احمد ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه

قال الامام احمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش ، عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال : ياأبا القاسم ، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ؛ والثرى على اصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول أنا الملك ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر . قال : وأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) الآية . وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن الأعمش به

وقال الامام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الاشقر ، حدثنا أبو كدينة [1] عن عطاؤ عن أبى

---

(١) اسمه يحي بن المهلب البجلى الكوفى قال الحافظ بن حجر فى تقريب التهذيب : صدوق من السابعة روى له الترمذى والنسائى أيضاً

الخلق على إصبع » أخرجاه

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا « يَطْوِى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »

الضحى عن ابن عباس قال « مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه — وأشار بالسبابة — والأرض على ذه ، والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) » وكذا رواه الترمذى فى التفسير بسنده عن أبى الضحى مسلم بن صبيح به . وقال : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال « ان الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضاً من هذا الوجه . ورواه مسلم من وجه آخر

وقد رواه الامام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها و يدبر ، يمجد الرب تعالى نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم . فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرّنّ به . اهـ

قوله ﴿ ولمسلم عن ابن عمر — الحديث ﴾ كذا فى رواية مسلم . قال الحميدى : وهى أتم ، وهى عند مسلم من حديث سالم عن أبيه . وأخرجه البخارى من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن

وروى عن ابن عباس قال « ماالسموات السبع والأرضون السبع فى كف الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم »

وقال ابن جرير : حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثنى أبى قال قال رسول الله ﷺ « ماالسموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى تُرسٍ »

قال وقال ابو ذر رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « ماالكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الارض »

وعن ابن مسعود قال « بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام وبين كل سماء خمس مائة عام وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى والماء خمسمائة عام والعرشُ فوق الماء . والله فوق العرش ، لايخفى عليه شىء من أعمالكم »

أخرجه ابن مهدى عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله

ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم عن أبى وائل عن عبد الله

قاله الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى . قال : وله طرق

عمر رضى الله عنهما قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماء بيمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم

قلت : وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته . وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته ، وكلها تعرف وتدل على كماله ، وأنه هو المعبود وحده لاشريك له فى ربوبيته وإلهيته[1] وتدل على إثبات الصفات له على مايليق بجلال الله وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم باحسان ، واقتفى أثرهم على الاسلام والايمان :

---

(١) فى قرة العيون : وأن العبادة لاتصلح الا له سبحانه وبحمده ؛ ولا يصلح منها شىء لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا لمن دونهما

وتأمل مافى هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبى ﷺ ربه بذكر صفات كماله على مايليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته وتأمل مافيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبى ﷺ فى شىء منها : إن ظاهرها غير مراد ، و إنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلّغه أمينه أمته ، فان الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم الى يوم الدين . وتلقى الصحابة رضى الله عنهم عن نبيهم ﷺ ماوصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى (٣ : ٧ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وكذلك التابعون لهم باحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ولم يجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : ان ظاهرها غير مراد ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الانكار ، فصنفوا فى رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدى أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الاسلام احمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شىء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه ، مثل قوله تعالى (٣٥ : ١٠ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (٣ : ٥٥ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ) وقوله تعالى (٤ : ١٥٨ بل رفعه الله اليه) وقوله تعالى (٧٠ : ٣و٤ ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه) وقوله تعالى (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه) وقوله تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقوله تعالى (٢ : ٢٩ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله تعالى (٧ : ٥٤ إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات الأرض

فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه — الآية) فذكر التوحيدين فى هذه الآية . وقوله تعالى (١٣ : ٢ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) وقوله تعالى (٢٠ : ٤و٥ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (٢٥ : ٥٨ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ٥٩ . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) وقوله تعالى (٣٢ : ٤ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقوله (٥٧ : ٤ هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته . وقوله تعالى (٦٧ : ١٦ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور ١٧ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقوله تعالى (٤١ : ٤٢ تنزيل من حكيم حميد) وقوله (٤٥ : ٢ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله تعالى (٤٠ : ٣٦ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ٣٧ أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) . انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه فى الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين . فمن ذلك مارواه الحافظ الذهبى فى كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبى ﷺ أنها قالت فى قوله تعالى (الرحمن على العرش الاستوى) قالت « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والاقرار به إيمان ، والجحود به كفر » رواه ابن المنذر واللالكائى وغيرهما بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبى عبدالرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : ياأبا عبدالله (الرحمن على العرش

استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ولا يقال كيف ؟ و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجوه » رواه البيهقى باسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبى : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية . قال البخارى فى صحيحه : قال مجاهد (استوى) علا على العرش وقال اسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقول (الرحمن على العرش استوى) أى ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبرى فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أى علا وارتفع. وشواهده فى أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك قول عبدالله بن رواحة رضى الله عنه :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

وروى الدرامى والحاكم والبيهقى بأصح إسناد إلى على بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول « نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية » قال الدرامى : حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا على ابن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له « كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه » .

وقد تقدم قول الأوزاعى : كنا — والتابعون متوافرون — نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكى فى كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال فى هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان : ثم قال فى هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم» أخرجه أبو داود وغيره

على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه فى كتابه.

وهذا كثير فى كلام الصحابه والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبى: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم. وكذلك أنكر جميع الصفات. وقتله خالد بن عبد الله القسرى وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك فى آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعى وأبى حنيفة، ومالك والليث بن سعد والثورى، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى. فقال الأوزاعى إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده إلى أبى بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنى محمد بن على الجوهرى — ببغداد — حدثنا ابراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصى سمعت الأوزاعى يقول: كنا — والتابعون متوافرون — نقول: إن الله فوق عرشه. ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقى فى الصفات ورواته أئمة ثقات.

وقال الامام الشافعى رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) اه من فتح البارى

قوله ﴿ عن العباس بن عبد المطلب ﴾ ساقه المصنف رحمه الله مختصرا، والذى فى سنن أبى داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)

الثانية : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين فى زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها

الثالثة : أن الحبر لما ذكر للنبى ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم

ﷺ ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال «ماتسمون هذه ؟» قالوا : السحاب « قال والمزن » قالوا والمزن . قال « والعنان » قالوا والعنان — قال أبو داود : لم أتقن العنان جيداً — قال « هل تدرون مابعد مابين السماء والأرض ؟ قالوا لاندرى . قال إن بعد مابينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء التى فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك » وأخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى : حسن غريب . وقال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود باسناد حسن (١) وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة وفيه « مابين سماء إلى سماء خمسمائة عام » ولا منافاة بينهما .لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلا ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد ،لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوما باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد . وروى شريك

---

(١) فى إسناده الوليد بن أبى ثور لايحتج بحديثه . وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد . وقال العلامة ابن القيم فى تهذيب سنن أبى داود : أما رد الحديث بالوليد بن أبى ثور ففاسد ، فان الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه ابراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك . ومن طريقه رواه أبو داود . ورواه أيضاً عمرو بن أبى قيس عن سماك . ومن حديثه رواه الترمذى عن عبد بن حميد أخبرنا عبد الرحمن بن سعد عن عمرو بن أبى قيس . اهـ ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبى ثور عن سماك . وأى ذنب للوليد فى هذا ؛ وأى تعلق عليه ؟ وانما ذنبه روايته مايخالف قول الجهمية وهى علته المؤثرة عند القوم اهـ .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين وأن السموات فى اليـد اليمنى ، والأرضين فى الاخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك

الثامنة : قوله كخردلة فى كف أحدكم

بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه . هذا آخر كلامه [1]

---

(١) فى قرة العيون : قلت : وهـذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما مع مايدل عليه صريح القرآن فلا عبرة بقول من ضعفه

وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الالهية لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد ؛ وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، فقام ببيان التوحيد الذى دعت اليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافى لهذا التوحيـد . فالدعوة الى ذلك هى أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه ، وأعطاه القدرة على الدعوة اليه ، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله فى عبادته ؛ فقرر هذا التوحيد كما ترى فى هـذه الأبواب ؛ ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة لم لهم التفات الى هذا العلم الذى خاض فيه من ينتسب الى العلم . وأما من ينتسب الى العلم فهم أخذوا عمن خاض فى هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الـكلام ، وظنوا أنهم على شىء ، فقبـلوا ماوجدوه عنهم ، فقرروا مذهب الجهمية ، وألحدوا فى توحيد الاسماء والصفات ، وخالفوا مادلت عليه نصوص الـكتاب والسنة وما عليه سلف الامة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لـكنهم قلوا . فهدى الله هذا الامام الى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها ، فلله الحمد على توفيقه وهدايته الى الحق حين اشتدت غربة الاسلام فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار . وغيرهم . وبالله التوفيق .

فقد اجتمع فى هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التى أشار اليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

والعـلم أقسام ثلاث ، مالها   من رابع والحق ذو تبيان
عـلم بأوصاف الاله وفعله   وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذى هو دينه   وجزاؤه يوم المعاد الثانى

وصلى الله على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

التاسعة : عظم الكرسى بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسى

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسى والماء

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسى

الرابعة عشرة : كم بين الكرسى والماء

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض

الثامنة عشرة : كثف كل سماء مائة سنة

التاسعة عشرة : أن البحر الذى فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة . والله أعلم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم فى الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفى كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم . وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، ولا عبرة بقول مَن ضعّفه لكثرة شواهده التى يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ماسواه .

وبالله التوفيق ؛ والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كمل مقابلة وتصحيحاً وقراءة على يد شيخنا العلامة المحقق الفهامة ، بقية أهل الاستقامة ؛ الشيخ عبدالله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢

(نبذة مختصرة من ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن حسن مؤلف فتح المجيد)

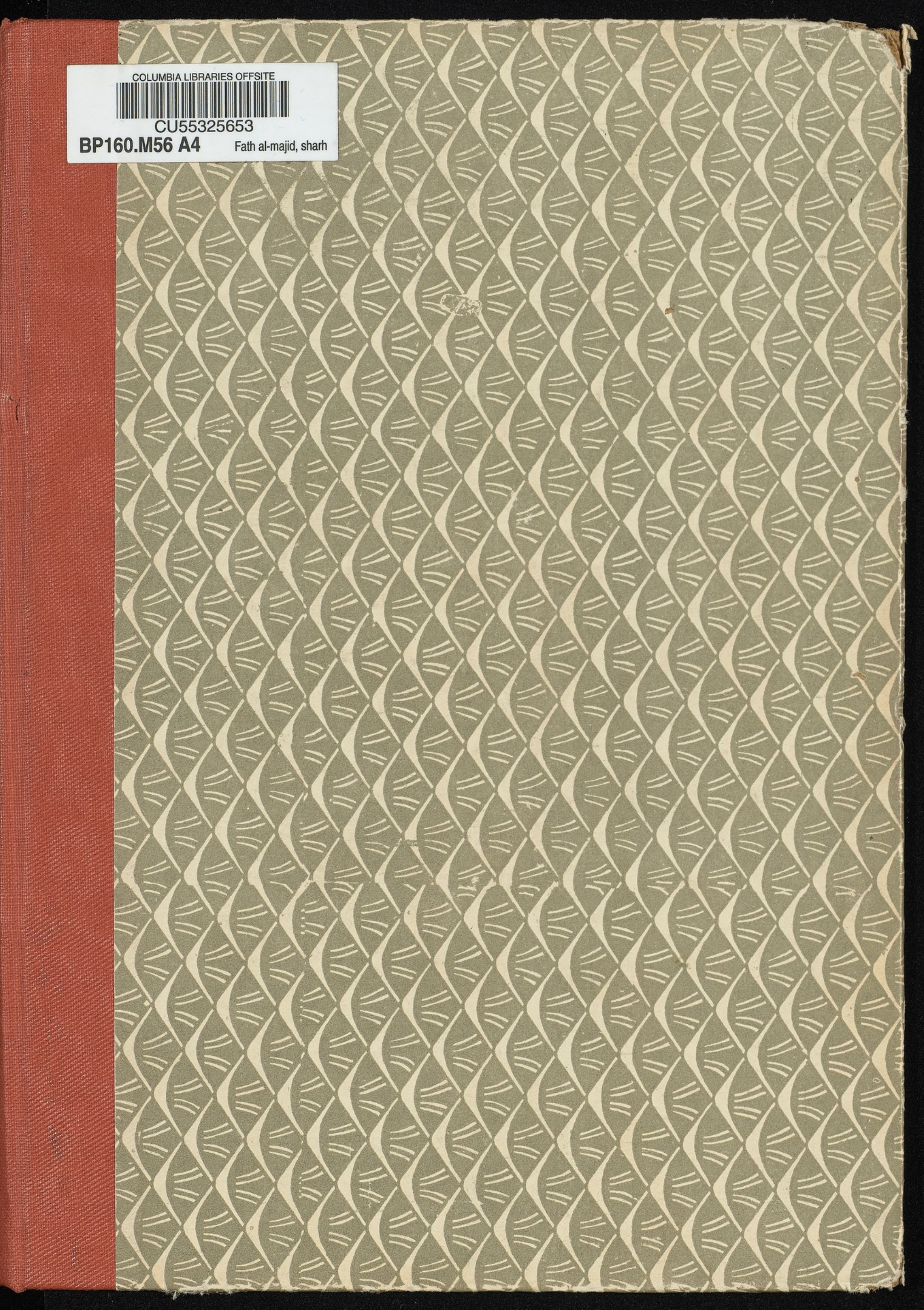
قال الشيخ ابن بشر فى كتاب (عنوان المجد) فى حوادث سنة ١٢٤١ :

وفيها أقبل من مصر الشيخ العالم النحرير ، البحر الزاخر الغزير ، مفيد الطالبين ، المحفوف بعناية رب العالمين ، جامع أنواع العلوم الشرعية ، ومحقق العلوم الدينية ، والأحاديث النبوية ، والآثار السلفية ، وارث العلم كابراً عن كابر ، الذى صارت الأصاغر بإفادته شيوخا أكابر ، قاضى قضاة الاسلام والمسلمين ، مفتى فِرق الأنام الموحدين ، وناصر سنة سيد المرسلين ، الموفق للصواب فى الجواب ، الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، قدم على الامام تركى بن عبدالله قدس الله روحه ، ففرحوا أكرمه غاية الاكرام ، واغتبط بطلعته خاص المسلمين والعام ، فعظموه وقاموا بما يستحقه من الاعظام ، و بذل نفسه للطالبين وانتفع بعلمه كثير من المستفيدين - ثم ذكر العلماء الأفاضل من آل الشيخ وغيرهم الذين استفادوا من الشيخ وانتفعوا بعلمه وتخرجوا عليه ، وهم جملة كثيرة . ثم قال : فضربت اليه آباط الابل من أقطار نجد والإحساء ؛ وظهرت آثار البركات من تعليمه وفشا . كيف لا ، وهو من شجرة مباركة أضاء نور طالعها للمسلمين وفشا ، ولاح وميض برقه حين غشى ، فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يهدى الله لنوره من يشاء . اللهم ياسميع الدعاء ، يا إله الأرض والسماء ؛ نسألك بأسمائك الحسنى أن تجزيهم عنا وعن المسلمين أحسن ما جزيت من دعا إلى توحيدك ، وأن تجعل العلم النافع فيهم وفى عقبهم باقياً إلى يوم لقائك وشهودك

وقد صنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن مصنفات فى الأصول والفروع ، أكثرها رداً على أهل المقالات ، ومن غلط منهم فى الصفات ، وله مصنف فيما يحل و يحرم من الحرير ، فمن طالعه دله على علمه الغزير ؛ رداً على من أباح لبس المحرمة الروغان التى ابتلى الناس بلبسها فى هذا الزمان ، واختصر شرح التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله بن شيخ الاسلام الذى سبق ذكره لأنه مات قبل أن يتمه .

وكان كثيرا ما يتعهد أهل بلدان نجد بالمراسلات والنصائح ، و يعلمهم ما يجب عليهم من أمر دينهم ، و يذكرهم نعمة هذا الدين ؛ واجتماع شمل أهل الاسلام عليهم ؛ وما منّ الله به على أهل نجد فى آخر هذا الزمان . والحمد لله أولا وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ؟

فهرس كتاب فتح المجيد


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55325653
BP160.M56 A4
Fath al-majid, sharh